

حُجُومُ زَعَمِ كَسَا

يُحْيِي وَاقِعَ الْأُمَّةِ بِاسْتِثْمَارِ الطَّاقَاتِ الْبَشَرِيَّةِ

دراسة لـ ٢٤ ركناً استثمارياً.
تفسير: لغوي... دعوي.

الدكتور إبراهيم بن محمد العنزاوي

للتواصل مع المؤلف:

سوريا - حلب - الباب

تليفون: +٩٦٣ ٢١ ٧٨٤٤٦٤٤ / جوال: +٩٦٣ ٩٤٤٩١٢٣٤٢

المملكة العربية السعودية

جوال: +٩٦٦ ٥٦٠ ٦٨٧٤٩٩

الايمل / like_331@hotmail.com

؟؟... إقرأ وارِق... لا تُقرأ ورقة!!

مَعذرة إلى «جزء عمّ» ممّن هجروه،
وتحولوا إلى جزء العمّه!!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منهجنا الالتزام بالوعاء اللغوي والقواعد المعتمدة بالعربية. ونتوسل الى السادة الدعاة العمل من أجل مجد الأمة، وليس من أجل المجد الشخصي، سلفكم لما ضاعوا ضاعت الأندلس وفلسطين... وسيسألهم الله قبل ولاة الأمر، وانتفعنا من سادتنا أهل الفضل في تفاسيرهم، ولم نتأثر بأهل الشطح أو النطح، أو البطح، فنقتبس ضالتنا حيث وجدت، ولم نحاكم، أو نتعالم على واحد، بل نترحم عليهم، وندعو لهم بالمغفرة.

ومادام هو موجه للشباب، تعمدا خفة الظل.

قد يوحى النص بحدث يتكرر، وله تعلق في جانب من الآية، فنذكره، حتى يتعود الشباب الربط بين النص والواقع...

وجعلنا ترتيب النزول المكي والمدني بجوار ترتيب سور القرآن الكريم مثال سورة العلق ترتيبها بالقرآن (٩٦) وبالنزول المكي (١).

يعطي المتأمل مساحة أعمق وأشمل كيف كانت مرحلة التأسيس ومتطلبات الدعوة؟ ولما كمل الدين، كمل الترتيب كما هو بين أيدي الناس.^(١)
نفحات هبت علينا... وللقارئ الحق أن يقبلها، أو يردها، وحسبنا خطونا
للأمم!!

(١) الدليل الكامل لآيات القرآن الكريم، د/ حسين فهمي الشافعي، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م الرئيس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ص (كتاب).



جزء عمّ يحتوي على:

سورة ٣٦

آية ٥٧٠

موضوع^(١) ١٢٠

(١) الأرقام العربية تقرأ من اليمين.

أحسبه كان فتحاً دعويّاً، لغويّاً، بلاغيّاً، تركيبيّاً، فكريّاً، رمزيّاً، عقديّاً،
ترغيبياً، ترهيبياً، قسَمياً، إنسانياً، شمولياً، تربويّاً...

وبه ثلث سور القرآن، وُحْمَس موضوعاته، وعُشْر آياته، وأكثر أقسام الله
به، ومعظم التبدلات الكونية به، ويعرَّب الألسن، ويؤلّف القلوب، وطلاب به
جُلُّهم من البراعم، والأعاجم، ولم يزد، أو ينقص، أو يتسنّه، أو يتغير طعمه.
وهو أكثر مطبوعة في العالم، تطبع، وتقرأ، ويُصلى بها يومياً...

جزء الترغيب والترهيب، جزء الطاقة الروحية، جزء التأمين على السلامة
اليومية، جزء المحارِب!!

السؤال المحرج: ما الجديد بهذا البحث، لأن المطبوعات تشابهت علينا بين
معاد ومكرور؟

أخي القارئ!! حبذا... لو تقرأ الفهرسة بدقّة، عندها يتبين لك الخيط
الأبيض، من الخيط الأسود...



المحتوى

يقسم البحث إلى مقدمة، وخطة البحث، وثلاثة فصول، وفهرسة:

- الإهداء، والمقدمة.

- أهمية البحث وخطته:

الفصل الأول: يحتوي على الدراسة التي تناولته من ٢٤ وجهاً، وتبين دوره: الدعوي، والتربوي، وتعريب الأعاجم، وتوحيد الأفكار....

الفصل الثاني: التفسير - اللغوي الدعوي - لست وثلاثين سورة، ولسبعين وخمسة آية، بدءاً من عمّ، حتى سورة الناس.

ويعالج أكثر من عشرين ومائة موضوع....

الفصل الثالث: القرآن العظيم هو الحل لما نحن فيه من الموات، والماضي والحاضر قد حصلنا، والمستقبل يحتاج أن نفصل أنفسنا على مرادات القرآن.

القرآن هو الحل لنا ولغيرنا، لأنهم يملكون معظم النعم إلا نعمة الأمن، وما سعد العالم إلا في ظل الإسلام، عندها أمن العالم على نفسه، وولده، وماله.

الفهارس التفصيلية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاحياء

* إلى كل «مصحفٍ» يمشي على الأرض...

* وإلى كل « تفسير زرع حياة الصحابة على أوراقه » إذا مشوا، أسرعوا،
وإذا تكلموا، أسمعوا، وإذا حاربوا، أوجعوا... وإذا صلوا خشعوا، وأخشعوا...
وإذا أطعموا، أشبعوا...

تفسير من وَقَعَ الخُطَا على الخطأ، ومن الحياة إلى الحياة...

* وإلى كل «مصحف» يلتزم عند إشارة المرور، ويستنفر عند شهادة الزور،
وعند تطيف المكايل في المدح... والذم... لأن ضمائر بلا قرآن... ضمائر لغيرها
... ضمائر للإيجار...

وكان «جزء عم» أنزل لتوّه، واليوم تنذر السماء بشريةً على شفا حفرة من
النار: يا حسارةً على العالم التقني المبدع الذي يحترم عقله إلا في الدين: ويعبدون
ثالث ثلاثة، وبقرة هندية تسر الناظرين... وتنين يعز الصين... وكم خسر العالم
بغياب القرآن عن حياتهم!

* وجزء عمّ يستنهض الجيل الذي يشهد على غيره:

يا حسارة على أناس قال لهم الإسلام: تعالوا اركبوا معنا، قالوا: سنأوي إلى

جبل العولمة، يعصمنا من الماء، ففتنتهم حضارة العري فعشقوها... فأهلكوا
الحرث والنسل، ولم تفتنهم التقنية، فأهملوها...

* وإلى هذا الجيل الغثائي الذي يشهد بعضهم على بعض:

يا حسرة على العباد الذين قالوا: آمنا، ولم يقولوا أسلمنا... ولمّا يدخل
الإيمان في قلوبهم... ولمّا... ولمّا... ولمّا...
ويا حسرة على الذين قالوا لمصحفهم:

اذهب أنت وربك فقائلا، فضرب على آذانهم ثلاثمائة سنين وازدادوا
تسعين...»^(١)

* وإلى الجيل الذين لا يطبقون أدنى الأمور: رحماء بينهم... ولا يقرأون:
أشداء على الكفار...

* ولما استغضبونا ما غَضِبْنَا، ولما استتفرونا ما نَفَرْنَا، وما اكتشفنا أنفسنا،
يوم قال الماكرون للأمة الإسلامية:

خيرناك، فاختاري بين الجنة والنار، إمّا الغرب والعلم والركب الحضاري...
وإمّا القرآن والتخلف والعار...

ومعظمنا لا تنقصه حسن النية والسطحية، ولكن تنقصنا حاسة الوعي
الشمولي، وعمق الرؤية، والشورى، والرؤية!

* وجزء عم يشحن «جيلنا» هذا جيل النشور، جيل النفخة والنفحة،
الذين يرون أن النبي ﷺ:

(١) مضت أربعة قرون على خروج المسلمين من الأندلس... واليوم بعضهم أفاقوا من كهوفهم...

كأنه اليوم ولد بمكة.

و كأن اليوم بلغ النبي ﷺ الأربعين...

و كأنه اليوم نزل الأمين جبريل على غار حراء... و جبال مكة خُشعاً، رُكعاً، سُجداً، بُكياً...

و كأنه اليوم يسمع جيل الوثبة الربانية مع أمنا خديجة: دثروني، دثروني...
زملوني، زملوني... قُمِ الليل إلا قليلاً... قُم، فأندر...»

* و إلى الجيل الذي يشهد وينشد مع جواري «غانا» و «فرغانا» بقم واحد:
طلع البدر علينا...

و حداؤهم: من كان الله ربّه، والقرآن منهجّه، و محمدٌ نبّيّه، والصحابَةُ
أسوتّه، فليرفع رأسه...!!

* و جزء عمّ يرشد الجيل الذي يشهد أن العالم سمع بقلبه، و لبّه، و حبه،
صوت محمد ﷺ يملأ الخافقين: قائلاً:

ملكنا الدنيا، و لم نورث درهماً و لا ديناراً...

ملكنا الدنيا و خرجنا و اليد فارغة...

جننا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد!!

جننا للناس كافة...

جننا رحمة للعالمين...

جننا دعاةً، و لسنا قضاةً...

جننا هداةً، و لسنا جباةً...

ويشهد على ذلك أبو بكر، وعمر، و...و... صلى الله عليه وسلم
وصلى الله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين.

المقدمة

الحمد لله الذي ألانَ الحديد لداوود عليه السلام، وألانَ "جزء عمّ"
للبراعم والأعاجم، وأين العجب...؟!

وأعجب العجب مِمَّنْ أسمع بعظم، وأنطق بلحم، وأبصر بشحم، وأعز
بعلم، وعلم الرضيع مصَّ الحَلَمَةِ، ورفع بالقرآن براعم، وأذل طغاةً، الجزء الذي
يتهبه كبار العلماء من كل الوجوه، نحو:

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لَنْسَفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ ﴾، وَأَنَّى لِلْبُرْعَم... والبرعم الأعجمي خاصةً
يتذوقها، ويتعشقها لولا العناية؟ ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ... ﴾ [الأنبياء: ٧٩] ﴿ إِنَّهُ
مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [النمل: ٣٠]

ومن ذا الذي حبب إليهم القرآن وزينه في قلوبهم؟. ولولا العناية، ما كان
لهم أن يفهموه.

وصلِّ اللهم على من كان تعليمه كن، فكان العلم كله، وحثه على المزيد
منه: «وقل: رب زدني علماً»^(١) من القرآن، وبالقرآن^(٢) فزيادته مستمرة، من أول
كلمة نزلت، قال له: اقرأ...، ولم يقل له: صم، صل، حارب، ازرع...

نحن أمة علم وحضارة، والإنسانية أمانة في أعناقنا. وأنسنة الإنسانية
كانت من مهام رسول الله ﷺ، وكانت البشرية تسكن بين جوانح نبينا ﷺ:

(١) طه: ١١٤، ما أمره أن يطلب زيادة مما عند الله إلا من العلم وجاءت نكرة للخصوصية (علماً) من

لذلك، وكلما ازددت علماً منك، وبك، ازددت قرباً منك، وازددت حمداً وشكراً لك

(٢) أي من العلم الذي تحتاجه النبوة والدعوة، وليس أي علم: كعدد الدجاج والصراصير في سيبيريا...

أو عدد الفرق الرياضية في... كل علم له متخصصون يقومون به، والانشغال بأي علم على حساب

التخصص، وحساب الوقت، يضعف المهمة.

* قبل البعثة أينما مشى، مشت الإنسانية أمامه..

* ولما بُعث، أينما مشى، مشت الإنسانية في داخله..

* وبعد أن سما إلى السماء، أينما مشى، مشت الإنسانية خلفه..

واقطفى أثر النبي صلى الله عليه وسلم أفراد وشعوب وقبائل وسلاطين، ما ضل أحد باتباعه وما غوى إلى يومنا هذا، وارض اللهم عن آل بيته الطاهرين عليهم السلام، وأصحابه أجمعين عليهم السلام.

«وأنا- وربّ الكعبة- أحبهم ديناً وجبلةً، وأتخذهم حرماً لأمانيّ وقبلةً، وأشكرهم شكر الروض للسماء، وأثني عليهم من الأرض للسماء»^(١)

وتعلقت قلوبنا بهم تعلق الملوك بالأزهار النادرة، ولا شيء يريحهم، ويخرجهم ممّا هم فيه، مثل الورود والأزهار^(٢)، ونحن إذا أردنا أن نخرج مما فيه، نتملّى أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وآله، وأصحابه، وأحابه...

هم أهل القرآن، وأهل الله، ولولا القرآن ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه، ولولا القرآن ماتعلقنا بهم أكثر من آبائنا وأمهاتنا وأنفسنا... فمن أحب أن يرى النبي صلى الله عليه وسلم جيداً، فلينظر في القرآن جيداً، فكان خلقه القرآن صلى الله عليه وسلم!!

فكل خلق منه زهرة، بل كوكب الزهرة، فنشم منهم ريحة الجنة، وهم جنة لمن لا جنة له. فترقرقت محبتهم فينا، حتى سالت دمعاً على خدودنا، وحبراً على أوراقنا، وروحاً في حروفنا، فمن يقرأها تدبّ فيه الحياة، وكل حرف كأنه «عيسى» زمانه!!

(١) نفحة الريحانة...، ج١: ص١٤.

(٢) الورد قائم بذاته، بينما الزهرة على أغصان الشجر المثمر وسيلة لتلقيح الثمرة، فتسقط بعدها. والله قال: زهرة الحياة الدنيا، لسرعة زوالها، ولم يقل وردة الحياة الدنيا.

اللهم... فهبنا لأي واحد من هؤلاء أو هؤلاء، أو أولئك، ممن تحبهم،
ويحبونك، يوم الفزع الأكبر والأصغر، وأنت تعلم ما أحببناهم إلا فيك، يا أكرم
الأكرمين...!!

وصل اللهم على سيدنا محمد ﷺ وآله وصحبه، وسلم تسليماً.

مكة المكرمة، منى، عيد النحر، ١٤٣٢ هـ

الدكتور إبراهيم بن محمد الغزاوي

تمهيد بين يدي البحث وخطته :

بُني البحث على خمسة أهداف:

* التوحيد^(١).

* الرحمة.

* وحدة الصف.

* الشباب.

* الوعاء اللغوي.

(١) كلفت جامعة عريقة بفرنسا عالماً، ومعه ورشة تجهز له المواد، لعله يجد ما يحقق ما في نفوسهم مدخلاً

أو مطعناً، وبعد ربع قرن من البحث، جاءت النتيجة مذهلة لهم: القرآن يقوم على أمرين:

- التوحيد .

- الرحمة .

تحديد المنطلق:

خذ القرآن من القرآن، ومن أراد أن يعرف محمداً صلى الله عليه وسلم جيداً، فليُنظر بالقرآن جيداً، ومن أراد أن يعرف الصحابة جيداً، فليُنظر في القرآن جيداً، ولو سأل اليوم سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: أهل الملاء الأعلى أخبروني كيف يحيي الله الموتى؟ ومن يدري تكون الإجابة: انظر في القرآن. كيف أحيا العرب، ونفعهم، ودفعهم، وخلدهم، ورفعهم على العالمين في بضع سنين؟

القرآن يخاطب جارحتين:

العقل... والقلب...

وميزة القلب لا يحتاج إلى مترجم، وقرى بأفغانستان يصلون التراويح الآن بعشرة أجزاء يومياً، في بعض المناطق، ولا يعرفون حرفاً عربياً، وهم يخشعون، ويكون!! وعشق التأثير يغلب على تعبهم وإرهاقهم، ويستمرون إلى آخر الشهر!!

ظاهرة تحتاج إلى تأمل واكتشاف السر..

وظاهرة أخرى... القرآن لم ينهزم، ولن ينهزم...

وكلما انهزمت الأمة عسكرياً، واقتصادياً... انتصر القرآن دعوياً، عندما انتصر التتر عسكرياً على بغداد، انتصر القرآن دعوياً عليهم، وعادوا مسلمين، وفي العصر الحديث انتصر الغرب والشرق على العرب والمسلمين، بقوة الباطل، وباطل القوة. والحق الضعيف، أقوى من الباطل المسلح! والحق اسم من أسماء الله، يعلو ولا يُعلَى عليه.

وها هو القرآن، يمشي وحده منتصراً في كل الاتجاهات!!

وسنفضّل القول في خاتمة البحث، حول العودة للانطلاقة من القرآن، وتخضيع أنفسنا وهوانا على مساحات القرآن، كالجهاد والطهارة، مساحة الجهاد بمعناه الشمولي عشر آيات القرآن، ومساحة الطهارة آية ونصف، وأما الجهاد لا يذكر إلاّ عند الضرورة، والطهارة في كل مجلس، ومسجد وكتاب، والصلاة والزكاة لهما نفس المساحة بالقرآن، ولكن نرى يومياً تقوم ألف مئذنة، بينما في كل السنة لا تقوم جمعية خيرية واحدة، والأمة من أغنى الناس، ومن أفقر الناس. تحديد المنطلق فمنه ينطلق النجاح... وإلاّ ندور في حلقة مفرغة... وهذه أهم نقاط التمهيد:

١- دراسة شمولية لجزء عم من أربعة وعشرين وجهاً وحصر موضوعاته التي تزيد على مائة وعشرين موضوعاً وأحسبها منّة من الله، وهي الأولى في موضوعها.

٢- دور جزء عم في تعليم وتعريب مليار ونصف المليار من البشر، ومن مهامه يوحد المعتقد، وتصفيته مما علق به من الشوائب، ويؤلف بين القلوب حتى تكون قلباً واحداً، قرآناً يؤلف، ويحبب، وأحزابهم تمزق، وتشقق، وتفرق... وكلما كثرت الأحزاب، كثرت سكاكين التقطيع بهذه الأمة. وجمعياتهم المشبوهة تشكك وتخون... وهم الشك كله، وهم الخيانة كلها!

٣- اللغة العربية ليس مجرد لغة، بل هي الماء والهواء... قد يتعلم المرء لغة أجنبية ولا يجب أهلها، لأنها لا تحمل سر الحب والمودة، كما تحمل العربية سر التألف والتآخي والتوادد.

لقد تحلّت كثير من الشعوب عن لغتها إلى لغة القرآن، أو زاوجت بين الاثنتين، ولما صار اللسان العربي، هو الاكسجين الذي يدخل كل رئة مسلمة،

فكان اللسان العربي ينقل أخلاقنا للعالم بدءاً من التحيات الطيبات، وينقل الأفراح والأتراح، وينقل العادات والتقاليد، والأمثلة والحكم والأشعار والأخلاق العربية، والعلوم والمعارف بين شعوب العالم الإسلامي كلها، تمشي الأخلاق أينما مشت اللغة العربية، ويكفي بركةً وشفراً أن يحرك الإنسان لسانه وشفثيه، كما كان رسول الله ﷺ وأصحابه يحركونهم عندما يتكلمون، وهم بهذا يتخلقون بأخلاق الربانيين من خيرة البشرية!

٤- نقدم لكل سورة بمقدمة تمهيدية تهيب القارئ ونحدد الإطار العام «المسمى السورة» ونبحث عن السر الذي يجمع بين عدة أفكار في السورة التي يظن بأنها متباعدة، ما بين الشكل والمضمون، في السورة الواحدة. والسورة مع أخواتها ضمن إطار الوحي.

وتقسيم السورة حسب الفكر، حتى يعرف القارئ متى تبدأ التحولات؟ فيزداد تمكناً من الرؤية الشمولية للنص، وللقرآن. وإعادة التركيز على الرؤية الشمولية.

٥- ما نأخذه من المصادر والمراجع، نذكره، ولكن غالباً ما نتصرف به كمعنى ونحوه بصياغتنا وأسلوبنا إلى نص معاصر دارج مفهوم للشباب، ومتناسق مع ما قبله وما بعده، وإلا النقل الحرفي على أهميته وضرورته للأمانة العلمية، يبقى نافراً بنقشه وأسلوبه، ويصبح النص: كالطيلسان المرقع.

٦- الإسقاط على الواقع، وكأن جزء عم نزل لتوه، ونزل علينا خاصةً، لدفعنا، ورفعنا، ونفعنا، وليس كلاماً من تاريخ التاريخ، بل على واقع فيه كافر ومؤمن، قوي وضعيف، ومن يبكي ويضحك، فيه معذب يعذب آل ياسر، ويعذب سمية... وفيه ناصح محب ينادي: بلال كفاك بالدنيا عذاباً، وهذا

الموت يقترب منك اقتراباً: وفيه بلال يردد: أحد... أحد.... وفي زماننا بكل دقيقة بلاء يطحن: ألف سُمية، وألف بلال، وألف آل ياسر...

٧- لم نأخذ من أسباب النزول، ومن تفسير النبي إلا ماصح عن رسول الله ﷺ أو أصحابه. ففي سورة النازعات: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا...﴾ و﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى...﴾ و﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ...﴾ و﴿وَالضُّحَى...﴾ و﴿لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ والعلق ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ والكوثر ﴿إِنِّ شَأْنُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ و﴿وَتَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ..﴾^(١).

وهي نفسها موجودة في "كتاب التفسير النبوي للقرآن الكريم" وحظ جزء عم من هذه الثروة "٣٥" حديثاً صحيحاً "فسرت أو شرحت آية سئل عنها النبي ﷺ أو بعض أصحابه، قد جمعها المؤلف من كتابي التفسير عند البخاري والترمذي، قد يتفقان، أو ينفرد أحدهما بالرواية"^(٢). وتفسير ابن كثير الموجود بالموسوعة الشاملة محققة أحاديثه.

٨- تصفحنا أكثر من أربعة وعشرين تفسيراً في الموسوعة الشاملة، وانتفعنا منهم جميعاً، ولم نتأثر بأهل الشطح، أو النطح، أو البطح، ولكل منهم ظرفه الخاص، وليس من البر التعالي على السابقين... ولو من باب التعالم، ومن البر الترحم عليهم، وهناك من شط به الغيظ حتى بات يكفر أو يجرح علماء مضوا منذ قرون، أو يصد الناس عن إنتاجهم أو يشوش عليهم... الأولى به أن يقدم البديل الأفضل، وكل إنسان يُنتقد إلا الأنبياء، وكل إنسان يستطيع إشعال الحرائق وتدمير أعظم المباني، ولكنه قد لا يستطيع بيني لبننة واحدة، البطولة في

(١) الصحيح المسند من أسباب النزول، مقبل الوادعي، ط: القاهرة، ابن تيمية، ١٤١٤هـ

(٢) التفسير النبوي، جمع مافي تفسير البخاري، وتفسير الترمذي إعداد، د. محمد عبد الرحيم محمد، ط، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، مكتبة الزهراء، القاهرة. بتصرف.

البناء وليس في الهدم، ودعوا الخلق للخالق، فالذين يسلون سيوفهم على علماء ماتوا منذ قرون، هم فارون من معركة الواجب المقدس، عليهم أن يصححوا عالم زمانهم، وأن يقولوا للظالم يا ظالم، وللأسف يهربون من مواجهة الواقع الذي سيسألون عن تحاذهم فيه، يهربون إلى عمق التاريخ ليحاربوا في الهواء الطلق، يحاربون من؟ وقال الشاعر:

إذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزال

ومن يدري لو مدّ الله بحياتهم لغيروا رأيهم، أو مدّ الله بحياة صاحب السيف البتار، ونضج علمياً لتغير رأيه فيهم.

وما أكثر المظلومين في التاريخ، منهم من كُذّب عليه، ومنهم زورت كتب باسمه، ومنهم من ترك عشرة آلاف صفحة وكلها علم ولا يزال حياً طرياً، وخدمت الإسلام عدة قرون، وقد أخطأ بصفحة أو فكرة أو سها أو تأولت تأويلاً أخرجته من سياقه... ولو كان هذا الكنز لمجوسي أو هندوسي وفيه ضاللتنا، لا نتركه من أجل صفحة... والنبي ﷺ يقول: «الحكمة ضالة المؤمن، يأخذها حيثما وجدها»^(١). ولقد تركوا موسوعات ترجمها العالم لمعظم لغاته، لأنه بحاجتها، ترجمها لمصلحته.

لقد دخل قوم على الإمام الرازي وهو يبكي، فقيل له: مالك؟ قال: لي رأي كنت أدافع عنه منذ أربع وثلاثين سنة، والآن تبين لي خطئي، ومن يدري لو مدّ بعمرى، كم هي الآراء التي أتبتها الآن، وهي خطأ؟

مشكلة احتكار الصواب معول هدم في تاريخنا الفكري المعاصر، وتمزيق لوحة الصف.

(١) الترمذي وابن ماجه، عن أبي هريرة.

٩- موجه للشباب ! لذلك حرصنا على اقتلاع اليأس والإحباط وأسباب التفرقة، وإعادة زرع الأمل، وإحياء الابتسامة، ووحدة الصف، وهي الفريضة الغائبة في العالم الإسلامي المعاصر. الإسلام يجمع، ويبنى، والأحزاب تفرق. وتمزق، وجعلنا بعض الوقائع الحياتية في الهامش مما لها دور في تعزيز الدعوة، وتربية الإسقاط على الواقع.

بعد أن تفنن العدو في قتل المسلمين، ثم جهّ لهم وأسند متابعة القتل لجهة المسلمين نيابة عنه باسم الدين، فلا القاتل يعرف لماذا قُتل؟ ولا المقتول يعرف لماذا قُتل؟ فيا حسرة على الغناء، ما يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون!!

والمعافي من عافاه الله!!

والمبارك من بارك الله له، وفيه!!

الفصل الأول

يحتوي على: خطة البحث، ودراسة لمحتويات هذا الجزء، واجتهدنا في تبين أبعاده ومعطياته، وهي كثيرة، منها:

- الدعوي.

- والتربوي.

- وتعريب المسلمين غير الناطقين بالعربية.

ولاتوجد سورة أو آية للدعوة، وأخرى للتربية، وثالثة للتعريب... كما هو الحال في الكتب الشائعة المتخصصة، والمبوبة. وكل آية تكاملت حياتها، تكامل الجسد والنفس والروح.

والوجوه المختارة من «جزء عم» أربعة وعشرون وجهاً:
ونبدأ بالموضوع الأول:

١ - جزء عم استوعب خمسُ موضوعاتِ القرآن:

موضوعات القرآن: ٤٦٧ موضوعاً، ونصيب جزء عم ١٢٠ موضوعاً:
عمارة الدنيا والآخرة متوقفة على جميع محتويات القرآن بالنسبة للمسلمين،
وفي جزء عم خمسُ موضوعات القرآن الكريم، كما جاء في كتاب: تفصيل آيات
الكتاب الحكيم، للفرنسي: جول لا بوم، ومستدركه: ادوارد مونتيه، تعريب فؤاد
محمد عبد الباقي، ومجمل موضوعاتها «٤٦٧»^(١) موضوعاً، بحث قيم في بابه،
ورصدنا نصيب جزء عم في ذات الكتاب، فكان «٨٦» موضوعاً. وزدنا عليه
من استنتاجاتنا ٤٠ موضوعاً، منها:

«...الله جل جلاله، رسول الله محمد، شخصيته، رسالته، التاريخ،
الطبيعة، مآثر قریش، التبليغ، عاد، صالح، موسى، توحيد، صفات الله، قدرة
الله، البطش، اليوم الآخر، الملائكة، الجن، السحر، العدم، القرآن، ليلة القدر،
الدين، الإيمان، الكافرون، التفرق، الحساب، عقائد، الصاخة، الشمس، السماء،
المطففون، الغاشية، ذلك الأرض، الأرض، الزلزلة، العاديات، القارعة، الكاثر،
جهنم، المرصاد، الهمزة، اللمزة، المتقين، المفازة، الأبرار، النعيم، الوجوه الناعمة،
المغبرة، الأنهار، أصحاب المشأمة، النفس، الفتنة، الويل، الفلق، الغاسق،
الشفاعة، الصلاة، الشر، الصدقات، النظام الاجتماعي، الموءودة، النحر، اليتامى،

(١) تفصيل آيات الكتاب الحكيم، جول لا بوم، ترجمة: محمد فؤاد عبد الباقي.

العلم، الأقارب، دع اليتيم، الطارق، سبع شداداً، الأجرام، الخنس، الكنس، الصالحات، الانشراح، الصدر، الإحسان، المرحة، المكايل، الصبر، العبوس، الحق، البخل، السفاهة، الغش، الفجور، الجحيم، الشيوخوخة، الحياة الدنيا، الغنى، أبو لهب، الأخدود، إرم، البحار، ثمود، جبريل، الجزاء، الحنيف، الروح الساعة، السعداء، الصور، الفتنة، فرعون، الفيل، الكافرون، الكتاب، الكعبة، النار، الوصية....“ زادت على المائة والعشرين من عندي، وقابلة للزيادة...

ونرى أن هذه الأرقام خاضعة للذوق، وهي غير ثابتة، لأن الآية الواحدة يمكن أن يجمع منها أكثر من موضوع، لكن تبقى الدراسة بكرة... مؤشراً للاستئناس.

وجاء التكثيف في جزء عمّ: في عدد السور والآيات، والأقسام، والتراكيب الجزلة، والتفريع، والتهديد، والنبرة الشديدة...

وعدد سور جزء عمّ تعادل ثلث سور القرآن، تقريباً، به ٣٦ سورة من أصل: ١١٤ سورة في القرآن الكريم.

وعدد آياته، تعادل عشر آيات القرآن، به: ٥٧٠ آية، وأقل عدداً للقرآن (٦٢١١ - وأعلى عدداً ٦٦٦٦) آية بالقرآن، وقد اختلفوا ما بين هذين الرقمين.

وعدد موضوعاته ٨٦ من أصل ٤٦٧ حسب إحصاء جول... ونحن زدناها إلى ١٢٠ موضوع وفيه سجدتان: واحدة بالانشقاق ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾. وسجدة أخرى في سورة العلق: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾. من أصل أربع عشرة سجدة في كل القرآن.

- وهو أكثر أجزاء القرآن يسكن في صدور المسلمين ولا تبلى الماء، ويجد الأطفال الصغار وغير الناطقين بالعربية والمسلمون الجدد، حلّمة الرضاعة في

«جزء عم» إلهاماً، يرضعون بدون تعليم، ويلمسون رحمة الله ظاهرة لهم وبهم، وعناية الله تدفعهم وترفعهم، لأن الحمل أكبر مما ي تحملون، والنتائج أكبر مما يتوقعون، ومن جهة أخرى ليرفع الله مستوى هذه الألسن الجديدة إلى مستوى قرآنه، فكأنه نقلهم إلى بوادي «بني سعد» الذين تربى عندهم النبي صلى الله عليه وسلم، لفصاحة ألسنتهم. ولحكمة ما، صيغ «جزء عم» بما هو عليه. وأكثر المسلمين المعاصرين، لا يدرون ما الخبر!

يا حسارة على العباد!!

يحتوي القرآن العظيم على كل هذه الموضوعات، والتي لم يتفطن لها أحد قبل هذا الفرنسي - حسب علمنا - ومات معظم المسلمين المتأخرين ولا يعرفون عن قرآنهم: إلا بني الاسلام على خمس، وكذلك الفقهاء لا يعرفون إلا اثنتين وسبعين مسألة فقهية بالقرآن، وبقية الموضوعات من يحققها؟

ومن يطبقها على الواقع؟

ومن يعطيها حياةً من حياته حتى يراها الناس؟^(١)

(١) في عام ١٩٩٢م رأيت في السودان - الخرطوم، لوحة مرورية كتب عليها (فضل الظهر) عند مواقف للسيارات، يتجمع عندها الضعفاء، ويمر عليهم سائقو الشاحنات والتكاسي... يقول لهم السائق: أنا ذاهب للنقطة الفلانية، فيركب معه من كان مقصده بهذا الاتجاه ومجاناً، وإذا ما أوقفه المرور لمخالفته، يقول الركاب للمرور: (فضل الظهر)، فيتركهم قانوناً، هذا العنوان جزء من حديث شريف: "من كان عنده فضل زاد، فليعد به على من لا زاد عنده، ومن عنده فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهره عنده...." عن أبي سعيد الخدري - مسلم. هذا الحديث عرفه الناس حياً بينهم في الشارع، عندما طبق قانوناً دبت فيه الحياة. وقبل اليوم كان كسيسة ذهبية مخزنة. وغير المسلمين لا يرون من المسلمين إلا العبادات، والأمر السطحية، فأين بقية الجواهر؟

مادام معظم علماء الأمة المعاصرة لا يعرفون محتوى كتابهم، فلا عتب على العامة^(١)، والخلاصة:

أمة بينها وبين دستورها هذه الفجوة الهائلة من الغيوبة، وآخر حدود معرفتها الكبائر السبع، وما أكثر الذين يبحثون عن سبب تأخر الأمة، وينسون السبب جهلهم بقرآنهم... لأن عمارة الدنيا والآخرة متوقفة على: ٤٦٧ موضوعاً. إنها لفترة حزينة حقاً، مرت بها الأمة لبضعة قرون.

ومحيي الموتى بدأ يحيي هذه الأمة بإخلاص العلماء الربانيين والأمل يتصاعد مع شمس الصحوة الإسلامية. وتجلي ذلك عندما أفلست الأيدلوجيات على مستوى العالم، باستثناء قوة الباطل، وباطل القوة، المستحكم في عصرنا... ولكن الحق الضعيف، أقوى من الباطل المسلح! والحق اسم من الله، يعلو ولا يُعلى عليه.

٢- جزء عمّ جزء الطاقات المخزنة :

أحسب أن جزء عم أول تفجير معرفي وقيمي.. بطاقة نووية ربانية رحمانية، طاقة متعدد الأهداف والأغراض الإنسانية، لخدمة البشرية:

لقد كان تفجيراً دعويّاً، لغويّاً، بلاغيّاً، تركيبياً، فكريّاً، رمزيّاً، عقديّاً، ترغيبياً، ترهيبياً، قسماً، إنسانياً، شمولياً، تربوياً... وغير هذا الكثير، كلها أوجدتها ضرورة الدعوة، في زمانها، ومكانها، وأوجدتها العينات المكيّة وهم المخاطبون آنذاك، وضرورة التحويل والتغيير والتبديل، من عالم إلى عوالم،

(١) في تسعينيات القرن الماضي في أحد مؤتمرات التقريب بين الأديان، قال أحد المستشرقين متعجباً من الفارق الكبير بين علماء المسلمين الأوائل بأدمغتهم الكبيرة والمبدعة، وبين المعاصرين كما يقول: كانت العمام على رؤوس الأوائل من علماء المسلمين، ولكنها اليوم على أدمغتهم!!

ومن دنيا إلى آخرة، ومن رعي الغنم، إلى رعي النُجيمات والكويكبات، إلى رعي البشرية، وستتحول البشرية كلها إلى أمانة في أعناق المسلمين، لأنهم يتحملون المسؤوليات، ويحفظون الأمانات، وهم الوحيدون الذين يجاربون بعد نبينهم، وغيرهم من الملل والنحل ينهبون ويقتلون باسم دينهم، ومعظم الأنبياء كان عليهم الدعوة فقط، وعلى السماء التأديب والتدمير كطوفان نوح عليه السلام، وإغراق فرعون موسى، وأسندت الدعوة والتأديب لهذه للأمة الإسلامية دون غيرها مما سبق، لأن الطاقات المخزنة في هذه التروس، والرؤوس، والنفوس، من حيث الوزن، والصلابة، والندرة، والقدرة على التحمل، تحتاج إلى توتر عالٍ، تنجدل فيه كل الطاقات الموجودة في المجموعة الشمسية، حتى تنتج طاقةً تعادلها، لإنجاح المشروع الكوني الإسلامي المقبل، هذا المشروع الكوني من جهة، ومن جهة أخرى، كون الإسلام جسراً للعبور من الدنيا للآخرة.

٣- جزء عم: مصمم لتوحيد الأفئدة، وتعريب الألسن، وإنتاج أمة:

لا توجد مطبوعة على وجه الأرض اليوم، تطبع سنوياً بعشرات الملايين، وتقرأ يومياً بمئات الملايين، وتسكن الصدور بالمليار، وأكثر، كما هو حال جزء عم وبعض سوره القصيرة، حتى على مستوى القرآن، فالذين يقرأون: سورة الكوثر، أكثر من الذين يقرأون سورة البقرة مليون مرة. وهكذا تتابع الأجيال. والغرب دائماً يحطمنا نفسياً بأرقام القراء وبعضها كذب، وبعضها مشكوك فيه، عندما يقول: الجريدة الفلانية تطبع خمسة ملايين نسخة، والمجلة العلانية أربعة ملايين نسخة يومياً، بينما في العالم العربي، أكبر جريدة لاتطبع مائة ألف.... ويجهل العدو أو يتجاهل الذين يقرأون القرآن أو سورة منه كم عددهم يومياً؟ عددهم يزيد على عدد سكان أوروبا وأمريكا قطعاً!!

كيف تم تعريب الأعاجم؟
« أليس الله بأحكم الحاكمين؟! »

- بلى...!

تم تعريبهم بالحكمة والحكمة فقط، من يدخل الإسلام: عليه أن يصلي، وفي كل صلاة قرآن وأذكار مخصوصة ومفروضة على المسلم أن يتعلمها على التراخي، كصلاة الجنازة، والاستسقاء، والخسوف... وقبل الصلاة هناك أذكار، وبعدها أذكار، ولو تعقبنا الأذكار التي كان يرددها النبي ﷺ منذ أن يستيقظ من النوم، ماذا يقول في كل ركعة بين فرض وسنة، ويكرر ذلك في اليوم واللييلة؟ وعندما يدخل الخلاء... وعندما يأوي إلى فراشه ليلاً، ما يقول؟ ما بين فتح العين صباحاً وحتى إغماضها مساءً (٢٥٠٠ سنة^(١)) أدعية مأثور عن النبي ﷺ ، ولو افترضنا أن عدد مفردات كل دعاء خمس كلمات، مجموعها آلاف الكلمات، حصلت للمسلم الجديد ثروة لغوية هائلة، وبدون أن يرحل إلى مكة المكرمة ويعمل دورة تقوية باللغة العربية، أو يسكن مع العائلات كما هو الحال في من يتعلم اللغات الأجنبية، وإما أن يختلط بنساء المعهد، وما يترتب على ذلك من مفاسد مالية وأخلاقية....

« أليس الله بأحكم الحاكمين؟! »

- بلى...!

وهذه كوكبة من الأحاديث للاستشهاد، ولا يعلم ظاهرها وباطنها إلا الله ورسوله، ولعلنا نتأول وجهاً من وجوه أسرار عديدة، وحكم عظيمة، لا يحاط بها، نقول: لعل ظاهرها شفائي، وقائي، والإنسان يحب نفسه كثيراً لذلك له مصلحة

(١) صدر كتيب جديد بهذا العنوان ٢٥٠٠ سنة للنبي في اليوم واللييلة، للدكتور عادل عزيزة - حلب، الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م، بمطبعة دار زهرة المستقبل - حلب.

ضرورية يردد هذه الآيات يومياً... وباطنها تعليم العربية بهدوء. والله أعلم.

وهذه مجموعة من الأحاديث الشريفة للاستشهاد وليس للاستقصاء، تبين فيها دور السور القصيرة والأخيرة من هذا الجزء في الاستشفاء ودفع البلاء غير المنظور، كالحسد، والسحر، والعين، والوسواس وهذه الأخطار مخيفة ومرعبة كونها غير منظورة، ولا يعرف الإنسان متى تدخل بيته، ويشعل الحسد ناره؟ ومتى تطلق العين قذيفتها نحوه؟ وأكثر أهل القدر والقبور من العين.

ومتى الساحر يضرب شباكه للصيد؟

ومتى يقود الوسواس صاحبه للانتحار؟.

فقدم رسول الله دروعاً وقائيةً، وعلاجية، وأسلحة دفاعية مجانية، لا تقبض الشرطة على حاملها ومستخدمها، ويحملها جهاراً نهاراً، ويمشي في الأسواق!! وروى الإمام أحمد أيضاً عن عائشة قالت: لبث رسول الله ﷺ ستة أشهر يرى أنه يأتي ولا يأتي، فأتاه ملكان، فجلس أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجله، فقال أحدهما للآخر: ما باله؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، وذكر تمام الحديث.

وثبت في الصحيح، عن أنس في قصة زيارة صفية النبي ﷺ وهو معتكف، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها، فلقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرع، فقال رسول الله: «على رسلكما، إنها صفية بنت حُبي». فقالا سبحان الله، يا رسول الله. فقال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً، أو قال: شرّاً» .

أخرج النسائي: أن رسول الله ﷺ وضع يده على صدره ثم قال: «قل» .

فلم أدر ما أقول، ثم قال لي: «قل». قلت: «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» ثم قال لي: «قل». قلت: «أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» حتى فرغت منها، ثم قال لي: «قل». قلت: «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» حتى فرغت منها. فقال رسول الله ﷺ: «هكذا فتعوذ ما تعوذ المتعوذون بمثلهن قط» .

حديث آخر: قال النسائي: عن جابر بن عبد الله قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ يا جابر». قلت: وما أقرأ بأبي أنت وأمي؟ قال: اقرأ «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» و «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» . فقرأتها، فقال: «اقرأ بهما، ولن تقرأ بمثلها»

وعن عُرْوَةَ، عن عائشة: أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه، وأمسح بيده عليه، رجاء بركتها.

وقال البخاري في «كتاب الطب» من صحيحه: حدثنا عبد الله بن محمد قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: أول من حدثنا به ابن جريج، يقول: حدثني آل عُرْوَةَ، عن عروة، فسألت هشاماً عنه، فحدثنا عن أبيه، عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ سُحْرًا، حتى كان يُرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن - قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر، إذا كان كذا - فقال: «يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبه؟ قال: كبيد بن أعصم - رجل من بني زُرَيْق حليف لليهود، كان منافقاً - وقال: وفيم؟ قال: في مُشْطٍ ومُشَاقَّة. قال: وأين؟ قال: في جُفِّ طَلْعَةٍ ذكر تحت رعوقة في بئر ذُرْوَانَ». قالت: فأتى النبي ﷺ البئر حتى استخرجه فقال: «هذه البئر التي أُرَيْتَها، وكان ماءها نُقَاعَةَ الحنَّاء، وكان نخلها رءوس الشياطين». قال:

فاستخرج . قالت . فقلت: أفلا؟ أي: تَنَشَّرَتْ؟ فقال: «أَمَّا اللهُ فَقَدْ شَفَانِي،
وَأَكْرَهُ أَنْ أَثِيرَ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ شَرًّا»

وحديث آخر في الاستشفاء: قال البخاري عن عروة، عن عائشة أن
النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما:
«قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» و «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ» و «قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» ثم يمسح
بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل
ذلك ثلاث مرات.

وهكذا رواه أهل السنن، من حديث عَقِيل، به. أن النبي ﷺ قال: «إذا أويت
إلى فراشك فاقراً: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ» حتى تمر بآخرها، فإنها براءة من الشرك».
وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، إن رسول الله قال لرجل من أصحابه:
هل تزوجت يافلان؟ قال: لا والله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: أليس معك
«قل هو الله أحد»؟ قال: بلى. قال: ثلث القرآن؟ قال: أليس معك «إذا جاء نصر الله
والفتح»؟ قال: بلى. قال: ربع القرآن؟ قال: أليس معك «قل يا أيها الكافرون»؟
قال: بلى. قال: ربع القرآن؟ قال: أليس معك «إذا زلزلت الأرض زلزالها»؟
قال: بلى. قال: ربع القرآن؟ قال: تزوج، تزوج»^(١)

والمحصلة لوجمعنا: الثلث و الثلاثة أرباع، زادت على المحتوى..

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله: «إن لكل شيء
قلباً، وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس، كتب الله له بقراءتها، قراءة القرآن عشر
مرات»^(٢)

(١) الترمذي: ٣٠٥٨. تحفة.

(٢) الترمذي: ٣٠٤٨. تحفة.

المتأمل ومدقق النظر في هذه الأحاديث، لا يرى لله أو لرسول الله مصلحة أو منفعة، تعود عليهما من قارئ هذه السور، فلا السماء تزداد مسماراً، ولا النبي ﷺ يزداد جاهاً.

بل المصلحة والمنفعة تعود للعبد نفسه، وهي هدية ربانية نبوية مجانية للقارئ، كي يحمي نفسه.

فعندما يحفظ الناشئ من غير الناطقين بالعربية والمسلم الجديد هذه السور، ويكررها يومياً، وينطلق لسانه بها من خلال التكرار والممارسة، يكون تعلم العربية من حيث لا يدري، بأشياء صغيرة وبسيطة ومقدور عليها، وهذا من اللطف الإلهي بعباده، كيف يسهل على عباده، ويعينهم على تحقيق المقصود الأسمى والأهم والأعظم، هو تعلم القرآن كله؟.

ولو قال لهم النبي ﷺ من اليوم الأول:

بني الإسلام على خمس إحداهن: تعلم العربية الفصحى، لانفض الناس وتباعدوا عن الحمل الثقيل. أو قال لهم أحد معلمي العربية متنطعاً:

إن (أل) التعريف، لها كتاب خاص بها، والباء: لها كتاب خاص بها، والمبتدأ معرفة دائماً، والخبر نكرة، ولكن يجوز الابتداء بالنكرة في أربعين حالة... لصاح صائح منهم:

(بارود: اهربوا...)

سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، هذا الثلث سرّ دفين، وكنز ثمين، لا نحيط به، هو الله ورسوله، ففي هذا الثلث وجه إغرائي، لتكرارها ولن لا يملك غيرها.

ومن لطف الله بالناشئة الأعاجم والمسلمين الجدد، زادهم تشوقاً وتعلقاً بهذه السور الصغيرة في آخر جزء عم، عندما أخبرهم النبي ﷺ بأن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، وسورة الكافرون تعدل ربع القرآن، وسورة... وحام المفسرون حول تأويل: الثلث، والرابع...فمنهم من أوّل سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، كون القرآن يضم التوحيد، والعبادات، والمعاملات، فموضوعها: التوحيد وهو ثلث القرآن، كلامهم طيب ومن طيبين، وجه من الوجوه المتأوله، ولكن ما أروى الغليل.

ومما نتأوله، سورة الإخلاص ثلث القرآن، لمن لا يعرف غيرها من ناشئة الأعاجم والمسلمين الجدد، وليست لمن يحفظ المعلقات العشر، مثلها مثل: درهم سبق ألف درهم، لمن لا يملك غيره. من أجل أن يكررها الناشئة حتى تتمرس ملكته على العربية، خير له من يقرأها مرة، ويسكت.

واستلم زمام المبادرة بعض أساتذة التربية من الأعاجم، فبدأ يعطي تلامذته سورة الإخلاص وغيرها من السور الصغيرة كورد يومي ألف مرة، لسببين:

١- تطويع لسانه بالعربية.

كي يملأ وقته بالقرآن، حتى لا يلتهي ذات اليمين، وذات الشمال، وما كانت الترجمة متوفرة لكل الشعوب، وبنفس سرعة انتشار الإسلام، وفي هذا اليوم يجتمع بموسم الحج أكثر من مائة لغة، والترجمة عاجزة أن تغطي كل الساحة.

وعن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: "أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟" قلت: يا رسول الله ومن يطيق ذلك؟ قال: اقرأوا قل هو الله أحد" مسلم: ٨٤١.

وعن أبي سعيد الخدري أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: "قل هو الله أحد" ويرددها، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقأها، فقال

له رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»، من الغيب الذي نؤمن به.

٢- يتجلى لنا لطف الله في تعليم الناشئة، وتفهمهم اللغة العربية "ففهمناها سليمان" ففي اللطف يتحول الثقيل إلى خفيف، ويتحول الحديد إلى عجينة كما هو الحال مع داوود « وألنا له الحديد» وباللطف ينقلع سن الطفل في السادسة وهو يلعب ويضحك، بينما إذا أراد الطبيب قلعه، يحتاج إلى معوان يمسك رأسه، وآخر يضرب رجله، ومخدر، وكماشة، وقلب قاسٍ، وصياح، ودماء... "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"؟ بلى. يعلم كيف يتعلم الناشئة كتابه العزيز؟!!

٤ - جزء عمّ يعزز الإيمان بالإعجاز الغيبي من «مُزَلِّين» و«مُرْدِفِينَ»^(١)

-الإيمان بالغيب إيمان بقدرات مطلقة جاهزة للعون والمدد ولولا هذا الغيب، ماكان الذي كان من سرعة قيام الإسلام!!

-الاستعداد للأمر بقدر الطاقة البشرية مع العشق والإخلاص، والله يتمم ما يحتاجه الموقف، ويرجح الكفة لصالح المؤمنين^(٢).

وإن تعجب فكل العجب، بالغيب الذي يتولى تلاميذ جزء عمّ على صغر سنهم من الهند إلى السند ومن غانا إلى فرغانا، ويوفق بينهم وبين ضخامة الجزء

(١) «مُزَلِّين» ٣: ١٢٤ و «مُرْدِفِينَ» ٨: ٩

(٢) في آخر فصل الخريف تبيض فراشة خاصة بالزيتون فوق أغصان الزيتون حصراً، ويمر الشتاء ودرجة البرودة تصل تحت الصفر أحياناً عشر درجات، والبيوض حية ولا تُرى بالعين المجردة، وفي الربيع تفقس وتنزل إلى الساق، وهنا الإعجاز فتخرق الساق الزيتوني الذي يتحدى المثقب، وتدخل إلى جوف الشجرة، تحتمي بها من شر الطير والنمل، وهكذا دورة حياتها... العبرة: هي قامت بها يتوجب عليها، والله يتمم الباقي، والله يقول: وأعدوا لهم ما استطعتم... وأنا أتدبر الأمر!! فالأمة الإسلامية مهما ضعفت لن تكون أضعف من هذه الدويذة.

لغويًا وتركيبياً، والطاقة الخلاقة المخزنة في هذا المحتوى الحي والمحيي، وفي المدد الذي نزل يوم الفرقان، ولا يزال متواصلاً من يوم "بدر" على طلاب جزء عم، مدد من الملائكة الذين جاءوا مابين "مُنزَلين" و "مُرْدِفين" (١) وهذه جيوش الغيب تدعم التربية والمربين.

٥- مقارنة بين طلاب جزء عم وطلاب الجامعات المعاصرة:

وبضدها تتبين الأشياء، ويشهد على ذلك خريجو مدرسة أبجد... هوز، ومنهم: البخاري، وسيبويه، وابن خالويه، ونفطويه، وابن سينا، وابن البيطار، والخيام...

أسماء أعجمية وعربية، علمية وفكرية وأدبية بعدد النجوم، وبمنهج بسيط، وزمن قصير، وبكلفة زهيدة، كانت النتائج تفوق الخيال، وبأدوات محدودة:

جزء عم، ومعلم محتسب، ومسجد عتيق، وبرنامج تهجي: أبجد، هوز...، وستة أشهر، وبعدها:

يقرأ الطالب أعقد النصوص العربية، فهذا إعجاز غفل عنه الغافلون، غفل عنه المربون والمسؤولون، وغفلتهم تدعو للعجب!!

والحضارة الإسلامية كلها عجب، لأنها تقوم على جناحين متوازيين:

١- غيب يدعم.

٢- وواقع يستجيب.

(١) «مُنزَلين» ٤٢١:٣ و «مُرْدِفين» ٩:٨

٦- « جزء عم » كمضارب « بني سعد » للبلاغة والفصاحة :

جزء الناشئة الذي ينقل قراءه الصغار والأعاجم، إلى عمق التاريخ، إلى مدرسة الفصاحة الأولى، فيجدون ريحة حليلة السعدية رضي الله عنها، ورضيعها الهاشمي، الذي أرضعته اللبن والفصاحة، وأرضعها الأمومة والمجد، أرضعته وحيداً، وأرضع كل بني سعد مجداً وفخراً، أرضعته حولين كاملين، وأرضعها الدهر كله، وما زال بنو سعد يسمون به، ويفتخرون، ويتعالون، وحق لهم ذلك! وهذا جزء عم يرضع البراعم والأعاجم أبد الدهر، حولين كاملين، وعقدين، وقرنين، ولن ينفطموا...

جزء عم عربي السدى بلغته، عربي اللحمة ببلاغته، عربي الشكل والنبرة والمضمون، وفيه من الطاقات المخزنة الحيّة والمحياة، كطاقات فصل الربيع التي تنفخ في الأغصان المعطوبة والمثلجة والمجمدة، والميتة، فتدب فيها الحياة، فتزهر، وتثمر... وفي كل هذا عجب!

ولولا العناية الربانية تتولى هؤلاء البراعم والأعاجم، ما كان لهم أن يدانوه!!

٧- جزء عم يمثل الإعلام والإعلام المضاد :

لأنه من متطلبات الدعوة الوليدة، الاحتكاك مع الآخر، وحرّك الدعوة على الأرض، فحدثت أسباب عامة وخاصة لنزول القرآن، والتناظر بين القديم والجديد، وتبدل سلوكيات المسلمين الجدد، «لكم دينكم، ولي ديني»، كل هذه المستجدات، أحدثت زلزلةً عقديّةً، واجتماعيّةً، وقيميّةً، وهذا نموذج منه، كما جاء في سبب نزول سورة الضحى، عندما شمت المشركون بمحمد لتأخر

الوحي عليه، دليل على الاهتمام والمتابعة والرصد من المشركين، وجاء الرد على الرد، وقدح الزناد على الزناد، أنكى وأوجع، نحو قوله تعالى: « ما ودعك ربك وما قلى » ردّ على من قالوا: ودّع محمد، أي تركه ربه وهجره إهمالاً، وجاء ردّ آخر على الذين قالوا: قلاه ربه، أي أبغضه أشد البغض.

ونسب المشركون المتقولون والمتأولون، أن البغض والكره والقتلي، يكون بين المتماثلين والمتعادلين. و«ليس كمثلته شيء» [الشورى: ١١] فالله لا يكره، ولا يبغض، ولا يقلي، وهذا توضيح ذلك:

ولم يرد في كل القرآن: إن الله يبغض...، إن الله يكره...، إن الله يقلي...، لانتفاء المماثلة، «ولم يكن له، كفواً أحد» وهل يكره أمير راعي الغنم، أو يكره رجل عاقل، طفلاً صغيراً، أو عجوزاً طاعناً، مهما كان سلوكه؟ لانتفاء المماثلة.

ماودعك ربك، وما قلى - ك " حُذفت كاف الحب والمؤانسة، لأن القلي^(١) من البغض، فلا يجتمعان بمفردة واحدة، ولا في قلب واحد. والسياق سياق تल्प وتल्प، ولكن معطيات النظم أوسع من ذلك: ماودعك ربك، وما قلى أحداً، حتى يقليك يا محمد ﷺ!!

٨- جزء عم يؤرخ للنبي منذ طفولته ﷺ:

وجاءت في جزء عم إضاءات تاريخية من عناية الله على يتيم تحف به الألفاظ منذ صغره، ليمن الله عليه ﷺ، ويطمئنه، أنه بعناية الله، ويشهرها كالقمر في كبد السماء، ليغيظ بها الكفار، لأن مشكلتهم مع رسول الله ﷺ ليست عقدية صرفة، ولكنها حسدية صرفة، ومن أقرب الناس إليه تأخر إسلامهم حسداً،

(١) القلي بالياء كمن يقلي بالمقلاة، والقلا بالألف فهو من القلو، الرمي بعيداً من شدة البغض... الراغب الأصفهاني بتصرف.

كونه فقيراً يتيماً سيعلو على عظماء الوادي، وهذه بعض الومضات التاريخية في سورتي الضحى، وألم نشرح. وكلهم - مسلمهم ومشرِكهم - من الشاهدين على المضمون والمحتوى. لذلك لم يسهب لهم فيما يعلمون.

ومن عناية الله لرسول الله ﷺ وملاحظته لنبيه في أدق الدقائق عندما عبس ما في نفسه - ولم يعبس وجهه، وليس من خلقه - سجلها الله وأظهرها للناس، ليريم مدى إحاطته به، فهي شهادة له، وليست عليه! وبسطنا المداد في سورة عبس.

ولكل من سورة الضحى، وألم نشرح، مجال متميز وخاص بها:

- ففي سورة الضحى، جاء الخطاب موجهاً لحاضر شاهد، والسياق: «ماودعك ربك، وما قلاك... ألم يجدك يتيماً...» العناية كانت شمولية: منها تربوية: «ووجدك ضالاً فهدى»، ومنها معيشية: «ووجدك عائلاً فأغنى»، ومنها هداية: «ووجدك ضالاً^(١) فهدى»... كلها في العموميات لسيرته الذاتية.

طرد الشيطان مرتين: أهبط من الجنة، وقُلع حظه من صدر النبي صلى الله عليه وسلم عندما شق صدره.

- وأما في سورة الإنشراح، جاء بها الخطاب مباشراً مع لغة التعظيم: نحن شرحنا، ونحن وضعنا، ونحن رفعنا....: «ألم نشرح لك صدرك...» معنوياً وحسياً، فمن المعنوي الاطمئنان والتسليم وعدم التردد في أخذ الأمور، ورسول الله ﷺ يرى النجاح يمشي وراءه، ويرى النجاح يمشي في داخله، ويرى النجاح يمشي أمامه، وهو يتبعه، ومن الحسي كالتدخل في تطوير كينونة الصدر والقلب، وإخراج حظ الشيطان وإبعاده من مركز القيادة الصدرية، كما إهبط

(١) الشجرة المنفردة بالصحراء، يقال لها: ضالّة، وهي مرشدة للعابرين، وتحدد لهم مقصدهم، راجع تفسير سورة الضحى.

من جنة السموات، قُلع من جنة النبي ﷺ بعملية جراحية، عندما شق صدره، وتكررت عملية الشق أكثر من مرة، وتم إعادة تجهيز وتحصين مركز المعلومات، بما تتطلبه مقتضيات الرسالة، ولا يعقل أن يسكن العدو في مركز القيادة، وكانت العناية تحصن النبوة والدعوة ومستقبلها...

فكل هذه الأحداث المذكورة، كان النبي ﷺ منذ طفولته على علم بشق صدره، وجاءت هاتان السورتان لتكشفا له بقية السر والحدث.

٩- جزء عم مهمته هداية عقيدة محوره التوحيد والرحمة، كونه نزل منه بمكة : ٣٣ : سورة وفي المدينة : ٣ : سور^(١).

الجزء المبارك الذي أسلم بسببه معظم المهاجرين الذين قام عليهم الأساس والتأسيس، وقد نهض على أكتافهم بنیان الإسلام شامخاً يناطح السحاب، بفضل مزايا الجزء التربوية والإيحائية والنفسية في تثبيت العقيدة، وهذه ثمرة من ثمرات جزء عم:

هي إسلام عمر بن الخطاب، بعد أن قرأ خمساً وأربعين سورة من القرآن، منها ثمانٍ وعشرون سورة من جزء عم، وهي: العلق، المسد، التكوير، الأعلى، الليل، الفجر، والضحي، الإنشراح، والعصر، والعاديات، الكوثر، التكاثر، الماعون، الكافرون، الفيل، الفلق، الناس، الإخلاص، عبس، القدر، الشمس، البروج، التين، قريش، القارعة، الهمزة، البلد، الطارق. بعدها أسلم، كما جاء في تفصيل رواية إسلامه.

(١) ذكر الزركشي صاحب البرهان في علوم القرآن، جزء عم مكّي ونزل منه في المدينة فقط «إذا زلزلت، ولم يكن، وإذا جاء نصر الله» ج: ١٩٤. وأما السيوطي صاحب الإتقان في علوم القرآن، وافقه في سورتَي النصر، ولم يكن، وخالفه بالمطففين، بدل الزلزلة. ج: ٣١.

لذلك يمتاز جزء عم بأسلوبه الجزل والإيقاع القوي، والشدة في الطرح. والدقة في التصوير وتجسيم الصورة وتحريكها. ويكثر في أسلوبه قطع السياق والتحول إلى جديد، ولكن التحول ليس بعيداً عن السياق، ويكثر الحُبن في العبارة، ويترك طرفيها، نحو: فسبح بحمد ربك، واستغفره، إنه كان تواباً، مجموعة من جملتين: واستغفره، إنه كان غفاراً، وتب إليه إنه كان تواباً ويشعر القارئ بخبن بعض المعاني، وهي مقصودة، لأن الله يعلم الذين يتلقونه عندهم قدرات خيالية على صناعة الجسور، لإملاء الفجوات، وبهذا ارتقى التنزيل بالملتقي، وكأنه شريك في رسم النص، بل قل: في فهم النص، بل قل: الارتقاء بالقارئ إلى مستوى النص، حتى تتم عملية الاستطراق، وهذا مثال من سورة العاديات:

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ۝١ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ۝٢ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ۝٤ فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ۝﴾ - انقطع السياق -

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ - انقطع السياق -

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾ - انقطع السياق - ففي السورة موضوعات ثلاثة، يظن العجلان غير مترابطة.

فهي كمفاصل اليد منفكة، ومتصلة، حتى تقوم بمهمتها.

ففي الانقطاع الأول: والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعاً، عرب التنزيل يملكون ملء الفجوات وصناعة الجسور (فمن يملك القوة، يقتل وينهب ويسلب الأموال، لماذا؟ لأنه على حب الخير لشديده، يجمع مالاً ويعدده ويحسب أن ماله يخلده...)

ومحور السورة: الإنسان بلا دين يكون متفلتاً من كل القيم!! لأن الدين يقيد

الطمع والجشع، ويحجم القوة الزائدة، ويهدب النفس، ويلزم الإنسان بالمسؤولية. وظاهرة التكرار بمسألة التوحيد واليوم الآخر في التنزيل المكي وجزء عم خاصة، لتثبيت المتحولين من المشركين إلى الإسلام في زمن التنزيل، وفي زماننا لتثبيت الناشئة من صغار المسلمين والمسلمين الجدد.

١٠- امتاز جزء عم بتكثيف الزجر والردع بـ «كلا» :

لأن المخاطبين هم موضع التحدي، وهم الخالص من العرب ، فخاطبهم بما يألّفون، بينما في المدينة صار المجتمع أخلاطاً من ذرية آدم عليه السلام، قد لاتعني بعضهم رعدة من رعدات، أو زجرة من زجرات ”كلا“ ويحتاجون إلى مزيد من الإيضاح والتبسيط، وخير مثال على ذلك، التبسيط الشديد بقصة البقرة، والتي نزلت على المجتمع المدني، وهم أخلاط، عندما قال لهم موسى: اذبحوا بقرة، قال اليهود: ماهي؟ وكأنهم لا يميزون بين البقرة والبعرة من بلادة حسهم وطبعهم بالأخذ والرد: « قالوا: ادع لنا ربك يبين لنا، ماهي؟ إن البقر تشابه علينا...» ٢:٧٠.

وسنقف عند (كلا) لكثرة دورانها بجزء عم، مما تفرضه طبيعة المرحلة أثناء التنزيل المكي ونوعية المخاطبين.

ودارت (كلا) في القرآن الكريم ثلاثاً وثلاثين مرة، وكلها في التنزيل المكي، منها ثماني عشرة في جزء عم، والباقي في النصف الثاني من القرآن، والمتبصر ومدقق النظر بخريطة توزيع «كلا» يرى أنها بدأت أولاً من سورة مريم، ولكن بقرع خفيف، ثم توالى القرع في الشدة والقعقة والزلزلة، حتى وصلت درجة الحطمة، التي تحطم ما لا يحطم، وصار الدم في النار، والنار في الدم، وهذه الأخيرة «كلا لينبذن في الحطمة» بسورة الهُمزة.

هل هذا من الموافقات؟

أليس الله بأحكم الحاكمين؟

بلى!

والسؤال: لماذا تكشف حضور «كلاً» في جزء عم، يبدو من شدة هجوم المشركين على التبدلات الجديدة، وشراسة المعركة، وعنف الخصم، الذي لا يرحم نفسه، ولا يترك رحمة الله تنزل عليه و على غيره.

١١- كثر القسَم المتعدد والمتوالي بجزء عم... واليمين على من أنكر:

وأطول قسم بالقرآن العظيم عشرة أقسام متواليات، أو قسم وتسع معطوفات، في سورة "الشمس وضحاها" والتقدير: ورب الشمس ورب ضحاها... أو أقسم بالشمس وعطف عليها تسع آيات كونية.

ومفردة القسَم، تستبطن اليمين، وتستبطن التنصيف، نحو:

« قاسمته^١ » حلفت له، و « قاسمته^٢ » المال، أخذت حصتي. والقسم: يقسم

الإنسان نصفين: نصف مع الحق، ونصف مع الهوى!!

وجاء القسم في أول السور التالية: والنازعات، والفجر، والشمس، والليل، والضحى، والتين، والعاديات، والعصر... وأتوقف عند الأخيرة، بأنها ليست قسماً، وسيأتي التفصيل في سورة العصر.

ومعظم القسَم بهذا الجزء المكي بالذات، كون الساحة تنزلزل بين القديم والجديد، والثابت والمتحول، والشاهد والغائب، والمتنفع والمتضرر، ويأتي القسم رداً على قالة مشوشة، وإشاعة مغرضة على المجمل، وإن غابت عنا التفاصيل القرآنية المحيطة بكل قسم جاء بالقرآن الكريم، وسنفصل القول.

وعند ابن عربي رحمه الله: في القَسَم الإلهي أقوال، نلخصها منه: أقسم بنفسه، وأضمر اسمه، وأظهر الأشياء لتدل الأشياء على ما يريده من الأسماء الإلهية، وأقسم بمخلوقاته «فورب السماء والأرض...» ولها شرف عظيم بإضافتها إليه، ويطلب منا تعظيم كل ما خلقه الله، لأنه دال عليه^(١). وعنده القسم يعزز التوحيد.

وجاء القسم بالقرآن عوضاً عن الإعجازات الحسية التي كانت تصاحب الأنبياء، ومن مهام القسم يجعل المتلقي يقنع بعقله وفكره، بينما الإعجازات الحسية التي كانت ترافق الأنبياء، مثلما أنتق الله الجبل فوق رؤوس بني إسرائيل قوم موسى وأرضخهم لفترة ما، ولما زال عنهم الخوف، عادوا لما كانوا عليه. ومعجزة القرآن الكلمة الحية المحيية، التي لا يتجاوزها الزمن، ولا يصل إليها الموت، لأنها تستمد حياتها من الحي الذي لا يموت.

ويحتاج القسم إلى سبعة أشياء عند ابن خالويه:

حرف القسم، والمُقَسِم، والمُقَسَم به، والمُقَسَم عليه، والمُقَسَم عنده، وزمان، ومكان^(٢).

ولو سألنا أي أعرابي زمن التنزيل عن رأيه حول دندنة ابن خالويه، لوجدنا ما بين الأعرابي وبين ابن خالويه برزخاً لا يبغيان، عند الأعرابي: القسم الإلهي لموضوع عظيم يستحق القسم، وملتق كبير يقدر قيمة القسم الإلهي. المسألة عنده مسألة قيم مستحقة، وليست مسألة تحليلات.

ومفهوم القسم عندنا بُعد عن وزنه، وحقيقته، وهيبته، وماهيته، واقتصر على أنه مسألة لغوية للتأكيد، وهذه معايير بلاغية ولدت متأخرة، كأوزان

(١) تفسير ابن عربي، ج ٤: ٥٠٠. بتصرف.

(٢) كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، تأليف أبي عبد الله الحسين بن أحمد، المعروف بابن خالويه، بيروت، عالم الكتب، ص: ٣٧.

العروض التي لا يعرف الشعراء المؤسسون عنها شيئاً، ولا تعنيهم بشيء، والذي كان يعنيهم:

فالشعر لغة داخل اللغة، وحياة داخل الحياة، وقوة داخل القوة، كالقلب يقوم بدوره على الفطرة قبل وجود قياس الضغط أو العداد.

والعربي القح يرى في القسم الندية، أو يرى أنه على مستوى القسم، أو ممن يستحق القسم، حتى يُقسم له، ولماذا لا يقسم رجل كبير لطفل صغير؟ ولا يقسم أمير لإنسان من العامة؟

لأنه لا يستحق القسم أو دون القسم، وما سمي القسم قسماً، إلا لأنه يقسم الأشياء نصفين. المهم قوة التأثير والتغيير في القسم، فتقسم من تقع عليه.

فمن أي كوكب هذه الشخصيات، التي تواجه التنزيل، وتواجه الأقسام الإلهية، وأحياناً تتوالى عدة أقسام عليهم، وهم، هم!

وما الذي دعا الحليم العظيم يقسم؟

سرعة التبدلات العقدية والقيمية والاجتماعية، وأصبح ما كان ثابتاً بالأمس، اليوم هباءً منثوراً، معركة حامية الوطيس بمكة في كل شيء ولكنها بلا سيوف ورماح...

روى البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، عن الأسود بن قيس: سمع جندباً قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: ودّع محمد. فأنزل الله:

﴿ وَالصُّحْحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ (١)

(١) تفسير ابن كثير - (ج ٨: ص ٤٢٤)

ولو تأملنا مواطن استدعاء القَسَم، في التقاضي بين الخصوم:
البينة على المدعي، والمدعي هنا المشركون الذين يزعمون أن أصنامهم
تقربهم إلى الله زلفى، أو أن الله ولداً.

واليمين على من أنكر، والقرآن ينكر هذا الادعاء، ويستدعي اليمين في
الجدال والخصومات، لأن خصوم الدعوة ما بين غبي أو يتغابى أو يتعالى، المهم
الآ لا يعترف بالحق، فيستوجب من الآخر:

أن يقسم له بالله، حتى يرفعه إلى مستوى المتلقي العاقل، أو ليستدعي
السامعين أن يحكموا بين الاثنين، فكل الحاضرين سيتحولون إلى قضاة منصفين،
وينصفون أنفسهم أولاً، وهذا من أساليب الدعوة.

ومما يستدعي القَسَم المتوالي بين المحيين: خطورة الموضوع، وعظمته،
وثقله، لاستنهاض الهمم قبل فوات الأوان.

كل الأسباب التي ذكرناها، لقد استدعاها واقع الدعوة في بدايتها بمكة،
كان هناك احتكاك بين مجتمعين:

- مجتمع مشرك وقوته في عدده وعتاده، وضعفه في منهجه ورؤيته، كالمجنون
الذي يحمل عدة أسلحة، فتصبح عنده إما طاقة مهدورة، أو مدمرة.

- ومجتمع مؤمن قوته في عقيدته ووضوح خط سيره، ولكنه في خطواته الأولى.

١٢- استهلالات معظم سوره فيها تبدلات الكون الكبرى، تكاد

تنحصر بجزء عم، وهذا نموذج منه :

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾... وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْفِتْ ﴿١٣﴾﴾ عدد

أربع عشرة آية كونية تتحول في هذه السورة، قد تتغير أو تزول من هذا الكون.

و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾... عدد أربع آيات كونية ستغير أو تزول من هذا الكون.

و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ﴿١﴾ ... وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٢﴾ ﴾... آيتان كونيتان ستغيران أو تزولان من هذا الكون.

١٣- بجزء عمّ أربع سور بدأت بـ«قل» منها الكافرون، ومنها الإخلاص، ومنها «العلق» للوقاية والدفاع؛ ومنها «الناس» للتحصينات الداخلية، والخارجية، وقالوا العلق: للمصاب، والناس للمعاب؛

- « قل يا أيها الكافرون... لكم دينكم، ولي دين»، مفاصلة نهائية في مسألة العقائد، وما عدا الدين، لا يمنع أن نتعاون، ونتعايش، و أخلاق كل فريق تمثل دينهم، وكل منا يرى دين صاحبه، ويتعرف عليه من خلال التطبيقات، ومن خلال المعاملة^(١). والاختلاط هو الدعوة العملية الصامتة إلى منهج الله. وللأسف المسلمون المعاصرون، لا هم أحسنوا تطبيقه على أنفسهم حتى يراهم الآخرون، ولا هم استوعبوه كفكرٍ، وصدروه كمعرفة صرفة^(٢).

(١) كلما اختلف الجيران، وجاءوا إلينا، ويزكي كل منهم نفسه، نقول لهم: هناك مجوسي، وهندوسي، ويهودي، ومسلم، تجاوزوا، وعلى كل واحد منهم يقدم لنا دينه وسلوكه، وليس لسانه. فيخجلون، ولا يكررونها.

(٢) دخلت امرأة عالمة مشهورة بتخصصها على مركز إسلامي بأمريكا، وقالت: إنها أسلمت، وهي أم خمسة أولاد تضمن إسلامهم مستقبلاً، وزوجها لم يسلم، تسأل: هل تبقى معه؟ فأجابها أحد القنابل الموقوتة « فوراً، قال: لا يجوز أن تبقي معه، فقالت له: هل تتزوجني أنت؟ فبدأ يكخخ!! قالت له: أنت لاتزوجني ولاتركني عند زوجي، وأنا مازلت بحاجة للزوج، وتابعت تعلمه درساً قاسياً: الإسلام لا يهدم البيوت، فعندما حرم الزواج من امرأة الأب، لم يهدم ما هو قائم، ولكن من الآن فصاعداً بدأ التحريم « ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم إلا ما قد سلف..» الآخرون يعلموننا ديننا، وكلنا أبو حنيفة، ولكن بلا فقه.

هذه المسألة فيها أقوال متباعدة، أحدهما: جاءت امرأة إلى عمر، وقالت أنا أسلمت، وزوجي لم يسلم، فقال لها: لك الخيار، راجع زاد المعاد ٥/ ١٣٩، والمحلي ٧/ ٣١٣.

وفي هذه السورة يظهر احترام إنسانية الإنسان.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾... وهو النداء الوحيد للكافرين في كل جزء عم.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾... سميت سورة الإخلاص، لأنها خلصت لله ولم يذكر

بها جنة ولا نار، ولا بشر ولا شجر ولا حجر، والإخلاص لا يتجزأ، ولا يصح منه إلا الإخلاص بالمائة مائة.

وهي السورة الوحيدة المخصصة للعقيدة بشكل مباشر، وبكل وضوح وببساطة، بينما كتب العقيدة والنحو المتداولة أصابتها نفحة من عذاب الفلاسفة والمناطقة الإغريقيين، وتحولت إلى ساحة نزال. ولو أختبر بكتب العقيدة المعاصرة المهاجرون والأنصار - رضي الله عنهم - الذين نجحوا في إنارة الشرق والغرب، وقد لا ينجحون في إنارة التعقيدات... لأنهم بدو رضعوا عقيدة الفطرة، التي فطر الله الناس عليها. وإنزل القرآن على أمة أمية بدوية، لذلك كان القرآن واضحاً لدى كل المؤمنين.

سورة الفلق للمصائب، والناس للمعائب.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾^(١)... ففي كل لحظة انفلاق في موجودات الكون،

إذن كل ما في الكون متحرك وله كونه الخاص، وكل في فلك يسبحون، وينفلقون، وهذه السورة تحصينة ضد أي شر يرى أو يحس كالرصااص وحوادث السير، وكل شر لا يرى، كالحسد والسحر والعين... وحصينة ضد البلاء الذي يخرج من الإنسان ضد نفسه، كالانتحار والإدمان.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾... تحصينة للإنسان من شر الوسوسة، والوسواس

(١) فصلنا آفاق - الفلق - في تفسير السورة، يمكن الرجوع إليها، وفيها من النفحات الربانية، ما يستوجب الحمد والشكر.

معركته مفتوحة دائمة حتى الموت، من قبل الخناس الذي تعجز كمرات التصوير، عن تحديد شكله ومكانه في صدورنا، ولا منجاة منه إلا باستدامة اللجوء إلى الله. وهذه السور الأربعة في نهاية القرآن الكريم على درجة بالغة من الدقة والقوة والتأثير، ونسبها بدقتها وأهميتها، كنهاية شبكة الأعصاب والأوردة والشرايين في جسم الإنسان، هي جنود الخندق الأول، إليها ينتهي كل أمر من الدماغ، ومنها ينطلق كل عمل.

(قل) يا محمد كذا وكذا... دارت «قل» - ٣٣٢ - مرة في القرآن لأمرين:

- لإعلامنا بأن القرآن الكريم ليس من قول محمد ﷺ.

- وفيه تعهد بأن الله هو المسؤول عن النتائج، ورفع المسؤولية عن النبي ﷺ، وبمعنى آخر، أنت عليك يا محمد أن تقول، ونحن المسؤولون عن مضامين القول ونتائجه.

١٤ - جاء التركيز بجزء عم على نزع فكرة الخلود، عند الإنسان:

محور موضوعات جزء عم التوحيد، والإيمان باليوم الآخر. وفناء كل ما تقع عليه العين من موجودات الكون. حتى لا يطمع الإنسان بالبقاء. ومن أجل تثبيت هذين المبدئين، أخذ ينقل العين من الأعلى إلى الأسفل، ومن اليمين إلى الشمال، المهم السرعة الحافظة في التنقل بين الموضوعات من خلال عرض مانع عليه العين. وركز بجزء عم على البناء الداخلي للإنسان المؤمن « فلينظر الإنسان مما خلق... »
ويجيب عن كل الأسئلة المطروحة.

كيف بدأت الحياة الدنيا؟ ومتى؟ وكيف تنتهي؟

وما نهاية التقاة، وما نهاية الطغاة؟!

استثمر الكون ككتاب مفتوح للقراءة والإرشاد، وجعله الوسيلة التعليمية للجميع، ونقلهم من رعاة للإبل، إلى رعاة للنجوم والكواكب... وكان التركيز على تثبيت فكرة:

لا باقى إلا الباقي:

نشأة السموات وما فيها... ولكن لها نهاية.

نشأة الأرض وما فيها... ولكن لها نهاية.

نشأة الإنسان، وهو كون بذاته داخل الكون... وله نهاية. وبهذا نزع فكرة الخلود من تفكير الإنسان، لكل موجودات الكون، حتى يستسلم للرحيل كالمسافر العابر، ولا يلهي بالتكاثر.

١٥- جزء عمّ فيه أهم الوقائع التاريخية في جزيرة العرب:

وفيه أربع قصص خاصة به: كأصحاب الأخدود، والفيل، وقريش، وأبي لهب. وهن من جغرافية الجزيرة العربية، ومنها من واقع المجتمع المعاصر آنذاك للتنزيل، وهذه القصص كأنها تريد أن تخبر الأجيال القادمة، كيف كانت حالة الواقع الدعوي في مكة؟ وكيف كانت بدايات الدعوة في المساحات الجديدة التي وصلها الإسلام؟.

حوّل الأحداث من مقابر تاريخية إلى وسائل إيضاح وقصة أصحاب الأخدود قصة عربية السدى واللحمة، والحارق والمحروق وكلهم من نجران، التي تقع جنوب مكة: ٨٠٠ كم وشرقي البحر الأحمر ٢٥٠ كم، وللقصة وجهان:



أحدهما للنبي ﷺ وللمسلمين الجدد، فيه تأنيس، وتثبيت، من خلال عرض قصة طفل بمفرده زرع التوحيد وغير أمة بالجزيرة العربية من عبادة الأوثان والطغيان إلى عبادة الرحمن المنان.

والوجه الآخر: لقريش عليها أن تتعظ بنهاية الطاغية بنجران، وهم يعرفون خبره معرفة تامة، وإلى يومنا هذا الأخدود معروف وظاهر آثار المحرقة وموجودة. والله بالغ أمره.

ومغزى القصة الأخدودية:

الدين منتصر دائماً، ولكن فمرة ينصر الله جنده، ومرة ينتصر دينه وجنده معاً، وعندما ينتصر الدين وحده، ويذهب الجند شهداء، وبشهادتهم ينتصر الدين، فبعد أن مات الأخدوديون، قال العالم المعاین والمشاهد ما بين سرٍ وجهرٍ: أمنا برب الغلام!!

وقصة الفيل وقعت بمكة، عاصرها معظم الذين عاصروا التنزيل، وهي أول درس عالمي بالتوحيد، مفاد القصة جاء على لسان عبد المطلب: إن للبيت رباً يحميه، وإن لمحمد رباً يحميه ويؤويه وينصره، بجنود (أبائيلية) لا يعرفها العالم، ولم يالفوها تحصد الغزاة والفيلة حصداً.

وفي قصة الفيل إيفاء حقوق الجوار محفوظة لـ(قريش) جاء ذكرهم في القرآن الكريم دون غيرهم، وأفردت لهم سورة باسمهم، لأنهم جيران بيته، وكانوا يخدمون، ويسقون، ويطعمون الحجاج مجاناً، بل ويدخلون في حروب فيما بينهم من أجل السقاية والرفادة... ورد الله لهم هذا السلوك العملي، فأطعمهم الله يوم كانت تجوع الناس، وآمنهم يوم كانت تخاف الناس.

والفيل حيوان رفض أمر قيادته من أجل هدم حجر، وكيف بالإنسان

لا يرفض قتل الظلم للبشر، فكيف بإنسان كشرطي أو مجند، ينفذ أمراً ما يقتل إنسان مظلوم، وبدون نص شرعي^(١)؟

وقصة أبي لهب بداية للمفاصلة النهائية بين القبيلة والقبليّة، القبيلة للتراحم، والقبيلة للتعصب الأعمى، فأقر القبيلة، وألغى القبليّة، وأنطلقت الأمة من ضيق القبيلة إلى سعة الإسلام، ومن محدودية النظرة في الأحساب والأنساب إلى آدم، وآدم من تراب!!

وانتهى التعصب لقرابة الدم، وبدأت قرابة الإيمان، وتأخرت قرابة الطين، وتقدمت قرابة الدين.

١٦ - جزء عم حوّل الأحداث من مقابر تاريخية إلى شهادة الله من الواقع على الواقع؛

الأزمة الغابرة وما وقع فيها، ليست مقبرة تاريخية، ولكنها مدرسة واقعية، تتكرر أحداثها وشخصاتها، لقد جاء ذكر عاد، وثمود، وفرعون.

وحتى لا ينسَ الناس الأحداث التي أدب الله بها أقوماً، ضلوا، وأضلوا، ويكرر صور الأحداث هنا، وهناك، حتى يتذكرهم الناس، وكلما يقع على الناس فيضان مهما كان صغيراً، فيقولون: هذا طوف نوح، وكذلك العواصف الرملية، فيقول الناس: أصابنا ما أصاب قوم عادٍ...

ولقد وقعت قصتنا عاد وثمود في الجزيرة العربية يعرفونها كما يعرفون

(١) روجيه جارودي فرنسي بعد إسلامه صار رجاء جارودي، فيلسوف ماركسي، وانقسمت فرنسا بين الشرق والغرب بعد الحرب العالمية الأولى، فكان جارودي في الجزائر فحكم عليه بالإعدام، وطلبوا من الجزائريين قتله، وهم مرتزقة بالجيش الفرنسي، فرفضوا، يقولون: حرام... حرام وبدأ يفكر بكلمة حرام حرام، فقادته للإسلام..

أبناءهم، وقصة فرعون وإغراقه على حدود الجزيرة العربية من الغرب، وفي منطقة الإغراق يوجد بها انتشار لبعض القبائل العربية، فأخبار فرعون ونهاية الطاغية حديث مجالسهم، وهذا من التهديد المبطن، وكأن الله يرسل لهم رسالة تهديد: كما نغرق بالماء، نغرق بالرمل... وللإغراق صور كثيرة عندنا.

١٧- جزء عمّ به نواة الأحكام الفقهية :

بداية التأسيس لحفظ الأنفس والأموال: كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَمْوَةٌ دَةٌ سُئِلَتْ ۖ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۖ (٩) ﴾ حفظ الأرواح والأنفس والدماء، من أولويات الإسلام، وهي أول إشارة لإقامة الحدود، وحفظ الأموال ووضع حد للأيدي الطائشة والأنفس المريضة، كما في قوله تعالى «ويل للمطففين الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون» يأخذ القوي مال الضعيف بغير وجه حق، ويل لهم، وإن كان طفيفاً كحبة السمسم، فكيف لو صار طناً، له كل الويل والويلات؟.

١٨- بدأ جزء عم بضبط موازين العدل والمساواة :

ففي زمن التنزيل كانت موازين العدل طائشة، يُقتل الإنسان بسبب تافه على عنزة أو حبله رمة^(١)، وتقتل عائلة غافلة بسبب قريبتها، واشتعلت حرب البسوس أربعين سنة بسبب فرسين، أيهما سبق؟

جزء عم ركز على القضاء والتقاضي، لأنه إذا صلح القضاء صلحت البلاد والعباد، وإذا فسد القضاء تدمر كل شيء، وهذا رسول الله ﷺ يقول في الصحيح «صنفتان من أمتي: إن صلحا صلح الناس، وإن فسدوا فسد الناس،

(١) إن أنس، لا أنس في عام ١٩٧٥م يوم قال لي بدوي من الرصافة: إنه قتل اثنين في شبابه، واحد من أجل أن يسلب حذاءه، والآخر قال: من أجل حاجة هايفة!!

القضاة والأمرء» قوله جل في علاه:

﴿... جَزَاءٌ وِفَاقًا ﴿٣١﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٣٧﴾﴾

الجزء موافق للعقوبة ومطابق للجريرة، فمن ضرب بحجر وزنه: كغ، يُضرب بحجر مثله وبوزنه، ومن ضرب بكره من الصوف، يُضرب بمثلها وبوزنها، بينما كانت الموازين لصالح القوة، فكان إذا قتل رجل من قبيلة قوية، قد يقتلون عشرة أو مائة من القبائل الضعيفة.

لماذا؟ لأنهم كانوا لا يرجون حساباً في الدنيا، ولا يؤمنون بالآخرة، ولا يؤمنون بأن الله أحصى عليهم كل شيء كتابةً.

ضبط الموازين الحسية والمعنوية على أساس العدل والإنصاف بين الناس، في كل شيء ومهما كان طفيفاً حتى في المدح والذم، كله بموازين العدل، وحتى في الدعاء على الغير، يكون الدعاء بحجم المظلمة، وإن زاد، تحول الداعي من مظلوم إلى مظف وظالم، أي حضارة هذه؟

١٩ - جزء عم حوّل الأنا الفردية نحو التربية الجماعية الأممية،

بدل الفردية والقبلية، وكان محور اقتصادهم الماء والمرعى، وبسببه تنشب الحروب، وكلما زاد الخير، نقصت المشكلات، وكلما قل الخير، تشتعل المشاكل، كنقص الخبز والماء، ودلنا الله على مخازنه في الأرض، لتهدئة النفوس، ففي سورة النازعات:

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَنَّاعًا

لَكُمْ وَلِأَنْفُسِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ وكان الله يطمئنهم بأن الماء والمرعى متوفران لكم جميعاً، ولمن يأتي من بعدكم إلى يوم القيامة.

علاج الشح والأنانية الفردية، ففي سورة عبس:

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْتَأْنَا فِيهَا بَنَاءً ﴿٢٧﴾... ﴾ تضمن النص إيجاء: نحن الذين نصنع لك طعامك بدءاً من إنزال المطر، ونجعل الحبة الضعيفة تشق الصخر باتجاهين، يخرج الرشيم إلى الأعلى ويشق الجذير الأرض الصلبة على ضعفه ولدانته، وينزل بين الصخر يبحث عن الرطوبة على دقة عروقه الشعرية....

أين دورك أيها الإنسان؟ سوى جمع المحصول!!

٢٠- جزء عم أعاد أنسنة البشرية:

تنمية الشعور الإنساني الجماعي بالآخرين، وأياً كان دين الآخر، لونه، عرقه، يبقى إنساناً، والخروج من البدائية البشرية، والدوائر الضيقة، إلى رحابة الإسلام، ففي سورة الفجر:

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾... ﴾ ولم يحدد صفة اليتيم مسلم أو غير مسلم، من العائلة أو من غير العائلة، ومثله المسكين، ولأول مرة تؤنسن البشرية بواسطة الإسلام.

الإسلام العملي، ولا مكان لمسلم الشعارات والهتافات، إنه دين عملي تطبيقي، المسلم يكون واقفاً على ثغرة، فلا يؤتى من قبلها، كما جاء في سورة البلد.

﴿ فَلَا اقْنَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْجَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

عندما يرى عقبة تواجه إنساناً ما، وهو قادر على دفعها ورفعها، عليه أن

يقوم بدوره، وكأنه المسؤول عنها، ولو بالكلمة الهادفة التي تحض القادرين على القيام بها، وجاءت الكلمات نكرات للتعميم: رقة، ویتیم، ومسكين، ومن كانت هذه صفاته، لا يشترط إسلامه أو قرابته بالمساعدة.

الإخلاص في النية والعمل، حتى يتزكى الإنسان في البناء الداخلي للشخصية المسلمة، وقدم في سورة الليل، ثلاثة نماذج من البشر، أحدهما:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْفَعَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ ﴾ أي لكل عمل فيه خير.

والنموذج الآخر الذي يمشي عكس الاتجاه:

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ ﴾ أي فيه طاقة، لكنه يصرفها بالشر والأذى.

والنموذج الثالث المخلص في النية والعمل، ويريد بذلك وجه الله:

﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَسَوْفَ يُرِضُنِي ﴿٢١﴾ ﴾ هذا وعد من الله بأنه سيعطيه حتى يرضيه.

هوية الإسلام تتميز بالإخلاص، كونه الطاقة الهائلة التي جعلت العرب يقدمون أموالهم وأولادهم وأنفسهم في سبيل الله، وبدون مقابل، سوى وعد بالرضا في يوم القيامة.

التزهد في زينة الحياة الدنيا، لأنها تشغل الإنسان عن الهدف الأسمى،

عندما ينشغل بالتكاثر: ﴿ أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ ... ﴾ ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ و ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يُحَسِّبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ ؟ ﴾

٢١ - جزء عم يكشف مميزات العرب الذين نزل عليهم القرآن :

لا بد من معرفة هؤلاء القوم، من قيمتهم لا من قامتهم، ومن بصائرهم لا من أبصارهم، ومن حسهم لا من سمعهم، ومن نخوتهم لا من صيحتهم، ومن شاعريتهم لا من شعورهم.

كيف تحملوا كل أقسام جزء عم؟ وكل الأنباء العظيمة؟ وكل أدوات الزجر والنهر؟ وأسماء السور عند الإعرابي تدير رأسه كالزلزلة والقارعة، وكفة المرعبات تكاد ترجح على كفة المبشرات بجزء عم...

لذلك أسند إليهم موضوع أسلمة الإنس والجن، مشروع كوني كالشمس، والقمر، والليل والنهار والأكسجين... فأسنده الله للعرب « يخلق ربك ما يشاء ويختار »؟

وما يقوم بهذا الأمر إلا ذوو حظوظٍ عظيمةٍ، ولهم صفات عظمى، ترتقي بهم إلى مستوى حمل المسؤولية، للحصول على الكأس العالمي، يحتاج إلى فريق نادرٍ، ونادٍ نادرٍ، ومدرّب نادرٍ، وثمار الرياضة، فرحة وصرخة تذهب مع الريح بلا رجعة، وهذا المشروع الكوني الإسلامي يحتاج إلى صفوة بني آدم لهم مميزات خاصة ونادرة، ولعلنا نتحسس بعض خصائصهم، التي كانت تخصهم من دون ذرية أبينا آدم عليه السلام منها:

صادقون في إيمانهم، صادقون في كفرهم، صادقون في عفتهم، صادقون في فجورهم، صادقون في حربهم، صادقون في سلمهم...

وإن في الأرض شعوباً وقبائل شتى، واختارهم الله من بين هؤلاء، لتفردهم بأخلاق مستطرفة عند الجميع، ومن الندرة عند غيرهم، منها:

«...فمن مثلهم يحمي الذمار، ويكرم الضيف، وينصر المظلوم، ويعين على

نوائب الدهر...؟»

ومن سواهم عندهم ثلث العام أشهر حرم، لاتسيل فيها قطرة دم، وتتحول

السيوف عندهم إلى أغصان زيتون ورمان وريحان...؟

ومن مثلهم يوقدون النار ليلاً في الشواهدق، ليستدل الضيف عليهم،

وينادونه، ويؤونه...؟

ومن مثلهم يقول السيد لعبده: ”إن تجلبن ضيفاً، فأنت حرٌّ...؟ (١)

ويشهد الله بالكوكبة منهم والمؤسسة لهذه الدين: «كنتم خير أمة أخرجت

للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر...» الآية،

ما قال: (خَرَجَتْ) بنفسها للعالم، ولكن قال:

(أُخْرِجَتْ) مبنية للمجهول، توحى بأن الذي خبأها، هو الذي أخرجها

في الوقت المناسب للمهمة المسنودة إليها من الأزل.

وكان كل عربي مسلم يشعر كأنه مكلف، وأنه ملزم بحمل الرسالة إلى

الآخرين، وهي الأمانة الملزومة لهم، ويتجلى ذلك في قول الصحابة الثلاثة رباعي

بن عامر، وحذيفة بن محصن، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنهم، يوم قالوا لرسنم

قائد جيش الفرس في معركة القادسية، قبل المعركة، يوم استدعاهم واحداً بعد

واحد، في ثلاثة أيام متواليات:

مالذي جاء بكم؟ فيكون الجواب واحداً:

(١) من كتاب: وجاء أبو بكر، خالد محمد خالد، ص: ٤٦. بتصرف. والذي أعتق عبده لأنه ظفر بضيف

شارد... والجوقر، والريح صر، ينسب لحاتم الطائي.

«الله ابتعثنا، لنخرج من شاء، من عبادة العباد، إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله منا، قبلناه منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه، ومن أبى، قاتلناه، حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر»^(١). فهموا أن الحمل جماعي، والشرف جماعي، والمسؤولية جماعية، هذا التعبير يوحي بشدة التلاحم بين القيادة وجنودها، وبين المنهج ومن يؤمن به.

وكان خصائص الدعوة موزعة ومفرقة بينهم كلهم، ولكنها مجموعة بمحمد ﷺ. أو خصائص النبي الدعوية سرت بهم فجهزتهم للمهمة، أو كملعقة من الخثرة تضاف لبرميل من الحليب، فيتغير، ويتخثر، حتى يتغير اسمه وطعمه وكيانه وقليل النبي ﷺ لا يقال له قليل.

٢٢- جزء عم يوضح المفارقة ما بين عرب التنزيل، والمفسرين:

والوقوف على ميزتين:

- العربية عند أهلها سجية كالتنفس^(٢)

- قدرتهم على التحمل.

وتفصيل القول:

عرب التنزيل عندهم العربية بين ملكة اللغة التي فطروا عليها، كما فطروا على التنفس بدون تكلف، وبين ما يتنزل عليهم من القرآن. بلا وساطة ولا مترجم، والذي فهموه من القرآن، لم يصل إليه المفسرون بعد، ولن يصلوا إليه، لسبب بسيط، لأن المفسرين يتعلمون أولاً: النحو، والصرف، واللغة، والعروض...

(١) الظلال، ص: ١٤٤٠.

(٢) سألت الشاعر المطبوع محمد ملا غزيريل رحمه الله، بعلم العلم العروض، فقال: لا أعرف، ولكن بالسليقة!!

دليل على أن بينهم وبينها فجوة، فلا بد من هذه العلوم، كي تكون جسراً أو سلماً، أو كأنهم غرباء عنها، ولو كانوا من أهلها، ما كابدوا هذه المكابدة، من أجل رصف المباني فقط، وتبقى روح المعاني لأهل الملكة. مثلهم مثل علماء الأوزان العروضية للشعر، وقد مات معظم فحول الشعر العربي، ولا يعرفون عنها شيئاً. فكانت عندهم المباني والمعاني من مشكاة واحدة، تأتي تلقائياً، كما تنهض النحلة على سجيبتها بالشمع، والعسل. وهكذا ينهض المبنى والمعنى عند عرب التنزيل. اللغات غير العربية تعتمد على: رصف المباني وسكب المعاني.

وميزة العربية بين اللغات أنها كائن حي: لها مناخ، ومبنى، ومعنى، وروح تسري فيمن يسمعها، فيعشقها!!

وإن تعجب، فعجب تحمّل عرب التنزيل الذين خاطبهم «جزء عم» فهذا الجزء، ثمرة الذين تحملوه، وكانوا سبباً في تنزيله، هم غابوا، وبقي «جزء عم» لنعرف منه آثارهم وثمارهم... وهذا ملحظ غفل عنه الغافلون.

وعندما يرى الناس تفاحة وزنها (مائة كغ) مستوردة، فحجمها يهيج الخيال، ويستنفر الظنون، حول الشجرة التي كانت تحملها، وعمق جذورها وطول عروقها، وغلظ ساقها وارتفاعه بالهواء، وعدد أغصانها وفروعها، ونوعية التربة والمناخ، والخبرات الزراعية التي كانت تخدمها...

ومثلها زوار المتاحف الحربية عندما يرون أدوات وأسلحة ثقيلة، كان يحملها فارس واحد، والآن يعجز عن حملها بضعة رجال، فيبدأ الخيال، يتصور طول الفارس، وعرضه، ووزنه، وصبره.

ومن يدقق النظر في مضامين جزء عم وتراكيبه وصياغاته وموضوعاته، ومنها بقي وقفاً على جزء عم. يتحول الذهن ليتصور الشخصية العربية الشائخة

الصلبة، التي تستقبل، وتحتمل كل هذا الزجر، والتهديد، والتبشير، والإنذار، وكل هذا صادر ممن؟

صادر من عند الله، من عند فاطر السموات والأرض، صادر من عند من يدك الأرض دكة واحدة لاثانية لها، وهو الذي قال للسموات والأرض، اثتيا طوعاً أو كرهاً، قالتا أتينا طائعين بنفس اللحظة، ومازالتا آتيتين طائعتين مقهورتين.

وما قال العرب بمجملهم: أتينا طائعين إلا بعد ربع قرن، لأنهم ما اعتادوا الطاعة لأحد، إلا بعد أن سال منهم الدم، فلانت قناتهم، لذلك أكثر القرآن لهم من قوله: أطيعوا الله والرسول... لأنهم جبلوا على التمرد والأنفة، وعدم الانصياع لأحد، لقد تحمّل العرب ما لا تتحمّله الجبال. وأنى للجبال تتحمل تنزلات الله؟!!

وما خبر موسى عليه السلام وجبل الطور عنا ببعيد!!

وكم عندهم من قدرة التحمل لما يقسم الله قسماً واحداً، يزلزل الجبال الصم، جل جلاله؟

بينما يقسم جبار السموات والأرض للعرب عدة أقسام متوالية: ”والنازعات غرقاً، والناشطات نشطاً....“ وهم، هم...، وعندما تجلى الله تجلي اختصاص واجتباء ورحمة لموسى عليه السلام، خرّ موسى صعقاً، وتدكدك الجبل.

ولم تقع عيني على باحث أثار هذه الإضاءة.

٢٣- لا تموت أمة عندها «جزء عم»...!!

و٣٣سورة منه كانت كافية لإحياء أهل مكة، و٣سور منه لأهل المدينة.

أمة تخلت عن جزء عم، فتخلى الله عنها وأهانها، وأصبح كل دعائها خلياً لا يسمع، وبدأت تموت بالتجهيل رويداً رويداً..

وهناك حضارت إسلامية سادت ثم بادت في الأندلس، وفي الهند ممالك عاشت ثمانية قرون بالإسلام، واليوم لاتحس منهم أحداً، ولاتسمع لهم ركزاً، بفعل التمويت البطيء، وقال لي في مكة المكرمة: أبو الحسن الندوي، رحمه الله، حكيم الأمة، يوجد في حيدر آباد الدكن - الهند، مركز للمخطوطات الإسلامية، ومنها في العربية حوالي ثمانية آلاف مخطوط، وزودني برسالة توصية للمشرفة على المركز وهي غير مسلمة ومتعصبة، وراسلتها فلم ترد علي ولا على غيري، في تسعينيات القرن الماضي. وحال المسلمين هناك أسوأ حال، عندما تراجعوا علمياً، تراجعوا في كل شيء، حتى وصلوا إلى أسوأ الطبقات، ومهمتهم التنظيفات العامة لأنهم أميون، بفعل التجهيل المبرمج، وهذا النموذج الكيدي طبق على العرب في القرنين الماضيين، وهاهم في ذيل القائمة العالمية، وبعض الساسة الطائفيين كثفوا التعليم في مناطقهم، وكثفوا التجهيل في غيرها.

أو كما قال الشاعر العربي:

يُقبض الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

ولما استبدل العرب - وهم أبناء الصحابة رضي الله عنهم - الذي هو أدنى بالذي هو خير، وجاءوا بشكليات المناهج المستوردة دون المضامين الحقيقية، وبدون العلم الحي والمحيي، ذات التكلفة النقدية الضخمة، وبعد ست سنوات يتتبع حفيد الصحابة رضي الله عنهم في كتبه الخاصة، وبعد الجامعة^(١)، يتتبع بجزء عم، وهذه داهية الدواهي تقع على هذا الجيل، لسبب بسيط:

(١) للابتسام: هناك لجنة شرعية، تجري مقابلة شفوية مع طلبة تخرجوا من الثانوية، لسبر معلوماتهم، وبما تيسر من قراءة القرآن، فمن يجتاز هذا الاختبار، يدخل تخصصاً شرعياً، فقال الشيخ... لأحدهم: اقرأ، مما تريد، فاختار الطالب لنفسه سورة: يس... فقرأها: «يس»، كأنها: «نعم» بالإنكليزية، فقال له الشيخ الفاحص: نو، نو...

- الغرب ومن على شاكلتهم منهجهم علماني وأسقط الغرب الغيب من فكره ومناهجه وديناه، وإن كانت له نجاحات، من كثرة الإمكانيات الضخمة، بينما نحن أخذنا منهم مناهجهم مغسولة من الغيب سبع مرات... ومسحوب منها زبدة العلم، وبلا إمكاناتهم. وقام المسؤولون عندنا، وزرعوها في بيئة غير بيئتها، فرفضها المناخ العام، كما يرفض الجسم الكليّة الطارئة، فكان ما كان!!

- والسؤال: من وراء هذا العمل العقوقى للموروث العظيم؟

هم الذين كلما ذُكر لهم التعليم الإسلامى، قالوا بضم واحد:

الأمم من حولنا تتفنن في الاختراعات والإبداعات، ومراكبهم مشرعة نحو الفضاء، وتريدوننا، نعود إلى الخلف، إلى زمن «أبجد، هوز...» زمن البعير والحمير.

هؤلاء ربائب الفرنجة، عمالقة في كل شيء، كما يظنون، وطبعت مؤلفاتهم بماء الذهب على حساب الحكومات، وبخرت بالعود والصندل، ورشت بماء الزهر، ولكنها ماتت قبل أن يموتوا، وقُبرت قبل أن يقبروا!!

لأن القارئ الآلى الذي يفهمهم لم يُصنع بعد.

هؤلاء بشموا^(١) من المنّ والسلوى، واستلموا الصف الأول في كل شيء، ولا يسألون عما يفعلون، ويعيشون في أمن وأمان، ولا يقيمون للدين وزناً، حتى في التحايا، تحياتهم الطيبات غريبات، والناس من حولهم يتخطفون، ويقتلون، ويسجنون، ويشردون، ويتهمون بكل قواميس الخيانة والعمالة...

وهم يعيشون في جنات الوطن التي لم تخلق إلا لهم، ومضى عليهم قرن من الزمان.

(١) بِشَمَ الحيوَانِ بِشَمًا، تخم من كثرة الأكل، وتصد نفسه عن الطعام ليومين... قال المتنبي:
نامت نواظير مصر عن ثعالبها فقد بشمن، وما تفتنى العناقيد

ويسأل الجميع عن آثارهم، بعدما جاءتهم الدنيا تجرّج أذيالها:

- ماذا قدموا؟

- وما أبدعوا؟

- وما أنتجوا؟

مادام تحرروا من هذا الدين، وانعتقوا من كل أحكامه، لأنه وقف في وجه سفن فضائهم مما طيروها، أو جوّالاتهم مما صنعوها، أو قدّاحات سجائرهم، أو قصاصات أظافرهم... وهذه أسماؤهم، على إنتاجاتهم رصعوها!!

عندها نسلم لهم بما يقولون، ويرددون شعاراتهم:

الإسلام خلفنا، وجهلنا، وخلط ظلامنا بضيائنا، "كبرت كلمة تخرج من أفواههم"!!...

«... ما عندهم إلا نحاتة الأفكار، وزبالة الأذهان التي رضوا بها، واطمأنوا إليها، وقدموها على القرآن والسنة...»^(١) فكانوا وإبليس دعاة إلى كل معصية...

فلاهم علمونا كالغرب، ولاهم علمونا كالمسلمين...

أما أن لليل الجهل المركب أن ينجلي!!

أما أن لقيد العناد أن ينكسر!!

أما أن لتيه القيادات الميّتة والمميتة أن ينتهي!!

أما أن زمن الإفاقة بعد طول الغيبوبة!!؟

(١) التفسير القيم لابن القيم، جمع أويس الندوي، ص: ٣٨٠.

٢٤ - أزمة بركة في القارئ، والمقروء، والسلوك المطبق، مع كثرة المدارس والمدرسين:

ومع كل ما يكتب، ويقراً، وما أكثره في إتجاه تصحيح مسار الأمة، ولكن المردود، دون المأمول!! لأسباب منها:

حضر الورق والحبر والقلم، وغاب الإخلاص!

العدو جهلنا، ويمارس هذا الجهل، كونه لا يسمح للعلم الحي والمحيي أن يصلنا، ويرسل لنا العلم الميت والمميت كأحدث قواعد الفن والرياضة...أو الرياضيات القديمة...

والعالم الرباني يبذر حروفه على الورق، ككائنات فاعرة، ترجو نفخةً ونفحةً، كصدف المحار إذا أصابتها ماء السماء، تحولت إلى كائنات حية تسمى: اللؤلؤ. وصارت كريمةً: نفاسةً، وندرةً.

ويتجلى الله عليها بما شاء، وينفحها سراً ونوراً وتأثيراً، ويشرح لها صدوراً، ويكتب لها قبولاً، ويرفع بها محباً، وينفع بها طالباً، ويدفع بها عدواً. كمؤلفات الإمام النووي لا يخلو بيت مسلم منها وأمثاله كثر.

والقراء يأخذون حظوظهم من هاتيك الحروف، التي تشكلت أوعيةً للمعاني، وقد يستعذبون المعاني المخزنة بها، إذا جلاها الله للقلوب، عندها يتوالى التغيير، والتأثير، والتدبير، وإذا لم يصادف القارئ في قلبه شيئاً من هذا، فصارت الحروف المنورة المعطرة كخود تزف إلى أعمى مقعد.

والمعاني من عافاه الله!!

والمبارك من بارك الله له، وفيه!!

الفصل الثاني

ترتيب سور «جزء عم» من سورة النبأ رقم: (٧٨ إلى سورة الناس رقم ١١٤)
التفسير - الدعوي اللغوي - لست وثلاثين سورة، ولسبعين وخمسة آية،
بدءاً من سورة عم، حتى سورة الناس.

منهجنا في التفسير اللغوي الدعوي:

- ١- تمهيد لكل سورة لتهيئة القارئ، والربط بين اسم السورة والمحتوى.
- ٢- تقسيم السورة تبعاً للأفكار.
- ٣- الإصرار على إمكانية تجديد وتغيير حالة الأمة، وإمكانية إحيائها ولكن بالإسلام. الإسلام هو الحل لنا، ولغيرنا.
- ٤- إمكانية نهوض الأمة بآليات المنهج الإسلامي، كما نهضت من قبل ولم تك شيئاً.
- ٥- النجاح المضمون للأمة الإسلامية، لأن منهجها واضح ومجرب، والشعوب الإسلامية مهياً للقيام بالتزاماتها، بينما أي أمة تريد القيام من كبوتها، ستدور في حلقة مفرغة ولو لفترة، ومن أين تبدأ؟ سيكون منهجها مجموعة أفكار وتجارب، ما بين متجانسة أو متنافرة. وتدخل في دوامة التغيير والتبديل، فكلما يظهر عوارها بعد التطبيق، تغير.

سورة التبا مكية، وعدد آياتها أربعون،
وترتيبها بالقرآن (٧٨) وأما في
التنزيل المكي (٨٠)

تمهيد :

نبا عظيم كالأكسجين يدخل خلايا الأقوياء والضعفاء :

كلهم يسألون عن النبا العظيم، وأكثرهم إلحاحاً وتشكيكاً المجرمون من شدة الخوف منه، لأن المجرم يكره كلمة محاكمة ومحاسبة وحقوق... وكونهم يجهلون الكثير، والجهل يولد التنازع والتظالم، كحال الأطفال، يتشاكسون على الملعة، ووعدهم الله سيعلمون الحقيقة بأنفسهم، ووجههم نحو قدرته في خلق الكون وعظمته، وكل ما فيه راسخ وشامخ، وبطرفة عين يصبح هباءً مثوراً، ومن خبايا النبا العظيم، ينقسم الناس إلى تقاة وعصاة ويتحولون إلى جنة ونار.

وكلام الله كله حزم وعزم، ولا يعرف أنصاف الحلول.

وتحديداً من هم الذين يسألون عن النبا العظيم؟ ويستبعدونه؟ ويكررون السؤال دون غيرهم؟

هم المجرمون الذين لا يريدون المحاكمة ولا الحساب، ويستبعدون الأمور، ويشوشون على المحكمة والقاضي، بينما الصالحون مستسلمون.

تقسم السورة إلى خمسة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْمُونَ ﴿٤﴾ تَرَكَلَّا سَيَعْمُونَ ﴿٥﴾ .

٢- ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ .

٣- ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْخِجُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّغِينِ مَتَابًا ﴿٢٢﴾ لَيْسِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفِاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ .

٤- ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ .

٥- ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ﴿٣٩﴾ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ .

أهو نبأ واحد؟. أم أنباء داخل النبأ الواحد؟.

أم هي أنباء عديدة داخل النبأ العظيم، وأصغر هذه الأنباء تشيب منه الولدان، ويصبح الحليم حيران.

نبأ عظيم كالمنطق والثلج والبرد والصواعق، ينزل من علو على الناس المجرمين وبدون استئذان أو إنذار مسبق، نبأ يقول:
لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن عما كنتم تعملون،
فهل أنتم موقنون؟!

مهمة النبأ العظيم في الدنيا، الشعور بالمسؤولية :

هذا النبأ له مفعول في حياة العقلاء، فيدخلهم في مراقبة ذاتية من كثرة التحوط، وكأنهم تحت الكاميرات، حتى يلاقوا ربهم سعداء، نبأ لا تسلم من هممه وكدره إلا البهائم ومن على شاكلتها من البشر!

وما مهمة هذا النبأ تحديداً، وتأثيره على سلوك الإنسان؟ لأن الشعور بالمسؤولية يحجم الشر والأذى عند الإنسان.

وأي نبأ هذا الذي يزلزل الأرض ومن عليها، وينسف الجبال، ويكسف الشمس، ويخسف القمر؟

يتساءل الناس عن مصيرهم وعن بعثهم من قبورهم وحشرهم والتفريق بين التقاء والبغاة، والأتقياء والأشقياء، ويساق الذين كفروا زمراً إلى جهنم، ويساق الذين آمنوا زمراً إلى الجنة، وهو أعظم نبأ وأخطر غائب ينتظر البشرية.

ولعظمة هذا النبأ أفرد الله له سورة باسمه في القرآن الكريم. ”سورة النبأ“
ففي مطلعها وعد للمصدقين ستعلمون، وإيعاد للمكذبين ستعلمون، ثم بدأ

يعدد لهم قدراته المطلقة في تمهيد الأرض، وتوتيد الجبال وحركة الحياة، ووجه انتباههم إلى السماء، ودورها في الإنارة والإمطار ودورة الحياة المترتبة على ذلك المطر، ثم أعادهم ثانية إلى النبأ العظيم، هو يوم الفصل يوم محدد وله وقت غيبي معلوم منذ الأزل، فتقلب موجودات الكون لدور جديد لها، كيف تشقق وجه الأرض، ويخرج الناس سراعاً، وتفتح السماء أبوابها؟ ثم يقدم خريطتين واحدة للنار فيها حميم وغساق، وأخرى للجنة، فيها مفازة، وكواعب أتراب...؟ وأمنية أهل النار -ذاك اليوم- مع إمامهم إبليس لو كانوا تراباً.

وهذه الأمنية لا تصدر ممن كانوا مستضعفين أو قريباً من ذلك، لا تصدر إلا من الزعامات السياسية والاجتماعية والاقتصادية... الذين تعالوا على أصلهم الترابي، فمنهم توهم أن أباه القمر وأمه الشمس، وبنوا قصورهم من جماجم المستضعفين، وعاشوا في الوهم المريح.

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ مُخْلَفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾
تَوَكَّلَا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

القرآن الكريم زلزل الأوهام والأحلام، وما كان يُظن أنه ثابت من الثوابت كالللات والعزى...، فأصبح هباءً منثوراً، وزلزل القلوب والشعوب، والكيانات المالية والاجتماعية، كمشروع زراعي جديد، نفس ما كان موجوداً من التلال، ونسف النباتات المؤذية، ثم سوى الأرض ومهدّها، وفحص التربة والبيئة وزرعها من جديد، بأصناف جديدة عالمية ذات ديمومة، فما كان طيباً ترك غرسه ونماه برؤية جديدة، ولو قيل لأهلها: أهكذا أرضكم؟ لقالوا: كأنها هي؟

والإيمان بالنبأ العظيم يعني الالتزام، وهذا ما صعبه على الناس.

هبّ الناس فجأةً يتساءلون عن حزمة من الأنباء التي طرحها الإسلام،

تبشر، وتندر، بمتواليات من الأحداث ما بعد الموت، بدءاً من الغرغرة، وانتهاءً بالجنة أو النار، والإيمان بالنبأ العظيم يعني الإلتزام، وهذا ما لا تريد النفس المتفلتة، تفوت عليها ملذات الدنيا لمجرد وعود غيبية في الدار الآخرة. لذلك صاروا مختلفين مع أنفسهم، قد يؤمن أحدهم ساعة ويكفر بعد ساعة، ومختلفين فيما بينهم. وهذه بعض آرائهم:

فمنهم جازم باستحالة يوم القيامة يقول: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حِكْمَانَا الَّذِي نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ المؤمنون : ٣٧ ، ومنهم متشكك يقول:

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَأَرِيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِنِينَ﴾ (الجمانية: ٣٢)

وعدهم سيعلمون على مرحلتين، ولعل الأولى: يوم الإسراء والمعراج ، والأخرى: بدءاً من الغرغرة.

فبرحمة من الله هدأهم، وأراح بالهم حول النبأ العظيم، فوعدهم مرتين، سيعلمون علم اليقين في الحياة الدنيا، فأوفى الله بوعد الأول، يوم أسرى بعبده، وعرج بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى السموات العلى عند سدرة المنتهى، وأطلع الله جلّ جلاله نبيه صلى الله عليه وسلم، على نماذج من مساكن وقصور أهل الجنة، وعلى ثلة من الصالحين الذين يسكنون فيها، وبرّز له النار من بعيد، وما فيها من أهوال وسرايب وماء يغلي كغلي الحميم، وبعض النماذج من سكانها، كانوا يضربون ويسحلون ويعلقون بكلايب...

فاختار الله لهذه المهمة التي لم تسبق، ولن تتكرر إماماً واحداً من البشرية، صاحب الإسراء والمعراج وكان من قريش، يعرفون خلقه وحسبه ونسبه، ولقبوه بالصادق الأمين قبل البعثة، ورفع الله إليه، ليطلع الملائكة على من يصلون عليه

طيلة الزمن “إن الله وملائكته يصلون على النبي...“ وأطلع الله رسوله على ما لم يطلع عليه بشر من قبل، وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم يخبرهم بما رأى، وهو الإمام الوحيد الذي ذهب إلى العالم الآخر، وعاد بخريطتي الجنة والنار، وإلا كل من مات، فات، ولم يعد.

ومشكلتهم مع اليوم الآخر ليست عقدية صرفة، بل اجتماعية واقتصادية ومكتسبات نفوذية، لأنهم سيتخلون عن النهب والسلب، ويدعون للحق، والكل سواسية العبد والحر... فمشكلتهم مع اليوم الآخر هي: نزع أنيابهم ومخالبتهم.

عندما بدأوا يسألون ويمورون حول النبأ العظيم، ردعهم الله بقوله: كلاً، مرتين، لأنهم بالغوا في اللغو والتشويش، وهذا اللغو يؤثر على الدعوة في بواكير أيامها، والإيمان بالغيب هو الجناح الآخر للإسلام، فاستوجبوا الزجر، بكلاً. أي انصتوا، واسمعوا: ستعلمون بعد بضع سنين عن طريق رسول الله يوم يأتي ميعاد الإسراء والمعراج في العام السابع من البعثة، وقد كان، وستعلمون بأنفسكم عند الموت وما بعده، ما هو النبأ العظيم؟.

الزجرة الأولى: كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ، علموها بقصة الإسراء والمعراج - ثُمَّ -
الزجرة الثانية: كَلَّا سَيَعْلَمُونَ، يعرفونها عند الموت.

ثُمَّ - جاءت هنا للتراخي حسب الفترة العمرية لكل إنسان.

وهذه أول (كلًا) في جزء عم، وعددهن ثماني عشرة من أصل ثلاث وثلاثين وكلها في النصف الثاني من القرآن الكريم، ومن التنزيل المكي.

وبعد أن ذكر لهم النبأ العظيم بثلاث آيات قصيرة، حوّل القرآن أنظار الناس وعقولهم نحو قدراته وعظيم خلقه، وبديع صنعته، وحبه لهم ورحمته بهم

يوم بسط لهم الأرض وما فيها، ورفع السماء سقفاً محفوظاً خدمة لهم، وبدون مقابل، وبدون سؤال منهم قد سبق أو رجاء أو دعاء من أحد من الخلق، بل هي الرحمة المطلقة وهذا الكرم يأتي، ممن يملك: كن، فيكون... ولا حاجة للمخازن عنده!! ولا للسجلات وتسجيل الإنفاق، لأنه لم يستلمه من أحد، ولا شريك له.

ويتوجه الخطاب القرآني، بالاستفهام الاستنكاري والردعي، للذين يتساءلون عن هذا النبا، مالكم؟ ألم نجعل لكم نعماً لا تعد ولا تحصى، قبل أن تعرفونا أو تسألونا، وقبل أن نطلب منكم "اعبدونا"؟.

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۖ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۗ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۙ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۚ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۚ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۚ وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمُ سَبْعًا شِدَادًا ۚ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ۚ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۚ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۚ وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا ۚ

موجودات الكون وسائل إيضاح تعليمي

كل موجودات الكون شاخحة راسخة مستقرة، والأرض غليظة بصخورها وجبالها وأحجارها، ولكن اللطف الإلهي والحنو على البشرية حولها، وصيرها، وعدلها مرةً بعد مرة، لتكون مهذاً مريحاً يتسع الآن لسبعة مليارات من البشر، ونثر الجبال على وجه الأرض، ليقيم التوازن بين اليابسة والماء، فأعلى قمة في هماليا تسعة كيلو مترات، يقابلها أعمق منخفض في البحر تسعة كيلو مترات، هنا كتلة صخرية، وهناك كتلة مائية، والوزن بينهما متقارب، وبدأ يركز ويوجه أنظارهم على أمرين:

- قدرته المطلقة من خلال ما تقع عليه العين، ليؤكد لهم بأنه قادر على

إحيائهم وبعثهم.

- حنوه وعطفه ورحمته بالخلق أيّاً كان دينهم وملتهم، ومن يرد أن يؤمن به، عليه أن يتخلق بأخلاق الله بالرحمة مع من يؤمن، ومن لا يؤمن.

ومن قدراته: التوازنية في التزاوج والحفاظ على نسبة الذكور والإناث، وثباتها كقانون، مثلاً: عدد الذكور والإناث في البشر والحمام نسبة التعادل متقاربة، بينما في الدجاج والنخيل...تزيد نسبة الإناث عشرات الأضعاف، لحاجة البشرية للانتاج الأنثوي، وهذه قوانين ثابتة، كثبات نسبة الأكسجين في الجو، ومن قدراته: جعل في النوم سراً لا يتحرك النائمون خارج السرر والمراقد، حتى لا يقعوا هنا وهناك، ويقلبهم ذات اليمين وذات الشمال في الساعة خمس مرات، حتى تبقى حركة الدم في الشرايين والأوردة، وبلع النائم ريقه لاشعورياً باستمرار، وإذا نام مرهقاً متعباً، وحشره البول، يرى مناماً مزعجاً، فيستيقظ مرعوباً، فيقوم لتفريغ المثانة، وإلاّ بلل ثيابه وأخرج نفسه وأسرته، ومن قدراته: جعل الليل هدنة محارب، عندما يلبس الكون لباساً معتماً، ويستر النائمين عن عيون اللصوص والحيوانات المفترسة. ومن قدراته: جعل النهار لطلب العيش، فأمن له إضاءة الدروب والمسالك، ومراقبة ما حوله لتطوير عمله، ثم تحول إلى السماء وما أودع فيها تليفاً وتعظفاً، وجعلها سبعاً طباقاً شداداً، أي محكمات مشدودات، لزيادة الطمأنينة لدى السكان الذين يعيشون تحت هذه الأسقف، بأطباقها السبعة، الطباق معلومة والكيف مجهول ولم يقدم العلم شيئاً حول أمر السموات السبع.

ولماذا السموات سبع، وما هي بست، أو تسع؟

وما زال الأمر فوق الطاقة البشرية، وهذا من الغيب الذي نؤمن به، وإن كنا

لا نعلم الحكمة من ذلك. وفي السقف تعلق الأسرحة والثريات والكواكب، وإن كانت المقصودة هنا هي الشمس التي تعطينا نارا ونورا، شبهت بالسراج المتوهج، وهذا إعجاز علمي متقدم، وأنزل من السحب العاصرات ماءً تثج ثجاً، شبهها كالثياب المعصورة وخروج الماء من خلال المسام مناسبة انسياباً عجيباً، وقد لا يصدق الإنسان نفسه، أين كانت هذه المياه؟. ويسوق الماء في السماء إلى الأرض الجرز، ليخرج به الحبوب التي يزرعها الإنسان لحاجته، والنبات الطبيعي لحاجة العالم الفطري وعمارة الكون، من خلال الغابات والحدائق وبساتين الفاكهة، كلها من رحمة الله بخلقه ولطفه بهذا الكون.

وعاد مرة ثالثة إلى المشككين الذين يتساءلون عن النبا العظيم، ولو كانوا يعقلون نظروا نظرة في النجوم، وخروا ساجدين لقدرة الله، وأيقنوا أن القادر على خلق السموات والأرض قادر على تبديلها وإعادة بنائها، ومن كان قادراً على خلق الإنسان، وقادراً على موته، فهو قادر على إعادة تكوينه.

الصُّورُ مِفْتَاحُ الْقُبُورِ؛

إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ
فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾

وعاد النص ثانية للنبا العظيم، بعد أن استعرض بعضاً من موجودات الكون، فإن يوم الفصل بين الظالم والمظلوم قادم لا محالة، وله أجل معلوم ينتظر ساعة الصفر، في ذلك اليوم ينفخ في الصور، وكأنه بوق في ثكنة عسكرية في زمن الحرب، يقوم الناس كلهم جاهزين - هنا الإعجاز - هؤلاء موتى طحنت السنون عظامهم، فيأتون دفعاتٍ دفعاتٍ أفواجاً متتالية منظمة، وكل منهم عرف فوجه ومكانه بالصف، أمور كلها عجب، ولا يسعنا إلا الإيمان بقدره الله، وكأن الصور

الذي ينفخ فيه، هو مفتاح القبور، وكل شبر بالأرض فيه ألف، ألف قبر، وتفتح أبواب السماء وكل شبر منها، فيه ألف، ألف باب، وكما تسيّر في الهواء جبال من البرد والثلج والغيوم فوقنا كقطعان من الغنم، والريح يسوقها إلى هدفها، ففي يوم النبا العظيم تُسيّر جبال الأرض كقطع الفيلة تتهادى صاغرة، فتذوب في الفضاء من سرعة الاحتكاك في الجو، فتصبح هباءً منثوراً، وفيه تعريض بجبال الظلمة والكبرياء والعناد واللجاجة، سيكونون سراباً، ويتوعدهم بجهنم، وكأنه يقول لهم: لقد رصدنا لكم جهنم، تنتظركم بشوق عظيم، وبقدر انتظارها لكم تسجنون بها، وبقدر عشقها لكم، تسقيكم حميماً وغساقاً.

جهنم ترصد زبائنها :

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِللّٰطِغِيّٰنِ مَكَابًا ﴿٢٢﴾ اللَّبِثِیْنَ فِیْهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِیْهَا
بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا ﴿٢٥﴾

إن جهنم كانت، وما زالت مرصاداً، لكل الطغاة، ولكل ذنب من الذنوب له مكان مخصص، سيؤوب إليها المذنبون مرغمين، إرغام رقاقة العجين التي يحملها سير الإنتاج في المخبز الآلي من العجانة إلى الرقاقة إلى التنور، إلى السوق والمائدة، وهم ما بين لابثين وماكثين حقباً طويلةً، إلى مقيمين إقامةً دائمةً أبديةً، والمكان معد للتعذيب، وليس للترفيه، لذلك لن يذوقوا مجرد ذوقان، أي شيء مما كانوا فيه من نعم الدنيا. بل الموجود والمعد للمجرمين من عصائر مشكلة صناعة جهنمية بامتياز، لانعرف عنها شيئاً إلا ما أخبرنا الله عن أسماؤها، وأما المكونات فعلمها عند ربي.

وهناك أسئلة لانملك الإجابة عنها، ونؤمن بها:

ما الحميم والغساق؟ وكم ساعة بقي في الفرن حتى تحمحم، وتغسق؟

وكم كانت درجة الحرارة؟ حتى يستحق هذا التوصيف. ربما تكون المسميات معروفة لدينا، ولكن المحتوى لا علم لنا به.

جَزَاءٍ وَفَاقًا: أي كل ضربة سواك بسواك، وعصا بعصا،...^(١)

ثم يلتفت النص لترسيخ مبدأ العدل الإلهي عند الناس:

الجزاء من جنس العمل، من ضرب الناس ظلماً بسواك، سيضرب بسواك مثله، ومن ضربهم بالرصاص، سيضرب برصاص مثله.

جَزَاءٍ وَفَاقًا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۖ^(٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ۖ^(٢٨) وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۖ^(٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۖ^(٣٠)

يتردد المجرمون قبل الفعل كثيراً بين الإقدام والإحجام، فقد ترجح عندهم كفة الافلات على كفة المحاسبة، وكلما كانت العدالة مهزوزة، زادت آماهم بالتفلسف، وهنا يؤصل مسألة نفسية، تمد المجرمين بالطاقة ” إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا“ ترجح عندهم، بأنهم لا يحاسبون، ولا يعاتبون، ودليلهم من الواقع بأصحاب السوابق، وفي كل مرة يطمع أن ينجو، كما نجا من قبل، وكما نجا صاحبه مرات ومرات، ولأن العقوبة لم تعالج بالدواء المخصص لها، كقطع يد سارق، ليست من أجل الدرهمات، بل لأنه عطلها عن الإنتاج، وحوها من أداة إنتاج وبناء، إلى أداة تخريب وإفساد، وكما تقطع اليد المريضة بمرض

(١) في غزوة بدر كان النبي ﷺ يسوي الصفوف ويديه عود دقيق فقال له سواد رضي الله عنه: قدني... أي اعطني حقي من الضرب بالعود، فأعطاه النبي ﷺ العود، وقال خذ حقك، قال: ضربتني على اللحم، فكشف النبي ﷺ عن بطنه، وقال: خذ... هنا احتضن سواد بطن النبي ﷺ وهو يتمرغ عليها، وهو يقول: ما أردت إلا هذا، أن يمس جلدي جلديك قبل أن أموت، وفي نهاية المعركة كان من الشهداء حقاً!! وتفصيلها بكتب الحديث الصحاح.

خبيث حرصاً على سلامة البدن، تقطع اليد الفاسدة حرصاً على أمن المجتمع،^(١) وبعقوبة واحدة تكاد تتوقف السرقة نهائياً.

وبدأت في نيجريا تجربة معاصرة، في بعض المحافظات ذات الغالبية المسلمة تطبق الحدود الشرعية في نهاية القرن العشرين، ومن أول حدٍّ فرّ المجرمون فوراً إلى المحافظات الأخرى، فزاد فساد المحافظات المجاورة وجرائمها، وقد سكن الهدوء المحافظات المسلمة بعد فرارهم. حتى قال بعض المحافظين المجاورين من غير المسلمين، ليتنا كلنا نطبق الحدود الإسلامية من أجل مصلحة البلاد والعباد.^(٢)

وتحول النص إلى ضمير المتكلم، لأنه أسمع وأوجع: نحن نحصي عليهم أعمالهم، ”وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا“ جاء ذكر الإحصاء الكتابي لطمأنة البشر نفسياً، ولكن الله لا يظراً عليه النسيان حتى يستعين بالكتابة. وكلما زادت ذنوبهم زادت عذاباتهم، وبعد أن قدم شيئاً من الترهيب، تحول السياق إلى الترغيب، ويذكر تسع مغريات تستحق المنافسة هنا. ما بين حدائق وكواعب ...

الفائز في الدنيا، فائز في الآخرة:

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأَسَادِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا (٣٥) جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦)

المتقون في الآخرة كالأطفال في الدنيا، لا يصيبهم ما يصيب الكبار من الهم والنكد، وكأنهم في مفازة من مفازات الجنة.

(١) لم أر واحداً نبه إلى هذا الملحظ، والحمد لله...
(٢) الصورة المثالية لم تدم طويلاً، جندوا لها جنوداً باسم الإسلام، ففشلوا هذه التجربة، العدو كالشيطان يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم.

فاز المتقون في الدنيا بالبعد عن أهل النار وشورهم ومظالمهم، ففازوا براحة بالهم، وفازوا بالجنان، وفازوا بالكواعب، وفازوا بالكؤوس، وفازوا بالأجواء المعقمة، وجاءت حدائق بالجمع، لأن لكل نزيل حديقة تناسب صلاحه، وجاءت الأعناب تأكيداً على وجود الثمار التي يعرفها العرب، والسر بالتركيز على موجودات الجنة وتوصيف الحدائق والأشجار والأنهار والكؤوس المترعة، لأمرين:

الأول: لأن القرآن نزل بوادٍ غير ذي زرع، غير ذي ماء، وهذا أكبر إغراء لهم، بينما لو نزل القرآن في البلاد المطيرة... ليست للشجر ولا للعيون والأنهار هذا الوقع في إغراء النفس. لتناول القرآن مادة إغرائية أخرى تهم المتلقي كالشمس في دول الشمال...

والآخر: هبط عشق الشجرة مع آدم عليه السلام من الجنة يوم هبط، لأنها سكنت في خلايا أبي البشر آدم عليه السلام من شدة حبه لها أراد أن يتملكها، فتملكته فأبعده الله عنها، وبقيت في ذاكرته وجيناته، وأينما يقيم الإنسان لا بد أن يزرع شجرة ولو في نافذة البيت، والجنة بكل ما فيها لم تكتمل الحياة السعيدة لآدم عليه السلام بين الأشجار والأنهار والأزهار إلا بالزوجة، ومن أجمل أيامه يوم التقى آدم عليه السلام بحواء عليهما السلام، يوم جمع الله له بين زهرة الشجر وزهرة البشر "اسكن، أنت وزوجك الجنة" قال له: اسكن، فعل أمر، توحى بأنه كان مضطرب التوازن النفسي والجسدي، حتى جاءه ما يسكنه، ويعدله، ويجمله، ونرى الإنسان إذا توفي في آخر العمر، يختل توازنه بشكل واضح، حتى يأتيه الشيء المفقود، فيستقر، ولا سيما الرجل.

عين مائِيَّة مكآسة :

وجاء توصيف القرآن لكأس من كؤوس الجنة «وكأساً دهاقاً» نكرة موصوفة، لأنها خارج التصور البشري، ولو عصرنا خيالات الشعراء والأدباء، وقلنا لهم: هاتوا برهناكم إن كنتم صادقين، هاتوا صورة فنية لكأس مملوءة وتفيض كلما نقصت، أو بتوصيف آخر:

هي عين مائِيَّة مكآسة، تدهق منها الماء دهماً، كما ينبع الماء من بين أصبعي النبي صلى الله عليه وسلم. أو كأس مائِيَّة تنفجر منها الماء. أو كأس معلقة في الهواء الطلق، وتنفجر منها الماء.

نظافة البيئَة السمعِيَّة أخلاقِيًّا :

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴿٣٥﴾

وتؤكد على تربية المجتمع إلى أهمية نظافة البيئَة السمعِيَّة أخلاقِيًّا، فلو كانت البيئَة الخارجية ملوثة، تلوث ما بداخل البيوت، ومهما كان المسكن فخماً وجميلاً، وسكانه على قدر المستوى، ولكنهم يسمعون كلمات نابية من الجوار، يأتي بها الأثير إلى مسامع المحترمين، يتأذون منها، فيفسد عليهم متعة المسكن والحياة المترفة، وإن الذين يجالسونهم في الجنة لا يعرفون الكذب أصلاً، ولا يحتاجونه، لأن الكذب تجلبه الحاجة أو الخوف، وفي الجنة لا حاجة ولا خوف.

جزاء فضل، وجزاء عدل :

جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾

هنا جزاء ان، أحدهما: جزاء من فضل الله بلا حدود، يعطي لمن شاء أكثر من عمله، والآخر: يعطي من يشاء بعدله وما يستحقه، الأول عامله الله بالفضل

والآخر عامله بالعدل. وجاءت كلمة: رَبِّكَ، تكريماً للنبي صلى الله عليه وسلم ، وكأنه رب محمد صلى الله عليه وسلم وحده، فيها تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم ، وفيها تحذّر لمن يعادي محمداً صلى الله عليه وسلم. ثم جاءت بعدها « رب السموات والأرض وما بينهما » ورسول الله ﷺ ممن بينهما ليؤكد ما ذهبنا إليه، أنه أفرده بالذكر.

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

الرب الذي يربي كل موجودات الكون، ومناهج التربية مختلفة، منها ما يحتاج إلى ملايين السنين من المداراة حتى يمكن الاستفادة منه، كتكوين الكواكب والبترو، والأحجار الكريمة، ومنها إلى عشرات السنين كالأشجار، والعالم الفطري، وعالم الأرحام الذي يعيش في بطون أمهاتهم، منها ما يتكون في أسابيع، ومنها في بضعة أشهر، ومنها اثنان وعشرون شهراً كحمل الفيلة. نعم! إنه رب السموات والأرض، يربي كل موجودات الكون، نعم المربي...!!

قُدْرَةُ اللَّهِ تَخْلُقُ، وَالْحَيَاةُ تَسْتَهْلِكُ :

ومن ثوابت الكون أرحام تدفع، وأرض تبلع، أو قل مصانع تصنع، وحياة تستهلك... وكل هذا من عطاء الرحمن بدون أي طلب من خلقه، ولا يريد له ثمناً، ليحقق لنا أنه الرحمن الرحيم.

لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾

لأن الله لا يحتاج إلى مشورة ولا مساعدة، ولا يطرأ عليه طارئ حتى يعدل، أو يبدل، حتى يلجأ إلى سؤال من حوله، أو الذين من حوله من شدة الحرص عليه، يتدخلون مندفعين، ينبهونه، هناك خلل ما! هم يتمنون خطابه لكن لا مجال

لهم، ولا يملكون سبباً، وأي سبب.

تعالى الله علواً عظيماً.

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٢٨﴾

لقد عاد مرة ثالثة للحديث عن النبأ العظيم، يوم القيامة الذي لانعرف عنه إلا ما جاء به الوحي، ونؤمن به، وهذا مشهد مهيب جليل، يوم يقوم الروح والملائكة صفاً...

يُستوحي من النص: الهيبة، ودقة التنظيم، والتجلي وسيدنا موسى ﷺ له تجربة مع التجلي، ولاندرى نوعية التجلي، ولاندرى زمنه، كل ماندرى عن آثاره: إلا أن موسى صعق وغاب، ولا ندرى مدة الغيوبة، ثم أفاق، والجبل بجواره فني فناءً كاملاً قوله تعالى: " فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً، وخر موسى صعقاً، فلما أفاق، قال: سبحانك إني كنت من الظالمين " ١٤٣:٧. لمجرد التجلي، كيف يوم القيامة؟ « وجاء ربك والملك صفاً صفاً ». التجلي إشراقة نورانية، ومحيى ربك.... بجلاله وكماله لا توجد له حروف ولا مفردات ولا جمل، تتحمل نقل التوتر العالي من التجلي، إلى الخلائق... لتوصيف المشهد أو أنها تحمل معنى يقارب الذهن ولو على مستوى التخيل، ولولا أن الله يبدل الكينونة البشرية، لتصدعت القلوب من اللحظة الأولى!!

وتبرز حزمة من التساؤلات، تقول: أين كان عالم الملائكة، حتى جاءوا؟ من أين جاءوا؟ كم عددهم؟ وكم يقفون بالصف؟ ومن هو الروح، حتى قدم على الملائكة؟ ولم تميز عن الملائكة؟ وعن الصفوف؟ ترى هل هو صف واحد أم عدة صفوف؟ كالصفوف حول الكعبة دائرية أو مستطيلة كالصلاة؟ لا إجابة إلا بوحي.

لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾

لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا... وكيف يتكلم المخلوق مع خالقه؟ وكيف يتكلم العبد

مع سيده؟

لا يوجد تكافؤ للكلام، ولا فرصة للتكلم.

لا حاجة تستدعي الكلام، وكل شيءٍ كامل مما حولهم، كالأجنة في الأرحام لا تتكلم، ليس لأنها صغيرة فحسب، بل لكمال الجو المحيط بها من كل شيءٍ، وبعد الولادة يبكي المولود كلما حصل له نقص ما، وليس أمام الملائكة شيء يقومون به إلا التسييح والتهليل وهذا من الصواب الذي يؤذن به. فلا بد من الإذن بالنسبة لعالم الملائكة: كقوله: «لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ» هود: ١٠٥.

وبالنسبة للبشر الإذن للرسول، كما ثبت في الصحيح:

”ولا يتكلم يومئذ إلا الرسول“. ابن كثير.

ذَلِكَ الْيَوْمِ الْحَقِّ فَمَنْ شَاءَ أَخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾

وعاد إلى النبأ العظيم هو يوم الحق الذي يبشر به التقاة، وينذر منه الطغاة، يوم الحق الذي تحق به الحقوق، وسمي بيوم ”الحاقة“ وله سورة باسمه، وما زالت أمام المتسائلين فرصة للتوبة والإسلام، وجاءت في السياق بشارة ”فَمَنْ شَاءَ..“ هذه العبارة متضمنة تفاعلاً أن من بين المتسائلين فريقاً منهم في طريقه للإيمان، أو ثمرة إيمانهم لم تنضج بعد، سيتخذ طريق النجاة التي تؤوب إليه القلوب المؤمنة.

أمنية الجابرة والمتكبرين: ياليتني كنت تراباً؛

إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

«إنا» و«نحن» ومثلها: إنا أنزلناه في ليلة القدر... نون الجماعة للمتكلمين، التي يسميها بعض البلاغيين نون العظمة والتفخيم، وعند ابن عربي: نون الجماعة التي تجمع كل القدرات والطاقات المخزنة بأسماء الله الحسنى، اسم الرزاق فيه من الطاقات التي تطعم كل الإنس والجن والدواب ولكل مخلوق ما يليق به، ولو افترضنا ثمرة... ثمرة لكل مخلوق، يومياً يحتاج ملء الأرض تمراً، وما فيها من خاصيات «إنا نحن أنزلناه...» و«إنا أنذرناكم...» حتى لا يبقى لكم عذر علينا، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً، أنذرناكم عذاباً واقعاً قريباً، وهو يوم النبا العظيم، يوم ينظر المرء كل عمله محضراً بين يديه، من خيرٍ أو شرٍ، ويرى الكافر ما آل إليه المؤمنون، فيزداد عذابه ضعفين، مرة ندماً على ما فاته من نعيم الجنة، ومرة على ما هو فيه من العذاب، وجاءت آخر الأمانى عنده متأخرة، ليته لم يكن فرعونياً ولا جباراً... تعظمه الجماهير الخادعة والمخدوعة، وترفعه الشعوب المستذلة، ولهذا فقد توازنه، وانشقت نفسيته نصفين: نصفه يولد الكذب على الناس، ونصفه الآخر للتصديق، ويتجلى ذلك في الانتخابات المزورة، ونتيجتها أربع تسعات، فيصدقها، ويفرضها على الخانعين، وبنى أهراماته فوق السحاب، حتى نسي شيئاً اسمه التراب، وصار يقتنع بأن أباه القمر، وأمه الشمس، ففي اليوم العظيم والنبأ العظيم، يتبخر الوهم، ويعلم عندها كل ما فوق التراب تراب، ويتمنى لو كان تراباً تحت تراب.

سورة النازعات مكية، وآياتها ست وأربعون، وترتيبها بالقرآن (٧٩) وأما في التنزيل المكي (٨١)

تمهيد :

علم الساعة لله وحده، مخفي حتى على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: السورة بها ستة محاور كلها في إطار يوم القيامة، أو تابع ليوم النبا العظيم الذي هم فيه مختلفون.

لقد أقسم الله بعوالم غير مرئية لنا، وإن كانت لها آثار عمل فينا، والكون كله أسرار، والمطلوب منا نعبد رب هذا الكون، وليس بوسعنا معرفة كل ما حولنا، لأن العمر لا يتسع لذلك، أو خارج الطاقة البشرية، أو لكل زمان معطيات ربانية، سبق فيها الكتاب.

ثم تحوّل النص يعرض بعض ملامح تبدلات كونية، تبدأ من الراجفة وتتبعها الرادفة، ومجرد التفكير بها، ترجف منها القلوب، وتردّفها الأعضاء.

وتحوّل النص إلى معاناة موسى مع قومه الأذلاء المشاكسين، ومع الطاغية فرعون، وكيف كانت النهاية؟ الحق والزيت يرتفعان.

وبدل أن يقول الله للناس: أنا قوي، كبير، عظيم... حول انتباههم نحو السماء وبنيتها، ثم نحو الأرض وما أودع فيها، ليتحسس الإنسان بنفسه، قدرة الله وعظمته، وهذا أهم درس تربوي لتعليم التوحيد غير المباشر.

وعاد إلى النبا العظيم إلى يوم الطامة الكبرى التي ما بعدها طامة، بتصوير ترهيبى يجعل القلب يخفق كقلب قطة في مخلب الصقر.

وعاد النص ليرشد الذين يتساءلون عن علم الساعة، وهذا لا يسألون عنه.
وجاءت السورة بستة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿ وَالنَّزِعَاتِ غَرْقًا ١ ﴾ وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ٢ ﴿ وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا ٣ ﴾ فَالسَّيِّغَاتِ سَبْحًا ٤ ﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ٥ ﴾ ﴿

٢ - ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ٦ ﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ٧ ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ٨ ﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةً ٩ ﴿ يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ١٠ ﴾ أَيْنَا ذَا كُنَّا عِظْمًا نَخْرَةً ١١ ﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ١٢ ﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ١٣ ﴿ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ١٤ ﴾ ﴿

٣ - ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ مُوسَى ١٥ ﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ١٦ ﴿ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ١٧ ﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ١٨ ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَشَى ١٩ ﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ٢٠ ﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَى ٢١ ﴿ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ٢٢ ﴿ فَحَشَرَ فَنَادَى ٢٣ ﴿ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ٢٤ ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ٢٥ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ٢٦ ﴾ ﴿

٤ - ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ حَلَقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ٢٧ ﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ٢٨ ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ٢٩ ﴿ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ٣٠ ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ٣١ ﴿ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ٣٢ ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ٣٣ ﴾ ﴿

٥ - ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ٣٤ ﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ٣٥ ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ بَرَى ٣٦ ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ٣٧ ﴿ وَءَاثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ٣٨ ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ٣٩ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ٤٠ ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ٤١ ﴾ ﴿

٦ - ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ٤٢ ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ٤٣ ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا ٤٤ ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا ٤٥ ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ٤٦ ﴾ ﴿

أقسم الله برّب النّازعات... لتبعثنّ ولتحاسبنّ

اسم السورة واستهلالها ونبرتها ومحتواها، قوارع لتوقظ أهل الكهف من رقدتهم، وتوقظ نوام الغفلة، بل توقظ موتى القلوب من الأعراب! وتجعل الحليم حيران يتلمس رأسه، ويتساءل:

١- من ذا الذي ألجأ ربنا جل جلاله حتى يقسم، ويكرر القسم، برّب النازعات، والناشطات، والسابحات...؟

ويوحى الاستهلال بأن الذي استدعى هذه الأقسام في بداية التنزيل كثرة الردّ، والصدّ من الذين يواجهون الدعوة في بدايتها، وهم ينكرون مجمل الغيبات أو بعضها لأسباب منها: حسدية، وجهلية، وعنادية...

فأقسم الله بالنازعات، والناشطات، والسابحات... لتبعثنّ يوم القيامة، ولتحاسبن، وختمت بخبر الساعة المغيب لحكمة يريدّها الله، وهذا سرُّ الله وحده!!

سورة النازعات بدأت تقسم بذكر عوالم خفية علينا، وعملها خفي، نحسها ولا نلمسها كالروح في الأجسام محسوسة غير ملموسة، وختمت السورة بما هو خُفي حتى على الأنبياء!! متى الساعة؟

وهذا التساؤل عن الساعة، ليس من أمر البشر، ولا مطلوب منهم، إنما المطلوب الإيمان بها والاستعداد لها!!

ويقول ابن عطاء الله السكندري قولاً حول العوالم الخفية: الكائن في الكون، ولم تفتح له ميادين الغيوب، مسجون بمحيطاته، ومحصور في هيكل ذاته...^(١) وكنت أتمنى أن يضيف: لكل أجل كتاب حتى تفتح الأبواب. ولعل

(١) تفسير الآيات الكونية، ص: ٢٦٦.

هذه الأقسام جواب، لمن يطرحون السؤال التالي:

من ذا الذي ألجأ الله حتى يقسم برب النازعات، والناشطات، والسابحات؟! وهذه الأقسام عرفناها، ولكن المقسوم بها، نرى منه طرفاً شفافاً، ويغيب عنا الجوهر المكنون فيها، وهي كالروح، والنفس، هما فينا، فينا، نحس منهما شففاً مضيئاً، وأما الجوهر المكنون

- علمها عند ربي - ومثله: النازعات، والناشطات، والسابحات... ثارت حزم من الأسئلة العمومية عند المفسرين حولها، والسؤال الأهم: ما هن؟ هي أقسام غامضة أو مغلفة أو رمزية صرفة، لها أهداف ستظهر. نعم! لكن متى؟ والإدراك البشري يستوعب في حدود بشريته، وما يأتيه من فوق طاقته يسنده للإيمان المطلق، أو لما يجبر به الوحي الصادق الأمين، ومن منا يتصور العوالم المتحركة السريعة، بل والخاطفة خطفاً، واستجابة الأشياء إليها مجرد الإشارة أو مجرد الإرادة: كن، فيكون، كما استجاب عرش بلقيس بالإشارة من اليمن إلى القدس بطرفة عين، وربما تكون هكذا" النازعات، والناشطات، والسابحات... ولعل الرسوم المتحركة والاتصالات الحديثة، تقرب لنا تصورهما ولو شيئاً قليلاً.

وجاء جزء عمّ بوجه عام مليئاً بأقسام بعوالم منها غامضة، ومنها أشار إليها إشارة، وهي بالملايين المملينة، وما نعلم من أسرارها إلا قليلاً، لحكمة يريدنا الله، منها:

وكل شيء يُكشَف سرُّه، يهون أمره:

مثلاً: لو عرض على الناس جهاز صغير يقوم بأدوار عدة، وعجز المتخصصون به، عن فك كينونته، جيلاً بعد جيل، فتزداد هيئته وتعظيمه، وتتعلق الأنظار إليه، ومجرد اكتشاف أسراره، هان على الناس. إذاً للغموض أحياناً رسالة.

وَالنَّزِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّدَشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّيْحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّبِقَاتِ سَبْقًا ۝٤
فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا ۝٥

النبي ﷺ لم يفسر لنا المراد من هذه العوالم. والصحابة لم يفسروا لنا ماذا فهموا من هذه الأقسام؟. لعلها كانت شيئاً معروفاً مألوفاً، ولا يعانون منها، ما نعانيه منها اليوم.

وأما خصوم الدعوة من العرب أرباب البلاغة، الذين هم مناط التحدي والذين يتصيدون كل صغيرة وكبيرة، لم يثيروا هذه المسألة، أو يشككوا بها، دليل على أنها من مسلماتهم.

والمفسرون الأوائل جاءت آراؤهم عائمة، وهم أقرب الناس إلى منابع العربية وأصالتها، وإلى جيل الصحابة، وهذا الطبري ينقل جملة من الآراء العائمة، منها:

«... قَسَمَ رَبُّنَا جَلَّ جلاله بالنازعات، واختلف أهل التأويل فيها، وما هي، وما تنزع؟ فقال بعضهم: هم الملائكة التي تنزع نفوس بني آدم، والمنزوع نفوس الأدميين.

وقال آخرون: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق.

تعالى الله، أقسم بالنازعات غرقاً، ولم يخصص نازعة دون نازعة، فكلّ

نازعة غرقاً، فداخلة في قسمه، ملكاً كان أو موتاً، أو نجماً، أو قوساً، أو غير ذلك. والمعنى: والنازعات إغراقاً كما يغرق النازع في القوس...»^(١)

وصاحب الظلال ركز على الأثر النفسي التي تتركه هذه الأقسام على المتلقي:

«...وأياً ما كانت مدلولاتها فنحن نحس من الحياة في الجو القرآني أن إيرادها على هذا النحو، ينشئ أولاً وقبل كل شيء هزة في الحس، وتوجساً في الشعور، وتوفراً وتوقعاً لشيء يهول ويروع. ومن ثم فهي تشارك في المطع مشاركة قوية في إعداد الحس لتلقي ما يروع ويهول من أمر الراجفة والرادفة والطامة الكبرى في النهاية...»^(٢)

ويوحي السياق المتخيل من خلال هذا الاستهلال بالنازعات، بأن هناك حركة سريعة وخاطفة، من عوالم الملائكة وأعدادهم لا يعلمها إلا الله، وقدراتهم لا يحيط بها إلا الله، وقد يكون الواحد منهم يتمتع بقوة مليونية، أو مليارية، من يدري؟ أو أن الأشياء تستجيب لهم!.

و كل ملك في السماء أو الأرض يخصه الله بأمر ما أو أمور، ولكل منهم دور يقوم به يوم إنقلاب الكون إلى كون جديد، أو تبدلات الكون الكبرى يوم القيامة، ثم تتبعها النفخة الثانية، فإذا هم قيام ينظرون، وهناك أعداد من المخلوقات تفوق عدد الرمل وقطر السماء من الإنس، ومثلها من الجن، ومثلها من العالم الفطري، تموت بنفخة، وتحيا بنفخة... ومن أراد أن يتصور أو يتخيل السرعة، حمل نفسه فوق ما لا تطيق، فهذا الموقف الذي تجري به الأمور على غير ما نعرفه في عالم الحياة الدنيا، فما ينجز بقرن في الدنيا، ينجز بثانية في ذاك اليوم.

(١) تفسير الطبري، ج ٢٤: ١٨٥.

(٢) في ظلال القرآن، ج ٧: ٤٤١.

وبأقل من ذلك بكثير: ”كن، فيكون“!!

عصا خشبية نابت عن ملايين المهندسين والمعدات

والذي يقرب لنا تصور هذا الحدث وسرعته، حدث قريب منه جرى على الأرض كمشهد الغرق الفرعوني، عندما طارد فرعون موسى وأصحابه، وصار البحر أمامهم وفرعون من ورائهم، قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، قال: كلا، إن معي ربي سيهدين، قلنا: اضرب بعصاك البحر، فانفلق، فأصبح كل فرق كالطود العظيم.

بضربة عصا خشبية نابت عن ملايين المهندسين في التجسير، والتجميد، والتجفيف، والتعبير المروري، ونابت عن ملايين المعدات المعقدة، ونابت عن آلاف مؤلفة من البوارج وحاملات الطائرات، وصواريخ بحر بحر، وأغرق فرعون وجنوده بدون طلقة واحدة، وبعد عبور بني إسرائيل، وبطرفة عين عادت الإنشاءات المائية كما كانت، ماءً بماءٍ، وكأنها لم تكن، وكل واحد من الذين نجوا لا يصدق نفسه، ويكذب عينه وما رأته من قبل، هل هذا يقظة أم منام، سحر أم حقيقة؟

فهذه الإنشاءات الخيالية، تحتاج إلى مثل النازعات، والناشطات، والسابحات.

وقياساً على ذلك الاحتفالات الرسمية -في عصرنا- التي تقام في العراء، ولمدة ساعة أو أكثر، ويكون الحضور بالمئات، تحتاج إلى ورشات عمل مختلفة ليلاً ونهاراً، في إعداد شبكات الطرق والمياه والكهرباء والهاتف والصوت والصورة والحالة الأمنية واحتياجات الطوارئ للعوامل الجوية، وما بين تأسيس وتثبيت وتجريب وتجميل وتحميل المسؤولية.

وكثرة الأعداد المحشورة من الإنس والجن تريد جهداً بحجم الحضور يبذل من الملائكة، لأن أرض المحشر صارت جديدة ”يوم تبدل الأرض غير الأرض...“ الآية وبعد أن صور السياق لنا حركة ما يجري في الفضاء من النزاعات والناشطات... يصور لنا ما يجري على الأرض من الراجفات والرادفات.

يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾

المتخصصة بالرجف: يوم القيامة ترجف بكل طاقتها، ياللهول!

وعندما ترجف الأرض سيرجف كل من عليها، وكل من فيها، وكل من حولها رجفاً يليق به، وعندها تبلغ القلوب الحناجر، إن بقيت هناك قلوب. وكل حجر وشجر وضرس وناب... وكل عضو يودع جاره، قائلاً: تفارقني، وأفارقك إلى يوم القيامة.

لكونها المتخصصة بالرجفة، والموعودة بالدعم، والمعصودة بالرادفة، وهل الرادفة من جنس الراجفة التي تقلع القلوب، وتشخص الأبصار؟ ولكل واحدة خصوصية تليق بمسماها؟

وهل الراجفة للبر والفاجر والمؤمن والكافر... أم هي للذين كانت ترجف منهم قلوب الضعفاء، وتصطك أسنانهم، وتصطفق ركبهم... وترد فمهم جلطة دماغية...؟ والجزاء من جنس العمل.

قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾

وكما للصبر حدود، وللقلب حدود من التحمل، وهذا التهديد موجه لقلوب منكري البعث، القلوب التي سيكون من فوقها نازعات وناشطات... ومن تحتها راجفات ورادفات، لذلك صارت واجفاتٍ خائفاتٍ، وأبصارها

متكسرات ذليلات، ونسوا إن كانوا يوماً في الحياة الدنيا، كانوا يقولون متهمين:
بعد الحفرة ما في نفرة، والعظام المنخورة غير مجبورة على سبيل الاستهزاء
والتهاون... استهزاء العطاء المغرورين، الذين يعيشون في الوهم المريح.
مما يتهمكم به المشركون: بعد الحفرة ما في نفرة:

يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرُدُّونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أءِذَا كُنَّا عِظْمًا نَخْرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ
خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

النص القرآني ينقل لنا تقوُّلهم، ونفسيتهم في الحياة الدنيا، وكأنهم يقولون:
لئن تحقق ما نوعد به من الحساب والعذاب، ستكون كرتنا الثانية كرة خاسرة.
وجرت حادثة قريبة من هذا السياق، في سبعينيات القرن العشرين توفي
رجل من مدينة ... شرقي حلب، يحمل الفكر الماركسي، فلما توفي^(١) تباعد عنه
الناس، باستثناء رفاق الفكر، وبعد دفنه، وقف أحدهم على شفير القبر يلقنه
ساخراً: يافلان ابن...!! إن صح، مايقوله المؤمنون بعذاب القبر، إن الميت يأتيه
ملكان: منكر، ونكير،...
ستكون ليلتك سودة...

فتضاحكوا، وانصرفوا... وأجواء المدينة متألئ بالعلم^(٢) تسمى الأزهر
لكثرة العلماء والمساجد وحلق الذكر، فيستبعد استنبات مثل هذا الفكر بأبنائها،
ومرّ الإلحاد السوفييتي في ستينيات القرن الماضي على البقاع الإسلامية، كموجة

(١) من يدري أنه استغفر وتاب بينه وبين ربه؟ ومن يدري أظهر الشيوعية، من أجل إبعاد الشبهة عنه،
بأنه ليس من التيار الإسلامي، ويطمع بوظيفة مرموقة... ولد وعاش في بيت مسلم وبيئة مسلمة،
ولعلها لمسة شيطان عابرة، والله غفور رحيم.

(٢) سكانها ١٥٠ ألف، ومثلهم نازحون إلى المدن، بها ٧٥ مسجداً تقام بها الصلاة، و ٢٥٠ طالب علم شرعي،
و ١٠٠ حافظ لكتاب الله، وتسمى الأزهر الشريف لأن أربعة من أبنائها تخرجوا من الأزهر ١٩٠٠ م

صقيع جاءت بعز الصيف، ونادراً ما تقع.

فَأَيُّهَا زَجْرَةٌ وَحِدَةٌ ۝۱۳ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝۱۴

وهذا الحالة الزجرية لا تكون إلا للمساجين المجرمين، والإعجاز يتجلى بزجرة واحدة، لاثانية لها، والسؤال: كم فيها من الطاقة المطلقة، التي تحول العظام الرّمة، إلى عظام صلبة وبنفس المقاس، وكل عظم وعظمة وعظيمة في مكانها، ثم تكسى باللحم، وتروى بالدم، ويقوم الناس بأعداد تفوق رمال الأرض ملايين المرات؟ وبهذه الزجرة يقوم الجميع من قبورهم، ويصطفون في أماكنهم المخصصة لكل واحد منهم، ويتنظرون ساهرين لا تغمض لهم عين، ولا يرف لهم جفن.

و النوم ليس من خصوصيات الآخرة.

فَأِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝۱۴

كناية عن الخوف والقلق، لأن الخائف لا يعرف النوم في الحياة الدنيا إلا خطفاً.

جاء النص ليحدثنا عن أمر ما غيبي، سيحدث في هذا الكون، بدءاً من النازعات وانتهاءً بالساهرة، وتحول السياق إلى عالم غيبي آخر وقع في الزمن الماضي، و يتكرر وقوعه، بين فرعون وموسى عليه السلام وينقل لنا صورة من صور الصراع بين الحق والباطل، والمادة والنور، وفيها بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم بالنصر، وفيها إنذار للمشركين، وموسى عليه السلام معه كلمة الحق، وفرعون معه كل مصر بقضها وقضيضها، بجيوشها وكنوزها، وفي النهاية ارتفع موسى عليه السلام وغرق فرعون. وهذه الحالة ليست مصادفة ولكنها قانون رباني: الحق واحد لا يتعدد والحق قوي بذاته، والباطل ضعيف بكل قوته وجيوشه.

هَلْ أُنثَكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾

«بدأ مخاطبته بالاستفهام الذي معناه العرض ، كما يقول الرجل لضيفه : هل لك أن تنزل بنا»^(١)، وبنفس الأسلوب، أمره أن يخاطب فرعون « هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكِّي؟ .

نداء الله لآدم وإبراهيم وموسى - عليهم السلام - خصوصية:

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾

سبحان الذي اختص موسى عليه السلام بالمناداة في بضع مرات، وقد سبقه بذلك آدم عليه السلام وحواء: «وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلك الشجرة» ٧: ٢٢. ولكنه نداء مشوب بالعتب واللوم، ثم خص إبراهيم عليه السلام «ونادينا أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا» الصافات: ١٠٤. نداء فيه كل الرضا والمكافأة على الصدق والإخلاص. وتكررت المناداة لموسى عليه السلام

كيف كانت المناداة؟

الأذن البشرية مخصصة للصوت البشري، وكل عضو فينا هو أذن تسمع لله :

وصوت الحق ليس كصوت البشر قطعاً، الذي لا يدخل إلا عن طريق الأذن، بينما نداء الله تستقبله كل خلية وعضو وكل كرية حمراء أو بيضاء، كلها أذان، وكلها ألسن تسبح بحمده؟ والسؤال: كيف كانت خصائصه الجمالية والكمالية؟ وكل ما يخطر ببالك، ليس هو كذلك!

(١) الكشاف، ج٧: ٢٢٧.

وكيف كان حال موسى عليه السلام عندما سمع النداء؟ وماذا حلَّ به؟ هل بقي متوازناً أم ذابت كينونته؟ وأنى لبشر أن يثبت؟ وكيف كان صدى الوادي المقدس؟ هل تفتّر، أم تدكدك، أم سما سموماً فوق كل الأودية؟ كلام جبريل عليه السلام وهو ملك، أثر في عظيم الأنبياء تأثيراً بالغاً في غار حراء، وهذا حال النبي ﷺ من بعد صوت جبريل يقول: زملوني! زملوني! ومرة: دثروني! دثروني!

أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾

فإن الله يأمر رسوله أمراً، اذهب إلى فرعون وحدد له الهدف، وقل: كذا... وكذا... وفيه تنبيه للدعاة، ألا يجعلوا مزاجهم هو المنهج، وفي زماننا بلية البلايا، وداهية الدواهي، عندما يتحوّل مزاج الداعية منهجاً، وكأنه منهج رباني.^(١)

الطغيان لها جناحان جناح للبلاء وآخر للفرج، طغيان فرعون هو الذي جاء بموسى عليه السلام، وجلب الفرج، وكأن الله يطلعنا على سُنّة من سننه في الأرض، بأن تزايد الطغيان والظلم يستدعيان العدل والفرج، وأن الطغيان هو عدو الطغاة قبل غيرهم، والطغيان بوابة الفرج، وكأن الله يقول لموسى عليه السلام: اذهب الآن، وافتح بوابة الفرج، وهذه رسالة لكل الشعوب المظلومة، بأن تلجأ إلى الله، فهو الذي يحدد نهاية الطغاة وبداية الفرج.

فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبُنِي ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَانْحَسِبْ ﴿١٩﴾

المطلوب من فرعون: التزكية، والخشية.

ولا يوجد عاقل في الدنيا يُقال له: كن حليماً، فيرد: سأبقى سفيهاً، ويقال

(١) حضرت حفل عرس، وكان إنشاداً إسلامياً أو مباحاً - سمه ما تشاء - واعترض واحد من أهل المزاج على الذين يضربون بالدف، يقول: هذه الدقة مي عاجبتني، فيها حرام، غيروها، جاء صاحب الحفل يسألني، قلت له: لا ترد عليه، متنطع، الدين منهج، وليس مزاجاً!!

له: كن محترماً، يقول: سأبقى سافلاً...

في المرحلة الأولى قال الله لموسى عليه السلام وحده، نمّ في فرعون التزكية والخشية، فإذا مانمت، وترعرعت، يصبح مهيناً لمرحلة التفكير، وفي المرحلة المقبلة سيأمر موسى وهاورن عليهما الصلاة والسلام، بالقول والقول اللين: « فقولاً له قولاً ليناً، لعله يتذكر أو يخشى » طه: ٤٤. لأن اللين من الدين، أمرهما أمراً باللين، ولما قوي حالهما بالتعاقد، وصار شعورهما بالتعاقد مدعاة للقوة ومدعاة للمصادمة، وتضييع الهدف الكبير^(١). وأي هدف! لا تقاس نتائج إيمان فرعون على الأرض، بنتائج إيمان فرد من غمار الناس، وهذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم عندما دعا دعاءً، وطلب طلباً: ” اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب “ هو سأل الطاقة المخزنة والفاعلة فيهما، ويتمنى أن يتحقق المردود التي يكمن فيهما، ما لا يكمن في غيرهما.

هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى؟

ما قال الله لموسى عليه السلام، قل له فوراً: تزكى، وإن كان هذا هو مراد الآية في النهاية، بل تدرج في العرض على فرعون تدرجاً استتلافياً، كما يتدرج مروض السباع مع سباعه، يضع يده فوق العصص، ويهرشه بحذر، فيرتخي الحيوان ويفتح رجليه، دليل على الموافقة الحذرة، ثم يتدرج إلى رقبتة، فبدأ:

هل، لك، إلى، أن،... حروف لينة هينة، وبدل أن يقول له: تزكى، قال: تزكى، لعلها ألين، حتى لا يفتح صمام الخطر، وكأنه يقول له: أنت يا فرعون جميل، وهل تريد أن تتجمل أكثر، حتى أدلك على الطريق، الذي يوصلك إلى ربك فتخشى، ولم يقل: فتخشاه، حتى لا يستنفر، وتأخذ العزة بالإثم، وتبقى

(١) الأخوة الدعاة الهنود من الموقنين بصيد الزعامات، لأنهم يصبرون ويتأملون قبل أن يتكلموا...

الألف المقصورة في خواتيم الآيات مساحة مفتوحة عند المتلقي للتأمل والتفكير.

فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾

فجاءت عصا موسى عليه السلام ولها آيتان: مرة كانت آية صغرى، عندما انقلبت إلى حية صغيرة تتحرك، ومرة آية كبرى، عندما تحولت إلى ثعبان ممين ضخم يظهر من بعيد. ففي المرة الأولى « قال: ألقها ياموسى، فألقاها، فإذا هي حية تسعى » طه: ٢٠. هذه لتدريب موسى منفرداً، ولكن الكبرى لفرعون. « فألقى عصاه فإذا هي ثعبان ممين » ٧: ١٠٧.

السؤال: هل ما رآه فرعون آية، أم رآها عصا، أم رآها سحراً؟ وهي مشكلة الطغاة كأبي جهل رأى محمداً بشراً يتيماً، بينما أبو بكر رآه بشراً نبياً، ولو رآها فرعون آية كبرى لرأى غيرها من آيات الله، فأراه الآية الكبرى العصا الموسوية، ولم يرها فرعون إلا سحراً، لم ير خلق السموات والأرض وما فيهن، بسبب ما وضع هو على عينيه من الأغطية المتعمدة «الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري» ١٨: ١٠١. هم الذين وضعوا الغطاء على أعينهم من شدة كرههم للحق، فثبت الله ما يريدونه، «فأغشيناهم فهم لا يبصرون» يس: ٩. وتابع القرآن يصور لنا الحالة النفسية الهستيرية التي انتابت فرعون... من خلال ردة فعله، عندما قام بثانية أدوار متوالية:

هستيرية فرعونية قامت بثانية أدوار

كذب، وعصى، وأدبر، وسعى، وحشر، ونادى، وترربب، وتأله... وهذا سلوك الأزعر، إذا أصابه ما يكره، لا يتوقع أحد ردة فعله، وربما يقلب الدنيا لأتفه الأسباب.

فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾

في مفهوم فرعون للكون ربان: عالٍ، وأعلى، واختار لنفسه الأعلى.
فكذب ما رأت عيناه من أمر العصا الموسوية التي انقلبت من خشبة يابسة عابسة إلى حية تسعى بلحم ودم وعصب، بسبب عمى البصر والبصيرة، وعصا أن يتزكى، وعصا أن ينحشى، بسبب غروره الداخلي، بأنه كامل التزكية، وكامل الأوصاف، كما يظن، ولكنه انهزم وأدبر نفسياً، وبدأ يسعى لايجاد مخرج مما هو فيه، وهو بنفسه الذي جمع الناس وحشرهم، ولسان حاله ينادى:

أنا العظمة المهزومة...، هو يقرُّ بوجود رب غيره عالٍ، ولكنه هو الرب الأعلى...وكم من فرعون في القرن العشرين وما بعده، في العالم الإسلامي، والعربي خاصة من قام بدور فرعون، وقال: مقولة فرعون؟ كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذباً.

والسؤال متى تقال مثل هذه المفردات؟

إذا خنعت الشعوب، تبدأ تنغوا كالقطيع عند الجوع والعطش:

عندما تزامن علة الخنوع في الشعوب، فتموت المواهب كلها عندهم، إلا موهبة التكاثر كالعالم الفطري، وعندما يتنازل الناس عن كرامتهم لهوانهم، وحریتهم لعبوديتهم، وأدميتهم لجلادهم، ولن يبقى بينهم وبين القطيع الذي ينغوا عندما يجوع أو يعطش، سوى أنهم يتكلمون، ويمشون على قدمين، في مثل هذه الأجواء تتوالد الفرعونيات، وفي مثل هذه المناخات تصنع الآلهة، ويبدأ الكذب الإعلامي اللا معقول، واللامحدود، يقدم متأهلاً بعد متأله، وكأنه هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يأتي بالشمس من المشرق والمغرب، وهو الذي

يسوق الغيم وينزل المطر، وهو الذي يأذن للشمس بالشروق والغروب يوماً.
«قالها الطاغية مخدوعاً بغفلة جماهيره، وإذعانها وانقيادها. فما يخذع الطغاة
شيء ما تخدعهم غفلة الجماهير وذلتها وطاعتها وانقيادها. وما الطاغية إلا فرد لا
يملك في الحقيقة قوة ولا سلطاناً» (١).

يقول الشاعر (٢):

لأنا رضعنا حليب الخنوع	تقمصنا من صبانا الخضوع
فجعنا ليكتظ جلا دننا	ويطغى، وننسى بأنا نجوع
ورحنا نجيد سباب الدجى	ولم ندر كيف نضيء الشموع
نفور، وتطفئنا تفلّة	فنمتص إطفاءنا في خشوع
وليس عدانا وراء الحدود	ولكن عدانا وراء الضلوع

فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَى (٢٦)

ولماذا أخذه الله، بدل أن يأخذه الطوفان، أو السرطان...؟

الله الذي يأخذه، لاستحالة أخذه من البشر لتفرقهم وضعفهم، ولكثرة
الاحتياجات الأمنية والقانونية والدعم الدولي له، ولم يقل: فأخذه الطوفان، أو
الجراد.... لأن أخذ الله أليم شديد.

كلمة «فَأَخَذَهُ...الله» تعني خطفاً، وقسوة، وقهراً، وعبرة، ونكل به، أي
تولى أخذه هو، ونكل به هو، في عقوبة خاصة، لم تقع من قبل، ليؤدب غيره به،

(١) في ظلال القرآن، ج٧: ٤٤٤.

(٢) من قصيدة للشاعر اليمني عبد الله البردوني، ناقد اجتماعي مرهف، ويضرب على المحز، ويشبهه
المعري رهين المحبسين مكفوف البصر، من قصيدة قالها بنيسان ١٩٦٩ م

من خلال هذه التنكيلة الفريدة التي لم تسبق، ولن تلحق، ولكل طاغية تنكيلة فريدة به، فيأتيهم الله من حيث لم يحتسبوا.

فجعل الله تدمير فرعون في تدبيره من بدايته إلى نهايته، وجعل كل مراحل حياته معروفة ومكشوفة، للمعاصرين له والقادمين في المستقبل، نكل به في الدنيا بالإغراق، وفي الآخرة بالإحراق، وقدم الآخرة لأن تنكيلها أطول وأدوم وشهرتها أوسع، والذين ولدوا قبل فرعون، لم يسمعوا به، ولا يعرفون خبره إلا بالآخرة.

وتحول الخطاب نحو الطغاة، الذين عاشوا في وهم العظمة والجبروت، عندما يرى أحدهم جيشه أكبر الجيوش، وبيته أكبر البيوت، وماله أكثر الأموال، يظن أنها نهاية العظمة، ونهاية التاريخ، لذلك يخاطب القرآن نفسياتهم المتضخمة أكبر من حجمها، ونفسياتهم المريضة، عندما يظن الطاغية أنه أكبر من السماء وأثقل من الأرض:

بناء السماء أعظم من خلق الإنسان :

ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بِنهَا ۚ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا ۚ (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۚ (٢٩)
وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۚ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۚ (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۚ (٣٢) مَنَّاعًا
لَكُمْ ۚ وَلِأَنْعَمَ كُمْ ۚ (٣٣)

بدأ بالاستفهام التقريري: أنتم أشد خلقاً؟ سيقولون: السماء، ولم؟

جاءت كلمة ” أشد ” من الشدة، والشد، والربط، والإحكام، فجسم الإنسان له أربطة عصبية وعضلية تتناسب مع حجمه ووزنه، حتى يبقى مجموع الأعضاء والحركة، وللليل والبعر أربطة، تتناسب مع الحجم والوزن، ولبنين

السماء أربطة تشد أجزاءها، حتى تبقى متماسكةً، ولنقرب المسألة:

فلو أردنا أن نتصور فرضياً كم سيكون قطر الكيبل أو المسمار الذي تشد به السموات؟ لا يقل عن مليار، مليار: كم. حتى يتناسب مع الحجم والوزن وضغط السرعة.

وركز على سمك السماء، لأنه غير مكشوف ولا معلوم، والعظمة في بيان لا يعرف البشر حدود طولها، وعرضها، وسمكها، ووزنها، وإعدادها للوظيفة التي تسند إليه حتى يكون سقفاً محفوفاً بالمخاطر، لأن تحته يسكن البشر وعوالم كثيرة، ليس فيه تفاوت أو فطور، ووزع فيها الأقمار والنجوم والكواكب، ومما لا يعلمه إلا الله فيحتاجون إلى ليل يأوون فيه، فيكون سداه العتمة، ولحمته الظلمة التي تغطش الإبصار، فلا يرون، ولا يُرون، ويحتاجون إلى نهار يعيشون فيه، فيخرج الله لهم الضحى إخراج شيءٍ مخبئاً من جعبة الليل.

أنتم أشد...؟ أم الأرض التي ملاءها بالمؤونة التي تكفي العوالم الذين يسكنون بها، والله لن يستقدم بعوضة إلى الدنيا إلا وضمن لها طعامها وشرابها ومأواها مدة حياتها في هذا البيت الكوني، وجميع سكان هذا البيت الكوني، لا يدفعون ثمن مآكلهم أو مشربهم إلا الإنسان المترف، بينما البدائي رزقه في الشجر والنهر، والله الرزاق لا يستقدم مخلوقاً إلا ويقدر مدته وحجم استهلاكه، لأن الرجل الذي يقيم وليمة، يقدر حجم كمية الطعام بقدر المدعوين وزيادة للاحتياط.

ولو تأملنا كلمة ”دحاها“ وأسقطناها على النبات الأخضر الذي يحتاج إلى كميات من الحديد، وعلينا أن نقدر كم الكمية من فلزات الحديد التي ستكون مدحية بالأرض التي لا تنفد إلى قيام الساعة، ويخرج الله الماء والنبات من الأرض

إخراجاً، وكلاهما هين، لين، ضعيف، ومع ذلك يشقان وجه الأرض، علماً بأن البذور في المستودعات دائماً تحتاج إلى تعقيم وتهوية... بينما في التربة تبقى مُدداً طويلة لا تعطب، وتنتظر الماء فتخرج من مخبئها التي كانت مدحية به. فيتجه الجذير الضعيف إلى الأسفل ويحرق الصخر، وكأنه مثقب، ويرتفع الرشيم اللدن إلى السماء ويشق وجه الأرض، ولو بعد زمن طويل... طويل.

أيها أشد وأعظم على الله، خلقكم أم خلق السموات والأرض وما فيهن من العوالم؟ أوليس الذي خلقكم وخلق السموات والأرض، بقادر على إعادة الخلق مرة أخرى، بلى؟! قادر!! قوله تعالى: « أوليس الذي خلق السموات والأرض، بقادر على أن يخلق مثلهم؟ بلى! وهو الخلاق العليم» يس: ٨١.

وعاد النص القرآني إلى تصوير شيء ما، سيقع مستقبلاً في أجواء يوم القيامة، وبدأ بذكر الطامة الكبرى، ومعنى هذا هناك عدة طامات: صغرى، ووسطى، وجاءت الكبرى.

الطامة الكبرى عندما تبرز آثام المجرم أمامه مجدولة:

فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَوُزِّتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾

وجاء في هذا التوصيف الذي يشبه به الطامات بتواليات الموج البحري، وكل منها تختلف بقوتها وسرعتها وارتفاعها وتدميرها، فالكبرى هي حبلى بكل أنواع الطامات، وحدد الطامة التي تفتح ذاكرة الكافرين والمجرمين، عندما يتذكر المرء ما سعى، إن كان خيراً فخير، وإن شراً فشر، حتى يستقبل الكافر العقوبة بمعرفة تامة، فجأة تبرز عنده شاشة الذاكرة محملة بجداول الآثام، وتبرز بعدها الجحيم، ولا يراها إلا نزلاًؤها الثقلاء «وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى» ما قال:

وبرزت الجحيم للجميع، بل قال لمن يراها، وأهل الجنة لا يرونها: « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى، أولئك عنها مبعدون » الأنبياء: ١٠٢. وبرزت الجحيم محملة بجداول فيها أسماء الكافرين والطغاة، ومواضع سكنهم في النار، وفي أي قسم في الجحيم، أو في لظى، أو في سقر... وللطغاة الذين يزجون الناس بالأقبية، لهم أقبية في الآخرة ”وهي في الدرك الأسفل من النار“ من باب العدل الإلهي « جزاءً وفاقاً ».

فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾

خصص الجحيم لمن طغى في كل الذنوب، وليس لمن أذنب وتاب، وكل بني آدم خطأون، وخير الخطئين التوابون، ولما خير الطاغية بين الدنيا والآخرة، اختار الدنيا، لعدم قناعته في الآخرة، وجمع بين الطغيان والنكران، واتجه يمشي برجله نحو الجحيم، وليس في الآخرة إلا مأويان، مأوى لأهل الجحيم، ومأوى لأهل النعيم.

مأويان لا ثالث لهما: جنة، ونار.

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

« و لمن خاف مقام ربه جنتان » الرحمن: ٤٦.

المنهج الإسلامي جنة الدنيا لكل من يعتصم به، وهؤلاء خير أمة تعيش على هذا الكوكب، لأنهم في جنة الإسلام، والكل آمن على نفسه وماله وولده وجيرانه وعرضه...

وتأتي جنة الآخرة امتداد لجنة الدنيا، ولا يفصل بينهما إلا الموت.

من خاف مقام ربه في الدنيا، آمن في الدنيا والآخرة « إن المتقين في مقام

أمين» الدخان: ٥١. في الدنيا والآخرة، ولا يجزئهم الفزع الأكبر، ولا الكبير، ولا الصغير، ولا الهم ولا النكد، وحالهم واحدة في الصحة والمرض، والفقر والغنى، واليسر والعسر، ففي الفقر جنة الرضا باختيار الله، وفي الغنى جنة الشكر.

هاتان الجنتان لمن قال له الشرع: تقدم! تقدم، وإن قال له: قف! وقف.

«وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ»

تقييد النفس، وضبطها على المنهج، كما يربي الصقار صقره، إذا أطلقه انطلق، وإذا زجره انزجر، فيؤكل صيده، ويرتفع سعره أضعافاً مضاعفةً، مادام ملتزماً بالمنهج، وإذا صاد على هواه فلا يؤكل صيده شرعاً، ولا قيمة له.

ومن ثمرة هذا الاعتقاد ينذر الانتحار عند المسلمين، مهما تعقدت الأمور وضاق الخناق، بينما أغنياء من العالم ينتحرون، وهم يملكون كل أسباب الرفاه، فلهم معيشة ضنكاً، لأنه ما خاف مقام ربه ولم يضبط حركته بالشرع.

«فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ»

و جاءت (الجنة): اسم إن، وجاء الخبر: (هي المأوى) جملة اسمية خبر إن، تعني الثبات والديمومة. ولكن الجنة مقسمة تبعاً لدرجاتهم، فجاءت بالجمع في موضع آخر: «فلهم جنات المأوى» يتفق أهل الجنة بالاسم، ويختلفون في المأوى والدرجات العلى.

فإن الجنة هي المنزل الشامل الذي ينزلونه، و المأوى ما يخص كل منهم بداخل الجنة وما ينضمون إليه، ولا يتحولون عنه، كما أوى أهل الكهف إلى كهفهم، ولم يتحولوا عنه، ولما قدر الله على سيدنا محمد ﷺ اليتيم، فأواه إلى كنفه سبحانه وتعالى، ولم يتحول عنه، ولما كانت درجاتهم متفاوتة، كانت جناتهم متفاوتة، تبعاً لإخلاصهم وتضحياتهم، قوله تعالى: « فلهم جنات المأوى نزلاً،

بما كانوا يعملون» السجدة: ١٩.

يعملون في إقامة منهج الله عملاً متواصلاً، ولم يقل: بما كانوا يعلمون، لأن معظم المسلمين يعلمون الزكاة ودقائق أحكامها، ولا يلتزمون بإخراجها، فتساوى الذي يعلم الزكاة والذي لم يسمع عن الزكاة أصلاً من غير المسلمين، فثمن اللجنة عمل ممنهج، وسلوك غير ذي عوج طيلة الحياة، حتى عند الغرغرة العمل مطلوب، إذا قامت الساعة ويبد المسلم فسيلة مأمور بغرسها. الإسلام ليس شعاراً يردد، أو يعلق في صدر البيت والمكتب، أو ترنيمة قداس، بل هو العمل الجاد.

متى ترسو باخرة الحياة الدنيا؟

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾

يسألونك متى ترسو باخرة الحياة الدنيا من رحلتها، والحياة الدنيا جزء من المنظومة الكونية، التي تجري لمستقر لها، وكل في فلك يسبحون، ولكل كائن في هذا الكون مرسى، سيرسو فيه يوماً ما. وتأتي الآية التالية، توضح لهم جزءاً مما يريدون من هذه الأسئلة.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ «الأعراف: ١٨٧»

وكان الساعة سفينة عائمة متحركة باتجاه محدد، ودخلت أجواء المرسى، وكان السؤال: متى الرسو؟ وليس متى الوصول؟ ومما يعزز هذا التوجه، تقريره تعالى: اقتربت الساعة!!

يسأل المتشككون بإلحاح عن الساعة لأن الموجود من علاماتها الظاهرة لا يروي غليلهم، ويريدون تجلية الأمر والتسرع به، وليس من المفروض عليهم أن يسألوا عنها، ولا الإجابة عن هذا السؤال من اختصاص البشر، والمفروض عليهم الإيمان بها، والاستعداد لها.

ولما سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن وقت الساعة قال: «ما المسؤول عنها، بأعلم من السائل» (١)

و الإجابة عن وقت الساعة، من اختصاص الله، وليس من اختصاص الأنبياء!!

فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مِنْهَا ﴿٤٤﴾

عن عائشة قالت: ” لم يزل النبي ﷺ، يسأل عن الساعة حتى أنزل الله عز وجل ” فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا إِلَى رَبِّكَ مِنْهَا ” أخرجها الحاكم في المستدرک، وغيره.

قال الألوسی: قوله: « فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا » إنكار، ورد لسؤال المشركين عنها في أي شيء أنت من أن تذكر لهم وقتها، وتعلمهم به حتى يسألوك بيانها، كقوله تعالى « يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا » فلا استفهام للإنكار.

وقوله: « فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا . إِلَى رَبِّكَ مِنْهَا » واقع موقع الجواب عن سؤالهم عن الساعة، وعن وقت وقوعها.

والمقصود بهذا الجواب توبيخهم على إلحاحهم في السؤال عنها، مع أن الأولى بهم كان الاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح.

(١) ابن كثير، ج: ٨، ٣١٨، في صحيح مسلم.

و « ما » في قوله « فيم ؟ » اسم استفهام بمعنى : أى شيء ؟ وهى هنا مستعملة في التعجيب من كثرة أسئلتهم عن شيء لا يهمهم حدوثه ، وإنما الذى يهمهم - لو كانوا يعقلون - هو حسن الاستعداد له .

وفيم : خبر مقدم ، وأنت مبتدأ مؤخر . وقوله « مِنْ ذِكْرَاهَا » على تقدير مضاف ، أي : ذكرى وقتها ، وهو متعلق بما تعلق به الخبر .

وقيل : « فيم ؟ » إنكار لسؤالهم ، وما بعده استئناف تعليل للإنكار ، وبيان لبطلان السؤال . أي فيم هذا السؤال ؟ ، ثم ابتدئ فقيل : أنت خاتم النبيين . . علامة من علاماتها .

وقوله «إِلَى رَبِّكَ مُتَّهَاهَا» إلى ربك وحده منتهى علم قيامها ، لأنه - سبحانه - هو وحده - العليم علماً تاماً بالوقت الذي ستقوم فيه الساعة»^(١) .

إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ مَّخَشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

ومهمتك يا محمد الإنذار، لمن يصدق، فيخاف من يوم القيامة ويستعد لها، وليس الإيجاب بأن يؤمنوا بها، أو لا يؤمنوا، والحكمة من إخفاء توقيت الساعة؟ لإظهار المصلح من المفسد، والمؤمن من الكافر، والحي من الميت... وهي كموت الفجأة، لا تأتي إلا بغتة، عندها لا تنتفع نفس من إيمانها، إن لم تكن آمنت من قبل. ومن هول المفاجأة وضخامة الحدث وتوالي طامات الرعب والكرب، وكل موجة تأتي أكبر من أختها، ينسى الطغاة أنهم كانوا من السعداء والعظماء، بل وينسون الدنيا وما فيها من نعيم تمرغوا عليه رداً من الزمان، ويصبح الزمن مضغوطاً عشيةً أو ضحاها!!

(١) الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١ : ص ٤٤٣٦)

فجأة.. ضغط الهول الرعب سعادتهم الدنيوية إلى عشية أو ضحاها. وفي هذه الخاتمة إيلاء لعطاء الدنيا، أو لمجانين الدنيا الذين يبيعون الدار الآخرة الخالدة بيوم أو بعض يوم، سعادة لم يعرفها السعداء، ولا توجد عين لو رأتها، تستوعبها، ولا توجد أذن لو سمعت وصفها وعيتها، كل هذا يستبدل بعشية أو ضحاها، منكدة من أولها إلى آخرها!!

سورة عبس مكية، وآياتها اثنتان وأربعون،

وترتيبها بالقرآن (٨٠)

وأما في التنزيل المكي (٢٤)

هي سورة «الارتقاء بضعفاء المجتمع وتكريمهم»

لقد بدأت السورة بقضية أعمى ومعه الإسلام، خير من ألف، ألف رجل معهم كل شيء إلا الإسلام.

فسبحان من يخفض ليرفع، ويرفع ليخفض، ويذل، ليعز، ويعز، ليزل، ومؤمن أعمى خير من كل زعماء الشرك في موازين الله، وعلم الله بحال سادة المشركين الموجودين آنذاك عند النبي صلى الله عليه وسلم، لن يؤمنوا، فلا يستحقون كل هذا الإكرام والمداراة، وأخذوا حظهم من مجالسة النبي ﷺ وزيادة، وعليهم أن يخرجوا، ويدخل الذين هم أهل للترقي والترقي!!

والنبي ﷺ ما قطب جبينه، ولا كشر وجهه، وما هو بخلقه، وهو المعصوم خلقاً وخلقاً وسلوكاً وأدباً!!

ورسول الله دائماً على حق، ولكن الله دائماً أحق!!

عبسة النبي ﷺ

تقاس على بسمته... ما قهقه قط!! ولا كشر قط!!

هي عبسة نفسية، ولو كانت جسدية، لتعارضت مع الخلق العظيم!!

ومن ذا الذي رصد هذه العبسة؟ قريش أم رب محمد؟ رصدها ربنا من علياء سمائه، بينما عظماء قريش في المجلس، لم يحسوا بها، ولو شعروا بها لصنعوا منها مجداً، ولقالوا: عبس في وجه أصحابه من أجلنا، أو اتخذوها إسفيناً يشقون

به الصف الناشئ.

فالمسألة ليست بين خطأ وصواب، وليست بين غلط وعتاب، ولكنها بين صواب وأصوب!! وجميل وأجمل، وعظيم وأعظم، وحق وأحق!!

عن عائشة: أنزلت «عَبَسَ وَتَوَلَّى» في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله، فجعل يقول: يا رسول الله: أرشدني، وعند رسول الله، رجال من عظماء المشركين، فجعل رسول الله يعرض عنه، ويقبل على الآخر، ويقول: « ترى بما أقول بأساً» ففي هذا نزل... (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - عَبَسَ وَتَوَلَّى ① أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ② وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكِي ③ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ ④ الذِّكْرَى ⑤ أَمَا مِنْ أَسْتَعْتَى ⑥ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ⑦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَنْزِي ⑧ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ⑨ وَهُوَ يَخْفَى ⑩ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ⑪

٢ - كَلَّا إِنَّمَا نَذْكِرُهُ ⑫ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ⑬ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ⑭ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ⑮ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ⑯ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ⑰

٣ - قِيلَ لِلإِنْسَانِ مَا أَكْفَرُهُ ⑱ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ⑲ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ⑳ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ ㉑ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ㉒ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ㉓ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرُهُ ㉔

٤ - فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ㉕ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ㉖ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ㉗ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ㉘ وَعَنَبْنَا وَقَصَبًا ㉙ وَزَيَّنَّا وَنَخَلًا ㉚ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ㉛ وَفَنَكِهَةً وَأَبًّا ㉜ مَنَّاعًا لَكُمْ ㉝ وَلَا تَعْمَلُوا ㉞

٥ - فَإِذَا جَاءَتِ الصَّخَابَةُ ㉟ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ㊱ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ㊲ وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ

(١) رواه الترمذي، ج ٤ - ٢٠٩

﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمٌ سَانَ يُعِينُهُ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾
 وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾

كلمة «عبس» فهتت بعيداً عن الجو الذي أنزلت فيه، وبعيداً عن سياقها الاجتماعي التربوي، لو سألنا الذي طوّحوا بها هنا، وهناك:

هل عبسة النبي صلى الله عليه وسلم كعبسة البشر؟

لقد أبعد بعض المفسرين حول مفردة «عبس» وضحموها حتى كأنه تجهم، وأرعد، وأزبد، ومالوا على النبي صلى الله عليه وسلم من حيث لا يدرون، وعبسة النبي صلى الله عليه وسلم ليس كعبسة البشر، ترى، وتحس، وترصد، إنما هي عبسة نفسية، لا يراها أحد ولا يحس بها إلا رب البشر.

ولولا دقة المرصد الذي رصدها، ما اطلع عليها البشر، ما هي إلا شعيرة الميزان مالت أو كادت تميل شعيرةً، فرصدها من يعلم السر وأخفى، رغم أن العبسة مسألة نفسية سرية، لكن الله أراد أن يطلع الصديق والعدو عليها لحكمة لا نحيط بها، وأن يترك لها هذا الدوي وهذا الأثر، عندما نقلها من السر للعلن كما قال الشاعر:

أَصْمَنِي سِرُّهُمْ أَيَّامَ فُرْقَتِهِمْ فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِسِرِّ يُورِثُ الصَّمَمَا

وسنفضل القول في حينه.

لقد أراد الله أن يجمع بقضائه وقدره بين المتباعدات العقدية والاجتماعية في تلك اللحظة، ليرتب عليها نتائج، تبقى أساساً وأساساً لما بعدها في البشرية إلى يوم القيامة، جمع بين سيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم ومعه القرآن، وبين سادة القوم ومعهم موروثهم المالي والاجتماعي الفوق المتعالي، وبين الأعمى ومعهم

الإسلام، وأراد الله أن يعلو الذي يملك: لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ على الذين يملكون كل شيء، إلا لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ...

ولو نعرف في أي يوم ولدت هذه الحادثة الفارقة، وفي أي ساعة نزلت الآية الفاصلة، وأين مسقط رأسها؟ حتى يكون عيداً لكل ضعفاء المجتمع الإنساني، وأصحاب الحاجات الخاصة، ويتحول المكان قبلةً، ليس للصلاة، ولكن ذكرى ليوم تحولت به الموازين لصالح المستضعفين في الأرض!!

وتدور سورة عبس حول محورين رئيسين:

الأتقياء، والأشقياء، والتقاة، والبغاة، ونتيجتهما:

بين محور الفوز لذوي الوجوه البيضاء، وبين محور الويل والشبور لذوي الوجوه السوداء.

سورة تُعرض فيها المقاييس والمعايير القرآنية، التي تريد النوعية النادرة، ولا تحفل بالكثرة الكاثرة، فأعمى ذو بصيرة كابن أم مكتوم، رضي الله عنه خير من ألف، ألف مبصر أعمى كعظاء المشركين.

سورة تومئ إلى نعمة الإيجاد، ونعمة الإطعام والترفيه للناس، عندما أوجدها الله قبل أن يعرفوه، ويسألوه، وثمانها مؤجل لما بعد سن الرشد - ولو مرة واحدة - ثمنها "لا إله إلا الله... محمد رسول الله". "قتل الإنسان ما أكفره!!" والنتيجة الحتمية وجهان لا ثالث لهما، إما وجه أبيض، وإما وجه أسود، قول فصل وما هو بالهزل. ولا مجال للمُسْلِمَان المتع، ولا للممِيع ولا للمنافق المتبرقع.

عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكُ ﴿٣﴾ أَوْ يَذُكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾

كان النبي صلى الله عليه وسلم على صواب وجاء حكم الله أصوب ، حينما نقل إلينا الحالة النفسية السرية، كيف عبس النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان له أن يعبس ، وما كان له أن يتولى؟

فالمسألة ليست بين خطأ وصواب، وليست بين غلط وعتاب، ولكنها بين صواب وأصوب!! وجميل وأجمل، وعظيم وأعظم!!

وكثر آراء الشنشة والددنة حول «آيات العتاب» كما سموها، وربما تبدل وتطور مفهوم العتاب، ربما كان العتاب لا يعدو لفت النظر في زمنهم، أو كالمس الدبلوماسي في زماننا، وأما في زماننا العتاب: تفرغ وتوبيخ، وليس هناك ما يستدعي العتاب ولا الحساب، وإنما هي العصمة والصواب.

ومهمة النبي صلى الله عليه وسلم مع الصحابة تعليمهم وتركيتهم « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم، يعلمهم الكتب والحكمة ويزكيهم... » وابن أم مكتوم رضي الله عنه واحد من الصحابة، عندما دخل على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده وجهاء القوم يحدثهم، ويدعوهم إلى ما جاء به من الحق، فالأعمى طرأ على المجلس المعقود، فليس من حق الأعمى الطارئ أن يتخلى له النبي صلى الله عليه وسلم وعنده وعن عنده، ويتحول إليه، عقلاً وعادة....، ولو كان العكس، أي كان الأعمى مع النبي ﷺ، والمشركون هم الطارئون، وتحول النبي ﷺ عنه إليهم اجتهاداً، عندها يُحتمل العتاب أو لا يحتمل، لأنه صلى الله عليه وسلم عندها يكون مجتهداً فيما لا نص فيه.

الله هو الذي أخبر ابن أم مكتوم بأن النبي صلى الله عليه وسلم عبس ،

والتولي من النبي صلى الله عليه وسلم في تلك اللحظة درس تعليمي للبشرية للأعمى والمبصر، متى يستأذن المسلم؟ ومتى يتعلم؟ وهل الوقت مناسب؟ هي نقلة حضارية!!

وعلى المسلمين أن يرتقوا إلى مستويات المنهج الجديد، ولا يلجئوا نبيهم إلى عبسة أخرى.

وجاءت صفة "الأعمى" دون غيرها من صفات ابن أم مكتوم رضي الله عنه، لعلها لأمرين:

الأول: إظهار عطف الله ولطفه بهؤلاء أصحاب الحاجات الخاصة، عندما أخذ منهم عضواً عوضاً لطفاً ورعايةً منه، كما يلطف بالأجنة في أرحام أمهاتها، وهذه رسالة شفافة لطيفة، إلى كل أصحاب الحاجات الخاصة.

توجيه الأنظار إلى هذه الشريحة في المجتمع، وأن لها استثناءات خاصة في كل المواقف: « ليس على الأعمى حرج، ولا على المريض حرج... » النور: ٦١. وقدم الأعمى عليهم جميعاً، ووعد بالجنة، كما جاء في الحديث الصحيح، ولم يعد كل المرضى بذلك إلا بشكل عمومي.

أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى

والأعمى من ولد بعماه، والكفيف: من ولد مبصراً ثم كفّ بصره فيما بعد. والآخر: التركيز على خطوات الأعمى، ومفردة: جاءه، تعني كل خطوة من الأعمى لاتعادها مسيرة يوم من المبصرين، وجاء الأعمى ليتعلم ويتزكى، ويكون قدوة وأسوة لأصحاب الحاجات الخاصة، ويكون حجة على زعماء المشركين، كون الأعمى يتقدم إلى الله، وآلاف المبصرين يتأخرون!!

وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّيكَ ﴿٣﴾

جعله بين مستويين، مستوى عالٍ وهو التزكية، ومستوى طبيعي، وهو أن يتذكر فينتفع.

نعم...!! سيتزكى، لأن في الإسلام طاقة تحول الضعيف إلى قوي، والمقعد إلى منتج، الكل يعمل، والكل يبني، ولا مجال للمستهلكين والعالاة على غيرهم، والإسلام حول الأعمى إلى أميرٍ على "المدينة" مرتين، وخليفة للنبي في إدارتها، والإسلام جعل الأعمى يقود ملايين المبصرين!!

أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾

وهذا مستوى طبيعي محقق، وهو أن يتذكر فتنتفعه الذكرى.

منهج جيد نحو تغير الموازين في الأرض، من الآن فصاعداً، فصارت قوة السلاح والمال والرجال، لا وزن لها إن لم تكن في منهج الله، وأصبح الوزن للتعوى، والتعوى فقط.

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » هناك كريم وأكرم، وتقي وأتقى، يريد يرفع مستوى التنافس عند النخبة النادرة في الأكرم والأتقى!! والتميز بين النادر والأندر!!

أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَى ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّيكَ ﴿٧﴾

والله يهون على النبي ﷺ لم تتصدى لهم وبكل هذا الحماس؟ وكأنه يخبره هم في قبضتنا؟ سواء عليهم أسلموا أم لم يسلموا، تزكوا أو لم يتزكوا، ما عليك من حسابهم من شيء، إنما أنت مذكر، ولست عليهم بمسيطر.

فهؤلاء الذين استغنوا بقوتهم عن الله، ونسوا أنهم في قبضة الله، ونسوا أنهم كسمك في برميل. فأين المفر؟

وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ۙ (٨) وَهُوَ يُخْشَىٰ (٩) فَانْتَ عَنَّا لَلَّهِ (١٠)

وأما الأعمى فله حقان عندك يا محمد: حق العمى، وحق تعليمه وتزكيتيه، كمن عبس للواجب، وبش للنافلة، وهي همسة رقيقة لطيفة بأذن النبي ﷺ، وكأنه يقول له: استثمر الوقت والطاقة مع عشاق المنهج، بضاعتك غالية ونفيسة، لاتذ لها عند المستغنين عنها، ولا تلتهم معهم.

وتولى القرآن الخطاب مباشرة مع المشركين.

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۗ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ، (١٢) فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ

(كلاً) (١) هنا لإلغاء الموازين والمقاييس القائمة على الهوى والقوة في الأرض، والتحول إلى معايير السماء تبعاً للمنهج القرآني، ويقول البلاغيون عن "كلاً" للزجر على وجه العموم، ولكنها هنا لا تزجر النبي ﷺ، وإنما تزجر المعايير المستعملة، وجاءت في سياق البديل، بأن منهجنا للتذكير، فمن شاء أن يأخذ به، وكل كلمة بالقرآن مُطَهَّرَةٌ و مُطَهَّرَةٌ لأهل الأرض وفي صحف مطهرة... و«كلاً» هنا عند سيد قطب رآها الوحيدة في القرآن الموجهة للنبي ﷺ، لعله أبعد المرمى! وإنما هي تزجر المعايير القائمة كما بينا.

(١) لعدم التكرار يمكن الرجوع لكلاً في سورة مريم: ٧٩. ومختصرة في أول جزء عم، رؤيتنا بلاغية حول «كلاً» في القرآن الكريم.

ويرى ابن عجيبة: "...أن هذه الآيات أي آيات القرآن تذكرة ، فمن شاء فليتعض بها ، حاصلة « في صُحُفٍ » منتسخة من اللوح ، « مُكْرَمَةٍ » عند الله عز وجل ، « مرفوعة » في السماء السابعة ، أو : مرفوعة المقدار والمنزلة ، « مُطَهَّرَةٍ » عن مساس أيدي الشياطين ، أو : عما ليس من كلام الله تعالى أو : من خلل في اللفظ أو المعنى ، « بأيدي سَفَرَةٍ » أي : كتبة من الملائكة ، يستنسخون الكتب من اللوح ، على أنه جمع : « سافرٍ » ، من السَّفَر ، وهو الكتب ، وقيل : بأيدي رسل من الملائكة يَسْفِرُونَ بالوحي ، بينه تعالى وبين أنبيائه ، على أنه جمع « سفير » من السفارة ، و« حَمَلِ » السفرة « على الأنبياء عليهم السلام أو على القراء ، لأنهم يقرؤون الأسفار ، أو على الصحابة رضوان الله عليهم بعيداً ؛ لأن هذه اللفظة مختصة بالملائكة ، لا تكاد تُطلق على غيرهم»^(١)

قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ، ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، ﴿١٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ، فَقَدَرَهُ، ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ، ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ، فَأَقْبَرَهُ، ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ، ﴿٢٢﴾

هذا أسلوب عربي مجازي يقال عند الانفعال: قتل فلان، وهم لا يريد قتله بالواقع، ولكن من باب التقرير والتوبيخ، وتوجيه أنظار المشار إليه أو المقصود بالخطاب إلى نقطة الضعف فيه، لعله يصحو من سهوته أو غفوته أو سكرته.

ولو أراد الله محتوى الكلام لقتلت البشرية في لحظة واحدة "كن، فيكون"، ومثلها من الأساليب العربية قول النبي ﷺ لمعاذ "ثكلتك أمك" ما كان يريد موته وتحزن عليه أمه. ولكن لفت نظره إلى خطورة الموقف.

وجاءت "قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ" في سياق العجب، وليس في سياق الغضب، بل كل العجب من كفران ونكران الإنسان، للجميل وللنعم، وفلان كفر الشيء:

(١) البحر المديد، لابن عجيبة، ج: ٧، ص: ٨.

ستره وغطاه، كما يكفر الفلاح الحب، عندما يحرث الأرض ويغطيه، والكفران خُلِقَ يكثر عند بعض النساء، ولا سيما عند الغضب من الزوج، تجرده عمداً من كل محاسنه، حتى ولو كان من الصالحين، ولما سئل النبي ﷺ عن أكثر أهل النار، قال: النساء لأنهن يُكْفِرْنَ العشير. أي منهن: ينكرن الفضل والإحسان.

هذا الإنسان الكافر، لو أهدى له صاحبه هدية ثمينة نادرة، سيسكره، ويذكره طيلة عمره، ويعترف له بالفضل، ويعترف له بالتقصير، وعليه أن يسأل نفسه: من الذي أهدها الحياة، وخلقه في أحسن تقويم، وأسمعه بعظم، وأنطقه بلحم، وأبصره بشحم...؟

وهذه تقنيات القرن الحادي والعشرين، هل تستطيع أن تخلق من التراب بشراً سوياً، أو تصنع نطفة أو نُطيفة، وهذه ملايين مملينة من العوالم الفطرية كالأرانب يلدن في الوديان والجبال وبين الغابات، بلا مشفى، ولا قابلة (١)، ولولا اللطف الإلهي، ما كان لهذا الجنين البشري الذي يتكوم في الرحم ووجهه إلى ظهر أمه، وإذا ما قرر الهبوط على مدرج الكرة الأرضية، انقلب رأسه إلى الأسفل باتجاه مخرج الطوارئ، وتبدأ الجمجمة تتشكل بالاستطالة تبعاً لعنق الرحم وطريق المخرج، فكما يسر الله له سبيل الخروج، يتولاه الله في الدنيا، وييسر له السبيل الذي يختاره بنفسه، فسنسيره ليسرى، وسنيسره للعسرى، أي يمدّه بالصحة والعافية على كلتا الحالتين. ويكرمه بالموت، ولو أبقاه حياً قرناً ونصف القرن، من يخدمه؟ عندها يصبح أحفاده يحتاجون إلى خدمة أحفادهم، وصاروا عبئاً ثقيلاً على أولادهم. فالقادر على خلقه، وإماتته، فهو قادر على

(١) أدركتُ إحدى خالاتي، وكانت لها قصة مشهورة تُحكى بين النساء، عندما فاجأها المخاض وسط الحقل وحيدة، فسرت المولود، ثم ارتاحت قليلاً، وجمعت حزمة من الحطب، فحملتها على ظهرها، ومولودها في حضنها، وعادت إلى القرية سالمةً غانمةً. (وسمته محمداً، وعمر فوق السبعين، وقد مات من بضع سنوات) رحمها الله. وكانت حديث النساء في الصلابة.

«كَلَّا» زجر لمن يستطيع أن يقوم بواجبه، ولا يفعل، والقضاء مستحق الدفع، أن يقضي ما عليه من الحقوق والواجبات، فكل الناس - ماعدا الأنبياء - مقصرون: الكافرون مقصرون بكفرهم، والمؤمنون اللينون مقصرون بتسويقهم فيما طلب منهم، وكان بمقدورهم أن يصلوا إلى ما وصل إليه بعض الصحابة والصالحين ممن يعاصرونهم، وهم ليسوا من الأنبياء، منهم من قال: إني لأجد ريح الجنة دون أحد، ومنهم من قال: كأني أرى عرش ربي“ كما جاء في الأثر: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال للحارث بن مالك: ما أنت، يا حارث بن مالك؟ أو قال: يا حارث؟ قال: مؤمن! قال: مؤمن حقاً! قال: مؤمن حقاً! قال: فإن لكل حق حقيقة، فما حقيقة ذلك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي، حين يجاء به، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أسمع عواء أهل النار، فقال صلى الله عليه وسلم مؤمن نور الله قلبه»^(١)

وبعض المسلمين لا يفرقون بين المنهاج والمزاج، المنهاج مطالبه محددة، والمزاج يميع كل شيء ويجر الإسلام إلى مستواه ومن من المسلمين لا يستطيع المضمضة الشرعية أثناء الوضوء؟

ولو سألنا أحدهم: منذ كم وأنت تتمضمض؟ يقول: منذ خمسين عاماً: افتح فمك، فإن كانت سليمة، فقد صدق، وإن وجدنا أكثر أضراره مُلئت بالخرسانة المسلحة، وفكه بالجسور المعلقة، فإنه صاحب دعوى!! فالتمضمض

(١) حديث منقطع، شعب الإيمان، رقم الحديث: ١٠٥٩٢.

المزاجي: كَلَّا، لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ. وهو قادر على المضمضة الشرعية التي يسبقها السواك، فتصبح نظيفة ولا مجال للوسوس.

فكيف ببقية أركان الوضوء والصلاة وخشوعها والصيام...؟

فمعظمهم لم يقض ما عليه من الواجبات، ولا السنن، ولا في الآداب... وهو قادر على ذلك، باستثناء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصحابة والصالحين.

ويربي القرآن المؤمن على التوحيد الفطري الضمني، عندما يهيج ذاكرة الإنسان، ويوقظه من غفلته، فيقول له: انظر ماذا تأكل؟ مم خلقت طعامك؟ وأين صنع؟ وهل يعقل: تراب وماء وشمس وهواء، تنتج حباً وعنباً وزيتوناً؟ وهل يعقل أن الشجرة أكبر مطبخ في الأرض، بل قل: أكبر معجزة في الأرض، تتكرر يومياً عندما تحول الزبالة ومخلفات الأرض إلى تفاح وموز وزيت زيتون؟

« وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلَا نَعَامِكُمْ »

هذه وسيلة تعليمية لتربية الأجيال على العقيدة المحسوسة والملموسة، وهذا أفضل وأجدى من العقيدة النظرية الخيالية المجردة، وبعض تعاريفها ومصطلحاتها منحوتة من مصطلحات فلسفية فينيقية.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَبْتْنَا فِيهَا
حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ
وَلَا نَعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾

ولماذا يخاطب القرآن الإنسان من خلال مطعمه ومشربه ومتعته؟ ولا يخاطبه

من جهة أعضاء جسمه كالكبد والطحال و...؟

لأن مصلحته متعلقة بالأطعمة والأشربة و يشحن طاقته الحياتية منها، وتعلق بها، ويتفاعل معها، بينما أسرار الجسم ربما لا يعلم عنها شيئاً، والكافر الذي لا يتفاعل مع النعمة، ولا يعترف للمنعم بحقه، هو دون الحيوانات، لأن الحيوانات تعترف بالفضل لمن ينعم عليها، لذلك تتودد الحيوانات لمن ينعم عليها، كما تفعل الكلاب^(١) والطيور مع من يحسن إليها، ما لا يفعله الكافر والفاسق الذي لا يريد أن يعترف لصاحب الفضل بفضله.

«فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ»

يأمر القرآن أمراً "بالنظر" أي التفكير والتأمل في كتاب الكون، في تسع وعشرين آية بصيغة المفرد "فانظر" إلى طعامك وشرابك، لم يتسنه "٢: ٢٥٩. وبصيغة الجمع تسع مرات «انظروا» إلى ثمره، إذا أثمر، وينعه» ٦: ٩٩. وما قال الله: «انظر» أو «انظروا» إلا وهو ضامن لأمرين:

- ١- جعل في الإنسان قدرة لاكتشاف المخبات من الأسرار والحكم.
 - ٢- وأودع في المنظور إليه أسراراً وحكماً، إذا عُرِفَتْ وعُلمت كشفت هذه المخبات التي تخدم البشرية، وترفع من شأن الإسلام والمسلمين.
- لقد بدأت السورة بقضية الأعمى وهو نصف رجل، ومعه الإسلام، خير من ألف ألف رجل معهم كل شيءٍ إلا الإسلام، ثم عرضت لنكران الإنسان النعم التي يتمتع بها مجاناً وبلا طلب منه، وبلا مقابل، سوى لا إله إلا الله.
- ومن قالها: له جنة عرضها السموات والأرض، وإن لم يقلها، فله الصاخة

(١) أستاذ جامعي ياباني، يمشي معه كلبه إلى محطة القطار، ويجلس ينتظره بالمحطة حتى يعود من الجامعة، وهكذا...، فمات صاحبه فجأة، ولم يعد، وبقي الكلب ينتظره في المحطة ثماني سنوات، وعرف رواد المحطة خبره ووفاءه، فأطعموه، ولما نفق، جعلوا له تمثالاً في مكان انتظاره. «قتل الإنسان ما أكفره!» قال الإنسان أي الذي بلا منهج، ولم يقل: قُتِلَ المؤمن، أو المسلم.

والقارعة والحاقة، وكل داهية دهياء، وهذا مشهد من مشاهد يوم القيامة، يظهر بأن الكل متحرك، وخائف، ومضرب...

فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ ﴿٣٣﴾

فإذا جاءت الصَّاحَّةُ، القارعة، الحاقة...أسماء وصفات لمسمى واحد بهيئات متفاوتة يوم القيامة، وهن من المفردات التي طورها القرآن الكريم، من: صَخَّ، قرع، حق...جاءت الصَّاحَّةُ، والقارعة، والحاقة...

والصَّاحَّةُ ”الصيحة الشديدة التي تُصَخُّ الأذان، أي تصكها من شدة صوتها، وأصل الصَخَّ: الصكَّ الشديد، والمراد بها هنا: النفخة الثانية التي بعدها يبعث الناس من قبورهم» (١).

وقال ابن العربي: الصَّاحَّةُ: التي تُورث الصَّمَمَ، وإِنَّهَا لمسمعة، وهذا من بديع الفصاحة؛ كقول الشاعر: البسيط. (٢)

أَصْمَنِي سِرُّهُمْ أَيَّامَ فُرْقَتِهِمْ فَهَلْ سَمِعْتُمْ بِسِرِّ يُورِثُ الصَّمَمَا

يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾
لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾

يوم يفر المرء من الخوف إلى الخوف، من الهول إلى هول أشد منه، ومن الموت إلى موت أشد وأنكى، متى يفر المرء والحيوان؟ عند الخوف. ”كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة“ كقطع من البقر والغزلان فرت من الأسد، المدثر: ٥١. وهذا موسى خائف فطرة» ففرت منكم لما خفتكم» الشعراء: ٢١.

(١) الوسيط لسيد طنطاوي - (ج ١: ص ٤٤٤٦)

(٢) اللباب في علوم الكتاب - (ج ١٦: ص ٢٣٥)

ورسول الله موسى عليه السلام، فرَّ من فرعون، لما خاف منه. والعامّة تريد من طالب العلم ألاّ يخاف وهو على المنبر، ويشعل النيران، ويلبس حزاماً ناسفاً حتى يمنحوه وسام البطولة.

هذا مشهد تصويري لهول صدمة الصاخة، التي تفقد الإنسان صوابه، ويصبح خائفاً من كل شيءٍ حتى ولو كان أخاه أو أمه أو أباه... وكلهم مثله في دوامة الخوف الرعب الرهيب، ولم يعد واحدهم يعرف شيئاً، حتى يأمنه، ويقف بجواره. كالسمك في الماء الساخن، يفر من الخوف إلى الخوف، ومن الموت إلى الموت!

وتنقسم وجوه الخلائق قسمين بين وجوه كشموس مشرقة، ووجوه مظلمة مشقسقة.

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾

يتضاعف الفرح والسرور عندهم لأمرين:

- ١- لأنهم ما كانوا مع أهل النار الذين أرهقتهم أهوال القيامة، وعلتهم غبرة الذل والأسر، ويرونهم رؤية العين. يوم تشهد الأرجل على الأيدي، والجلود على كل أعضاء المملكة الصغيرة.
- ٢- لأنهم نجحوا نجاحاً لا رسوب بعده، وكل عضو فيهم فاز ونجح، له فرحته، وله استبشارته، وله ضحكته.

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرَهَقَهَا قَرَّةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾

والكفرة جاء وصفهم من الخارج، قد علت وجوههم الغبرة، ومن الداخل

مرهقون ومقتر عليهم بكل شيء، وجاءت الإشارة إليهم (أُولَئِكَ) ليلتفت أهل المحشر وأهل السماء إلى أناس جمعوا بين الكفر والفجور، فجمع الله عليهم بين الغبرة والقترة.

« أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَرَةُ الْفَجَرَةُ »

وهؤلاء جمعوا بين خصلتين: الكفر، والفجور، وقدم الكفر كونه أسُّ الفجور، إذاً المشكلة فيمن يجمع بين الشرين كالماء الساخن: فيه الإغراق والإحراق، فهم كمن به داء حميد، فيبقي داؤه في داخله، و بمن به داء خبيث ويعديه إلى الآخرين كمجرمي الإيدز، ومثلهم الذين يكفرون ويأمرون الناس بالكفر، ويفجرون ويأمرون الناس بالفجور... أو يسهلون الصعاب أمام الفجور.

سورة التكوير، مكية، وآياتها تسع
وعشرون، وترتيبها بالقرآن (٨١) وأما في
التنزيل المكي (٧)

تؤصل السورة محورين:

أما الأول: كل أعمالكم محصية عليكم، وستحضر بين يديكم، بعدما يحدث في الكون ثلاثة عشر تبديلاً كونياً.

وأما الآخر: ويبدأ بالقسم العظيم الكبير، وهو ثمانية أقسام متوالية، الله يزيكي قرآنه العزيز، ويزكي جبريل رسول السماء إلى الأنبياء، ويزكي محمداً ﷺ تزكية خالدة كونه في المواجهة. حتى تستقر القلوب حول الثلاثة.

جاء في مسند الإمام أحمد: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: "إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ" ، و "وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ" ، و "إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ" (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١- ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٣﴾
وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ٦﴾
- ٢- ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ٧﴾
- ٣- ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِيتَ ٩﴾
- ٤- ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ١٢﴾

(١) تفسير ابن كثير ٨: ٣٢٨.

- ٥- ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ ﴿١٣﴾ عَمِتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾
- ٦- ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَيْسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾
- ٧- ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذَهَبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾
- ٨- ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

سورة التكوير مكية، تُنبئنا بتبدلات كونية رهيبة رعبية، والاستعداد لمهمة كونية جديدة، وتبني وتوصل لمنهجين:

أ- الإيمان باليوم الآخر ومعظم المشركين لا يؤمنون بالآخرة لأنها تُهدد مصالحهم المبنية على النهب والسلب، ثم يأتي الحساب والعذاب. فالمتفلس يزعجه الضبط والربط.

ب- تركية الله سبحانه وتعالى للقرآن الكريم، ولجبريل عليه السلام، ولمحمد ﷺ. ولورثة سيدنا محمد من الربانيين. أي السلسلة النورانية التي تنتقل من خلالها القرآن إلى الأجيال اللاحقة.

تنبئنا سورة التكوير عن ملمح صغير من ملامح بداية اليوم الآخر، عن يوم رهيب رعب على معظم موجودات الكون، وكلها تستجيب لأمر الله طوعاً أو كرهاً، وتتبدل استعداداً للمهمة الجديدة، بدءاً من الشمس والنجوم والجبال والعشار والوحوش والبحار والنفوس والموؤودة والصحف والسماء والجحيم، وفيها رسالة إلى الإنسان الطاغية، ما غرك بربك الكريم!

وأما الجنة والنار فستكونان بأسعد أيامهما، لأنهما تستعدان للمهمة التي وجدتا من أجلها، لاستقبال الناس الذين سينقسمون قسمين ولا ثالث لهما، إما أن يكونوا من الأنبياء والصالحين والشهداء... وإما من الطغاة البغاة... إما تقاة وإما بغاة.

والمشهد الكوني يعطي صورة رعبية عن بدء تبدل مكونات الدار الدنيا من الوجود، بعد أن انتهت مهمتها، وانتهت معها مقوماتها ومكوناتها كالشمس والقمر والنجوم والبحار والإنسان والحيوان... "يوم تبدل الأرض غير الأرض، والسماوات، وبرزوا لله الواحد القهار..." إبراهيم: ٤٨. ولولا القهارية ما تبدلت موجودات الكون.

والسياق: يوم تبدل الأرض غير الأرض، والسماوات غير السماوات، وبرزوا لله الواحد القهار»

إذا أراد الله أن يطوي (الحياة الدنيا) لابد أن يطوي ما فيها من المقومات لانتهاء مهمتها، ثم يأتي باليوم (الآخر) وله خصائصه ومقوماته، ومطلع السورة، يوضح طلاقة قدرة الله المطلقة، كن، فيكون. وهذه بداية تبدلات موجودات الحياة الدنيا.

سئل أبو الوفاء ابن عقيل عن قوله تعالى: إذا الشمس كورت.....، إذا حشر الله الطغاة والعصاة والتقاة والربانيين، بعدها لماذا يهدم هذا الكون؟ فقال: إنما بنى لهم الدار ليتمتعوا بها، ويسكنوها، وكل ما فيها للاعتبار والافتكار والتذكر، ووسائل إرشاد العباد لرب العباد، فلما انقضت مدة سكناهم في هذه الدار، ورحلوا منها، خربها الله، ليعلمهم أن هذا الكون كان معموراً من أجلهم.^(١)

(١) التفسير القيم، لابن القيم، ص: ٥٠٥، بتصرف.

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ^(١) ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا
الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ
زُوجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِيتْ ⑨

والتكوير جمع الشيء بعضه إلى بعض، ومنه تكوير العمامة، وهو لفها على الرأس، كتكوير الكارة عندما تضع المرأة البدوية طفلها على ظهرها مكوراً، والكورة جمع الثياب بعضها إلى بعض، أو لف ضياء الشمس ومحوه.

وأول ما بدأ بتكوير الشمس، بعدها تتكور حياة الأحياء على الأرض تلقائياً.

ولعل المعطيات العلمية تقرب التصور للتكوير الشمسي، فتقول النظريات العلمية: إن النجوم لها عمر زمني، ثم تنكمش، فتزول الفراغات البينية بين ذراتها، فتتكور حتى تصبح بحجم كرة الأطفال، أو بيضة الدجاجة تبعاً لحجمها الأصلي، ولكن تبقى محتفظة بوزنها وحرارتها^(٢).

وربما يشبه تكوير الشمس، وانكدار النجوم يوم القيامة، كمصايح الزيت القديمة، كلما انخفضت الزيت في الحوض المعدني، قلت نسبة ارتواء الفتيل، فيتكور الضوء، وينكدر الإشعاع، ولم يعد ذلك التوهج، ويموت ببطء.

وأول ما بدأ بالشمس والنجوم لأنها آيات مشتركة بين كل العوالم، فالشمس للنهار والنجوم لليل، وأعدادها تزيد على مليارات، المليارات، والمعجزة بتبدل

(١) نحو: إذا ظرف متعلق بالجواب، وجوابها هنا « علمت نفس ما قدمت » الآية ١٤. والشمس: فاعل لفعل محذوف تقديره: غيبت الشمس وانكدرت... وهذا التركيب من روائع النحو، وبلاغة النحو... لقد ترابطت أربع عشرة آية، ترابط أولها بآخرها. ويتكرر العطف والإعراب...
(٢) موسوعة الإعجاز العلمي، د النابلسي، ص: ٧٦، بتصرف.

هذا الكم الهائل من الكواكب بكل الحجم والأعداد، فتصبح فجأة منكدرة مثل مصابيح الشارع إذا انخفضت قوة مولد الطاقة، أو انقطع عنها التيار، أو جاءتها صاعقة، فأظلمت، وتفجرت، وهوت إلى الأرض وجاء بعدها وصف الجبال، كونها قريبة من الإنسان محلية المكان والمشاهدة، وتسيرها طلاقة القدرة، وكأنها قطع من الفيلة جفلت من السبع لا تلوي على شيء، تمشي بنفسها إلى المجمع الكوني، وبعدها جاءت صورة الإبل الحوامل في الشهر العاشر ” وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ “ النوق الحوامل، يظهر جمالهن في الشهر العاشر وكلما تقدم الحمل، يزداد الحجم والجمال والمعزة عند أهلهن، وهيامهم بهن، ونجد هذا موجوداً في شعرهم، والمعلقات العشر مليئة بأوصاف العشار، ومشافرها، وأظلافها... كمن يركب سيارة فخمة فريدة، والعيون تمشطها، إنه رمزية الحب والتواصل، ومع كل الحب والتعلق بها ينساها أهلها يوم القيامة، وهُجرت وعُطلت، كبئرٍ معطلةٍ وقصرٍ مشيدٍ تعوي به الريح، لأن أهلها أفنأهم الدهر أو عندهم من الأحوال ما يشغل المرء عن أخيه وأمه وأبيه...

وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ

لعلها نبوءة قرآنية، تحققت بعد أربعة عشر قرناً، عندما كثرت وسائل النقل الحديثة،^(١) ولحقت الإبل في مراكز الترفيه والسياحة، يركبونها لالتقاط الصور. وبعدها انطلقت عشار السيارات والطائرات والدراجات، تعطلت عشار الإبل والخيل والبغال والحمير... يامن ينخر شعراء المعلقات السبع، ويقول لهم: صارت الإبل تشرب (الكولا) و صار بولها ”مكوللاً“ سائغاً شرابه، أين أنتم؟؟.. وصارت تستمتع بموسيقى البوب!

(١) النبوءة مقتبسة من كتاب ” تفسير الآيات الكونية، د عبد الله شحادة.

وصارت الإبل تتركب السيارات وقد يأتي يوم تقود السيارة بنظارة معاكس
للشمس وبرخصة،...سبحان مغير الأحوال.

ومن المحال دوام الحال!!

« وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ »

ومن تبدلات سلوك المخلوقات، يجبرنا بحشر الوحوش لإظهار طلاقة القدرة
في كن، فيكون، فجاءت الوحوش من قنن الجبال وبطون الأودية، أتت إلى المحشر
برجلها وبنابها ومخلبها صائمة صيام الديمة، بعد أن كانت أينما تمشي يمشي معها
الموت، وتحولت كأنها قطع من الحملان تغشاها الذلة والمسكنة والخضوع والخنوع،
بلا ناب ولا مخلب ولا أظفار تنتشب هنا أو هناك، أو كأنها سرب من البقر الوحشي،
وقبل اليوم كان عصياً على الناس جمع بضعة منها في زريبة واحدة.

رسالة رمزية للوحوش البشرية، الذين انسلخوا من آدميتهم، وصاروا
وحوشاً في جلود الآدميين. والذين يظنون أن لن يقدر عليهم أحد، فجاء بهم
القادر لفيفاً، جاءوا بلا أوسمة، ولا تيجان، ولا أرصدة، ولا دراجات، ولا
زمارات... وتكدس بعضهم فوق بعض محشورين مقهورين.

والحيوانات أمم أمثالنا لها صلاتها وتسبيحها ودورها ومنهجها، وهذا
الهدهد السلبياني على علم بالعقيدة السليمة، وهذه النملة السلبيانية، على علم
بالإنصاف والحكم على الآخرين. وعوالم الطيران من الصقر إلى البعوضة وما
دون ذلك، كلها مقهورة محشورة « والطيَر محشورة... ».

إذاً!... هذه الأمم التي تعيش معنا على هذا الكوكب كلها أسرار، ولها
أدوار لا نحيط بها، ومن يتجاوز منها على من هو أضعف منه، مسؤول عن ذلك
التجاوز.

أخرج مسلم والترمذى عن أبى هريرة قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لتؤدَّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة ، حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء . »

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ الأنعام: ٣٨. فلماذا يحشرون؟ للمساءلة، وليس لأخذ الصور التذكارية.

« وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ »

وقوله تعالى: «والبحر المسجور» الطور: ٦، وأوجه الإعجاز:

«عند المفسرين البحر المسجور الموقود والمحبوس، وهي المادة النارية التي تخرج من الأحزمة القارية، تخرج وتحبس في قاع البحر وذلك بتحولها إلى صخور بفعل درجة حرارة الماء... والضغط الشديد في هذه الأعماق السحيقة»^(١)

سَجَرَ النهر، يسجُر، سَجْرًا، ملاءً، وسده، وحبسه، وسَكِرَ الحوض، امتلأ^(٢)، وإذا البحار سجرت عند المضائق وأغلقت، فستمتلى ماءً، وتوحي الآية بسد مداخل البحار، والقرآن يشير إلى مثل هذه البوابات البحرية « بينهما برزخ لا يبغيان ».

وسجر البحار هي المرحلة الأولى، ثم تأتي مرحلة تسعير النار بالمياه المملحة ووقودها الكائنات الحية فيها « وإذا البحار سعرت ». وهي الإيقاد والإشعال. وتبلغ مساحة البحار ثلاثة أرباع الأرض، فتتحول إلى نار، بما فيها من كائنات حية من حيتان وأسماك ومعادن - والملح يزيد لها حرارة - ويتحول البحر إلى حمم

(١) ملخصات بحوث المؤتمر العالمي الحادي عشر ل د. محمد بكر حريري ١٥٦ للإعجاز العلمي في

القرآن والسنة، الرابطة... (١٤٣٥-٢٠١٥م)

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، القاهرة (سجر) والمعجم الميسر لمصطلحات اللغة

العربية، مجمع اللغة العربية، الكويت. (سجر) بتصرف.

بركانية سائلة في لحظة واحدة، وتثور أسئلة خارج التصور البشري، ومنها: كم تدوم مسعرة؟

وكيف يتم تحول الماء الذي يطفئ النار بالعادة إلى مادة حارقة ومحركة؟ وفي سنن أبي داود: ”لا يركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غازٍ، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحراً“ ربما جاء النهي عن ركوب البحر بالوسائل البدائية التي كانت تفتقر لأدنى درجات الأمن والسلامة.

ومن الإعجاز ” فإن تحت البحر ناراً“ فقد تحقق هذا، قال أحد العلماء: إن النار الموجودة في قاعة المحيطات ضرورية، لإنارة قعر المحيط، وهناك عوامل لا يحصيها إلا الله تسكن في القاع، ولا يمكن أن تعيش في الظلام المطلق. وبقية النبوءة تنتظر العلم المستقبلي، ” لكل أجل كتاب“.

إن الذي صير من التراب بشراً من لحم ودم، وخلق من النار خلقاً، مثل الجن يتكاثرون، ويتظالمون، ويتراحمون، ومع أنهم خلقوا من النار التي لا تعرف الرحمة، والنار التي لم تحرق إبراهيم صلى الله عليه وسلم، بل وتمنت عليه برداً وسلاماً، إشارة إلى أنها جندي تعرف مهمتها مع الطغاة والبغاة ولا تتعدها إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين...، لذلك لن تحرق الملائكة الذين يتولون شؤونها من الداخل، إنه القادر القاهر، الذي يستنبت الزهرة وسط الجحيم!!

وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ

والإعجاز يكمن في دقة التصنيف الرباني لجميع خلقه، ونرى في الحياة الدنيا دولاً سكانها بحجم فندق كبير، قد تحطى وتصنف المجرم مع الصالحين، أو العكس، وكم من إنسان مات ظلماً في السجن من سوء التصنيف؟، ومن

طلاقة القدرة والحرص على العدل للجميع، جعل النفوس - كل النفوس - مراقبة ومصنفة ومفروزة، النفوس مطمئنة مع مطمئنة، واللومة مع اللومة، والكافرة مع الكافرة، وهكذا... باسقاط الأشكال والألوان والأوطان وجميع معايير الدنيا، وبهذا التصنيف جرد فراغنا الأرض من كل مميزاتهم، وأخذهم من جهة مطابقة النفوس، الطيبة مع الطيبة، والخبيثة مع الخبيثة، ويساقون أرتالاً متتابعة، كالجيوش في العروض العسكرية، تمر كوكبة الصواريخ، ثم الدبابات، ثم المشاة... ويساق الذين كفروا إلى جهنم زمراً، مثلاً: زمرة الظلمة، ثم زمرة المرابين، ثم زمرة الزناة... ويساق الذين اتقوا إلى الجنة زمراً، أولاً: الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ثم الشهداء ...

وانتقل السياق إلى موضوع يعيش مع البشرية أينما كانت، وكيفما كانت؟ معضلة الواد هل هي للأنثى، فحسب، أم الواد يشمل الأنثى والذكر، والأسرة، والقبيلة، والجمهورية... والسلطنة...

الواد حمل ثقيل خبيث، قاتل لا محالة، كالسرطان أينما يمشي، يمشي الموت معه والواد مقدمة للهلاك، والقتل والموت نتيجة له. والواد يكون للفرد وللجماعة. والذين حصروه بالأنثى، فقد ضيقوا واسعاً عندما دخلوا في التاء المربوطة، ولم يخرجوا منها.

وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ٩

إنها النفس المكرمة، التي يقتلها الظلمة حية، ويدمغونها ميتة!!
وربما جاء اللبس على الناس من تأنيث ” الموءودة“ وتأول أنها صفة لموصوف محذوف، وإذا النفس الموءودة... وإذا العائلة الموءودة، وإذا الشعوب الموءودة... لذلك حصروها بالأنثى.

وعند ابن فارس: الواو، والهمزة، والذال: كلمة تدل على إثقال شيء بشيء، ويقال للإبل إذا مشت بثقلها: لها ويئد. قالت الزبّاء:

ما للجمال مشيها ويئداً؟ الياء: حمالة أوجه، فهي مثلثة^(١)
أجندلاً يحمّلن أم حديداً؟^(٢)

وإذا النفس المؤودة - كانت ذكراً أو أنثى - سئلت، بأي ذنب قتلت؟
و حام حول «المؤودة» شبهتان، لا بد من توضيحهما:

- العرب هم الوائدون.

- البنات هن المؤودات.

ومعنى الواد يكون للنفس التي تحمّل فوق طاقتها من الظلم والسخره وأقبيه السجون وتكديس الضرائب، وكتم الأفواه، وأي نفس رفضت ذلك، يدسونها في التراب خفية، ويتهمونا بالخيانة العظمى!!

إنها النفس المكرمة، يقتلونها حية، ويدمغونها ميتة!!

وُدْمَغ العرب بها من دون خلق الله، فهي قذيفة شعوبية من عدة آلاف من القذائف البغيضة، ويستبعد الواد عند قريش ومن لفّ لفّها من العرب في جوار الحرم المكي لأسباب من أهمها:

١- لقد ضمن الله لقريش عدم الجوع، وعدم الخوف، لذلك لا يخافون على

أعراضهم من الجوع أو الغزو، ولقد ذكرهما القرآن في سورة قريش ﴿لِيَلْفَ قُرَيْشٍ ۝١ إِيْلَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾

(١) انظر: مغني اللبيب، لابن هشام، تحقيق: د. المبارك، وحمد الله.. ص: ٧٥٨. وللنحاة أربعة أوجه في

إعراب مشيها: مبتدا، وفاعل مقدم، ومفعول مطلق، وبدل اشتغال.

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس «واد» ولسان العرب «واد».

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴿قريش: ٤﴾

فالجوع هو القاعدة بوادٍ غير ذي زرع، والشبع هو الإعجاز، وهنا يبرز الإعجاز عندما تقوم زهرة وسط الجحيم، وليس عندما تقوم وسط الحديقة.

٢- معظم العرب قبل الإسلام لا يتشاءمون من الأنثى، وهذا لا ينفي وجود متطرفين بكل العصور، بل العكس يقدرسونها، ويؤثنون ما يعبدون، لذلك سموا أصنامهم وهي أقدس شيء عندهم بأسماء أنثوية، هذا ما سجله القرآن عليهم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَوْتَةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾^(١) «النجم: ٢٢» إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ...“ فاللات: صنم قيل بالطائف لقبيلة ثقيف، وقيل لقريش بنخلة مكان قريب من مكة، ونرجح أنه مكرر بالطائف، ونخلة، ودعتهم إلى ذلك شدة منافسة الجوار والزعامة بين القبيلتين على اهتبال اسم واحد.

٣- تبقى مكة المكرمة فيها أول بيت، وأول فندق، وأعظم فندق، وأكبر فندق، وأقدم فندق يضمن لنزلائه التنوير والوعي والإطعام والأمن والأمان، وميزة نزلائه من أصحاب الأرصد الضخمة من الأخلاق العالية والنفوس الصافيات، وهم الأنبياء من آدم عليه السلام، إلى إبراهيم، وإلى محمد صلى الله عليهم وسلم جميعاً وأصحابهم وأتباعهم من الحجاج والمعتمرين... فالوَأَدَّ لَا يُسْتَنْبِت فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَجْوَاءِ النُّورَانِيَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ.

(١) إن أنس، لأنس، عندما دفعت مخطوطة الدكتوراة إلى مكتب طباعي متخصص بجدة: ١٩٩٥م. ولما وصل الطابع الذي يكتب النص إلى هذه الآية وبها كلمة «ضيزى» تحديداً، وضع عليها دائرة بقلم الرصاص، وسحب خطأً للهامش، وسجل ما ملخصه: أنت بعد شهرين ستصبح دكتوراً، كيف تكتب مثل هذا الكلام.... مو عيب عليك؟؟ وكرر الملاحظة في موضع آخر على نفس المفردة. فقابلته بهدوء، وعلمت منه أنه سائق عند صاحب المطبعة وحشر نفسه حشراً للضرورة بهذا العمل منذ أسبوع، لأن الطابع المتخصص ترك العمل فجأة، والمكتب الطباعي ملتزم مع الطلاب.

٤- مجمع الشعراء بسوق عكاظ، ومنطلق قصائدهم النواح على الحبيبة وديارها، بدءاً من امرئ القيس من الشطر الأول من البيت الأول: قفا، نبكي من ذكرى حبيبٍ ومنزل ...

والمعلقات العشر تشهد على تكرار الحبيبة المتعززة والمترفعة، وهو الملهوف الشاكي الباكي، وتدور كثيراً مفردات الأثني والتأنيث في شعر العرب.

٥- كان العرب قبل ميلاد عيسى عليه السلام، في الشدائد ينتخون بالبنات وإلى اليوم في القبائل: النخوة حية، نحو «أنا أخو فلانة» أو «أبو فلانة» والمرأة تنتخي بأخيها «أنا أخت فلان» و«بابنها» أنا أم فلان» في الجاهلية والإسلام وحتى هذا اليوم، كل قبيلة لها «نخوة» ولقد سجل القرآن العظيم هذه الظاهرة، عندما تلاوم الناس في شأن ولادة مريم لعيسى عليه السلام من غير أب «قالوا: يا أخت هارون..... ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمك بغياً» لاحظ النخوة العربية «يا أخت هارون» ومريم عربية ونبئت بأرض عربية، ولغفلتنا سرقوها منا، كما سرقوا تراثنا وثورواتنا...

وقد لصقت تهمة وأد البنات بالعرب ظلماً من دون خلق الله، وتسربت إلى بعض تفاسير القرآن بدون تمحيص، بسبب قذائف الشعوية آنذاك، وجاء ذكر بعض الصحابة رضي الله عنهم من الصدر الأول كعمر بن الخطاب وغيره، وما أكثر خصوم عمر!! بأنهم في جاهليتهم كانوا من أبطال هذه الفعلة الشنيعة، وهذه زلزلة لقيمتهم ومكانتهم، وهل العالم كله في فترة التنزيل كان متحضراً متألماً متأثراً ما عدا العرب، وبعض التفاسير محشوة بأخبار لينة، وحكايات لا تثبت على التمحيص، ومنها أوهى من خيط العنكبوت، وما جاء بالخبر الصحيح ليس فيه ما يدل على صحة الشبهتين الواد، ولصقت بالعرب شذوذ قوم لوط.

وما جاء في مسند الإمام أحمد، وصحيح مسلم، وغيرهما“

-عن عروة، عن عائشة، عن جُدّامة بنت وهب-أخت عكاشة-قالت حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم في ناس وهو يقول: ”لقد هممت أن أنهى عن الغيلة، فنظرت في الروم وفارس فإذا هم يُغِيلُونَ أولادهم، ولا يضر أولادهم ذلك شيئاً“. ثم سأله عن العزل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ذلك الوأد الخفي، وهو (إذا) المؤودة سئلت“. ورواه مسلم برقم (١٤٤٢).

ففي العزل توأد أنفس، كانت في طريقها للحياة.

ومن الشواهد التي يعززون رأيهم بالتهمة، قوله تعالى: “ولا تقتلوا أولادكم (ذكور وإناث) خشية إملاق...“ الآية. والرد عليهم، لم يقل: لا تقتلوا بناتكم، وفي الآية: جاء القتل واضحاً، هو هدف وليس نتيجة، وقد ينفذ أو لا ينفذ، بينما الوأد مقدمة اضطهادية توصل إلى القتل، وجاءت الأولاد - في الآية- تشمل كل مولود من البنات والذكور، ولا تحصرها في العرب ولا في البنات، وحجة أخرى لهم، قوله تعالى: “وإذا بشر أحدهم بالأنثى، ظل وجهه مسوداً، وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب؟“ الآية.

لم تحدد الآية العرب، ولم تقطع حتى بأن أحداً دس بنته فعلاً. إنما تصور حيرة صاحب المولودة أمام هذا الحدث. وأنها غير مرغوب بها، كضيف ثقيل، عند أب مخالف لفطرة العطف والحنان، ومثل هذا متطرفٍ ونادر.

والوَأد حالة استثنائية، وجريمة نادرة مخالفة للفطرة، لذلك سجلها القرآن، ولظروف اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، كما فعل الفراعنة بأطفال بني إسرائيل، ذبحوهم ذبحاً، وذكرت الجريمة الفرعونية في القرآن لندرتها، وندرة

المجرم كونه جهازاً رسمياً، ومن المفروض القيادة فيها العقلاء والحكماء... ويجمعون على مثل هذه الشناعة والبشاعة، وهذا ليس خطأ عابراً كمجموعة أطفال يلعبون بعلبة الكبريت، قيادة أمة تخطئ مثل هذا الخطأ الذي لا يغتفر ولا يمحي مع الزمن، وكل حالة نادرة لا تدوم، بل تدور في الأرض كما يدور الزلزال.

والذي تفعله الصين اليوم في القرن الحادي والعشرين، تتد في كل يوم آلافاً مؤلفة من البنات، عندما لا تسمح للزوجين إلا بطفل واحد ففي الأشهر الأخيرة يقرر الزوجان مصير الجنين، إن كان الحمل ذكراً تركوه، وإن كان أنثى وأدوها، وأنزلوها إجهاضاً!!

وهذه نبوءة قرآنية تتحقق بعد أربعة عشر قرناً، في مسألة وأد البنات في الصين بالملايين.

وأما الأهم وأد الشعوب بكاملها، الشعوب الأنثوية الهزيلة الخانعة، وعددهم يفوق الحصر. قديماً وحديثاً. ومن كانت هذه صفاتهم فهم الملامون على هذا الخنوع والخضوع.

الحديث الصحيح المذكور أعلاه خلا من أن المؤودة أنثى، وأن العرب هم الوائدون، واعتبر العزل من الوئد، لأنه يئد الأنفس، ويتساءل مستغرباً: بأي ذنب قتلت بذور الأنفس؟ لأن إهدار ماء الحياة بالعزل، قطع للنسل البشري.

والتنزيل القرآني ما جاء مفصلاً على قدر العرب طولاً وعرضاً، إنما جاء للبشرية ولكل العصور، لقد كان في البشرية مشكلات، كقتل النفس والربا والخمر والوآد... عاجلها القرآن، ومنها الوآد، وما زالت هذه المشكلات موجودة عند العرب وغيرهم.

وَإِذَا الْمُؤَوَّدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟

ولماذا هنا بدأ التحقيق مع المظلوم المؤوود قبل الظالم؟

لأن المظلوم ينتظر لحظة العدل، ويسعده إذا سمعت شكواه من السلطات العليا، بينما الظالم لا يريد ذكرها، ولا سماعها، ولا نبشها.

وإذا الأمم المؤوودة كان وأدها بسبب ذلها وخنوعها، فهو ذنب في عنقها، لأن الله خلقها عزيزة، قال الشاعر:

ولا يقيم على ضيم يُراد به إلا الأذلان عيرُ الحيِّ والوتدُ
هذا على الخسف مربوط برُمَّته وذا يشجّ فلا يرثي له أحدُ
وهل كل ذليل يعذره الله !

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾
« النساء: ٩٧ / ٩٨ »

وعند البلاغيين: لم سئلت المؤوودة، قبل الوائد؟ لتبكيك الوائد، يقول صاحب الكشاف: فإن قلت: فما معنى سؤال المؤوودة عن ذنبها الذي قتلت به؟ وهلا سئل الوائد عن موجب قتله لها؟ قلت: سؤالها وجوابها تبكيك لقاتلها.

وهناك من برر مسألة الواد وقتل البنت خوفاً من العار؟

والمجتمع الآسيوي ككل والعرب جزء منهم، وحتى اليوم في الهند الهندوس والبوذيين، يقتلونها وهي صبية أو أم أو لاد إذا أكتشفوا أن لها علاقة سرية، وهم لا عرب ولا مسلمين، بل العكس الإسلام رحمها، لوزنت، وحملت،

وولدت، ما دامت بكرًا تجلد مائة جلدة، وتبقى تربي مولودها. ويعاقب المتزانيان الرجل والمرأة وبنفس الدرجة، بينما عند الآخرين تعاقب وحدها، ويبقى الزاني يبحث على غرة جديدة.

وهذه الإشارات في جزء عم، هي غاية في الأهمية، كونها تهيئ الناس لبدايات التشريع الجنائي الإسلامي في مسألة القتل، وهذا من مبدأ التدرج في الأحكام، وفيما بعد نزل قوله تعالى « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ .. » الإسراء: ٣٣. وآيات كثيرة في هذا المعنى.

والتدرج بالأحكام من أساليب القرآن التربوية، كما تدرج في مسألة تحريم الخمر...

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾

ومن الاعجاز كل صحيفة تعرف صاحبها، ويجد بها كل صغير وكبير من الأفعال، والأقوال، ووساوس الصدر مستطراً، ”فأما من أوتي كتابه بيمينه، فهو في عيشة راضية، ومن أوتي كتابه بشماله، فأمه هاوية“^(١) الصحف تصل الأيدي ولا تخطئ الهدف، ولا يستطيع صاحبها أن يزيد فيها حسنة، أو ينقص منها شيئاً، وأصحاب الأفعال الشائنة والظالمة في غاية الإحراج.

وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾

وإذا السماء المزينة بزينة الكواكب، كشط وجهها، كما يكشط جلد الذبيحة، ويظهر ما هو مخبأ ومرعب ومعقد ما وراء الجلد، وأجمل نساء الدنيا، لو كشط

(١) للاتبسامة فقط. يحكى عن بعض الفرق الإسلامية الصغيرة، كانت إذا مات ميتهم، قطعوا يده اليسرى، حتى لا يأخذ كتابه إلا بيمينه. هذه شطارة الأغبياء.

شيء من جلدها، تحولت من محبوبة ومرغوبة ومطلوبة إلى مرهوبة ومرعبة فالعريس يخرج من البيت بجلده.

وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴿١٣﴾

جاءت مرحلة الإسعار والإشعال، وقودها جاهز من الناس والحجارة، وهناك مسعر ينتظر الإشارة، وبعد إسعار الجحيم، تضطرم النار، ويكثر جمرها وتوقدها، لتبدأ العمل المسند إليها، ولعل سائلاً يسأل عن أصحاب الجحيم، ما أصحاب الجحيم؟ يأتيه الرد والصد ثلاثاً وعشرين سنة من سنوات التنزيل فلا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون. "ولا تسأل عن أصحاب الجحيم"، أي انتهوا، لا تسأل عن مُنتَهٍ.

وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾

وإذا الجنة كعروس زُينت وقُربت من أهلها، كي يستبشروا، ويأمنوا، ولا يلتفتوا إلى الفرع الأكبر الذي يستولي على معظم الخلائق من حولهم، مما يرون من تكور الشمس، وانكدار النجوم...

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

الإعجاز في العلم اليقيني الذي يشمل الجميع المؤمن والكافر، العالم والجاهل، الإنس والجن، عندما يرى الفرد صورة كاملة عن تاريخ حياته، وجاءت كلمة "نفس" نكرة، لتشمل كل الأنفس التي تعيش معنا على هذا الكوكب. وكل نفس تقرأ ما قدّمت، وأخّرت، من خلال البيانات الواضحة، وكفى بنفسك اليوم عليك حسيباً.

ويتحول النص ليزكي القرآن، ومن يحملون القرآن من الملائكة والنبى ﷺ والصحابة والعلماء، ومن يبلغ القرآن للناس، فأقسم بآيات النجوم الكونية، وهي بين الخنس، والكنس، وفي أول عسعسة الليل، وفي أول تنفيسة الصبح، وما الذي ألقا ربنا إلى القسم؟ أهو العناد واللجاجة عند المشركين؟ فأقسم الله لهم بأربع آيات كونية، يعرفونها كما يعرفون أنفسهم وأبناءهم، بأن القادر على إحكام جريان الكواكب وإيلاج الليل بالنهار، والنهار بالليل، هو القادر على إيلاج نور القرآن في ظلمات الصدور، فتدب الحياة في الصدور، كما تدب الحياة بقدم النهار.

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُسِ ۝ ١٥ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ۝ ١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ ١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ۝ ١٨

ومن شدة العناد واللجاجة عند المستقبلين، توجه القرآن إلى تركية كتابه، ورسول السماء جبريل، ونبيه محمد ﷺ، والربانيين من بعده، بدأ معهم الحديث، بالقسم بما يبصرون، وبما لا يبصرون.

لا داعي للقسم بمعجزة تعرفونها وتألّفونها، وأقسم بالنجوم والكواكب التي تزين السماء بالليل، وترشد الساري، وتخنس بالنهار، وتختفي بسبب ظهور الشمس، كغزال يأوي، ويخنس، ويذبل في كناسه ومرقده مع شروق الشمس خوفاً ممن يتربصون به من أكلة اللحوم، وأقسم بآية بداية الظلام ورقته، ثم يتنامى ظلامه وهيبته، حتى يفرض على الناس منع التجول، ويقسم ببداية الضوء ورقة نوره، ثم يتسامى، ويتعالى حتى يضحى للجميع. يلفت انتباههم إلى معجزة تتكرر يوماً، ومن طول الإلفة، وثقل الغفلة، هانت على السذج آية تنامي الظلام وعسعستها.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾

تزكية وتوثيق مصادر التشريع الإسلامي: يتنقل القرآن الكريم من كريم، إلى كريم، إلى كريم، كلام الله ينزل إلى جبريل، ثم إلى محمد ﷺ، ثم إلى كرماء أهل الأرض، من حملة القرآن، إنه القرآن الكريم، كريم كرم عطاء، وكريم كرم نفاسة، وكريم كرم ندرة، كما يقال: الأحجار الكريمة، للنفاسة والندرة، وكلام الله ليس ورقاً مكتوباً، ولكنه قول فيه روح، وفيه طاقة لاتنفد، وفيه قدرة على التأثير والتغيير، كلام الله يصنع أمة جديدة لم تسبق، ولن تلحق، وما من أحد يرسل الكتاب الكريم، إلا مع رسول كريم، قوي، مكين، مطاع بين أهل الملأ الأعلى، أمين على أسرار الملأ الأعلى والأدنى.

ويتنامى القرآن في توصيف وتعظيم وتزكية جبريل عليه السلام، حتى أوصله الله في ترقيه إلى « الأمين » الذي لا يزيد، ولا ينقص حرفاً مما يقال له، وتتحول التزكية إلى الصادق الأمين المؤمن رسول الله، هذا الأمي الذي يكرر القرآن حفظاً عن ظهر قلب وعلى مدى ثلاث وعشرين سنة، وكلها شدّ وأخذ وردّ وجوع وحرّ وبرد... ولم ينس حرفاً، أو يزد أو ينقص... بينما أي أمي لو حفظ خطبة وحيدة ويكررها كل عمره ففي كل مرة يخرج حرفاً، ما بين زيادة ونقص.

وجمع الله بين أعظم الكتب، مع أعظم الملائكة، مع أعظم الأنبياء، مع أعظم الأمم، أنزل القرآن العظيم على جبريل الكريم، القوي، المكين، المطاع، الأمين، إلى صاحبكم محمد ﷺ المعروف المكشوف لديكم حسباً ونسباً وتنشئةً وما هو بمستور عنكم، ترونه رأي العين بلا مجنة تخفيه أو تزايل في حاله أو مقاله.

﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾

ورسول الله الذي ولد، ونما، وترعرع، ورعى، وتاجر، وتزوج، وأنجب، وصاحبكم خلال أربعين سنة ولقبتموه بالصادق الأمين، وأودعتموه أسراركم وأماناتكم، وبعد كل هذا تزعمون بأنه مجنون، من هو المجنون؟ الذين لم يكتشفوا صاحبهم في كل هذا المشوار، أم المجنون الذي يتعمد أن يقول للسمن والعسل: هذا ثوم، وهذا بصل؟!

مافيه شيء "بمجنون" أي من الجنة والستر، وليس السياق فيه ما يرشح أن به مسأ من الجن، كما يرى ابن عربي: لاشيء بمحمد ﷺ مستور أو مخبأ أو مخفي، بل مكشوف كله، وهذا أقوى حجه، ممن يرى "بمجنون" أي أصابه الجن كما يزعم خصوم الإسلام، وهذا الذي يقوله: هلوسة، أو وسوسة، وقدر الله لبشرية محمد ﷺ أن ترى نورانية جبريل بالأفق الأعلى بآئنة ظاهرة، حتى يدفع عنه وعنكم الوهن واللبس. ثم جاء إلى زوجه خديجة وأولاده رضي الله عنهم، وأخبرهم بما رأى، وما ضمن أو كنتم هذا النبأ، بل قال لهم: قال لي جبريل: اقرأ، قلت له: ما أنا بقارئ، فغطني، وأعادها الملك ثلاثاً...تفاصيل الحدث في مظانه بالصحيحين وكتب السيرة.

﴿٢٥﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ

لأن منهج الشيطان نار على نار، والقرآن نور على نور، هما ضدان لا يجتمعان بإناء واحد، ومهمة الشيطان أن يقف في وجه الخير، ولا يقوله، ولا يفعله، ولا يدل عليه، ولا يعين على خير.

ولا يقدر الشيطان على حمل القرآن، "لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته

خاشعاً متصدعاً من خشية الله“ ولا يريد الشيطان أن يقول إنسان لآخر ”
 اقرأ..“ العلم ، لأن بضاعته تكسد بين أهل العلم، فمن أراد الدنيا والآخرة،
 فعليه بالعلم، كما قال: ﴿ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ
 ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ الشعراء.

وعن ابن كثير: «...يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل
 من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد: أنه نزل به الروح الأمين المؤيد
 من الله، « وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ». ثم ذكر أنه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه، أحدها:
 أنه ما ينبغي لهم، أي: ليس هو من بُغيتهم ولا من طلبتهم؛ لأن من سجاياهم الفساد
 وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدي وبرهان
 عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة؛ ولهذا قال تعالى: « وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ » .

وقوله: « وَمَا يَسْتَطِيعُونَ » أي: ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، قال الله
 تعالى: « لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ »

ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته، لما وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم
 بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله؛ لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في
 مدة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف
 واحد منه، لئلا يشتهبه الأمر. وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأيدته
 لكتابه ولرسوله؛ ولهذا قال: « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ » ، كما قال تعالى مخبراً
 عن الجن: ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا
 نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ
 يَمُنُّ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ الجن. (١).

(١) تفسير بن كثير، ج ١٦٥: ٦.

إن الله لا يريد بمن في الأرض من الجن والإنس شراً، ولو أراد بهم شراً، ما أرسل الرسل، وأنزل الكتب.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٣٦﴾

ظاهرها استفهام، وباطنها التقريرة الخالدة وليست العابرة، التقريرة المتجددة والمتولدة، أين تذهبون في كل اتجاه، إلا اتجاه الحق تتركون؟ تركبون كل صعب إلا الحق،، وليس للحق إلا طريق واحد «اهدنا الصراط المستقيم...» وبعد الحرب العالمية الثانية، استورد العالم الإسلامي، من كل البرامج والمناهج الغربية الدونية الدنية، ما عدا الصناعة والتقنية والإدارة والشفافية، لقد استوردوا، واستنبتوا ولبئس ما استوردوا من كل ميت ومميت واستنبتوها قسراً وقهراً على رقاب الناس، وبعدها تردت البلاد من سيئ إلى أسوأ، وكل شيء مسموح به ومشجع عليه إلا الفضيلة، بل وزاد الطين بلة، من أراد أن يحقق ما يريد، عليه أن يطعن في الإسلام، وله ما يريد؟ وصار المساس بالإسلام دكاناً لمن لا دكان له، ورصيلاً بنكياً لمن لا رصيد له، وكرسياً ذهبياً، وربطة عنق فرنجية.

إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾

هذه أول عوامة غير ملزمة، ويوضح الله لهم مهمة القرآن العالمية للناس كافة، ليس فيها إلزام أو إرغام لأي إنسان، ومهمة القرآن الكريم يذكرهم بما هو عندهم من الفطرة، التي فطر الله الناس عليها، ويذكرهم بالعهد الذي بينهم وبين الله ” أأست بربكم؟ قالوا: بلى!! ومهمة رسول الله تبليغهم بالذي أخذه عليهم منذ أن كانوا في ظهر آدم عليه السلام، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ الأعراف: ١٧٢.

وبالكشاف : ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم : ألسن بربكم؟ وكانهم قالوا : بلى أنت ربنا ، شهدنا على أنفسنا وأقرنا بوحدانيتك . وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وفي كلام العرب» ..
والله أعطى الإنسان حرية التفكير والاختيار، وأوضح لهم أن طريق الخير واحد، وطرق الشر آلاف مؤلفة.

لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾

لأن الله يريد قلباً تحرس المنهج، يريد قلباً تحب منهجه، وتعشق أمره ونهيه، حتى تخلص العمل فيه، وتظهر جماله للآخرين، إن الله يريد قلباً، وليس قوالب، يجمعها الطبل، وتفرقها العصا!! كما يفعل السلطان الظالم بالدهماء!!

وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾

أودع الله في خلقه أمرين:

- الطاقة المخزنة... والقدرة على التنفيذ.

- حرية الاختيار.

والله على علم بكل اختيار، وماتشؤون من خير أو غيره، فالله مطلع عليه، ولا بد من إذنه، فمن يريد الخير، ” فسيسره لليسرى“ ، ومن يريد غير ذلك ” فسيسره للعسرى“ مادام الكل في قبضته، حتى نواياهم في قبضته، فيفعلها الله لهم، كما يحبون، ويحاسبهم على اختيارهم.

سورة الانفطار مكية، وآياتها تسع عشرة
آية، ورقمها بالقرآن (٨٢) وفي التنزيل
المكي (٨٢)

ذلك تقدير العزيز العليم تختص به الانفطار.

وهذمراحل ترحيل الكون بالسورة: الكشط، والانفطار، والانفراج،
والانشقاق، وطي الكتب.

عنوان السورة انفطار وانكسار...استهلال رعيب، وأي رعب سينتاب
سكان البيت الكوني عندما يبدأ مسكنهم بالخراب بعد رحيل أهله، وأول شيء
انكشاش أدوات الزينة منه ”وإذا السماء كشطت“ ثم الانفطار ”وإذا السماء
انفطرت“ ثم الانفراج ”وإذا السماء فرجت“ ثم الانشقاق ”وإذا السماء انشقت“
ثم طوي خيمة السماء للأبد ”يوم نطوي السماء كطي السجل“

جاء في مسند الإمام أحمد: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”من سرّه
أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ”إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ“ و ”وإذا
السَّمَاءُ انفطرت“ و ”إِذَا السَّمَاءُ انشقت“ (١).

وجاءت السورة بخمسة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفطرت﴾ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انثرت﴾ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجرت﴾ (٣) وَإِذَا

الْقُبُورُ بُعِثت﴾ (٤) ﴿

(١) تفسير ابن كثير ٣٢٨:٨.

٢- ﴿عِلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾

٣- ﴿كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِاللِّدِينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كُنِينٍ ﴿١١﴾ يَعْمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

٤- ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾

٥- ﴿وَإِنَّ الْفَجَارَ لَفِي حَجِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴿١٩﴾ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾

الانفطار، والانتثار، والانفجار، والبعثرة، كلها معروفة، والكيف مجهول!!

ولو تجمع الخيال البشري في إنسان واحد، يستحال عليه أن يتخيل الانفطار، والانتثار... ومجرد أن نتصور هذه الأحداث نجدها فوق الطاقة العقلية لدى البشر، لأن السماء ليست قطعة ورقية ذات شكل ما، وليست كالأرض كروية ونحن على ظهرها، بل هي تحيط بنا، ولا نرى إلا ماتقع عليه العين من جهتنا، وكل ما تراه العين ذرة رمل من بين رمال الأرض، وهل للانفطار صوت كالرعد، أو أشد مليون، مليون مرة... فصوت الرعد يقصف قلوب جبابرة الأرض دفعة واحدة، فكيف لو جاء ألف، ألف صوت من الرعد القاصف على الأرض دفعة واحدة، ستكون أمة النمل على ضعفها، أحسن حالاً، وأثبت بالاً، وأسكن قلباً من جبابرة الأرض أمام آية واحدة من آيات الله التي لاتعد ولا تحصى، وكأن الله يريد من تعداد هذه الآيات التي ستقع حين تبدلات الكون الكبرى تهديداً ضمناً للطغاة من أهل الأرض: نحن الذين فطرناكم، ونشركم، ونفجركم، ونبعثكم... ويقول للمؤمنين تبشيراً: كيف تخافون، وتخزون،

ومولاكم الذي يملك كل هذه القدرات؟!

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ
بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

حدثان علويان تلقائياً، وحدثان سفليان بفعل خارجي، حدثان متقابلان متناظران توقيتهما واحد، وغاب جواب الشرط في الجمل الأربع، ليصبح جواب الشرط قابلاً لكل الاحتمالات، مثلاً:

إذا السماء انفطرت، من خشية الله، وإذا السماء انفطرت من سرعة تنفيذ الأمر، وإذا السماء انفطرت، انفطرت فزعاً من هولها القلوب والأفئدة إلا قلوب المؤمنين، قوله تعالى: «يوم ينفخ في الصور، ففزع من في السموات ومن في الأرض، إلا من شاء الله.... وهم من فزع يومئذ آمنون» النمل: ٨٧-٨٨.

قال: انفطرت هي بنفسها، مثل: انتحرت، هي جندي تنفذ ما أسند إليها ولو على نفسها، ولو قال: أنفطرت، هناك فاعل غيبي فطرها، ونفذ بها حكم الله، ولقد عدد أربعة أسماء من خلق الله، السماء والبحار متقابلان متشابهان والكواكب متقدمة والقبور هادمة، وكلها لا تخطئها العين لحظة واحدة، ليقول لنا: كما أنا القادر على بناء هذا الكون، وأنا القاهر الوحيد، وفيها تهديد مبطن لجبابرة الأرض، لن تكونوا أعظم من السماء والكواكب والبحار... وتأنيس للضعفاء لا تيأسوا، إن الظلمة في قبضة الله في الدنيا والآخرة.

زوال نظام السموات يمر بعدة مراحل:

- ١- وإذا السماء كشطت» زوال الجماليات في الكون، كزينة الكواكب.
- ٢- وإذا السماء انفطرت» وهي الشقوق الدقيقة في البنيان، بداية التفكك، ونتيجة الضغط.» والسماء منفطر به.»

وبعد أن خلق الله السماء، يتحدى الذين عندهم علم في البنيان، بأن يكرروا النظر والتفحص "هل ترى من فطور؟" مهما كان فطراً صغيراً كفطر النبتة الدقيقة وشقها لوجه الأرض.

٣- وإذا السماء فرجت» اتسع الخرق وصارت فرجة في البنيان.

٤- وإذا السماء انشقت» الانشقاق قسمها، وقسمها.

٥- فكانت السماء أبواباً» لأنها في حالة الطوارئ.

٦- يوم نطوي السماء كطي السجل» لأنه انتهى الدور الذي بُنيت من أجله.

كما هو الحال في عالم الأرحام، بعد نزول كل مولود، تخرج معه الأجهزة التي وجدت من أجل الجنين، تنفطر، ثم تنفجر، ثم تتشقق، ثم تنطوي إلى الأبد لانتهاؤ مهمتها، وهي أعضاء هامة بالغة الدقة. وفي كل لحظة تنشأ أجنة في أرحام ، وفي كل لحظة تدفع أرحام بمواليد في البر والبحر، فلا يحصر عددها إلا الله. " وفي أنفسكم أفلا تبصرون" و" وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها؟" ١٢:١٠٥. ولا يدققون!!

وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ

كل البشر يستطيعون نثر وبعثرة الأشياء المرتبة، وكل تدمير لا يحتاج إلى ذكاء وجهد، انظر على بعض حكام العرب ما تركوا الكرسي إلا بعد نصف قرن، وما تجلت عبقرياتهم إلا بتدمير البلاد والعباد^(١).

ومكمن الإعجاز هنا في تنظيم الكواكب على كثرة أعدادها، وضخامة

(١) نهاية القذافي ومبارك وابن علي والأسد وصدام وإن كانت لصدام ميزة عن غيره، لو سلم البلد كان كل ما فيها من تقدم تقني يشهد له، فدمر كل الشهود والشواهد.

حجومها، وليست هي مجرد عقْد نفيسٍ انقطع سلكه، وانتشرت حباته التي كانت للزينة، وما زال يحتفظ بقيمته النقدية، بينما انتثار الكواكب، انتشار أشلاء الكون. كانتثار أشلاء الجسد: كالكبد، والكلية، والقلب، واليد، والرجل...
مجموع النجوم يزيد على: واحد وأمامه أربعة وعشرون صفراً

كانوا يعدون النجوم والكواكب بالآلاف، ثم وصل العدد إلى الملايين، ثم إلى المليارات، وفي التقديرات الحديثة» تم اكتشاف مليون مليون مجرة، وفي كل مجرة مليون مليون نجم»^(١) «مجموعها أربعة وعشرون صفراً، بينما وجه الأرض لوفرشناه بحبات الرمل بشكل متناسق لا يتسع لأكثر من تسع تسعات^(٢) وكل في فلك يسبحون» ويسبحون، ولكل منهم دور يقوم به من أجل عمارة الكون.
وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ

وإذا البحار كل البحار بتوقيت واحد تفجرت، فكيف تتحول الماء إلى مادةٍ ناريةٍ متفجرة؟ وتصبح أشد من النار ناراً، وللكيميائيين آراء منها: تتألف ذرات الماء من الأكسجين وهو غاز مشتعل، ومن الهدرجين وهو غاز معين على الاشتعال، فلو أن الله فك هذه العلاقة الباردة بينهما، لأصبح البحر كتلة من اللهب.^(٣)
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ

رحم الله أبا العلاء، رهين المحسبين، طليق الفكر والخيال، عندما لخص دورة الحياة:

(١) موسوعة الإعجاز العلمي، قسم الآيات الكونية، د- النابلسي، ص: ٦٩.

(٢) حسبوا مساحة وجه الأرض بمائها وجبالها، ووزعوها على حجم حبة رمل واحدة، كان الرقم أقل من ذلك بكثير، وعلى هذا جعلوا كل الآلات الحاسبة تنتهي بتسع تسعات. بينما أعداد الكواكب وصل -الآن- إلى أربعة وعشرين صفراً!! ومع تقدم العلم لا ندري أين يقف الرقم الأخير؟

(٣) نفسه، ص ٩٥.

صاح!! هذى قبورنا تملأ الرَّحْبَ
 خفف الوطاء ما أظن أديم
 فآين القبور من عهد عاد؟
 الأرض إلا من هذه الأجساد
 رب لحدٍ قد صار لحداً مراراً
 ضاحكٍ من تزامم الأضداد

لاتقع العين إلا على القبور الحديثة، ولكن المندثرة منذ قرون والذائبة منذ آلاف السنين، قد تحولت إلى موادٍ عضوية مذابة أكلها النبات كمخلفات كائنات حية، وهذا قانون العدل الإلهي، ويوم القيامة تتحول الأرض إلى مقبرة مفتوحة، بعضها فوق بعض، كنقطة الدم الواحدة محشور بها ملايين من الكريات الحمر والبيض... وفي كل ذرة من التراب، إنسان كامل، لأن أصله ذرة!!

ويقول د. زغلول نجار يصف السر الدقيق في العصعص

(عَجَبُ الذَّنْبِ) ويذكر الأحاديث الصحيحة الواردة في توصيفه، والتجارب التي أقيمت عليه فيزيائياً حرقاً، كيميائياً تدويماً، أو سحقاً، أو اشعاعياً من أجل طحنه، فلم يفلحوا في شيء:

جاء في الحديث الصحيح: “كلُّ ابن آدم، تأكل الأرض إلا عَجَبَ الذَّنْبِ” الشيخان. وفي حديث آخر وصفه “...مثلُّ حبة خردلٍ، منه نشأ” وفي حديث آخر “...ومنه يركبُ الخَلْقُ يوم القيامة” مسلم. (١) الزمن والعلم لصالح الحق، والإسلام حق.

إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ أُنثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ③ وَإِذَا الْقُبُورُ
 بُعِثَتْ ④ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤

(١) موسوعة الإعجاز العلمي، يوسف أحمد، ص ١٦٦. باختصار

جاء في مسند الإمام أحمد: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ”إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ“، و”وَإِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ“، و”إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ“ (١).

إذا السماء انفطرت لهيبتني وعظمتي، وإذا الكواكب انتشرت مذعورة من جلالي، والبحار تفجرت من شدة بأسني وسلطاني، والقبور ألفت ما فيها وتحلت، تنفيذاً لأوامري.

أيها الإنسان لن تكون أعظم من السماء، ولا أكبر من الكواكب، ولن تكون ماءً أكثر من البحار، فأنت في قبضتنا، لذلك ندخلك التراب متى نشاء؟ ونخرجك متى نشاء؟ ونظهر لك شريطاً بالصوت والصورة لكامل حياتك“ وكفى بنفسك اليوم عليك حسيباً“

وعندما يسمع ضعفاء المسلمين هذا الخطاب موجهاً لهم لا لغيرهم، ليشد أزرهم، ويؤنسهم، كأنه يخاطبهم:

ربكم الذي آمنتكم به، تنفطر السماء لعظمته، وتذك الجبال من هيبتته، وأنتم الأعلون ألا تخافوا، ولا تحزنوا... إن كنتم مؤمنين

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾

فما غرك بربك الكريم“ قال النبي ﷺ: « غرّه جهله » وقال عمر: غرّه حُمقه، وقال قتادة: غرّه عدوه...

قال: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ... ولم يقل: يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُ أو المؤمن لأنه محصن بالإيمان من الغرور والفجور، وبيننا نداء الإنسان في القرآن: نداء للإنسان البكر الفطري

(١) تفسير ابن كثير ٣٢٨: ٨.

الساذج الذي تناوشه آلاف المهالك.

الدنيا متاع المغرورين، والآخرة متاع الأذكياء.

أطلق كلمة الإنسان، وهي تشمل الأنبياء والصالحين ومادون ذلك، وجاء السياق هنا يريد منهم كل غرّ فطري ساذج، ويقال لكل شاب طائش: غرّ، لقلّة تجربته في الحياة، وما عنده استعداد أن يستفيد من ترشيد الراشدين، وتحذيرات المجربين، فيعطل عقله ويقوده هواه وشيطانه بكل الاتجاهات إلاّ اتجاه الحق، وكأنّ قائلاً يقول له بعد أن يقع في الهاوية: كيف اجترأت على ربك الكريم؟ وما الحياة الدنيا إلاّ متاع المغرورين، وليست متاع الناهبين والأذكياء، والذي أوقع أباً البشرية آدم عليه السلام وزوجه في الخطيئة، قلّة تجربتهما في الحياة، فبالإيمان الكاذب، دلاهما الشيطان بحبل التملك والطمع إلى ماء الغرور، فلما وصلها لم يجدا إلا سراباً، ووجدا الله عندها ”فدلاهما بغرور“ ٧:٢٢. وما زال الشيطان يدلي الناس بحبل الطمع والغرور، كما يدلي الوارد دلوه إلى هاوية البئر، فينقطع الحبل فجأة، وضحاياهم من المغرورين كسجناء التهريب والتزوير والممنوعات والزناة...، يفوقون الحصر في كل يوم، وكلهم حذرون حذر آدم عندما قاوم أول الأمر، لكن إبليس خدعه باسم الله وبالأقسام الكثيرة، وما زال يخدع أبناءه في مرحلة التردد، يوسوس في صدورهم: ربكم غفور رحيم، ستار للذنوب والعيوب، هذا فلان يملك ثروة من الممنوعات كالمخدرات...، لطفَ الله به ولم يُكتشف أمره!! الشيطان يؤزهم أزاً، قولوا: يارب... وتقدموا...

فجأة! انكشفت سواتهم، وبدأوا ينخسفون على أنفسهم من ورق الأكاذيب، وتحولت الأحلام الموهومة إلى سراب.

«فهاغرك بربك الكريم»

الشیطان كشف لآدم نقاط الضعف ولم يستثمرها آدم عليه السلام ولا بنوه. الشيطان عدو لأبينا آدم عليه السلام، ولكنه قدم خدمات لآدم عليه السلام، ولم يستثمرها آدم ولا بنوه، لأن العدو يقدم خدماتٍ لعدوه، عندما يركز على نقاط الضعف فيه، فنبه أبانا آدم عليه السلام على علته القاتلة، وهي حب التملك!!

وابن عجيبة له رؤية عجيبة حول الآية ” حسبها يغويه الشيطان ، ويقول: افعل ما شئت فإن ربك كريم ، قد تفضل عليك في الدنيا ، وسيفعل مثله في الآخرة ، فإنه قياس عقيم ، وتمنية باطلة ، بل هو مما يُوجب الإقبال على الإيمان والطاعة ، والاجتناب عن الكفر والعصيان ، كأنه قيل : ما حملك على عصيان ربك ، الموصوف بالصفات الزاجرة عنه ، الداعية إلى خلافه .

”فما غرك بربك الكريم“ قال النبي ﷺ: « غرّه جهله » وقال عمر: غرّه حُحمقه، وقال قتادة : غرّه عدوه.

رُوي أنه صلى الله عليه وسلم لما قرأها قال : « غرّه جهله » وعن عمر رضي الله عنه : غرّه حُحمقه ، وقال قتادة : غرّه عدوه المسلط عليه يعني الشيطان وقيل للفضيل : لو أقامك الله تعالى يوم القيامة بين يديه فقال لك : « ما غرّك بربك الكريم » ماذا كنت تقول؟ قال : أقول : ستورك المرخاة ، لأنّ الكريم هو الستار وأنشدوا :

يا كاتِمَ الذنبِ أما تَسْتَحِي واللهُ في الخلوّةِ رائيكَا
غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمهالُهُ وسترُهُ طولَ مساويكَا^(١)

الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾

يكشف سرّاً عن المراحل الثلاث التي مرّ الإنسان بها:

التخليق، والتسوية، والتعديل، مثل مراحل الخياطة: التفصيل، والتخييط، ثم التعديلات كالتعادل بين الأطراف الأربعة، والتناسق في الأحجام كتقصير الطويل، وتطويل القصير... ولكل عضو خلق، وتسوية، وتعديل. فلا يمكن الجمع بين رِجْلٍ كَرِجْلِ الْفِيلِ وأخرى: بحجم قلم الرصاص، وبهذا الخلل تذهب جماليات الخلاق وإبداعاته. فأصبح الإبهام له دور، وشكل، وجمال خاص به، غير السبابة... وفي كل عضو له آية تدل على أنه الواحد!

فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

إن الذي خلق الأنفس وذراها في الأرض كالبعوضة والنعامه والبشر والسمك...، وقد تزيد على مائة ألف أمة معنا على هذا الكوكب. ولكل نفس تركيب يليق بمهمتها، فالطير له أجنحة، والسمك له زعانف، وركبك أيها الإنسان على أشرف صورة مما خلق من أنواع خلقه وبدون علمك واختيارك، ولو ركبك على صورة حيوان ما، ماذا تفعل؟

ركبك على أن تكون خليفةً في الأرض، تبني ولا تهدم، تصلح ولا تفسد، ترعك وتسجد...

إذن... الله الفضل والمنّة. ومع كل هذه النعم التي يتمتع بها الكافرون يكذبون بالله ورسوله وما أنزل إليهم من الكتاب والحكمة، ويتمادون في غيهم، فيحاربون الله ورسوله.

كَلَّا بَلْ تُكذِّبُونَ بِالذِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ١٠ كِرَامًا كُنِينِ ١١
يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢

كأنّ هناك جدالاً ولجاجة في الساحة الدعوية في فترة التنزيل، وقال قائلهم: نحن نؤمن بالله، ولانؤمن باليوم الآخر، وهي مشكلة المشركين، والقرآن يرد عليهم رافضاً التجزئة الإيمانية، قائلاً: الإيمان وحدة متكاملة، فمن كذب باليوم الآخر فقد كذب بالدين، وقدم القرآن دليلاً على وجود اليوم الآخر، بأن هناك ملائكة للمراقبة والحراسة والمحاسبة، ولو لم يكن هناك حساب، ما فائدة أعمال الملائكة وجمع المعلومات وتصنيفها؟

أعلمنا بمعية الملائكة حتى نستحي منهم، ونستقيم.

وأعلمنا بأوصاف الملائكة: حافظين لا يضيعون حقاً، وبأنهم كرام معنا وفي صحبتنا من أجل أن نتسامى في أخلاقنا، لأن الذين يصحبون الملوك والأمراء يتسامون في كل كلمة وحركة تليق بالصحبة، وإذا انفردوا عنهم، يحرصون على أن لا يصل عنهم إلى سادتهم من الملوك أي خبر فيه شائنة، بسبب الصحبة، بينما صحبة الملائكة شرف وتشريف.

يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ

يعلمون ما يفعل الطبيب والمهندس والأمير... سواء أحسن أو أساء، كانت علمية أو أدبية معقدة أو بسيطة يعلمونها، بينما الملوك والأمراء، قد يزين لهم المستشار الصناعي صناعة ما لحاجة في نفسه، وهي كاسدة، لأن المسؤولين لا يعلمون، ولا يعرفون كل شيء، والأسلوب القرآني في كل وعدٍ ووعدٍ يطمئن الناس بالعدل، فتعرف الملائكة ما تكتب، وما تكتب إلا بالعدل.

فلا ترهيب يبئس الناس، ولا ترغيب يميع المنهج.

وتحول النص من الترهيب إلى الترغيب وهذا من باب العدل التربوي، فلا

ترهيب يبئس الناس، ولا ترغيب يميع المنهج.

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾

إن الذين برّوا إيمانهم بالسلوك التطبيقي، كما يبر الحاج حجه بالأدب والعبادة والصدقة، فيسمى حجهم الحج المبرور، أي كان الأبرار يتوسعون بالإحسان على من حولهم، كما كان يتوسع النبي ﷺ بالإحسان على من حوله حتى من النبات، والحيوان، جاءت "الأبرار" بالجمع أي عددهم كبير، وهذه من البشائر بأن الذين تابعوا النبي ﷺ بهذا الخلق عددهم كبير، فيتوسع الله عليهم بالنعيم، وجاءت (في) لتدل على أنهم في وسط النعيم. وجاءت (نعيم) نكرة لتشمل كل أنواع النعيم حتى الخارج عن الوصف.

وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾

الفجار: الذين فجّروا حصون الفطرة الإيمانية، وأرغموا أنفسهم على

الكفر، وفجروا قلاع العفاف، وأجبروا فطرتهم على الكفر والزنا...

وكانوا جسوراً لعبور الآخرين نحو الرذيلة، وكانوا كالشيطان دعاة لكل

معصية، وكل ما يغضب الله....

وإن الذين فتحوا شقوقاً في جدار الاستقامة، وفجروا ثوابت الفطرة،

وزينوا للناس سوء أعمالهم، ليخرجوا الناس من النور إلى الظلمات، وماتوا على

ذلك، هم (في) عمق الجحيم. وجاءت (جحيم) نكرة وصفة لموصوف مؤول،

لتعمم عليه أنواع العذاب. والسياق: وإن الفجار لفي نار الجحيم

يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾

سيصل الكفرة النار، متى؟ يوم الدين. يوم القيامة، يوم الحاقة، يوم القارعة... وميزة نار الله لا تنطفئ، ولا تحمد، ولا تهمد، وميزة المعذبين بها لا يموتون، فيستريحون، ولا يرحلون عنها، ولا هم عنها بغائبين، ولا هي بغائبة عنهم.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾

وما من أحد رأى يوم الدين، لذلك يصعب تصويره على أعظم البشر رسول الله إلا بقدر ما يعلمه الله، ومن أين يدري بشر هذا اليوم العصيب، ولم يره، ولم يحدثه أحد عنه؟ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وفصيلته التي تؤويه، يوم كل نبي يقول: نفسي، نفسي - باستثناء رسول الله - لأن كل إنسان فقد السيطرة والتحكم على نفسه، واستسلم لمجريات الأقدار، ومثال ذلك عندما يقوم الزلزال البحري، فجأة، وتشكل الأمواج الحائطية، فتلعب بالمرابك الصغيرة والكبيرة، كما تلعب الريح بأوراق الخريف. فأى سفينة في تلك اللحظة تتفكر بإنقاذ غيرها، أو تسمع صوتها؟ وأي راكب يتفقد زميله؟ وأي أم أو أب يتفقد رضيعه؟ والحيتان تأتيهم من كل مكان، والكل في قبضة الموت! والله المثل الأعلى مع الفارق.

تصوير هذا الحدث، بما فيه انقطاع حبل الوصال العائلي، والعشائري، والشعوبي، والوطني، والاقتصادي، وركز القرآن على مسألة سحب كل المميزات التي كان يُستقوى بها من أصحابها، لعلهم يراعون قبل فوات الأوان، ولات حين مندم!

سورة المطففين مكية، وآياتها أربع
وثلاثون، ورقمها بالقرآن (٨٣) وبالتنزيل
المكي (٨٦)

ويل لمن يغضب جبار السموات والأرض من أجل صاع من بُرٍ أو شعيرٍ
أو تمرٍ... إن الذي يغضب الله، ليس التطفيف في هذه الصِّيعان، حتى ولو كانت
من الذهب الخالص، إنما الذي يغضبه، عندما تستعلي المادة على القيم الإلهية،
ويستعلي الدرهم والدينار على الحق، والحق: اسم من أساء الله. كما هو الحال
في مبدأ الرشوة، الذي جلب اللعنة للراشي، والمرثي، والرائش، ليس من أجل
الدرهيمات التي تقبض سراً، ولكن لاستعلاء الباطل على الحق بقوة المال، ومن
يملك المال، يملك كل الحقوق!!

ففي هذه السورة سبع عشرة آيةً للترهيب، وتسع عشرة آيةً للترغيب، ليت الدعاء
يلتزمون برجحان كفة المبررات؟ وفي هذه السورة بداية للأحكام وضبط الموازين.

وجاءت السورة في سبعة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ
وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ
لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾

٢- ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ
لِّيَوْمِئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ۝١١ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا نُتِلَى
عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالِ اسْطِيزِ الْأَوْلِينَ ۝١٣﴾

٣- ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤)

٤- ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (١٥) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ (١٦) ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٧)

٥- ﴿كَلَّا إِنْ كُنَّ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّينَ﴾ (١٨) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ (١٩) ﴿كُنْتُ مَرْفُوقٌ﴾ (٢٠) ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢١) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (٢٢) ﴿عَلَى الْأَرَايِكِ يَنْظُرُونَ﴾ (٢٣) ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ (٢٤) ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ (٢٥) ﴿خِتَمُهُ مِسْكٌَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (٢٦) ﴿وَمَرْجَاهُ، مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ (٢٧) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ (٢٨)

٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ﴾ (٣٠) ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ (٣١) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ (٣٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ﴾ (٣٣)

٧- ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (٣٤) ﴿عَلَى الْأَرَايِكِ يَنْظُرُونَ﴾ (٣٥) ﴿هَلْ تُؤْتِبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٦)

روى ابن ماجه^(١)، والنسائي، عن ابن عباس، قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم، المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً، فأنزل الله سبحانه وتعالى: «ويل للمطففين» فأحسنوا الكيل بعد ذلك...

ما العلاقة بين أهل التطفيف وأهل الهمز واللمز؟

سورتان في القرآن الكريم وبجزء عم حصرأ، جاء استهلالهما بالويل، وهما: «ويل للمطففين» ثم: «ويل لكل همزة لمزة»، فهل من علاقة بينهما؟ وكأنه يحذرنا: من أموال الناس، ومن أعراض الناس!

ووجه العلاقة بين الفريقين: المطفف والهواز كلاهما يستوفي حقه وزيادة حسيّاً ومعنوياً إما خلسة أو بالقوة ممن هم أضعف منهم سواء في المكيال، أو الاحترام والثناء... ففي المدح ينتقصونهم، وفي الذم يتزيدون عليهم.

ففي هذه السورة سبع عشرة آية للترهيب، وتسع عشرة آية للترغيب، وكفة الترغيب أرجح، ولت الدعاء يلتزموا بهذه التوازنية، لا إفراط ولا تفريط.

الترغيب والترهيب منهج تربوي قرآني، للمجتمع البشري في كل زمان ومكان «... يأمرهم وينهاهم إحساناً إليهم، وحماية وصيانة لهم، لا حاجة إليهم ولا بخلاً عليهم، بل جوداً وكرماً ولطفاً، ويشيهم إحساناً وتفضلاً ورحمةً، لا معاوضةً واستحقاق ودين واجب يستحقونه عليه...»^(١) والهدف الإقناع والإنقاذ والإسعاد، وبدون مقابل أو مصلحة لله ولرسوله، وجاءت النتائج رغم العسر والقهر، والنهر والنحر، والجوع والفقر، والقلة والذلة، ومن كل هذه المتباعدات ولد الفجر، وجاء النصر، وأي نصر لم يسبق، ولن يلحق، لسبب مكشوف ومعروف، لأن ليس لله مصلحةٌ نفعيةٌ، إن استجاب الناس، أو لم يستجيبوا، ولكنها التربية المشمولة بالرحمة المطلقة، بينما أي ترغيب أو ترهيب من الناس لهم مصلحة به، كرب العمل الذي يمني عماله ويرغبهم بزيادة الأجور، ليزيدوا في الإنتاج، أو أنه يهددهم، ويرهبهم، إذا لم ينتجوا الكمية المطلوبة، سيطردهم.

وليت الدعاء يلتزمون بهذه التوازنية، لا إفراط ولا تفريط، وهناك من يمني الناس بأحاديث لينة أو حكايات من الماضي، من أجل أن ينام الفرد، ويتمنى على الله الأمان، وهذا ما جعل الدين مميحاً عند العامة، والمسلم المتأخر لينا، وفريق آخر من الدعاء بينه وبين المسلمين ثأر، فلا يشفى غليله، إلا إذا أدخلهم جهنم،

(١) تفسير القيم لابن القيم، ٣٨٠.

وأول ما ينطلق لسانه: « خذوه فغلوه... الآية^(١)، ومنهم من يهاجم الأحياء، ويتعدى إلى الموتى منذ بضعة قرون، ويشكك بعقيدة مذهب من المذاهب، ويجعلهم من الفرق الثنتين والسبعين اللواتي في النار وينسى عظماء الأمة منهم كصلاح الدين الأيوبي والعز بن عبد السلام...

وجاء الويل في هذه السورة مرتين:

ويل للمطففين، ثم ويل للمكذبين.» والويل: كلمة عذاب ودعاء بالشر، تقال: لمن يستحق الهلكة لسوء فعله. والويلة: كلمة تفجع تنبئ عن التحسر، لضر نزل^(٢)

مقارنة بين الويل، واللعن، والشتم:

الويل: مصطلح دعائي عربي لا يتجزأ، ومثله: ثكلتك أمك، لا يراد به حرفية النص، وإنما الموقف، وهي كلمة تأنيبية، يستخدمها كبار القوم وعقلاؤهم بدلاً من اللعن والشتم الذي يتعامل به السوقة من الناس.

- وجاء في السورة: ويلان وأربعة زواجر ب(كلا) وما السر الذي استدعى كل هذه القوارع والزواجر؟

لابد من التنفير من فعلة التطفيف، لأنها فعلة شنيعة والجريمة كبيرة حتى أغضبت جبار السموات والأرض، إنها جريمة التطفيف، أينما وجدت في مجتمع، تُودع من أهلها:

(١) من الطرائف النادرة: أحدهم أراد أن يلقي كلمة بين يدي عريس عند الزفة الأخيرة، فافتتح قائلاً: خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه... وداعية من النساء: أرادت أن تلقي كلمة بين يدي عروس، فبدأت قائلة: فإن طلقها فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره،... ففي الموقفين: ضحك من لا يعرف الضحك!!

(٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (و.ي.ل)

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سَجِّينَ،
 كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ،
 كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُوبُونَ،
 كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيِّنَ

السؤال: السورة مكية، وكيف تعالج قضية الموازين والمكاييل؟! وما معطيات مثل هذا الاستهلال؟ في زمن التنزيل، وبيئة التنزيل، ومجتمع التنزيل؟ وقدرة التنزيل على التأثير والتغيير؟ ومعركة التطفيف قائمة ودائمة ذات وجوه:

وبالتطفيف غدر اقتصادي، وخلل أخلاقي، وتمييز اجتماعي!!

وأراد الله أن يحجمه، ويطوقه حتى لا يتسرب إلى العبادات والأخلاق وغيرها... وقد صار التطفيف في العبادات، والأعمال، والأحوال، والأموال، والأخلاق:

ففي العبادات، يصلي المصلي، وهو قد لا يحسن الوضوء والخشوع، ويقطع الرحم، ويعتدي على الناس، ثم يطلب أكمل العفو والمغفرة، ويرجو أعظم الأجور كالحور العين والفرديوس الأعلى، ولما رأى النبي ﷺ رجلاً، ينقر في صلاته، ويدعو ربه: زوجني من الحور العين، قال صلى الله عليه وسلم: أساء العمل، وأكبر الطلب. ومثلها في الصيام والحج... هذا التطفيف بعينه عندما يقدم عملاً عبادياً ناقصاً، ويريد كامل الرحمة والعفو والحور...

التطفيف الأخلاقي، فالفرد الذي نحبه، نزيد في مدحه، ونضيف له مما ليس فيه، ونسكت عن مساويه، ومن نبغضه، ننقص من حقه، ومما هو فيه، ونقذفه بما ليس فيه.

التطيف الحكومي، الحكومة تأخذ حقها كاملة، وأي تأخير يترتب عليه غرامات، ولكنها لا تعطي المواطنين كامل حقوقهم. مثل شركات المياه والكهرباء، والهاتف، تنقطع الكهرباء ساعات وأياماً وتلف أشياء وأشياء، فلا يعوضون الناس، إلا بعد معركة قضائية مصر وفها يفوق التعويض، لذلك يستسلم الناس حكمةً. ولا يجمعون على أنفسهم مصيبتين.

التطيف الإعلامي يقدم الإعلام الرسمي السياسيين كبشر كملت أخلاقهم وصفاتهم وقدراتهم، ويستطيعون الإتيان بالشمس، مرة من المشرق، ومرة من المغرب، ومدح الفاسق يغضب الرب، ويهز العرش، و يقذفون الذين يصبون أخطاءهم أو ينتقدون أعمالهم، بقاموس النقائص وأصغر تهمة: الخيانة العظمى... وهذا أسلوب العصابات، وتعريف الذين يحكمون - خارج منهج الإسلام- عند ابن خلدون « عصابات تجمعهم المصلحة... »^(١) عطر الله قبره الكريم.

ومنه التطيف العائلي: فُطرت الخليقة على المصاهرات، وفي فترة الخطوبة والأيام الأولى، تتبادل العائلتان «المعلقات السبع» في المدح والثناء، ومع أول اختلاف، تتغير المعزوفة، وبعد الطلاق تبدأ حرب داحس والغبراء.. وفي صلة التراحم العائلي، الكل يريد باسم الرحم كامل حقوقه، ولا يدفع كامل ما عليه من واجبات الرحم، لذلك كثر التعاتب والتدابير الرحمي.

التطيف في العمل والوظيفة، عندما يعمل العامل قليلاً، ويأخذ أجره كاملاً. و صور كثيرة لهذا الداء الدوي الذي يتغلغل في جميع شؤون الحياة، ولولا التطيف ما اختلف زوجان، وكل من الزوجين يدفع ما عليه من الواجب كاملاً،

(١) بتصرف. هذا رأي ابن خلدون، حضرمي، تونسي. منذ القرن الثامن الهجري.

ويقبل بأقل حقوقه لاستدامة الحياة الزوجية.

ومسألة التطفيف مسألة اقتصادية وأخلاقية قديمة، وما زال العالم في القرن الخامس عشر الهجري، يشكو منها أمر الشكوى، وبعد أن صارت تباع معظم الأشياء مغلفة وموزونة ألياً في المصانع، كعلب السمن وجميع المواد التموينية لو يخسرون غراماً من كل عبوة، لا يشعر به أحد، ومثلها الأفران من كل رغيف سرقوا غراماً، سيكون في المحصلة السنوية أطناناً. وهذان مثالان من الواقع: جاءني عامل يستأنس برأيي، عُرض عليه العمل في محطة وقود بألف وخمسة مائة ليرة سورية، ومن كل تعبئة سيارة له تسعون قرشاً سورياً، تخسر من الزبون بترولياً، بعد اللعب بالعداد.

وعامل آخر: يعمل في مصنع أدوية، كل طبخة لها عيار، فالتى تحتاج خمس: كغ من المضاد الحيوي، يقول له رب العمل: ضع النصف حتى نربح...

يسأل العاملان: هل العمل معهم حلال أم حرام...؟ هذان شاهدان من قلب الميدان، يقدمان صورة لعمق الداء الدوي للتطفيف.

الجواب: هل أنت ميسور الحال؟ ما عندي إلا الله، والعمل! ابحث عن عمل، وريثما تجده عند غير هؤلاء المطففين، تحول إليه.

و الاستقصاء الفاحص في جزء عمّ يكشف كثيراً من نواة الأحكام المبكرة في التنزيل المكي . منها:

ويل للمطففين، يراد منها ضبط السوق والحقوق.

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ

يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾

أخرج النسائي وابن ماجة: عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما قدم نبي الله صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً فأَنْزَلَ اللهُ: « وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ » فَحَسَّنُوا الكَيْلَ بعد ذلك^(١). إذا صح الحديث بهذه الرواية تشير إلى السورة مدنية، بينما المفسرون يقولون، السورة مكية، وربما نزلت مرتين، فلا بد من تحقيق الحديث للتوفيق بين الخبرين.

ويل لمن يغضب جبار السموات والأرض من أجل صاع من بر أو شعير أو تمر... إن الذي يغضب الله، ليس التطفيف - كما يظن العجلان - في هذه الصيعان، حتى ولو كانت من الذهب الخالص، إنما الذي يغضبه، عندما تستعلي المادة على القيم، عندما يستعلي الدرهم والدينار على الحق، والحق: اسم من أسماء الله. كما هو الحال في مبدأ الرشوة، الذي جلب اللعنة للراشي، والمرثي، والرائش، ليس من أجل الدريهمات التي تقبض سرّاً، ولكن لاستعلاء الباطل على الحق بقوة المال، ومن يملك المال، يملك كل الحقوق!!

معناها صارت أعراض الناس، وأرواح الناس، وأموال الناس مهددةً، من قبل من يملك المال والقوة، إن كان لا يخاف الله.

وجاءت المنازلة والمفاصلة بسبب المال الطفيف المأخوذ بغير وجه حق، ومادام هذا الطفيف يغضب جبار السموات والأرض، فكيف بمن ينهب المستضعفين، ويبني أهرامات من جماجم الضعفاء؟ ولم يحدد القرآن حداً للطفيف، بل ذهب إلى آخر ما يسمى بالطفيف، وتركه للخيال حتى يتصور كم هي غضبة الله من طفيف بوزن ذرة؟ مثل قوله تعالى: « بطائنها من استبرق » آخر ما يفكر فيه لزهادته على الناس، والبطانة: وهي الكسوة الداخلية للوسائد من الاستبرق أي الحرير الغليظ، فكيف حال وجه الوسائد، وهي محل نظر الزوار؟

(١) تفسير ابن كثير، ج ٣٤٦: ٨.

تركه للخيال أن يتصور!

الويل كل الويل لمن يلعبون بموازين الفطرة السليمة ومكايل الأخلاق الحميدة، ويحولون الحياة إلى جحيم لا يطاق، تميل كفة الحياة لصالح الحيوانية، عندها تبرز مقولة: إن لم تكن ذئباً، أكلتك الذئاب.

الذين يسوّقون الكذب والتزوير، ويمدحون الفاجرين، ويرفعونهم إلى تخوم التآليه، ويتقصون الصالحين ويحطونهم إلى الدرك الأسفل، وكأنهم مجمع المصائب...

لماذا جاءت (على) بدل (من) في قوله: إِذَا اكْتَالُوا (على) النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، بدل (من)؟ للاستعلاء المعنوي والحسي.

الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا - عَلَى - النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ

والسياق: الذين إذا اكتالوا (من) الناس يستوفون، ولكن جاءت (على) للاستعلاء المعنوي والحسي، ويتميزون عن غيرهم بالقوة الزائدة والضمير الناقص، وأينما يمشي هؤلاء، يمشي معهم مرض التطيف كمرض العرج والعمى، ينام ويقعد مع صاحبه، ومن صور التطيف المعاصرة، أجره العامل الكادح لا تسلم كاملة، حتى يأكل المطفف شيئاً من كبد الكادح بعد أن يستوفي منه عمله.

« التطيف يكون في الأعمال والأحوال، كما يكون في الأموال، يكون التطيف في العبادات:

كالذي ينقر صلاته، ويطلب تمام الأجر والثواب مطفف.

عدم إتقانها شرعاً، ولذلك قال ابن مسعود وسلمان رضي الله عنهما:

الصلاة مكيال ، فَمَنْ وَفَّى وَفِيَّ لَهُ ، وَمَنْ طَفَّفَ فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا قَالَ اللَّهُ فِي الْمُطْفِفِينَ .. .» فكل مَنْ لم يُتَقَنَّ عمله فعلاً وحضوراً وإتقاناً فهو مطفف فيه . والتطفيف في الأحوال :

عدم تصفية القصد فيها ، أو بإخراجها عن منهاج الشريعة ، قال تعالى : «ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . . . الخ ، قال القشيري : يُشير إلى المقصّر في الطاعة والعبادة ، الطالبين كمال الرأفة والرحمة ، الذين يستوفون من الله مكيال أرزاقهم بالتمام ، ويكيلون له مكيال الطاعة بالنقص والخسران ، ذلك خسران مبین ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم المشهد، مهيب المحضر ، فلذلك فسدت أعمالهم واعتقادهم .^(١)

أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

مشكلة المطففين لا يؤمنون إيماناً كاملاً، ولا يوقنون إيقاناً تاماً بيوم القيامة، إن يظنون إلا ظناً، وهذا الخلل يجعلهم يتراجعون نسبياً، ولو كمل إيمانهم يقلعون عن هذه الظاهرة السيئة، لو أيقنوا بيوم يقوم الناس من لدن أبينا آدم عليه السلام إلى آخر واحد من البشر لرب العالمين دفعةً واحدةً، وكل ذرة من ذرات الأرض، تتحول إلى بشرٍ يمشي على قدمه في يوم القيامة.

ومشكلة المطففين رقة في الدين، وضعف باليقين بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين.

ولماذا يبعث الخلائق؟ للسبب الذي خلقهم من أجله، وسمي اليوم الذي تقوم به الساعة يوم (عظيم) نكرة، كونه لا يعرفه أحد، ولا يحاط به كماً وكيفاً،

(١) البحر المديد، ابن عجيبة، ج ٧: ٢٧.

عظيم بطوله وعرضه، وعظيم بجلاله وهيبته، وعظيم بحضور الخلائق أجمعين، مصنفين مرتبين محاسبين، يغفر لمن يشاء بفضله، ويعذب من يشاء بعدله.

اثنان مذنبان بذنب واحد، قد تكون النتيجة واحدة، وقد تكون مختلفة، أحدهما: عامله الله بفضله فنجا، لعله توسل، وتعلل بكرم الله. والآخر: عامله بعدله، فحاسبه وعذبه، لعله سوف وتمهل، أيها العاقل: تأمل الذنب واحد، والرب واحد، والنتيجة مختلفة. كونه فعالاً لما يريد!!

ولما خرجوا خارج الحلال ولو بطفيف، وصفهم الله بالفجار، كقطار يخرج عن سكتة قليلاً أو كثيراً، فهو خارج عما خصص له. القضية قضية حق وباطل، صغر أم كبر، الحق حق، والباطل باطل. وليست القضية محصورة بالكمية، ولكن بالمنهج.

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾

إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ: سجن داخل سجن أضيق منه، وهكذا... من ضيق إلى أضيق.

«أي: إن مصيرهم وما واهم لفي سجين- فعيل، من السَّجَن، وهو الضيق- كما يقال: فسَّيق وشَّرب وخمَّير وسكَّير، ونحو ذلك. ولهذا عظم أمره فقال: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ» ؟ أي: هو أمر عظيم، وسجن مقيم وعذاب أليم».^(١)

وكنى الله عن حالهم، بحال كتابهم المسجون والمرقوم، أي لايزاد في سيئاتهم، ولا ينتقص من حسناتهم، وكل الأعمال مرقمة بدقة.

(١) تفسير ابن كثير - (ج ٨: ص ٣٤٩)

وَبَلِّغْ يَوْمَئِذٍ الْمَكْذِبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْذِبُونَ يَوْمَ الدِّينِ ﴿١١﴾

الويل هنا خصوصي لمن يكذب بيوم الدين، لأنه تكذيب يتوقف عليه تعطيل منهج الله، بينما التكذيب في الشؤون المعاشية أقل خطورة، لذلك جعل الله "يوم الدين" في أول القرآن الكريم في سورة الفاتحة، وفي كل ركعة يتكرر "مالك يوم الدين" وما من أحد رأى هذا اليوم أو يعرفه، إلا ما أخبرنا الله عنه، يوم تنقطع كل الأواصر إلا أصرة العمل الصالح: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَاهُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿١٩﴾﴾ الإنفطار»

وفي السنة الشريفة تصوير لمشهد من مشاهد يوم الدين، وتقريبه للأذهان حسياً، وحقيقة الأمر أعظم من ذلك بكثير:

عن أبي أمامة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل، ويزاد في حرها كذا وكذا، تغلي منها الهوام كما تغلي القدور، يُعْرَقُونَ فِيهَا عَلَى قَدَرِ خَطَايَاهُمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى كَعْبِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى سَاقِيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْلُغُ إِلَى وَسْطِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْجِئُهُ الْعَرَقُ». انفراد به أحمد.

وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا نُنْتَلَى عَلَيْهِ إِبْنُ نَاقَةَ الْأَسْطَرِجَاءِ الْأُولَى ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾

المكذب بيوم الدين معتدٍ على الفطرة التي تؤمن بخالقها، ومعتد على العقل الذي يحاكم الأمور، ومعتد على آيات الله الكونية، ومعتد على رسول الله وكتابه، ومن اعتدى مرة، أثم مرة، ومن عاش معتدياً مرات ومرات فهو أثيم مبالغ في إثمه، وعندما تتلى عليه آيات الله، لا يقول: أنا غير مؤمن بها، بل يعتدي عليها

ويجرحها بالأسطورية، وعلته في داخله، وليس لها علاج، هي قلبه المتكلس، من تراكمات الذنوب والآثام.

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب منها صقل قلبه، وإن زاد زادت، فذلك قول الله: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (١).

الفرق بين: الرين، والغيم، والغين.

والرين يعترى قلوب الكافرين، والغيم للأبرار، والغين للمقربين. (٢)

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تُكذِّبُونَ ﴿١٧﴾

الران في القلب، كالكلس المتراكم في الكلية مع الزمن يتطور من رملة إلى حصوة إلى صخرة الصوان، والران ما تشكل إلا برضاهم الذي حجبهم عن النور في الدنيا، وسيحجبهم عن ربهم يوم القيامة، ويساقون إلى صلي الجحيم، جزاء بما كانوا يكذبون فطرتهم وعقولهم وأنبياء الله، والسؤال: لصالح من هذا العناد واللدد؟ وقيم ابن القيم الرين على الترتيب العجيب: ”أن القلب يصدأ عن المعصية، فإذا زادت غلب عليه الصدأ، حتى يصير راناً، ثم يغلب حتى يصير طبقةً وقُفلاًً وختماً، فيصير القلب في غشاوة وغلّاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصير، انتكس، فصار أعلاه أسفله، فحيث يتولاه عدوه، ويسوقه حيث أراد، والمعافي من عافاه الله“ (٣)

(١) رواه ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه...،

(٢) تفسير ابن كثير - (ج ٨ : ص ٣٥٠)

(٣) التفسير القيم لابن القيم، ٥٠٧. وجاء في الفقرة الأولى: أن القلب يصدأ عن المعصية...، ولعله

تصحيف طباعي: إن القلب يصدأ على المعاصي...

وبعد أن قدم السياق صورة للترهيب، يتحول ليقدم صورة للترغيب، ولكنه ترغيب مستند إلى العمل الصالح، ويستمد قوته من جهاد المرء في الحياة، وأنه قدم شيئاً، أوله: رفع أذاه عن الخلق كل الخلق، من نبات وحيوان وإنسان، ونفعهم ما في وسعه من النفع، وليس ترغيباً أو ترهيباً إنشائياً أو خدعةً، كله موزون، ففي آخر الترغيب - هنا - يختم: "هَلْ تُؤَبِّبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ؟! وكأن واحداً من الأبرار من أهل الجنة، ما زال في نفسه شيء عن مصير الذين آذوه في الدنيا، حتى يشفى ما في صدره. بعد أن دخل الجنة وغرق في النعيم والترف، بجهده وجهاده وبفضل الله، وكان قد أذى من الكفار يتساءل عن مصيرهم، هل نالوا ما يستحقون من سوء أعمالهم؟

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾
يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾

جاءت (كلاً) في سياق الترغيب، وهي للزجر، أي غيركم يختلف عنكم.

جاءت (كلاً) في سياق الترغيب، وهي للزجر، كيف الجمع بينهما؟ كان سياق الترغيب حاداً، وكثر فيه زجر الأعراب غلاظ الأكباد، ولما بدأ التحول إلى الترغيب، وكأنه قال للمشركين مقرأ (كلاً): غيركم يختلف عنكم! أو أين أنتم من الأبرار؟ أو سأل سائل عن مصير الأبرار، هم مثلنا في العذاب؟ فالرد المناسب: كلاً، إن كتاب الأبرار في عليين... وكان العليين ظرفاً، والأبرار المظروف، وكأنهم القلب، والعليون القفص الصدري، لزيادة التمكين والطمأنينة، ولا أحد يعرف عن العليين شيئاً إلا ما عرفنا الله عنهم، فقال: يطمئنهم على تحويشة العمر التي لا تتكرر، كتابكم مصون ومرقم، وكل عمل له رقمه الخاص. ويشهد الملائكة المقربون على كل عمل، وعلى رقمه. رفعاً لشأنهم ومكانتهم، بينما لم يذكر أنه

يُشهد على كتاب الفجار.

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظَرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾
يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خَتَمُهُ، مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَافِسٍ الْمُنتَفِسُونَ ﴿٢٦﴾
وَمَرَاةٌ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

الجنة معارض للمفروشات، والأزهار، والأطيار، والأنهار، والأشجار،
والحور العين...

والمسميات وصف حسي تقريبي على قدر استيعابنا في الدنيا، وليست صورة طبق الأصل، لأن ما في الدار الآخرة فوق طاقة التخيل البشرية حتى ولو جمعت في رأس واحد، تكون الطاقة التخيلية عاجزة عن مجرد التصور، وهذا الوصف لأهل اليمين الذين بروا دينهم حراسةً وتركياً، ولم يؤت الإسلام من قبلهم، في كل موقع كانوا به، بروا دينهم، كما يبرون آباءهم، فمن ذاق نعيم الإسلام في الدنيا ذاقه في الآخرة، ولولا نعيم الإسلام لما صبر الناس على العذاب من أجل الإسلام، ويعدد بعضاً من نعم الجنة: الأرائك، وأي أرائك؟ من الخشب؟ الخيزران؟ لاهذا، ولا ذاك؟ ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، على الأرائك جمع أريكة، والجمع يحتاج إلى جمع من البشر يسكنه، وينظرون مندهشين إلى معارض متعددة متنوعة ومجموعة في مكان واحد، منها معارض للمفروشات مختلفة وليست متكررة، وإلى معارض للحدائق، من أزهار ناعمة منمنمة كنجوم مرصعة على طبق فضي، إلى شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة سنة ما يقطع ظلها^(١)، ومعارض للثمار، ومعارض للأزهار، ومعارض للأطيار، ومعارض للفراشات، ومعارض للولدان، ومعارض للحور عين... وهذه

(١) في جنوب إفريقية شجرة محيط ساقها خمسون متراً، ويقصدها السواح...

التعددية من الألوان والأشكال والحجوم متغيرة حتى لا يمل النظر إليها، وكأنها مغنطيس جذاب، وأبصارنا فلزات مشدودة إليها، لأنها حية محيية.

ولا يوجد في الجنة شيء ميت أو صامت، وكل ما فيها حيّ ومُحيي.

ووجوه الولدان تنطق ببراءة الطفولة ودماء الشباب ونضارة الحسن، ويسقون ليس من العطش، ولكن من النعيم على النعيم، من رحيق معتق مخزن منذ آلاف السنين، ويختم على فم الزجاجاة بالمسك، وهو سيد الطيب، كما يفعل الناس بقوارير العصائر بعد امتلائها إلى العنق، يخبثونه بملعقة زيت زيتون، ليحفظه من التعفن.

وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ

ولا يكون التنافس إلا على الأمور النفيسة، والمتنافسون لا يكونون إلا من العظماء كالأنبياء... الأمور النفيسة التي ترفع من يسبق إليها، ويبقى التنافس ميدان العظماء وأهل الطموح من الأنبياء والصالحين والمجاهدين... وهذا تعريض بالمتنافسين على حطام الدنيا، هم زائلون عنه لا محاله، وما يجمعونه متحول إلى غيرهم، ولا يوجد عاقل يأخذ الثوم والبصل لنفسه، ويترك السمن والعسل لغيره، هنا حياة متحولة، وهناك حياة خالدة، هنا حياة يعكرها المرض والهرم، والحر والبرد، والجوع والعطش، والحسد والجشع، وينهيها الموت، وهناك حياة شبابية دائمة، وعافية قائمة، مادامت السموات والأرض، وشرابهم من الرحيق المختوم، ويمزجونه من عين مرتفعة عالية تنحدر منها الماء، يقال لها: تسنيم، من: سنمه، أي رفعه، وهذه لأهل الدرجات العلى المقربين من رسول الله ﷺ وأصحابه و... وأهل الجنة ليسوا سواء في درجات النعيم.

عَيْنًا يَشْرَبُ «بِهَا» الْمُقَرَّبُونَ

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا أَوْ مِنْهَا الْمُقْرَبُونَ: هي عين وكأس، أو عين مكأسة، أو كأس معينة متحركة وليست ملصوقة بجدار أو حجر، كما كانت يد النبي صلى الله عليه وسلم، عندما نبع الماء من بين أصبعيه، هي يد، وعين ماء، مهما حاول الخيال أن يكون سريعاً سريعاً، وعالياً عالياً، وواسعاً واسعاً، سينقطع أمام هذه الصورة، سيتقزم أمام هذه الصورة!! وفيها وخزة للمتسوفين والمتكاسلين ممن يقرأون القرآن، ولا تدب بهم حياة داخل الحياة.

ما لكم أتتخيلون!؟

ما أجملها من عين خاصة! وما أعظمها من لذة خاصة! يشرب منها، وبها، وعندها، وحوها، المقربون من منهج الله ورسوله في الدنيا، هم أهلها، وأحق بها في الآخرة!

المقربون بالعمل الصالح، ولا مجال للصدفة، والرشوة، والخلة...

المقربون بالعمل والعمل الصالح وحده، ولا مجال لأحلام اليقظة، ولا للصدفة، والحظوة، والرشوة، والخلة...

نقلة للمقارنة بين ما كان من المجرمين في الدنيا، وما يكون من الأبرار في الجنة، كان المجرمون يضحكون من المؤمنين إن كانوا من الضعفاء، ويتغامزون بالخفاء من المؤمنين الأقوياء.

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾
وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾

إنه سلوك المأزوم عقدياً، والمهزوم نفسياً، ضحك المجرمين، وغمزهم، وتفكهم، خالٍ من اللذة والسرور، ولكنه للتنفيس، بسبب أمرين متباينين متباعدين:

- قوتهم الخارجية الظاهرية كبيرة عن ورم.

- طوارق داخلية تطرقهم من الداخل: كالفطرة، والعقل، والآيات الكونية، وصدق ما جاء به القرآن وصدق رسول الله ﷺ... لكنه العناد، واللجاج، واللدد... وهذه صفات العالم الغربي اليوم، مابين ضاحك، وهازي، ومتفكه، ومتندر من الإسلام والمسلمين، إنه المأزوم عقدياً، والمهزوم نفسياً.

وهذا نموذج من نماذج التربية النفسية القرآنية التي يربي الله بها المسلمين على التحمل النفسي، والصبر الجميل، على الأذى النفسي الإعلامي.

وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾

وفي المقابل كلما رآهم المسلمون تجملوا بالصبر، وقالوا قولاً يسلمون به من أذاهم، ويصبرون على تجريحاتهم منها: هؤلاء ضالون، وهذا الهزأ أقل أذية من أذى التشريد والتقطيع، لأنهم متعطشون لقتل المسلمين، وليس من مهمة المسلمين متابعة خصومهم ومحاسبتهم على الصغيرة والكبيرة، هم في الأصل خارجون عن كل شيء، ولكن من مهمة المسلمين الصبر في زمن الصبر، لأن للأمر مواقيت تنتظر آجالها.

فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾

ومن باب العدل الإلهي: العين بالعين، والسن بالسن، والضحك بالضحك، ولكنه ضحك يختلف عن كل ضحك، ضحك مزاجه من تسنيم، ضحك للذة، ولذة للضحك، وليس للانتقاص، ضحك للديمومة، وليس غيمة صيف عابرة، لا يضحكون وحدهم، كما يفعل جبابرة الأرض، وما حولهم يابس عابس بئس، بل كل ما حولهم ضاحك، لقد استطرق الضحك والسرور والنشوة في الأشجار والأزهار والأطياف... ومتعة أخرى مخفية لاندري، ماهي؟

أخفى المفعول به: على الأرائك ينظرون... ماذا؟؟

بشراً وليس كالبشر، وثمرراً وليس كالثمر، ينظرون ماذا؟ تركه خيالاً مفتوحاً ليس من باب الغفلة أو النسيان، بل لغياب الحروف والمفردات والجمل، المخصصة للدار الآخرة، والموجودة لا تستطيع أن تنهض بالصورة كاملة!! كل ما في الدار الآخرة، لا يستوعبه العقل البشري، لذلك أخفاه تجنباً لفتنة العقل.

هَلْ تُؤَبِّبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بأسلوب تهكمي: هل ثوب الكفار؟ نحو قوله تعالى: فبشرهم بعذاب أليم، فلا يكون الثواب والبشارة إلا لما فيه السعادة، وليس الانتكاسة، جزاء بما كانوا يعملون، وما ظلمناهم، ولكن أنفسهم كانوا يظلمون.

ختمت السورة بتوصيف سعادة أهل الجنة بالجنة، مع المقارنة مع خصومهم في الدنيا الذين كانوا يضحكون منهم، واليوم أهل الجنة من الذين أجزموا يضحكون، مع الفارق بين الحاليتين والنفستين، وعندما يؤتى بأشقى إنسان في الدنيا، جمعت عليه أنواع البلايا، وصار معجماً وقاموساً لكل ألوان العذابات ذاقها، وذاقته، أكلها، وشربته، فلما يُغمس في الجنة غمسة واحدة، ينسى كل شيء من حياته وشقائه، ولو سئل عن حياته، لا يعرف عن الدنيا شيئاً.

يقول: ها...ها...أي دنيا؟!

ولكنه لا ينسى المجرمين، فيسأل عن الذين جرحوه، جرحوا النور الذي لا يجرح، هل ما توعدهم ربهم به، وجدوه حقاً؟ لأنه هو وجد ما وعده ربه حقاً!!

سورة الإنشقاق مكية، وآياتها خمس
وعشرون، وترتيبها بالقرآن (٨٤)
وفي التنزيل المكي (٨٣)

جواب أدوات الشرط غائبة وملحوظة في السياق، "إذا" السماء انشقت...
وإذا الأرض مدت...الجواب غائب، ونابت عنه: يا أيها الإنسان إنك كادح...
جملة شرطية تتضمن قسماً، أي والذي تنشق السماء لهيئته، وتسيخ الأرض
لعظمته، ستلاقي ربك أيها الإنسان، فيكرمك، أو يهينك. فيرفعك، أو يخفضك،
إمّا يعاملك بفضله، وإمّا يحاسبك بعدله.

جاء في مسند الإمام أحمد: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سرّه
أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: "إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ" ، و "وإذا
السماء انفطرت" ، و "إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ" (١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١ - ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ١﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا
فِيهَا وَتَحَلَّتْ ٤﴾ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ٥﴾ ﴿
- ٢ - ﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلْقِيهِ ٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ كِتْبَهُ
بِئْمِينِهِ ٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا سَيْرًا ٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوِّيَ
كِتْبَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ١١﴾ وَيَصْلِي سَعِيرًا ١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ١٣﴾
إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ١٥﴾ ﴿

(١) تفسير ابن كثير ٨:٣٢٨.

٣- ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَّفَقِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبَنَّ
طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ ﴾

٤- ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۝٢١ بَلِ
الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ ﴾

٥- ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥ ﴾

ولله أسلم، واستسلم كل من في السموات والأرض ظاهراً وباطناً، قلباً
وقالماً، ولا يعصون الله ما أمرهم، وكل قد علم صلاته وتسيحه من جماد ونبات
وحيوان إلا الثقلين فهما بين، بين.

السموات والأرض على عظمتها تستجيبان لخالقها طوعاً، أو كرهاً،
والإنسان على ضعفه بين، بين.

وأراد الله أن يربي الإنسان على طاعته، من خلال عرض الثواب الكونية
كالسموات والأرض، وهي من أعظم وأكبر مخلوقات الله، التي يشاهدها الإنسان
يومياً، فهي على عظمتها تستجيب لخالقها طوعاً، وعشاقاً، وكرهاً، والسؤال:

لم لا يستجيب الإنسان لخالقه على ضعفه، وحاجته إلى ربه؟

قال تعالى: ”وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً“ ٨٣:٣.
وقوله: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا» الرعد: ١٥. وقوله: «فَقَالَ
لَهَا وَالْأَرْضُ أُنْتِ يَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» فصلت: ١١.

فالتربية الربانية للبشر بالنظر والتأمل والتفكير والتدبر، لأنه لا يريد
قوالب مقهورة، بل يريد قلوباً به مسرورة، فخلق المخلوقات كلها أولاً، ثم
خلق الإنسان، فقال له: انظر إلى ما خلقت، تتبين عظمتي، وقدرتي، كلها محققة

على الواقع، ولم يخلق الإنسان أولاً، ويقول الله له: انظر، كيف أخلق، وأبدئ، وأعيد؟ على نحو ما استجاب لطلب إبراهيم عندما سأله كيف تحيي الموتى؟ فقال له: خذ أربعة من الطير، فقطعهن، واخلطهن، وضع على كل جبل جزءاً، وادعهن، يأتينك سعيًا، وكذلك مع الذي مر على القرية الميتة، فأماته مائة عام، ثم بعثه، ثم قال له: انظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً...؟^(١)

فهذه السماء تنشق من الهيبة وسرعة الاستجابة، حينما تسمع النداء وأثناء تنفيذها للأمر، والأرض تسيح وتمدد أمام تجليات الحق، فعاليها يدفن رأسه في واديها، ويذوب، وكأن الرحمن الرحيم ينادي بالرحمة والمحبة: أيها الإنسان، فكر في خلقنا، وفي قدرتنا، قبل أن تقرر تؤمن أو لا تؤمن " لا إكراه في الدين"!!

وأيّن كان دعاة الديمقراطية يوم نزلت: «فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ»؟

الكهف: ٢٩.

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ② وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ③ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ④ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ ⑤ يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ⑥

أين علماء التربية من هذه التربية؟ وأين خبراء التعليم من هذا الترشيح السديد؟ بالكلمة الحانية التي تلامس القلب والعقل، يخاطب الله الإنسان، فمن باب أولى أن يكون الإنسان أكثر تواضعاً مع من يمثله ويساويه ويعادله، إن أراد أن يربيه، أو يعلمه.

هذا درس خصوصي للإنسان الكادح، أيها الإنسان! أيها التلميذ الناشئ، انظر إلى السماء كيف تصيخ بسمعها جاهزة للنداء، فتستجيب لدعوة ربها، ومن سرعة التبليية، ترتعد فرائصها، وتنشق مع عظمتها؟ وليس العجب في انشقاقها،

(١) انظر تفصيل الخبرين في سورة البقرة الآيات: -٢٥٩-٢٦٠.

ولكن العجب كل العجب، لم لاتذوب كالماء، والعجب المطلق من القوة اللا محدودة التي تحرك السموات بطولها وعرضها وثقلها، وكأنها بيضة دجاجة في قبضة القدرة المطلقة، فالقوة التي تحرك الجمل غير التي تحرك الخروف، فكم هي القوة التي تشق السماء، وتذك الأرض؟ فعندما تُسَيَّر البيضة بسرعة تنشق، بل وتذوب مع الاحتكاك الجوي، ومن حقها أن تنشق، وتذوب، ولا تلام؟!!

ويا أيها الكادح! هذه الأرض كلها آذان صاغية، فلما تسمع النداء، تتواضع، وتسيح متمددة، وتسلم الأمانات المدفونة في حوزتها، من الأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين إلى أرحم الراحمين، وتلفظ الفراغ والطاعة والمجرب إلى أحكم الحاكمين، وبعد أن سلمت الأمانات لصاحبها، تخلت عنهم، لمن هو أعلم منها بهم، وإن كانوا منها أصلاً.

يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمَلِّقِيهِ

جواب أدوات الشرط غائبة وملحوظة في السياق، "إذا" السماء انشقت... وإذا الأرض مدت...: يا أيها الإنسان إنك كادح....

جملة شرطية تتضمن قسماً، أي والذي تنشق السماء لهيبته، وتسيخ الأرض لعظمته، ستلاقي ربك أيها الإنسان، فيكرمك، أو يهينك. فيرفعك، أو يخفضك، إما يعاملك بفضله، وإما يحاسبك بعدله.

وهذا النداء الخالد الأبدي الرحيم، يا أيها الإنسان: جئنا بك، ولم نأخذ رأيك، ولما تُرَدُّ إلينا، لانستأذنك، وأنت كقطرة الماء التي تخرج من المنبع إلى المصب مرغمةً على السير، كادحة في ليلها ونهارها، والصخر يجرحها وتتضجر بخريرها مما فيها، والكدر يعكرها، والتبن يلوثها، وتسبح بكل ما فيها من خير وشر، والكدح قدرها إلى المصب.

أيها الإنسان لقد كتبنا الكدح على الغني والفقير، والمليء والفارغ، فأهل الدنيا غارقون في كدحهم، ولا ينامون إلا قليلاً، وهم يوازنون بين الربح والخسارة، فأرهقتهم دنياهم، وأهل الآخرة أرهقتهم الخشية من الله وأوقاتهم مشغولة، ولا يدرون تقبل منهم أم لا تقبل، وهم يوازنون بين الربح والخسارة. فأرهقتهم آخرتهم، والكل في الطريق إليه، وسيلاقونه.

فَمُلَاقِيهِ... فيها بشارة كبرى للجميع، لأنهم سيلتقون بأرحم الراحمين
«... فَمُلَاقِيهِ...» تقرأ من وجهين: بشارة، وتهديد.

فيها بشارة كبرى للجميع أياً كان عملهم، لأنه سيلتقى بأرحم الراحمين، فإن كان من أصحاب اليمين، يحاسب حساباً يسيراً.
«... فَمُلَاقِيهِ...»

وإن كان من أصحاب الشمال لا ينتقص من حسناته، ولا يزداد على سيئاته، ولكنه «يُصَلِّي» بنار جهنم، ولم يحدد زمان الصلِّي، هل هي دقيقة، سنة، ألف؟... قد يُصَلِّيهِ ثانية، ثم يخرجها، فيكون نفذ به وعيده، ومادام لم يحدد مدة الصلِّي بزمان، لتضمينها المبدأ العام رحمته وسعت كل شيء، رحمة الله سبقت غضبه، وعدم تحديد الزمان مقصودة للزجر، ولم تكن عن غفلة، وما كان ربك نسياً!

فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾
وَيُنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من حُوسِبَ عُدْبٌ" قالت عائشة رضي الله عنها فقلت: يا رسول الله أو ليس يقول الله عز وجل: "فسوف يحاسب حساباً يسيراً"؟ قالت: فقال: "إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش في الحساب هلك^(١)."

(١) تفسير البغوي، ج: ٨، ٣٧٤.

ما قال من أخذ كتابه، أو تناول كتابه...إنما قال: من أوتي كتابه...من باب التكرم والتفضل، وليس من باب الحقوق.

وسبحان من يرصدنا من الداخل والخارج، فكلمة الحساب دارت في القرآن الكريم كثيراً، وتتضمن إبراز القدرة الإحصائية والإحاطة الربانية في كل صغيرة وكبيرة، حتى وساوس الصدر محاط بها، كما في قوله تعالى: "وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه، يحاسبكم به الله..." لا تعني كلمة الحساب العذاب، ولكن المشكلة تبدأ ما بعد الحساب لأن التقصير موجود ويحتاج إلى عفو: "فيغفر لمن يشاء" بفضله، ويعاقب من يشاء بعدله، فلا ينتقص من حسناته، ولا يزيد له في سيئاته "ويعذب من يشاء".

الرب واحد، والذنب واحد، واحد نجا بالفضل، والآخر أخذ بالعدل!!

وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي
أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَغَ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ

هذا الأسلوب من المشاكلة، والمعاملة بالمثل، ففي الحياة الدنيا نبذوا منهج الله وراء ظهورهم، واستمسكوا بهواهم، وقد وصفهم الله بقوله: "نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب، كتاب الله وراء ظهورهم "البقرة: ١٠١. وقوله: "فنبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً" آل عمران: ١٨٧. فأهينوا، كما أهانوا. ولما طالت فترة الإهانة التي هي أشد من الموت، يتمنى المثور الموت، ولا يجده، كما يقول المتبني:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنيا أن يكن أمانيا

فقدم العذاب المعنوي الإهاني، على العذاب الحسي وصلي السعير، لقد عاش

للذاته، وشبع منهن، وشبعن منه، وما كان في ظنه أنه سير جمع يوماً إلى الله، وما كان في ظنه أنه مراقب من الله، وكل صغيرة وكبيرة محصية عليه. والله بصير بما تعملون.

بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا

ما أبعاد كلمة بصير هنا؟

يتفاوت أهل البصيرة في قدراتهم، كمهندسي الصيانات الإلكترونية يتفاوتون تفاوتاً كبيراً، ويبحث الناس عند الحاجة على المتميز، وإن لم يفلحوا، ردوها على الشركة المصنعة فهي أبصر الناس بها، فالصانع أبصر الناس بصنعه. ومن التوحيد الضمني وغير المباشر الذي يتغلغل في النفوس وبهدوء، بدأ يقدم لوحة ترشيديّة أخرى، تبين للعبد عظمة الله من خلال مخلوقاته التي يتعامل معها الإنسان، وكلها مما يحتاجه البدوي حاجة يومية: كالبزوغ للقمر، والشروق للشمس، الشفق لما بعد الغروب، هذه مواقيت للبدو كعودتهم لبيوتهم عند الغسق، وعندهم الليل كالراعي يللم أطراف العائلة والقبيلة للسمر، والقمر عندما يتبدر، ويتسق، يُسهل السفر، ويجنبهم ضربة شمس النهار المحرقة، ومحنة العطش لهم ولدوابهم، ويكشف القمر لهم قطاع الطرق والحيوانات المفترسة قبل الاشتباك ولو بقليل.

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾
لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴿١٩﴾

لا يقسم الله إلا لأمرين:

- هناك منكر لحقيقة موجودة.

- وهناك منكر لوجود الله.

وكان السياق يقول: ورب الشفق... ورب الليل... ورب القمر... لتقبُرَنَّ فوق بعضكم بعضاً، ثم لتبعثُنَّ، وتتحول القبور بفضل عملية حَتِّ العوالي على المنخفضات بعضها فوق بعض،^(١)

ولعل الآية الكريمة أشارت إلى مثل هذه القبور المنضودة بعضها فوق بعض من طول الزمن، ولا يدري اللاحق خبر السابقين الذين سكنوا في الدور الأسفل، قوله تعالى: "وإذا القبور بعثرت" أي هي منضودة بعضها فوق بعض، فبعثرت وأما من رأى وجهاً آخر في تغير أحوال الناس من النطفة إلى الموت، ربما يكون هذا التأويل بعيداً.

« لَتَرْكَبَنَّ طبقاً عن طبق » ؛ لتُلاقِنَ حالاً بعد حال ، كل واحدة منها مطابقة لأختها في الشدَّة والفضاعة كأحوال شدائد الموت ، ثم القبر ، ثم البعث ، ثم الحشر ، ثم الحساب ، ثم الميزان ، ثم الصراط . أو : حالاً بعد حال ، النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم الجنين ، ثم الخروج إلى الدنيا ، ثم الطفولة ، ثم الكهولة ، ثم الشيخوخة ، ثم الهرم ، ثم الموت . . وما ذكر بعده أنفأ إلى دخول الجنة أو النار وقال بعض الحكماء :

يتبدل الإنسان من كونه نطفة إلى أن يهرم على نيف وثلاثين مرحلة : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظماً ، ثم خلقاً آخر ، ثم جنيناً ، ثم وليداً ، ثم رضيعاً ، ثم فطياً ، ثم يافعاً ، ثم ناشئاً ، ثم مترعراً ، ثم مزوراً ، ثم مراهقاً ، ثم محتلماً ، ثم بالغاً ، ثم حملاً ، ثم ملتحمياً ، ثم مستوفياً ، ثم مصعداً ، ثم مجتمعاً والشباب يجمع ذلك ثم ملهوراً- المجتمع الخلق- ، ثم كهلاً ، ثم أشمط ، ثم شيخاً ، ثم أشيب ، ثم حوقلاً

(١) وحديثي المهندس المشرف على تثبيت أساسات مسجد بني أمية بحلب - ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م - عندما بدأت تتصدع الأساسات بفعل المياه التي تسربت عليها، فوجدوا قبوراً جماعية على عمق، ثمانية أمتار، وستة أمتار، وثلاثة، و... ولعل الآية الكريمة أشارت إلى مثل هذه القبور

ثم مُقتاتاً، ثم هَمًّا - يهمه كل شيء -، ثم هرماً، ثم ميتاً. ولعل هذا معنى قوله :
« لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ »^(١)

جاء في صدر السورة: إذا السماء انشقت... وأعقبها بترغيب وترهيب فردي، فأما من أوتي كتابه بيمينه...
وجاء القسم الآخر من السورة: فلا أقسم بالشفق... وأعقبها بترهيب، وترغيب جماعي، والفارق بينهما تقديم وتأخير، ففي صدر السورة:
قدم الترغيب، وكان الخطاب فردياً، ثم قدم الترهيب، وكان الخطاب جماعياً.

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾

استنكار تعجبي، لم لا يؤمنون؟ والفطرة في داخلهم مؤمنة، تدق عليهم من الداخل: آمنوا، ومن الخارج الآيات الكونية التي يمرون عليها، وهم سامدون، والآيات التي تمر عليهم وهم نائمون، والقرآن يذكرهم بالعهد الذي بينهم وبين خالقهم، يوم قال لهم ربهم: "...ألست بربكم؟ قالوا: بلى!؟
والعجب!! لم لا يسجدون؟ ما الذي يمنعهم؟

يمنعهم جنون العظمة! ووهم العزة، وتناول الكبرياء!

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾ ص: ١.

تأخذهم العزة بالإثم والعدوان على القرآن رغم الأدلة، ويأخذهم الشقاق بعيداً، بعيداً، حتى يعتدوا على الحاضر والغائب، على الرسل والكتب السماوية السابقة.

(١) البحر المديد، لابن عجيبة - (ج ٧ : ص ٣٩)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

سبأ: ٣١. أي من الكتب السابقة.

وكفرهم أثقل من الجبال، وأصلد من الصخر، ولو كانت الأرض صخرة واحدة، لكانت ألين من قلوبهم، فقد عشقوا الكفر، واستحبوه على الإيمان، فثبتهم على ما يحبون. ولو كانت مهمة الطاقة المخزنة بالقرآن، تسيير الجبال وتحويلها، لسارت، وتحولت، وهذه جبال الملك والسلطان، والقوة والحضارة بفارس ومثلها جبال الروم، والحبشة، سيرت مذللة، كأنها قطيع من الأنعام، ولو كانت الطاقة المخزنة بالقرآن لتقطع الأرض، لقطعت طوعاً أو كرهاً، كما قطعت أمم وشعوب وحضارات إلى هذا اليوم.

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ

القرآن كُلم به موتى الزنزانات الميؤوس منهم بأمريكا، فأحياهم.

ولقد كُلم به موتى القلوب والعقول، فاستجابت قلوبهم، واستنارت عقولهم، من بعد موتهم صاروا سادة وقادة، وتشهد على ذلك سجون الميؤوس منهم بأمريكا، كيف تحولوا من مجرمين إلى ربانيين ومنتجين ومرشدين وإلى أعلام عالميين، وبأعداد كثيرة، مثل: مالك شيبان، وكان اسمه « مالكوم إكس »^(١)

(١) مالكوم إكس، زنجي أمريكي، صنع كل الجرائم، كما يقول: ومن وراء القضبان أسلم بعد أحد عشر شهراً، هذا من طول صبر الداعية أمام القضبان، يدعو السجناء، وتحول مالكوم إلى مالك شيبان ثم إلى محاضر أكاديمي في الفكر الإسلامي، وجاء إلى الحج ١٩٦٤ هـ، ورأى إمام المسجد الحرام مثله أسود، فعرف أن الإسلام لا يفرق... وكان ينتظره ٢٥: مليون أسود من أجل أن يسلموا، فاغتالوه، بين أهله في سبعينيات القرن الماضي، خوفاً من أسلمة السود، وصنعوا له فلماً يسجل قصة حياته بما فيها حجه، وكان بعض الأمريكيين لا يحضرون من الفيلم إلا لقطعة المدينة (أي مكة) التي تحول المجرمين إلى قديسين. هكذا شاع خبر مكة في أمريكا الشمالية، بأنها ذات طاقات هائلة في التغيير. وله عبارة يكررها في المواقف المتميزة، بعد كل محاضرة، وبعد أن سلم على الملك فيصل رحمها الله، انظر: يامالكوم!! كيف رفعت الإسلام، من مجرم إلى محاضر، وإلى شخصية عالمية!!! ليت الدعاة والشيخة... يصدقون النظر في هذه العبارة... ولولا المشيخة لكانوا نجارين بيتون، أو عمال بلدية... ويمنون على الناس بخطبة أو موعظة، ومنهم يترفع على من حوله، ولا يذهب إلى الأحياء الفقيرة التي جاؤوا منها.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانَا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾

الرعد: ٣١.

والجبال يحسبها الإنسان جامدة هامة صلدة، ولكنها تسبح مع المسبحين: وسخرنا مع داوود الجبال، يسبحن... "سبأ: ١٠. تسبح، وتخضع لأنها تعلم ما هو القرآن، لأن الجاهل بالشيء، لا يخافه، ولا يحترمه.

لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت حاشعاً متصدعاً من خشية الله

الحشر: ٢١.

من يعلم ويعرف يخشع، فالملت والجاهل لا يخشع، فالجبل يعرف ما نزل عليه، نزل عليه كلام الله، وهذا جبل أحد عندما خشع وبدأ يمد سروراً وفخراً على كل الجبال، قال له النبي ﷺ: اثبت أحد عليك نبي، وصحابي وشهيدان" لقد كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان على ظهره.

بِالَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾

إن الله يخفف على النبي صلى الله عليه وسلم حسرته لعدم إسلامهم، فللنبي ظاهرهم، ويترك ما في نفوسهم إلى ربهم، فيقول له ربه: لم يؤمنوا كلهم من قبل بالرسول الذين سبقوك، وسيبقى الكافرون يكذبون، وهذه ثمرة تجربة ومعاناة طويلة معهم، ولن يؤمنوا فيما بعد، ونحن نعلم ما تكن صدورهم، وما في أوعية قلوبهم، وليس أمامهم إلا العذاب، فهون عليك يا محمد ﷺ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات!

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

التركيز على الجمع بين الإيمان والعمل (آمَنُوا وَعَمِلُوا...) بكل مفردات

الكتاب والسنة، الإيمان الحي المتحرك على الأرض، الذي يمشي في الأسواق والحقول والدوائر...، وليس الإيمان شعاراً وطنياً يردد صباحاً في الصف، أو يعلق على الجدران والممرات، لما وجدوا الناس يتجاوزون الشعارات، ويمرون عليها وهم زاهدون بها، نشروها على الجدران والممرات كما ينشر الغسيل.

ويرغب الله المؤمنين بأجر مفتوح وغير محدد من عنده، والذي عنده ما ينفد، ولا ينقطع، وبلا من من أحد، لأنها مسألة بين عبد وربّه، بين مخلوق وخالقه، ولكنه وعد مشروط الإقتران بين الإيمان والعمل الصالح، والإيمان ليس كلمة تقال في المجالس، وليس شعاراً يطلق في الاجتماعات الرسمية، وليس وساماً فخرياً يعلق على الصدر، والإيمان قوة وطاقة فوق الجميع، وكم من لقاء فيه تحدّ بين الموت والإيمان، فيموت المؤمنون، ويتنصر الإيمان؟

ولو وجد إيمان مخلوط بعمل حسن وآخر سيئاً، دليل على عدم نضوج الإيمان، ووصفهم الله بقوله: "وآخرون اعترفوا بذنوبهم، خلطوا عملاً صالحاً، وآخر سيئاً" ١٠٢:٩. لذلك وضح هذا المعنى بالحديث الصحيح: «من غشنا، ليس منا» لأن إيمان الغاش دون إيمانهم، فهو ليس من هذه الطبقة الكاملة.

سورة البروج مكية، وآياتها اثنتان
وعشرون آية، وترتيبها بالقرآن (٨٥)
وبالتنزيل المكي (٢٧)

جريمة الإحراق الأخدودية، ليس لها مثل إلا ذبح المواليد بيد الفراعنة، ولماذا استفظعها القرآن؟ لأنها من ولاة الأمر، بدل أن يحموا رعاياهم، يحرقوهم... أو يذبحوهم. أو يدمرون عليهم بيوتهم بالطيران ليلاً بمن فيها، ويعجنون الأطباء والمرضى والأدوية والأجهزة والخرسانة مع الأطفال الخدج!^(١)

يوثق القرآن الجرائم النادرة، وندرتها وبشاعتها، عندما تصدر من أولي الأمر، بدل أن يحموا رعاياه، يحرقوهم، وهم بمنزلة الأب، بدل أن يجرس أولاده يأكلهم، جريمة لا تغتفر كونها تصدر من عليّة القوم، وهم تجربة حياتية واسعة، كيف يفقدون توازنهم؟ ولم يبق بهم رجل رشيد، ينصحهم أو ينكر عليهم؟

ولما أحرق سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام نجاه الله، صار إمام المحرّقين والممتحنين، وهو أمة بكاملها، ولم يهددهم الله ويتوعدهم، كما توعد أصحاب الأخدود، ومثلها جريمة الفراعنة بذبح المواليد الصغار، فقيادة مكونة من عظماء القوم، تتخذ مثل هذا الأمر ليس فيها ذرة من الآدمية، ولا تصلح لإدارة حديقة حيوانات، لأنها دون الحيوانات المفترسة، التي تلتزم بقواعد القتل، فمن تقتله، تأكله، وتقتل بقدر حاجتها، وهؤلاء يقتلونهم، ويحرقونهم، للذة الانتقام والتشفي، والتأديب والترهيب لمن يرى ويسمع، حتى لإرهاب الأجنة التي لم تخلق.

(١) تحت مسمى الإرهاب يذهب الوالد وما ولد وما جنى وما حصد، وكل أحجار البلد وأشجارها لأن في داخلها أحد، ولو فرضنا آلاف من الجيش الإسرائيلي احتلوا حمص، وهل من المعقول تدمر حمص بمن فيها، أم يرسل لهم بعددهم من يقنصونهم كالطيور؟.

والاستهلال يريد أن يقول لنا:

من بروج السماء رُصدت محارق كثيرة منها:

محرقة سيد المظلومين إبراهيم عليه السلام، وهو إمام المحرَّقين وإمام أهل الأخاديد، وإمام لكل ما يقع في الكون من محارق بنا بالباطنية وكيماوي العلمانية... وجاءت السورة بستة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١- ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ٣﴾ ﴿
- ٢- ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ ٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَنَوُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ١٠﴾ ﴿
- ٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ١١﴾ ﴿
- ٤- ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِيٌّ وَبَعِيدٌ ١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ١٥﴾ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ١٦﴾ ﴿
- ٥- ﴿هَلْ أُنثِقُ الْجُنُودِ ١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ٢٠﴾ ﴿
- ٦- ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ٢٢﴾ ﴿

جاء الاستهلال قسماً جوابه مفتوح...، والتأويل:

ورب السماء ذات البروج سيأتي يوم القيامة.... ولأنتقم للمحروقين من أصحاب الأخدود، أو لأقتل أصحاب الأخدود الذين حرقوا المؤمنين... بالنار أو الكيماوي أو النابالم...

هذا استهلال أم استنفار، أم إعلان حرب على أولي الأمر بالذات؟ ولم أولي الأمر؟

أو استهلال من وجه ما، تنعى السماء أصحاب الأخدود لأهل الأرض إلى يوم القيامة؟ وهو أطول نعي في الحياة الدنيا !!

الفرق بين الجريمة الجماعية والجريمة الفردية، الجماعية تصدر من مجموعة، والفردية من واحد مصروع أو مختل، وتنوع من ذبح للصغار والكبار، والحرق، والتسميم...، لكن تبقى جريمة فردية من مجنون أو معتوه أو غير سوي.

وأما جريمة أولي الأمر، لا تغتفر كونهم مجموعة من علية القوم، ولهم تجربة حياتية واسعة، كيف يفقدون توازنهم؟ ولم يبق بهم رجل رشيد، ينصحهم أو ينكر عليهم؟

كيف يحرقون أبناء قومهم وجلدتهم؟ وبسلاح قومهم وأموال قومهم؟ بينما لما أحرق سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام نجاه الله، وإبراهيم أمة بكاملها، ولم يهددهم الله ويتوعدهم، كما فعل مع أصحاب الأخدود، ومثلها جريمة الفراعنة بذبح المواليد الصغار، فقيادة مكونة من عطاء القوم، تتخذ مثل هذا الأمر ليس فيها ذرة من الآدمية، وهؤلاء يقتلونهم، ويحرقونهم، للذة الانتقام والتشفي، والتأديب والترهيب لمن يرى، ويسمع.

والاستهلال يريد أن يقول لنا:

أنتم مراقبون من البروج، وأهل الملاء الأعلى يراقبون من عليائهم المسؤولون على الأرض، وهذه صورة حسية تجعل الإنسان في حذرٍ دائم طالما يعرف أنه تحت برج المراقبة، ومن هذه البروج رصدت محارق كثيرة منها:

فشاهد ومشهود، شاهد على غيره، ومشهود من غيره. والشاهد الكامل أقل مافيه يعقل، ويسمع، ويرى، ولأنه حيّ، له مهمة، وكل حيّ يسبح بحمد ربه، من شجر وحجر وبشر ولكن لا تفقهون تسبيحهم، وكل مسبح شاهد ومشهود.

والإنسان عمره في هذا الكون يوماً أو بعض يوم، قياساً على عمر المجرات والشموس...، لقصر عمره لا يعرف عن الكون شيئاً، وحاله قريباً من حال كثير من البكتريا التي تموت بنفس اللحظة أو الساعة التي تولد بها، والله يقول للبشرية: ”وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً“ أي العلم اللدني والغيبى وما عندكم إلاّ الكسبي، فبسبب هذا العمر القصير والعلم القليل، بقي الإنسان لم يعرف ماذا بنفسه؟ وفيه الكثير من المجهول، فأنى له أن يعرف السماء وما بناها، رفع سمكها فسواها، والأرض وما طحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها؟

ومطلع السورة يطلعنا على نماذج من حركة العالم غير السوي، كقواعد النحو تركز على المفردات المخالفة للقواعد العامة، وحركة الطّب لا تتبع الأسوياء، وإنما تتبع أصحاب العلل.. وفي القرآن آيات للأمر، وآيات للنهي، وآيات للتفكر والتدبر في وقائع وقعت من قبل، وقد تقع في المستقبل.

وفي القرآن الكريم ألف وثلاثمائة آية تتحدث عن الكون، وعن خَلْق الإنسان، وهذه الآيات تقرب من سدس القرآن، وإذا كانت آيات الأمر تقتضي الطاعة، وآيات النهي تقتضي الترك، فماذا تقتضي آيات الكون؟ إنها تقتضي

التفكر، لذلك ورد في الأثر: ”تفكّر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلةٍ“^(١)

ولحكمة إلهية بالغة لم يفسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات، لأنه لو فسرها على نحو يناسب فهم من حوله، لأنكر هذا التفسير من سيأتي بعده، ولو فسرها تفسيراً، يفهمه من سيأتي من بعده، لاستغلق هذا التفسير على من حوله^(٢)

ومحور السورة يومئ إلى حقيقة ثابتة، حقيقة التدافع بدءاً من ابني آدم:

في كل يوم يولد فيه ظالم باطش جبار... ويولد معه مؤمن صابر محتسب، إنها معركة الصراع الدائم بين الخير والشر، وبين الزهر والشوك، وبين الحمام والنسر، وسبحان من يُذلّ، ليعز، ويضر، لينفع!

وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣)

سميت منازل الشمس والقمر والنجوم بروجاً، وأصل التبرج: التكلف في إظهار ما يخفى، ثم خص بتكشف المرأة إذا أظهرت محاسنها للرجال... ويعرف الشيخ محيي الدين البروج على النحو التالي: ”خلق الله في جوف الكرسي جسماً شفافاً مستديراً، قسمه اثني عشر قسماً، سمى الأقسام بروجاً^(٣)، وأول من عرفها وسماها العرب، وما زالت في كل لغات العالم بأسماء عربية، وهي:

الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبله، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. وتبدأ السنة العربية من شهر آذار، يوم: ٢١:

(١) مصنف ابن أبي شيبة من قول الحسن البصري (٣٥٢٢٣) وشعب البيهقي من قول أبي الدرداء (١١٨) موسوعة الإعجاز الكوني، د: النابلسي.

(٢) موسوعة الإعجاز العلمي...، د: النابلسي، قسم الآفاق، ص: ١٢.

(٣) تفسير ابن عربي...، ج ٤، ص ٤٧٣.

وأخذوا هذه الأسماء من تجمع الكواكب حول بعضها، وتظهر للناظر إليها من أهل الأرض، بشكل ما: كالميزان أو العقرب أو...

ولقد أقسم رب السماء بعظيم خلقه، أقسم بالسماء وبروجها، وأقسم بيوم القيامة بأنه الوعد الحق، وأقسم بذاته بأنه الشاهد على كل حادث يحدث، وبأنه شاهد يختلف عن كل شاهد من خلقه، الذي لا يرى إلا ما تقع عليه عينه، بينما ربنا حاضر ومحيط قبل الحدث، وأثناء الحدث، وبعد الحدث، ليطمئن الجميع

لا ظلم في يوم القيامة، فما من محسن تنقص حسنة من حسناته، ولا فاجر تزيد سيئة على سيئاته، وكل حدث مشهود ممن حوله، فالسماء تشهد والأرض والأعضاء تشهد...، كلها حاضرة عند الحدث وتُدعى للشهادة، لإزهاق نفس واحدة، كيف لو صار كالحرق الجماعي لأصحاب الأخدود، بدون ذنب اقترفوه، وكانوا ينفذون الأوامر الحكومية، ويدفعون لها الضرائب كلما طلب منهم، ومع ذلك أحرقوهم جميعاً، ولم يرحموا الصغير ولا المرأة ولا الكبير.

لأنهم قالوا: ربنا رب السموات والأرض، ونحن له عابدون. ففتحوا لهم أبواب جهنم في الدنيا.

وَأَسْمَاءُ ذَاتِ الْبُرُوجِ ① وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ② وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ③
قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ④

هذا القَسَمُ له عدة معطيات:

قَسَمٌ جوابه مفتوح، دل عليه: قتل أصحاب الأخدود، والتأويل: ورب السماء ذات البروج في يوم القيامة.... لا تتقمن لأصحاب الأخدود، أو لأقتلن أصحاب الأخدود الذين حَرَقُوا الْمُؤْمِنِينَ...

قتل أصحاب الأخدود لها وجهان:

لُعِنَ أَصْحَابُ مُحْرَقَةِ الْأَخْدُودِ الَّذِينَ حَرَقُوا الْمُؤْمِنِينَ...

أو خبر، بمعنى النعي وهو أسلوب عربي ..

نعى الله للبشرية حادثة الأخدود، فاستدعاها من الغيب، من بين آلاف المظالم التي وقعت في الأرض، وكأنها وقعت لتوَّها، ومن أساليب العرب في النعي، يمشي الناعي بين الناس، ويقول مثلاً: كسفت الشمس، وخسف القمر، وانهدت الجبال... لقد قُتل فلان، مات فلان، بعد أن يجلب انتباه الناس إليه، ويشدهم شداً، وهنا القرآن يذكر نعيه للمحرقة الجماعية، وهي أول قنبلة نووية بالقتل الناري الجماعي، وهي تحذير لأصحاب القنابل النووية والكيمياوي في حلبجة شمال العراق، والكيمياوي في غوطتي دمشق^(١).... يهددهم من جريمة الإبادة الجماعية للبشرية، الله يذراً، ويزرع، والطغاة يحصدون، ويحرقون، وكأنهم ناجون من قبضة الله.

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ، جاء الفعل مبنياً للمجهول، ثم نائب عن الفاعل، السؤال: فأين الفاعل؟ ولم غيب؟ لأنه مجرم لا يستحق الذكر، مثل قوله تعالى: "وإن جاءكم (إنسان) فاسق نبأً، فتبينوا" فاسق صفة لموصوف محذوف، والتقدير: وإن جاءكم إنسان فاسق... هو الكذوب الظالم، لا يستحق أن يكون إنساناً.

وبعد القرن التاسع عشر الميلادي ضعف الوازع الديني عند الناس وتنامى الإلحاد والظلم، وكثرت الأخاديد في الأرض، وأكبر أخدود عندما تحولت العراق وفلسطين وافغانستان وسورية واليمن...أخدوداً واحداً، وقبراً واحداً في القرن الخامس عشر الهجري، والسجون في العالم معظمها أخاديد، بعضها

(١) في ٢١/٨/٢٠١٣م وقعت مجزرة كيمياوي بشار في غوطتي دمشق الشرقية والغربية مات فيها حوالي ١٥٠٠ إنسان ثلثهم من الأطفال...والعالم ميعها وذوها وبخرها...ولو كانوا قطعاً لقام العالم ولم

يقعد.

فوق بعض، وأكثر النزلاء من المسلمين.

النَّارِذَاتِ الْوُقُودِ ٥

الوقود يتكون من الحطب والنار، ولا توجد نار ذاتية. كناية: إن الإنسان في هذه المحرقة هنا هو الوقود، بل هو الحطب والخشب والزيت والشعلة، وهو النار.

إِذْ هَرَّ عَلَيَّاهَا قُودٌ ٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ٧

إذ: الظرفية، ظرف يظهر الظلمة والجنود والحاشية يتحوطن حول النار ومن فيها، حتى لا يفر أحد من جحيمهم، والمحترقون من المؤمنين، وميزة هؤلاء الظلمة جميعاً بنفس الدرجة من الإجمام، ماتت قلوبهم وضمايرهم، ولم تبقَ بهم فطرة بشرية، لأن الإنسان لو رأى غريقاً أو حريقاً، يلقي بنفسه للهلاك، لإنقاذ إنسان لا يعرفه من الغرق لأنه واجب فطري من دون أن يعرفه...^(١) بدافع الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، فكيف يحرق راع رعيته؟ بدل أن يحميهم، يقتلهم، وينسى أن جنوده هم أبناءهم، ينظرون إلى أهليهم ومعارفهم وجيرانهم في المحرقة، جنوده شهود على ظلمه وبطشه في الدنيا والآخرة. والسؤال:

لماذا لم يتحرك بجنوده عرق أو ضمير أو نخوة؟.

لسببين:

(١) سقط فيل صغير بترعة، فحملته أمه بخرطومها، فينزلق كونه طلي جلده بالمادة الطينية الصابونية، فجات ثانية، ووضعت خرطومها، عكس خرطوم أمه، فصار بين ذراعين حنونين، فصار ينزلق إما إلى الأمام أو الخلف، فجات ثالثة، فمسكته من رأسه حتى يبقى متوازناً، إنها الفطرة!! لكن الظلمة... بلا فطرة!! مقتبس من قناة فضائية.

هم نهبوا، وسلبوا، وقتلوا مثله، ولكن بالتجزئة، وهو غض عنهم الطرف، ولم يحاسبهم أو يعاتبهم مكرراً بهم حتى يتلوثوا، فهم مدانون له، وملفاتهم مليئة بالمخازي.

كُونُوا مَصَالِحَ ضَخْمَةٍ، فلا بد من المحافظة عليها، وهي مقدمة على أهمهم وأبيهم وفصيلتهم التي تؤويهم، وهذا قارون من قوم موسى ومن أهلهم، فبغى عليهم، وكان البنك الوحيد الممول لفرعون على أهله. ﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَايَنَاهُ مِنَ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتُنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ «القصص: ٧٦»

فالأنظمة كلها شريكة الطاغية في الإثم، ماداموا شركاءه في المغنم، فهم شركاؤه في المغم، ولا تستطيع حبة رمل في جسم السد، أن تتبرأ، وتتنكر من المسؤولية، لأن السد مجموعة من حبات الرمل، والله يحملهم المسؤولية كل على حسب حجمه.

وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

ما قال: وما نقم منهم الملك الظالم وحده، بل قال: ما نقموا بالجمع مجموعة النظام، لأن وحده لا يستطيع، ولا يتأتى له ذلك، فلا بد من تعاون بين جميع عناصر الدولة ولا سيما أصحاب النفوذ.

ولماذا ينتقم الظلم؟ وكل المؤمنين بناة في البلد ألفون، مألوفون، لم يسرقوا، ولم يقتلوا، ولم يفسدوا في الأرض؟ لأنهم مؤمنون فقط، يحرقون!!

هي إبادة جماعية وقعت في عمق التاريخ السحيق، وجاء بها القرآن الكريم في زمن البعثة، ليقول للمسلمين:

أنتم المسؤولون والمؤتمنون على أرواح الناس من الآن فصاعداً، أسلموا،
أو لم يسلموا، هذا لي، وليس لكم.

والانتقام يقع على المجرم الفاسد المفسد، والمكافأة تكون للمصالح المصلح،
ولما تنقلب الموازين، ينتقم من المصلح، ويكافأ المفسد. وجاء توصيفهم بأسلوب
المدح بما يشبه الذم، كقول الشاعر:

لا عيبَ فيهم، غير أن سيوفهم بهن فلولٌ من قراع الكتائب
وقول الشاعر:

ما نقموا من بني أمية إلا أنهم يجلُّون إن غضبوا

وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨

فلا يوجد بالقرآن آية: إن الله ينصر الكافرين على المؤمنين، ولكن الموجود،
إما ينصر المؤمنين أو يتخلى عنهم، يتركهم وقوتهم وتدبيرهم كيوم أحد، قوله
تعالى:.. وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ۗ ” آل عمران: ١٦٠.

فكلمة النصر محجوزة لله وللمؤمنين فقط، وقد تخلى الله عنهم في غزوة
أحد فتركهم وقوتهم وتدبيرهم قوله تعالى: إن ينصركم الله فلا غالب لكم،
وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده..” ٣: ١٦٠. لماذا جاءت صفتا
العزیز الحمید لله من دون بقية الأسماء الحسنی، والسياق يستدعي أسماء الانتقام
والبطش التي تتناسق مع الحدث، نحو” وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله جبار
السموات والأرض... وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله المنتقم ذي الطول...؟
وسبحان من يُذلّ، ليعز، ويضر، لينفع.

وجاءت صفة العزیز هنا في هذا السياق لتأكيد العزة موجودة ”ولله العزة

ولرسوله وللمؤمنين“ وعندما حُرق أصحاب الأخدود، ما كان ربهم غافلاً، ولا ضعيفاً، فتخلى عنهم، فهو ما زال عزيزاً، ينصر عباده متى شاء؟ فمرة ينصر جنده ودينه، كغزوة بدر، ومرة ينصر دينه فقط كقصة الأخدود.

وصفة الحميد جاءت بعد العزيز، وهو الذي يحمد في السراء والضراء، حتى أصحاب المحرقة يحمدونه، لأنه وفقهم للإيمان به، وثبتهم على إيمانهم، واختار لهم الشهادة والجنة بأن واحد، وجعل قصتهم ديناً يتعبد الناس بها بين يدي الله، بل وسيلة إلى الدخول إلى الله، وهناك أناس من جيرانهم اختاروا الكفر والسلامة المؤقتة، لكنهم ماتوا فيما بعد، فربحوا ناراً أبديةً.

الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١﴾

يريد أن يؤكد هنا، مادام له ملك السموات والأرض، إذاً هو صاحب القرار الوحيد فيهما، وهو مالك الملك، لذلك يُؤتي الملك من يشاء، وينزع ملكه ممن يشاء، ولو كان له شريك لنازعه ببعض قراراته.

وفي هذا تهديد لأرباب الحكم والسلطان، بدل أن يرحموا، ويسمحوا، فيظلموا، ويحرقوا، ويقتلوا.... وتفصيل هذه القصة في مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم.

قصة مات أصحابها من أجلها، فدبت فيها الحياة !!

وقد قال الإمام أحمد:... عن صُهَيْب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ”كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبرت سنِّي وحضر أجلي، فادفع إلي غلاماً لأعلمه السحر. فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام

على الراهب فسمع من كلامه، فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربه وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حسبي أهلي. وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حسبي الساحر. قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر. قال: فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس. ورمها فقتلها، ومضى الناس. فأخبر الراهب بذلك فقال: أيُّ بُني، أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي. فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان جليساً للملك فعمي، فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: اشفني ولك ما هاهنا أجمع. فقال: ما أنا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، عز وجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك. فأمن فدعا الله فشفاه. ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يا فلان، من ردّ عليك بصرك؟ فقال: ربي؟ فقال: أنا؟ قال: لا ربي وربك الله. قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله. فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فبعث إليه فقال: أيُّ بُني، بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أنا أحداً، إنما يشفي الله، عز وجل. قال: أنا؟ قال: لا. قال: أولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب فقال: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض. وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغت ذروته، فإن رجع عن دينه

وإلا فدهوه من فوقه فذهبوا به، فلما علوا به الجبل قال: اللهم، اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله. فبعث به مع نفر في قرقور فقال: إذا لجمت به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر. فلججوا به البحر فقال الغلام. اللهم، اكفنيهم بما شئت. فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله. ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلتني، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهماً من كنانتي ثم قل: ”بسم الله رب الغلام“، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. ففعل، ووضع السهم في كبد قوسه ثم رماه، وقال: ”باسم الله رب الغلام“. فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام. فقيل للملك: رأيت ما كنت تحذر؟ فقد -والله- نزل بك، قد آمن الناس كلهم. فأمر بأفواه السكك فخذت فيها الأحاديث، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها. قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكانها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه، فإنك على الحق“ (١).

إِنَّ الَّذِينَ فَنُّوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَنْبُؤُوا لَهُمْ عَذَابَ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

هذا الوعيد يوضح منهج الله مع الظلمة من وجهين:

(١) تفسير ابن كثير، ج٨-٣٦٦-٣٦٧.

وجاءت هذه القصة في الحديث الصحيح عند مسلم في: كتاب الزهد والرفاق، باب: ١٧.

منهج الله في التهديد، يمهل من سبقونا من الأمم، ممن فتنوا مؤمني زمانهم، حتى ماتوا تحت العذاب، فأعطى الله للمفتونين الجنة، وللقاتنين فرصة بضع سنين للتوبة، وإن ماتوا، ولم يتوبوا، فلهم عذاب جهنم، فأمهل قوم نوح عشرة قرون إلا قليلاً.

وقد ينتقم بنفس اللحظة، أو يؤجلها ست عشرة سنة، كما في موقعة بدر قتل الله صناديد الكفر الذين عذبوا الناس.

ومن المبشرات: مرّ رجل على مصلوب في مفترق الطرق في الكوفة، فتعاطف معه روحياً، وقال: يارب حلمك الزائد أضر بالمظلومين، وشجع الظالمين، فرأى بمنامه صاحبه المصلوب بالجنة، ومنادٍ يناديه: حلمنا أوصل المظلومين إلى أعلى عليين!!

إجاء لقريش مباشرة ممن فتنوا المؤمنين، وما زال الظلمة أحياء، ولم يؤمنوا، ولم يتوبوا... وتستبطن الآية:... ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا... لعل فيها بشارة دقيقة وليست خفية على النبي صلى الله عليه وسلم، بأن قسماً من الذين فتنوكم، سيتوبون، ويلحقون بصفكم فيما بعد، وفي هذا تأنيس للقلوب المجروحة.

لهم عذابان، الأول: إهاني صرف: عند دخولهم جهنم يضربون على وجوههم إهانة، وعلى أدبارهم من القفا كالبهائم، جمع عليهم إهانتين: الضرب والتمثيل.

والآخر: حسي لهم عذاب الحريق: «يضربون وجوههم وأدبارهم، وذوقوا عذاب الحريق» ٨:٥٠. لأنه لا يعذب بالنار إلا رب النار.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾

وليس كل فوز فوزاً، عندما يفوز فريق رياضي، ما مردوده على البشرية سوى صيحة وتصفيقة تأخذها الرياح، فلا أثر ولا خبر، ولما فاز أهل بدر، انداح التوحيد والعدل وكرامة الإنسان... وجمعيات الرفق بالحيوان الذي أسسها عمر بن العزيز على رأس المائة الهجرية، وما زالت ساحة المرجة وسط دمشق تشهد على ذلك، هي مروج على ضفتي بردى أوقفها الخليفة للحيونات الهائمة.

ولولا الفوز ببدر ما قامت جمعيات الرفق بالحيوان.

وكلما قامت مئذنة جديدة، فهي ثمرة من ذاك الفوز، وكلما أسلم مسلم في محيط المتجمد الشمالي، ثمرة من ذاك الفوز الكبير.

فوز كبير بحجمه وطوله وعرضه... كبير لأنه يمشي مع الزمن ليوم القيامة.

الفوز الكبير يبدأ من الدنيا، فمن فاز بجنة الدنيا: بالصدر السليم والقلب السليم، فمن يملكهما فاز بجنة الآخرة، لأن الذين آمنوا، لو ماتوا بعد إيمانهم بثوانٍ كأصحاب الأخدود، وكسحرة فرعون، لم يصلوا ركعة واحدة لله، موتتهم هي شهادة ثباتهم على الفتنة، وانتصارهم على عدوهم، الذي دمر أجسادهم، ودمر دنياهم، وبثباتهم دمروا ملكه، ودمروا تاريخه، ودمروا آخرته، وحشروه في أراذل التاريخ...

ومن سنن الله في الكون سنة التدافع، وكلما يولد توأم قد يكون أحدهما ظالماً باطشاً، والآخر مؤمناً صابراً محتسباً كابني آدم، إنها معركة الصراع الدائم بين الخير والشر، و الزهر والشوك، و الحمام والنسر، و النار والماء، و سبحان من يُدَلِّ، لِيُعْز، وَيُضِر، لِيَنْفَع!.

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾

لماذا جاءت صياغة الآية: إن بطش ربك لشديد... جاء الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم من جهة، ومن جهة أخرى قال له: ربك، ولم يقل «رب السموات والأرض، وهو رب كل شيء، وهي تتضمن: أنا أحملك، أنا أنصرك، أنا ربك الذي يبطش البطشة الكبرى، وينتقم الانتقامة الكبرى، إن أخذه أليم شديد، فمن إله المشركين؟ إله المشركين هوهم! هذه آية رفعت محمداً صلى الله عليه وسلم ومن معه، وخفضت عدوهم، آية رفعت كل من يرث محمداً ﷺ، وهذه كاف الخطاب (ربك) هو كاف الميراث، الذي ينتقل بين الأجيال القادمة، وآية فيها تضمين بالـ (بطش) لكل من يعادي واحداً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

ولقد رأينا في القرن العشرين، عندما تجمعت القوى العالمية ممن بطشوا بالسلطنة العثمانية وهي رمز الخلافة والأقليات الإسلامية كجزيرة منداناو بالفلبين، وفي جزيرة بورما قاموا بحملة إبادة للمسلمين سموها التين، أبادوا فيه أرقاماً لا تحصى، وبطش الغرب بالعالم العربي والإسلامي بلا رحمة، و كل هذا حدث في عشرينيات القرن العشرين وتفصيلات ذلك كتب التاريخ، وأخبار الأقليات في كتب الأقليات الإسلامية، يرجع إليها؟ وبعدها بطش الله بهم في حربين عالميتين بينهما ربع قرن فقط، حصدوا بعضهم بعشرات الملايين، وبأيديهم دمروا مدناً وقصوراً ومصانع مما نهبت من الشعوب، ورأينا أحزاباً ومسؤولين كباراً وصغاراً في العالمين العربي والإسلامي سلطهم الله على بعضهم بالإغتيالات والإنقلابات ممن بطشوا بالإسلاميين وبشعوبهم، تنفيذاً لأوامر خارجية، فكيف بطش الله بهم؟ يكفي أنهم لم يوقفوا المنفعة بلادهم بشيء يذكرون به، و كانوا هم الفساد وهم الجراد، فأدخلوا الفساد مجلبباً، وصبغوه، وزوروه، لينخر البلاد والعباد، وصيروا

كل غني فقيراً، وكل صاحب دينٍ حقيراً، وكل فاجر وزيراً أو أميراً!
وأخيراً...! هم والشيطان دعاة إلى كل معصية ومفسدة.
وبعد ما هلكنا، فهمنا، أن عدانا ليس وراء الحدود، ولكن عدانا وراء
الجلود.

إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيَعِيدُ ﴿١٣﴾

هذه الآية جاءت في سياق: إن بطش ربك لشديد، فيتحطم المبطوش به
حتى الطحن، فيعيد الله، مثل قوله تعالى: كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً
غيرها» ولكن كأنها هي، فقوته في البطش، قوته في البدأ، قوته في الإعادة.
وبعد مرور عدة صور من الترهيب والبطش وقلع القلوب من صدورها،
تأتي صور في الترغيب والتهدئة والتبشير، حتى يدع القلوب تستقر. وهذا من
التربية المتوازنة.

ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾

الغفور: الستور، المبالغ في الستر والتغطية، وكلما تتوالى الذنوب، تتوالى
عليها الستور، وما يفعل الله هذا بقصد المصلحة المرجوة من المغفور لهم، وما
يفعل هذا إلا المحب الودود، كما تفعل الأم الحنونة، عندما تغطي، وتستتر جميع
أخطاء الأبناء على الأب الصارم، بدافع الود الذي فطرت عليه، وقد يجلب عليها
هذا التستر المتاعب والطلاق، وما وداد الأم بجانب وداد الودود، إلا قطرة من
بحر الودود، فأراد الله أن يثبت لنا أنه يحبنا، ويودنا فقدم لنا دليلاً عملياً يتكرر
يوميماً، عندما يستر عيوبنا، ولو كانت لعيوبنا رائحة، لما تدافن الناس، ويظهر
محاسننا، وهذا ما لا تفعله إلا الأم والأب، وهذان في الدنيا هما الودودان.

سبحان من سبقت رحمته عذابه، ومغفرته حسابه، ووداده انتقامه، فبعد ذكر البطش، يأتي بذكر قدرته بالبدء، والإعادة، هي تهديدات متوالية، ومقارع متتالية، وبعد أن تلبدت السماء بالغيوم، وتوالى البرق الخاطف، والرعد القاصف، والصواعق المحرقة، هداً كل شيء فجأة، وتبددت الغيوم، وسكنت الريح، وتسلت خيوط الشمس بالدفء والراحة... فجاء اسم الغفور الودود، لم يا ترى؟

يغفر الله عن قدرة وعظمة، ويود عن غنى، هناك كثير من يغفرون، ويسامحون عن ضعف، ويتوددون لمصلحة، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة، عفا وهو المنتصر، ويوسف عليه السلام، عفا هو عزيز مصر، وإخوته غرباء ضعفاء غفر وعفا عن قوة، والذي يعزز هذه الرؤية، قوله تعالى: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ الحجر: ٤٩.

فمغفرته دائمة، ووده ثابت لا يتغير في حياة من يحبهم، ويحبونه، وبعد مماثهم، لأنه لا ينخدع عندما يود أحداً من خلقه، لأن العبد مكشوف الظاهر والباطن، والماضي والحاضر والمستقبل، لذلك الودود لا يندم على وده، بينما البشر يتغير ودهم، لأنهم ينخدعون بمظهر، أو موقف أو كلمة، وبعدها تتكشف لهم الأشياء. والدليل التطبيقي على وداده للأنبياء والصحابة والصالحين دائم لا ينقطع، بل يزيد ولا ينقص، قوله تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، سيجعل لهم الرحمن وداً» (مريم: ٩٦). هنا ألزم الودود نفسه بغير ملزم، بأن الذين يودون الأنبياء والصالحين، يزيد عددهم ولا ينقص، وهي إعجاز وبشارة كلما تقدم الزمن وانداح الإسلام في الأرض نتيجة لكثرة المواليد وللداخلين الجدد في الإسلام، تولد الوجوه الجديد محبةً للنبي صلى الله عليه وسلم والصالحين، محبة ثابتة وكأنهم رأوهم، وعاشوا معهم، وأكلوا من أيديهم، ولعقوا من أصابعهم،

وما بينهم خمسة عشر قرناً، ومنهم من يحبهم أكثر من أمه، وأبيه، ونفسه التي بين جنبيه. وهذا إعجاز ديمومي ” ومن أوفى بعهده من الله...“ ١١١:٩.

نعم المولى! ونعم الوفي!

وعلى سبيل المثال: الذين كانوا يودون عمر بن الخطاب في حياته أربعمائة ألف تقريباً ممن رأوه أو عاصروه، بينما الذين يودونه من غير مسلمين، ملايين ونيف... وفي مدخل محكمة كبرى في ألمانيا لوحة كتب عليها: رب العدالة عمر بن الخطاب “ أنجز الله وعده وعهده بقوله: سيجعل لهم الرحمن وداً.

فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

الله محيط وعالم بكل ما يريد فعله، فلم يندم على أمر قد مضى، ولن يندم على مُقدّر قدره... بيننا لو كان له مستشارون وإخصائيون زينوا له أمراً ما، والأمر دون ما يقولون، أو ردوه عن أمر عظيم، وفيه خير للبلاد والعباد، لعدم تخصصه في كل الأشياء، ولا يوجد صاحب سلطان أو ملك: فعال لما يريد “ لأنه لا يملك نفسه التي بين جنبيه، ولا يملك الزمن الذي هو فيه، لو قال: غداً سيذهب إلى مكة، وتعطلت كليلته، لأنه لا يملك نفسه، أو طيارته لأنه لا يملك حركته، لأنه ليس فعال لما يريد،.... الواحد الأحد هو: فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ!!

والله فعال لما يريد فعله وانجازه، أو رفعه أو خفضه، أو حياته أو موته، أو إعزازه أو إذلاله، فيأمر بتدمير أمم ظالمة أو تمكين أمم ذليلة، وفي هذا إيجاء وتهديد ضمنى للمشركين ومن على شاكلتهم، لأن السورة مكية. وعندهم خبر فرعون وخبر ثمود، كان متدوالاً دائماً في نوادي مكة، وشوارع مكة، قبل أن تولد يا محمد صلى الله عليه وسلم، ولقد أتاك خبرهما، وسمعته قبل أن تبعث.

هَلْ أَنْتَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ١٨

ولقد أتاك يا محمد صلى الله عليه وسلم خبر أمتين سابقتين مختلفتين مجاورتين لكم: الفراعنة في مصر، وثمود في حضر موت، تميزتا بكثرة الجند وقوة البطش، لا يخافان أحداً على وجه الأرض، والكل يخافهما، فظنتنا أننا باقيتان بقاء الشمس والقمر، والليل والنهار، فجاءهما أمر الله من حيث لم يحتسبا، ولم يتخيلا، ولم يتصورا يوماً، أنهما سيُبلعان بلعاً كاللقمة في فم السمكة بدون مضغ ولا طحن، لصغرهما وتفاهتهما وهوانهما على الله، ولم يبق لهما باقية تذكرهما، أو نادبة تندب عليهما، أو تتحدث عنهما، ففرعون، وآله، وجنوده، والحاشية، ابتلعهم البحر دفعة واحدة، فتكفناهم بملابسهم، وقوم ثمود أخذتهم الصيحة فأصبحوا جاثمين في أماكنهم، وابتلعتهم الأرض فكانت هي الموت والحفرة والقبر.

ومغزى قصة الأخدود تنتصر العين على المخرز، والعقيدة على الموت.

فحديث الأخدود، وخبر الجنود، وربة فرعون و طغيان ثمود، والعلاقة بينهم، هم كنهانج مختلفة لنهاية واحدة: انتصار الحق، وانزهاق الباطل. ففي الأخدود نموذج لانتصار العين على المخرز، وانتصار العقيدة على الموت، ماتت أجسامهم وبقيت عقائدهم منتصرة، تفرع الجبارين، وتزلزل مضاجعهم، وأخوف ما يخاف أرباب السلطان من العقيدة الحية المحيية. بالعقيدة وحدها، انتصر الأنبياء وبلا أسلحة أو جيوش، وهذان نبيان موسى وصالح عليهما السلام، أهلك الله عدوهما بدون أن يرميا سهماً واحداً، ولله جنود السموات والأرض، وهو الذي يدير المعركة وكأن غرفة العمليات في السماء. وفي هذا إيحاء من وجهين: للمؤمنين، وللمشركين.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾

وفي هذه الآية تقرير عن استمرار مستقبل الصراع بين الإيمان والمادة، وبين النور والظلام، وبين الحق والباطل، إنها معركة الإيمان مع الظلمة مفتوحة من قَبْلُ أن يوجد فرعون وشمود، ومن بعدهما جاء مشركو العرب، ثم جاءت حروب الفرنجة، وقامت في الشرق الإسلامي الشيوعية التي دمرت كثيراً من مسلمي الهند الصينية وتركستان... ثم جاءت ثلاثة الأثافي، الغرب المتصهين في فلسطين والعلمانية هدفها تدمير ثوابت الأمة، وحرب أفغانستان والعراق وسورية... وتحت مسمى العلمنة، والعولمة، والإرهاب، فطحنوا قوافل من الشباب المسلم ذوي الكفاءات العالية، لماذا؟ وما صنعوا؟...

لم يذوبوا في الأحماض الغربية أو الشيوعية، بل بدا الغرب يذوب فيهم، وكم من طالب مسلم حصل على الثانوية وهو دون العشرين، وذهب للتخصص في الغرب، فأسلم على يديه أستاذه الكبير صاحب التجربة والتحصيل، هذه معادلة صعبة طالب ناشئ ومن العالم الثالث، يقود أساتذاً كبيراً وفي دولة فوقية متغطرة! (١)

وتتحقق نبوءة القرآن « ولا يزالون يقاتلوكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا... » استطاعتهم مشكوك بها، وهاهم بعض الكافرين يزحفون على الإسلام، ويظنون أنهم يحسنون صنعاً، وأنهم انتصروا في مواطن عديدة على المسلمين، وتفوقوا عليهم في ميادين كثيرة، ووصل الموات في العالم الإسلامي

(١) طالب خليجي بعد حصوله على الثانوية ذهب لأمريكا ليتخصص بالقانون الدولي، فجاء أستاذ المواردي يحمل كتاباً ضخماً، يعتبر مرجعاً في الغرب للمواردي، فقال له الطالب: المورد بالقرآن بضع آيات، فطلبهنّ منه، وجيء بهن مترجمات، فعكف عليهن، وغاب الأستاذ أسبوعاً، فقال للطالب بضع آيات، تحتوي على كتابي كله، فهذا إعجاز... فأسلم!

لأن يعشق المسلم عدوه، فصاروا يقلدونهم في الاقتصاد الربوي، والأعياد، والأتراح، والأزياء، وأصبحت الفوارق في الشكل العام بسيطة، ولكن جذوة الإيمان في الصدور يجرسها الله، ونحن في مطلع القرن الخامس عشر الهجري والإعلام الفاجر الإباحي له مهمة واحدة تدمير القيم الإسلامية، وإفساد الشباب المسلم وشباب العرب خاصة، والله من ورائهم محيط بكل هذه الخطط والمكائد، فيوقعهم بفتح مكيدتهم، وينفقون أموالاً، ويجعلها حسرةً عليهم.

ومن وسط تنور الغرب، فارت الصحوة الإسلامية، تتزايد المراكز التعليمية والمساجد الإسلامية، بسبب الإقبال على الإسلام. وليس العجب أن ترى زهرة جميلةً وسط الحديقة، ولكن العجب أن ترى زهرة وسط الجحيم تتحدى.

ويأتي ختام السورة، ليقرر الحقيقة الخالدة:

إن هذا القرآن المجيد، لن يتجاوزه الزمن، لأن الذي أنزله، يتولى حفظه وحمائته، ولم، ولن يقيم دليل علمي على بطلان آية واحدة، أو إعجاز واحد.

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

قرآن مجيد كالأكسجين الذي لا يفرق بين رثة ورثة، بين مؤمن وكافر، وبين غني وفقير، مجيد لأنه وجد للرحمة، وليس للتربح، كدستور الطبقة العاملة التي تجور على الإقطاع لافقارهم وإذلالهم، أو دستور الإقطاع الذي يجور على الطبقات العاملة لطحنهم وأكل أكبادهم؟.

جاءه المجد من ذي العرش المجيد ”ق، والقرآن المجيد“ و ”ذو العرش

المجيد”

وهل هناك كتاب، أو دستور، أو منهج مجيد، لم يتجاوزه الزمن، وبقي مجده قائماً؟!؟

وكل الدساتير تتغير تبعاً لمجريات الحياة، وتصبح تاريخاً من التاريخ، كقانون حمورابي وغيره، يأخذ حظه من المجد ثم يخفت، ويزغ دستور جديد. هناك فرق جوهري بين دستور جاء إلى كرسي المجد، وأخذ حظه بالقوة^(١)، ودستور يتولد منه المجد، فهو الذي يمجد المناهج التي تصطبغ بلونه.

قرآن المجد الكمالي لأنه صدر عن الكامل، وهو بين يدي العدو والصديق، والكل يفتش به بين باحث ومتصيد، ومن الإعجازات القرآنية المتكررة في العالم، قدرة القرآن في تغيير الناس من أعداء وخصوم إلى محبين وعاشقين له، كانوا يغيرون عليه، فتستوعبهم رحمته، وتناقشهم حجته، وتحتضنهم مودته، لأن خطابه يمس الأوتار النووية الفؤادية الموزعة في شبكة الحشاشة والفؤاد، فتشتعل مصابيح الفطرة، وتنادي: صدق الله العظيم!!

الماجد والمجيد اسم مشتق من المجد، والمجد: نهاية الشرف، والرفعة، والسمو، والقدم والكمال... والقرآن ماجد بذاته ومجد لمن يحمله، شريف بذاته ومشرف لمن يرفعه، عظيم بنفسه، ومعظم لمن يقرأه، فهاهم العرب عندما رفعوه، رفعهم الله ومجدهم، وعندما تولوا عنه، تخلفوا عن ركب القافلة البشرية مخذولين، ومثلهم العثمانيون عندما عظموه، عظمهم الله ومجدهم على أهل الأرض أربعة قرون، ولما تخلوا عنه، سقطوا في حضيض الالحاد، هذا على مستوى الأمم، وعلى مستوى الأفراد، بقدر ما يحفظ المسلم من القرآن، ويطبق أحكامه، ويتخلق بأخلاقه، يعلو بين الناس ويمجد، وكلما زاد، زاد علوه، حتى

(١) كالدستور الدائم الذي يفرض على الشعوب، مفصل على قدر المسؤول الذي لا يسأل عما يفعل بنص الدستور، ولو نهب وسلب وقتل ودمر...

إذا بلغ درجة العز عبد العزيز بن عبد السلام^(١) زاد على السلاطين والملوك، حتى باعهم بالسوق، وهم يقبلون يديه.

وكان الله يحض أهل مكة على أخذ هذا الشرف، حتى يكونوا رؤوساً والناس لهم تبع، قبل أن يسبقوا إليه، ويكونوا تبعاً.

في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ

اللوح معلوم والكيف مجهول، واللوح - هنا - حافظ ومحفوظ، وهو كائن قدسي، نؤمن به غيبياً وبوجوده، كما نؤمن بالمغيبات الشرعية كلها، بدءاً من الملائكة، والصراط، والجنة، والنار، و... واللوح معلوم، والكيف مجهول، لأن في حياتنا تطوراً في مسمى اللوح، كان اللوح من الخشب، ويظهر ماكتب عليه، وقابل للسطو والتغيير والتبديل فيه، بينما اللوح بزماننا صار على أقراص ليزرية بحجم الدرهم والدينار يخزن ربع علوم أهل الأرض، وبعد نصف قرن، كيف ستكون صفة اللوح؟ وكم تكون طاقته؟

وصار العقل عاجزاً عن تصور اللوح الإنساني، فكيف باللوح الرباني؟

(١) العز، عز الدين بن عبد السلام ولد بدمشق (٥٧٧هـ ت ٦٦٠هـ) ودفن بالقاهرة، كانت له هيبة تهب الجبال، تحافه السلاطين والملوك، يكفي أن المالك حكموا مصر زمناً طويلاً، فأصدر فتواه الشهيرة، لا تجوز البيعة لهم لأنهم ما زالوا عبيداً، فلا بد من بيعهم أولاً، ثم عتقهم، فرضوا له، وهم السادة والملوك، فباعهم بسوق الرقيق، فأعتقهم من اشتراهم، وبعد أن تحرروا، أخذت البيعة لهم من الناس. ويسمى بائع الأمراء، ومن الطرائف واللطائف:

تلاحيث مع حبيب وزميل عمل مصري، كان يحضر رسالة دكتوراة، يرفع مصر جداً جداً على كل العالم، وتستحق ذلك، ولكنه يخفض بالشام جداً، وأنا صابر عليه، ومن باب الدعابة قلت له يوماً بعدما نفذ صبري، كنتم رعايا عند المالك زمناً طويلاً، يسومونكم سوء العذاب، فحرركم العز وهو شامي بمفرده، وغزتكم فرنسا وجلس كليبر حاكماً على قلوبكم، فلما طعنه سليمان الحلبي بالخنجر، وهو شامي، خرجت فرنسا فوراً، اعترف لأهل الفضل بالفضل، ومنها سكت نهائياً، فقام الزملاء بالقسم، ولم يقعدوا، وقد شمتوا به، ويلوموني على صبري!!

* كان هذا المجد في زمن لم تكن ولدت به الدولة القطرية الميئة والميئة....

واللوح خلق من خلقه الله عظيم، يحفظ ما أودع فيه، وهو محفوظ من الله، وممن سبق من أهل العلم فسروا اللوح بأنه: ” موجود سجلت فيه جميع المخلوقات مجتمعة ومجملة، وسموا ذلك: بالكتاب المبين، وسموا تسجيل المخلوقات فيه بالقضاء، وسموا ظهورها بالوجود قدر..“^(١)

في لوح محفوظ بالسماء، أو لوح محفوظ بصدور المسلمين، هذا القرآن الذي لا تلبه الماء، وكل نفيس يحفظ ويحرس، وفي هذا تحدٍ لكل من تسول له نفسه، أن يصل إلى هذا المحفوظ، وكم من محاولات جرت، وتجري، وستجري، للنيل من هذا المحفوظ؟ ومن الأعاجيب من بعض المسلمين الذين يعملون بعض الموبقات، ولا يلتزمون بكل حلاله وحرامه، ولكنهم حريصون على قربهم منه، ويفدونهم بأرواحهم، ويضعون القرآن في صدر بيوتهم، وسياراتهم، وتظهر عناية الله للقرآن بالحفظ عند غير المسلمين، الذين زوروا مقدساتهم، وعندما يطبع القرآن في أوروبا بأيديهم فلا يزيدون حرفاً، ولا ينقصون!!

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج ٣٠: ٢٥٣.

سورة الطارق مكية، وآياتها سبع عشرة

آية، وترتيبها بالقرآن (٨٦)

وفي التنزيل المكي (٣٦)

ما السر وراء استهلال هذه السورة من قبة السماء وبالنجم الثاقب؟

لأمور لعل منها:

- ارفع رأسك، وخذ لك مكاناً في السماء وشرفاً بين النجوم، بل أنت ستكون نجماً بين أهل الأرض، ارفع رأسك بالقرآن، وارفع رأسك بمحمد ﷺ، وارفع رأسك بالإسلام^(١).

- لأن للأعرابي تعلقاً بالسماء ونجومها وغيومها وأنوائها وليلها ونهارها، ولأن السماء هي الحكمة الوحيدة التي يرضع منها البدوي، فإذا غرّزت بمطرها، غرّزت أنعامه بلبنها، معناها غرّزت رجله في القبر.

- وكان الله ينبهنا ويحضننا مبكراً، أن نمتلك قوانين وسنن الفضاء، قبل أن يمتلكها غيرنا، ومن يمتلك شيئاً من أسرار الفضاء يملك المال، والعز، والقوة... وقد فاز بها العالم الغربي اليوم، فبدأ يبيعنا سماءنا، وهواءنا، وشمسنا، وقمرنا من خلال البث الفضائي...

جاءت السورة بثلاثة مفاصل:

(١) وقفت بمسجد الفاتح باستنول رمضان ١٤٣٦هـ، أتأمل القبة المرتفعة أربعين متراً وقطرها ثلاثين تقريباً، ومرصعة بأسماء الله ورسول الله والصحابة بالعربية، فتوقفت عند: طلحة، فناجيته روحياً: أنت قبل الإسلام أعرابي بواد غير ذي زرع، غير ذي ماء، غير ذي حياة... وكانكم بمنفى خوفاً من عدو يتربص بكم فلجأتم إلى هذا الوادي، فلا يراكم إلا الطير العابر.

فبالإسلام صرتم تيجاناً فوق التيجان، وعظاء فوق العظاء، فالسلاطين العثمانيون جعلوكم تاجاً فوق تيجانهم، والضباط الذين هم ضباط حقاً، فتحوا حتى موسكو تقريباً، وصدوا، وردوا، تاريخهم يرفع الرؤوس، جعلوكم نجمة وهلالاً وتاجاً فوق نجومهم وأوسمتهم!!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ٢ ﴿النَّجْمِ الثَّاقِبِ ٣﴾

٢- ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ٥ ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ٧ ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ جَعِجِهِ لَقَادِرٌ ٨﴾ يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ ٩ ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾

٣- ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ١٢ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ١٤ ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦ ﴿فَهِلِ الْكَاذِبِينَ ١٧﴾ أَمَّهُمْ رُؤُودًا ١٧ ﴿

و لقد أقسم بالسماء: والسماء ذات البروج، والسماء والطارق، والسماء ذات الرجع...»

ولماذا هذه الأقسام السماوية دون غيرها: ورب السماء، ورب الطارق، ورب النجم الثاقب، ورب السماء ذات الرجع...؟

والذي كان يستقبل هذه الأقسام أعرابي، لا يعي إلا ما حوله، كيف يعي ما في السماء؟.

هذا درس من دروس التربية غير المباشرة، لأن للأعرابي تعلقاً بالسماء ونجومها وغيومها وأنوائها وليلها ونهارها، ولأن السماء هي الحكمة الوحيدة التي يرضع منها البدوي، فإذا غرّزت بلبنها، غرّزت رجله في القبر.

وهذا من الاستتلاف التربوي غير المباشر، الدخول على الناس من باب ما يحبون، وما به يتعلقون، لأن لهم مصلحة فيه.

السؤال: لماذا طارق السماء يطرق أدمغة الأعراب الأميين، دون غيرها من الأدمغة كالألمانية أو اليابانية أو الفارسية ممن عندهم شيء من الحضارة...؟

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ القصص: ٦٨.

لأنَّ بهم خصلتين متميزتين على جميع سكان الأرض، أولاهما:
يعشقون العمل التطوعي لله، ويقدمون في سبيله أموالهم وأولادهم
وأرواحهم، وأخراهما:

يرضون بالمكافأة تكون دَيْنًا، وتكون وعدًا، وبعد الممات وفي الدار الآخرة.
وكأنهم بشر من خارج الكوكب الأرضي. وهذا أبو بكر رضي الله عنه عندما
حضرته الوفاة، قال لأهله انظروا ماذا زاد في بيتنا منذ أن استلمنا أمر الأمة،
فوجدوا ثلاثة أشياء: حبلًا من ليف، ووسادةً، وحلساً (بساط) قال: ردها إلى
بيت مال المسلمين، خرج منها صفر اليمين، وهو الوحيد الذي أنفق كل ماله في
سبيل الله، وقعد على الحصير.

ونتابع الجواب عن سؤال: لماذا طارق السماء يطرق أدمغة الأعراب
الأميين، دون غيرها من الأدمغة الألمانية أو اليابانية...؟”

لأنها تستحق الطرق، أدمغة صافية صفاء السماء، وواسعة سعة الصحراء،
راشدة رشود الطير، تهتدي إلى أعشاشها وسط الظلام، في صحراء شاسعة
لا يوجد بها نقطة علامٍ واحدةٍ، أدمغة تختلف عن أدمغة صيادي السمك من
أهل الشواطئ، وأدمغة الشعوب المستذلة، وتختلف عن أدمغة الحضرة الذين لا
يفكرون إلا كيف يصطادون لقمة عيشهم؟ وكأن طارق السماء يقول لهم:

ألا أيها الأعراب هبوا من غفلتكم وسباتكم، وارفعوا رؤوسكم إلى السماء،
واختاروا منازلكم بين النجوم، وتحولوا عن منابت العشب، إلى منابت الكواكب
والكويكبات، إنها لنقلة عظيمة بكل المقاييس، وهي أول نقلة في تاريخ البشرية،
من رعي الأغنام إلى رعي النجوم والكواكب والكويكبات، ومن البحث عن

مساقت المطر ومنابت العشب والشجر، إلى منابت الشمس والأقمار، ويأمرهم
جلّت قدرته وعظمته أمراً: “انظروا في خلق السموات والأرض...” والسماء
والطارق، والسماء ذات البروج، والسماء ذات الرجوع...، ما قال الله لهم: “
انظروا...” إلا وهو ضامن لأمرين:

أولاهما: أودع الله فيهم قوة وقدرة للنظر والاكتشاف والبحث عن المخبوء
الدقيق والسر الدفين.

وأخرهما: الموطن الذي أمر الله عباده النظر إليه، أودع فيه كنزاً مخبوءاً،
ينتظر من يكشف الغطاء عنه، ولن يأمرهم أن ينظروا في مكان فارغ، أو فيه شيء
لا يستحق الجهد.

انظروا في حجم النجوم، والمسافات التي بينها، وفي حركتها، وسرعتها،
ومداراتها، وشدتها، وإضاءتها، وقوى التجاذب، وعددها، والتوازن الحركي...
وستكون النتيجة: العجز عن الإدراك، إدراك.

وكان الله ينبهنا ويحضنا مبكراً، أن نمتلك قوانين وسنن الفضاء، قبل أن
يملكها غيرنا، ومن يملك شيئاً من أسرار الفضاء يملك المال، والعز، والقوة...
وقد فاز بها العالم الغربي اليوم، فبدأ يبيعنا سماءنا، وهواءنا، وشمسنا، وقمرنا من
خلال البث الفضائي...

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾

دارت كلمة “السماء” في القرآن الكريم، مائة وعشرين مرة، وأقسم بها
مرتين في أول سورتين: في الطارق، وفي البروج: “والسماء ذات البروج...”
وجاءت شرطية بعد “إذا” مرتين: “إذا السماء انشقت... وإذا السماء انفطرت...”

ورب السماء وما بناها رفع سمكها فسواها، ورب النجم الطارق الذي يطرق طبقات الجو المغلقة في وجهه منذ الآلاف المؤلفة من السنين... وهذا النجم كان، وما زال طارقاً!

لأمر يريد الله!... ولعل الله قد أذن بمعرفة النجم الطارق الثاقب ومكانته في عصرنا، ولكن لم يحن الوقت لمعرفة دوره، وكشف سره. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ص: ٨٨. عندما تصبح البشرية بحاجة إليه، وترتقي بسلطان العلم للاستفادة من النجم الطارق، يجمع الله بين الفائدة والمستفيد.

والطارق وما أدراك ما الطارق؟ هذا النجم الثاقب من دون كل النجوم؟ ما أقسم الله به إلا لينبئنا إليه، لكي نستفيد منه، عظةً، وعبرةً، وعلماً، وكنزاً، إذا عرفنا، كيف نحلب كل ما هو متاح لنا قبل غيرنا؟

وقال البخاري في تفسيره لسورة البروج: "يقال: كل ما أتاك ليلاً فهو طارق، ويقال: الطارق النجم، والثاقب: المضيء، يقال: اثقب نارك للموقد"^(١) وجاء في موسوعة القرآن والسنة للأفاق: إن النجوم تكبر، وتكبر، ثم تنكمش، وتنكمش حتى تصبح بحجم كرة الأطفال، بما فيها الأرض تصبح بحجم البيضة بعد زوال الفراغات البينية، وتبقى النجوم تحتفظ بوزنها وحرارتها، ولو سقطت على كوكبنا - لا قدر الله - لخرجت من الطرف المقابل، كما تخرج الجمرة من كومة الصوف أو القطن.

ومن أحدث البحوث في هذا التخصص، هذا النجم يرسل نبضات متواترة نوبية متزايدة في شبابه، ثم إذا شاخ يقل تواترها وينكمش حجمه، فمن خلال النبضات يقدر عمر هذا النجم، الذي يكون في شبابه طارقاً، وفي شيخوخته

(١) صحيح البخاري، ٤: ١٨٨٥.

ثاقباً^(١) فكما يبدو لنا، مازال الكلام في المجال الظني.

إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ

جاءت "نفس" نكرة لتشمل كل نفس في هذا الكون، فالبعوضة نفس، والفيل نفس، والإنسان نفس، ولكنها نفس لها حرية الاختيار، وكل نفس في هذا الكون عليها حافظ، يحفظها حتى تبلغ الأجل المقدر لها، وأيضاً لها رسالة تؤديها، فلو غابت من الوجود لحصل خلل، وقد حصل في أواخر القرن العشرين أن العصفور الدوري بلغ مبلغاً عظيماً من الكثرة في شنقيط (موريتانيا) وخافوا منه على موسم الحنطة، وقرروا التخلص منه احتياطاً بالطائرات المروحية، ولكن أبقوا منه قليلاً، ففوجئوا بكميات كبيرة من الحشرات الصغيرة، تكاثرت بشكل سريع، بعد غياب العصفور، فأهلك المحصول كله^(٢)، لقد أدركوا السر، لكن بعد فوات الأوان، ولن ترحل هذه الأنفس حتى تستوفي رزقها المقدر لها، ولولا جنود الله من الحفظة لهذه الأنفس، لانتهد الأمم الضعيفة من الأرض، كالنمل والنحل والبعوض والهدهد....نتيجة لعودي الزمن كالحر والبرد الشديدين، أو تخاطفتها الطير منذ زمن سحيق، وهذه الأمم الضعيفة ستبقى بالحفظ الإلهي إلى يوم القيامة، وسيبقى المؤمنون يرون البقرة، والهدهد، والفيل، والكلب، والذئب.... ويقرؤون سورة النحل، وسورة النمل، وهما أمتان موجودتان معنا على هذا الكوكب، وفيها رمزية وحدة الصف ووحدة القيادة والمجتمعات التي تكون بلا صف وبلا قيادة، بعض الحيوانات خير منها، ولو انقرضت من الأرض كل الحيوانات المذكورة بالقرآن، يكون انفصل القرآن عن الواقع، وسيأتي من يشكك بوجود ما يسمى بالنمل والنحل...، ويقول: هذا كلام من الأساطير.

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، د: راتب النابلسي، ٧٦، باختصار.

(٢) صحف الخليج نشرت الخبر لطرافته.

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ

النفس البشرية واحدة، في ميزان الله ومن أصل واحد، كلكم من آدم، وآدم من تراب، وهذه النفس مكرمة مؤمنة كانت أو كافرة « ولقد كرّمنا بني آدم » ومحروسة من أجل ألا يعتدي عليها ظالم فرعوني، لا يسلم منه شيء حتى يذبح المواليده.

فالله يهدد الطغاة ألا يعتدوا على أحد من خلقه، حتى تأمن الناس على حياتها وتنتشر بعمارة الأرض ولاسيما في حالة انفرادها في الجبال والغابات والبحار والصحاري، حتى ولو كان طيراً، سيأتي يوم القيامة، ويقول يارب!! هذا صادني عبثاً، فلم يأكلني ولم يتركني أسبحك، كما جاء في صحيح ابن حبان، قال صلى الله عليه وسلم: " من قتل عصفوراً عبثاً، عجز إلى الله يوم القيامة، يقول: يارب!! إن فلاناً قتلني عبثاً، ولم يقتلني منفعةً " (١) كل نفس بشرية عليها حافظ، يحفظها ولو من صاحبها، ولا يحق له، أن يجرح نفسه، أو أن ينتحر، وكل صانع لا يسمح لكل عابث أن يعبث بصنعبته.

والله لم يقل: كل الأنفس لها حافظ واحد.. بل قال: كل نفس ولها حافظها، ليقطع الشك باليقين، ويحذر صناع الإجرام حتى لا يأتي أحد الحمقى ويرمي قنبلة على «هيروشيما»... وقبل أن يضغط على الزر يتذكر هناك مسؤولية، وهناك مراقب ومحاسب لكل نفس تقتل ظلماً، وكيف تموت مئات الألوف من الأنفس المسلمة، ولا تعادل نفساً واحدة عند الغرب (٢)، ومن قتل نفساً، فكأنما قتل الناس

(١) رقم الحديث: ٥٨٩٤.

(٢) طيران الجيش الأمريكي ضرب عرساً بقرية أفغانية، وقتلوا، وجرحوا خلقاً كثيراً، وعوضوا القرية بربع مليون دولار أمريكي، وبينما دفع القذافي، دية لكل من كان على متن الطائرة التي سقطت فوق لوكربي التي تسبب في سقوطها القذافي - كما يقولون - دفع دية عن كل واحد من الغرب: ١٠ ملايين دولار، وكل هذا في نهاية القرن العشرين، وبداية القرن الحادي والعشرين. الإنسان أغلى من كل ذهب الأرض، أي إنسان!

جميعاً؟ وهذا غازٍ صهيوني (شاليط) جاء قطعاً لغزة، فقطعته، وجاء صياداً فصادته وأسرته، فقامت الدنيا ولم تقعد، وبكت عليه عيون وعيون، حتى الأمين العام للأمم المتحدة الحالي (بان كي مون) يقول: قلبي يتقطع عليه، وهناك أحد عشر ألف أسير مسلم فلسطيني عند الصهاينة، لا يذكرهم ذاكر، ولا يشكرهم شاكراً، ويصفهم الإعلام الصهيوني، بأنهم سجناء، والسجين بالعادة مجرم، ويصف الغازي شاليط بالأسير!!

والأسير مصطلح عالمي: هو كل فارس أخذ من ساحة المعركة!! والإعلام العربي والإسلامي ببغاوي متابع. يقول عن الفلسطيني: سجيناً، وعن الغازي شاليط،...أسيراً!!

ولأهمية النفس سواء كانت صغيرة كالبعوضة أو كبيرة كالفيل، هي نفس واحدة، ذات قيمة واحدة، واللحم والعظم للوزن فقط، لاتستطيع مصانع الدنيا أن تصنع بعوضة، قوتها ذاتية، ولا يسيطر عليها إلا الذي خلقها، وهي من أكبر مصانع الدنيا، من كثرة المختبرات والأدوات التي تحملها، وهي أول مصنع يطير في الهواء، وكيف لا يحرس مثل هذا الإنجاز البعوضي الضخم، وكل صنعة غالية على صانعها؟!

ولأهمية النفس البشرية أكثر الله حولها الحراسة اللامرئية، وعادة تكثر الحراسة المتشددة حول كل غالٍ ونفيس كالكنوز، والبنوك، وتجار الذهب... ومن هذه الحراسة:

قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ، مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾
الرعد: ١١. منهم من قال: يحفظونه، بأمر الله. أي (الباء) بمعنى (من)، ولعل الأولى: يحفظونه مأمورين أمراً، من أوامر الله بحفظه، وليس من غيره...

وكيف لا يحفظ الله الإنسان، الذي كان قبضةً من ترابٍ، ويد القدرة تولته، وحولته من طور إلى طور من تراب إلى طين... إلى ماء مهين، يخرج منه ماء الحياة المخزن من مخابئه التي صنع فيها وجهاز، وهذا الكائن المنوي يحتاج تصنيعه إلى شهرين، ويقطع مسافة في خطوط الإنتاج ”البربخ“ أربعمائة: كم، وبويضة الأنتى تحتاج إلى شهرين حتى تتكون، ولا تجلس في التخزين إلا قليلاً، فتهلك وتنزل حيضاً شهرياً، مراحل معقدة وطويلة حتى أصبح بشراً سوياً، ينتج بشراً مثله في أحسن تقويم.

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾

يأمر الله الإنسان أمراً أن ينظر نظرتين:

واحدة للاعتبار بهذه العظمة، والقدرة على تخليق الإنسان من ماء مهين، وسيتحول الماء إلى عظام وعضل ولحم وعصب ودم وشبكات شرايين، وشبكات أعصاب، وشبكات وأوردة و... مما يدعو الإنسان للإيمان والسجود والاقتراب من الله.

ونظرة أخرى للمعرفة الطبية العلاجية من أجل تأمين سلامة خطوط الإنتاج البشري، لأن كل مؤسسة من المؤسسات الهامة، لها ورشة صيانة، والآية ذكرت للأطباء نوعية البذرة، ”خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ“ وموطن تكوينها، وخط سيرها ”يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ“ وهذه البشرية وُجِدَتْ لَتَبْقَى، وعلى سبيل المثال: مسألة الولادة فطرية تتم في العالم الفطري كالأرانب...، بلا قابلية قانونية ولا مستشفى للولادة، إلا في عالم البشر زيادة في التكريم، هياً للبشرية ولادة تليق بها، وهناك من يستقبل المولود، ويرحب به، ويؤذن بيميناه، وقيم الصلاة يسراه. إنها العناية الإلهية تتلطف بالإنسان!!

الإنسان هو الخليفة، سيد في نفسه، وسيد في هذا الكون؟.

مسلسل خلق الإنسان من التراب إلى الترائب إلى الإنجاب إلى الموت...
تضافرت طاقات هائلة في هذا المشوار مابين خلقه، وتصنيعه، وحراسته من
عوامل الكون، وكذلك حراسته داخلياً، أي حراسة كل عضو فيه، وعلى سبيل
المثال لما تتوقف كُليَّة عن العمل، حالها كأنه يجبرنا: إن الملائكة الموكلين بها إمَّا
أخذوا إجازة، وسيعودون بعد فترة علاج العضو، أو أنهم أعفوا من الخدمة
نهائياً، ومات العضو إلى يوم القيامة.

وهنا تقوم حزمة من الأسئلة، لماذا خلق الله الإنسان، وكانت تكلفة خلقه
عالية جداً؟ وما المأمول منه؟ الإجابة: أن يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله
ولو لمرة واحدة، وسيستدعى يوم القيامة ليُسأل عنها؟

إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ قَالَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

سهولة إرجاع الإنسان، بعد أن أصبح ربماً بالية، كسهولة إرجاع ذرات
الحديد المبعثرة في التراب حول قطعة المغناطيس، تأتي الفلزات بنفسها، وكما
جاءت طيور إبراهيم عليه الصلاة والسلام، عندما أخذ أربعة من الطير مختلفة
الأجناس والأشكال، وخلطهن خلطاً عجيباً، وترك الرؤوس بيده، وذهب
بعيداً، فدعاهنَّ، فتجمعت العظام أولاً، ثم تجمع اللحم، ثم الريش، ثم الدماء،
فجئن ساعيات مسرعات بلا رؤوس، وكل منهم قد عرف رأسه: ﴿ وَإِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَئِن لَّا يَظْمِنَنَّ قَلْبِي قَالَ
فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ
يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ «البقرة: ٢٦٠»

وقال ابن جريج والسدي: جزأها سبعة أجزاء ووضعها على سبعة أجبل،

وأمسك رؤوسهن ثم دعاهن: تعالين بإذن الله تعالى، فطار كل عظم وعظيمة إلى جنسه ومكانه المخصص بالهيكل، وكل بضعة لحم تصير إلى مكانها في العضلات، وكل ريشة تطير إلى موضعها، وكل قطرة دم تطير إلى صاحبها، وإبراهيم ينظر، حتى تجمعت الأجزاء والتفاريق في الهواء بغير رأس ثم أقبلن إلى رؤوسهن سعياً حتى التقى كل طائر برأسه فذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ قيل المراد بالسعي الإسراع والعدو، وقيل المراد به المشي دون الطيران كما قال الله تعالى ﴿فَأَسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الجمعة: ٩) أي فامضوا، والحكمة في المشي دون الطيران كونه أبعد من الشبهة لأنها لو طارت لتوهم متوهم أنها غير تلك الطير وإن أرحلها غير سليمة والله أعلم. وقيل السعي بمعنى الطيران^(١)، وهذا النقل غير الموثق، خارج منهجنا وإنما ذكرناه للاستئناس.

سيرجه الله يوم تمتحن السرائر، ويكشف المستور، ويظهر المفسد من المصلح، والمنافق من المؤمن، وكم من منافق خدع المسلمين بأنه من الصالحين، ويحدثهم رؤيا رآها للصالحين، وبعد بضع سنين يكشفه القدر بأنه خبيث النفس. أو قد يموت ولا ينكشف إلا يوم تبلى السرائر!! وكم من خائن لأهله، يموت وهو غير مكشوف؟

وفي أواخر القرن العشرين أختطف طائفة ركاب من بانكوك إلى الجزائر، ونشر الإعلام أخبار أسماء الركاب، وواحد منهم زعم لأهله: بأنه ذاهب للعمرة، وكان يتصل يومياً بأهله قائلاً لهم: الآن خرجت من صحن الطواف ودعوت لك، ولك، لكما، لكم... وكان هو في مستنقع الرذيلة، وبنفس الطائفة أمثاله كثر، كصاحب العمرة... يوم تبلى السرائر!!

فَأَلَّهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ

(١) تفسير البغوي - (ج ١ : ص ٣٢٤)

كل ظالم غني وقوي، وله أنصار، يمدونه بالقوة، لذلك أول ما تسلب منه قوته، ولا يجد فزعة من أحد لأن الكل مشغول بنفسه، وتتباعده عنه جوارحه، وتحاصمه، وزيادة على ذلك تشهد عليه وتفضحها، ولكن في الآية تهديد مبطن لشريحة الظلمة وأعوانهم، الذين يصدقون بالمال على ضعاف النفوس، ويجولونهم إلى أزلام حراسة، فيستخدمونهم للدفاع عنهم، وينصرونهم مرّات ومرّات، لذلك يطمئن الظلمة لهذا الناصر الجاهز (الشيحة)^(١) فيأتي يوم القيامة، فتكون المفاجأة، لا قوة ولا ناصر إلا الله.

وللشيخ محي الدين بن عربي لطيفة: الدنيا دار تكليف، والشرع يراعي أحوال الناس، ولا يأخذهم إلا بالظاهر، وفي الآخرة لا يحاسبهم إلا بما في السرائر. بتصرف.

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّعْعِ ﴿١٢﴾

يصف الله لنا السماء والأرض وماهية كل منهما، بكلام جامع مانع، لأن الواصف هو الصانع، وكأن الله يخاطب فطرة الأعرابي، قائلاً له: أنت تعيش بين دفتي كتاب: السماء دفة، والأرض دفة، وأنت المحتوى لهذا الكتاب، وأنت سيد في نفسك، وسيد في هذا الكون، والله الذي وعد الناس، وبشرهم، وأعلى قدرهم، قال: «خلق لكم ما في السموات والأرض» وقوله تعالى: ﴿الْعَرَّتْ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ الحج: ٦٥. وقوله: «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً» ٢: ٢. وقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ النحل: ٥. حصراً «لكم» لا لغيركم، وحظ الأعرابي _ آنذاك _ من السماء الماء والشمس، وإجابة الدعاء، وحظه من الأرض استقراره ولقمة عيشه مع أغنامه، ولكن كلما تقدم العلم،

(١) مصطلح سوري شعبي أطلق على الذين وقفوا بجوار الأجهزة الأمنية يتصدون للناس المطالبين بالحرية، ربيع ٢٠١١م ويقال لهم بمصر: بلطجية.

ارتقت البشرية في قراءتها للسماء والأرض، وفي كل يوم يولد شيء جديد، ما كان يعرف بالأمس، فحظنا اليوم من:

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ: الماء تنزل منها، وترجع إليها، ومثلها الأكسجين، والكهرطيسية... وزمن الدعاء زمن رجوعه، زمن الإجابة، أي انعدم الزمن

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝

كما جاء في موسوعة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، د - النابلسي، وباختصار:

فالسما مليئة بالنجوم والكواكب والكويكبات، وكل يدور في مساره الخاص، ويرجع من حيث انطلق وهكذا. إذاً كلها ذات رجوع.

ورأي آخر: الماء له دورة، والأكسجين له دورة، والأمواج الكهرطيسية لها دورة، فالماء يتبخر ثم يرجع من السماء، والأكسجين يستنشقه المستنشقون، فيحول إلى غاز فحم ثم يأخذه النبات، فيرجعه أكسجيناً، والأمواج الكهرطيسية تصعد إلى السماء فترجع إلينا تحمل البث الفضائي، وكل ما يصعد من الأرض، يرجع إليها، والسماء ذات الرجوع.أ، هـ.

كل هذا الكلام من المعقول والمحسوس والمتنافس عليه عسكرياً واقتصادياً... ولكن الأهم، والأعظم: لو اجتمع الملائكة والإنس والجن والدواب والنبات و... على صعيد واحد، ودعوا الله بضم واحد وبمسائل مختلفة لكل واحد منهم مسألة تختلف عن الآخر، سيكون رجوع الإجابات كلها، هو زمن الدعاء!! أي، انعدم الزمن!!

أي رجوع؟ وأي صدع هذا؟

وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ

حولها عدة رؤى منها:

الأرض ليست قطعة أو كتلة واحدة، بل بها صدوع طولية وعرضية معروفة ومتحركة كألواح الخشب...

ورؤية ثانية: لو جاءت العبارة: والأرض المتصدعة، أو المصدوعة أو المنصدعة... كان الصدع في موضع معين، وبقية الأرض صلدة صوانية، بينما وصفت الأرض بأنها ذات الصدع، أي حقيقتها وماهيتها وقابليتها للتشق والتوسع وإفساح المجال لكل ما يدق فيها، ويغرس فيها، حتى جذير النبات وهو ضعيف رقيق مائي، يفسح الصخر له بالمكان. من أجل عمارة الكون.

وصدعته، فانصدع، مثل: شققته، فانشق، وصدعتهم فتصدعوا، فتفرقوا، وقيل هذا هو ما توحى إليه الآية: «فاصدع بما تؤمر» أي بالتوحيد شق جماعتهم وأفكارهم^(١).

هذا الكلام الجامع المانع، لأنه من الصانع، ولو اجتمع الفلاسفة كلهم وأرادوا أن يصفوا الأرض وصفاً دائماً بكلمتين، لن يجدوا الكلمتين، لهذا الموصوف، والأصل أنها متماسكة، لكن رسالتها التصدع أمام حاجة الإنسان لصدعها، يصدعها الوتد الذي يربط الإنسان البدائي به دابته أو خيمته، ويصدعها حفار البئر، وحفار القبر... ومن يغرس بها قواعد البنيان، ويصدعها جذير النبات على ضعفه، لأنها هي التي تنصدع وتوسع له المكان حتى في الصخر الأصم، وإلا يستحال على ضعيف كالجذير يشق صخرًا قوياً...

ومن حيث الوصف الخارجي إن الأرض كانت قطعةً واحدةً، فتصدعت

(١) مقتبس من المصباح المنير، للفيومي، تحقيق: د: الشناوي، بتصرف.

خمس قارات، وجبالها تتصدع أمام حث العوامل الخارجية، والصخر يتصدع إلى فتات، وكل ما عليها يتصدع.

ومحور القسم في هذه السورة إثبات يوم القيامة:

ورب السماء، ورب النجم الطارق، ورب السماء ذات الرجوع، ورب الأرض ذات الصدع، إنا على إرجاع الإنسان كما هو، يوم القيامة يوم تبلى السرائر، وهذا قسم فصل، ووعد حق.

إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٍ ﴿١٤﴾

إنه قول فصل، ليوم الفصل، الذي يفصل فيه بين الظالم والمظلوم: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴾ المرسلات: ١٤. يوم يقال للمنكرين: ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ الصافات: ٢١. ويتابع التهديد والوعيد للمنكرين: ﴿ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأُولَىٰ ﴾ المرسلات: ٣٨.

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾

يحكمون الكيد حتى لا يبقى بينهم وبين تحقيق الهدف إلا ضربة معول واحد، فيتفجر ينبوع، ولكن الكلمة الأولى والأخيرة في هذا الكون لله، ليس بين فرعون وبني إسرائيل إلا مسك اليد، أو كما قال مجنون ليلي:

فأصبحت من ليلي الغداة ققابض.... على الماء خاتته فزوج الأصابع

والكيد: الأخذ بالمضرة على خفاء، ونستطيع أن نسميها بلغة اليوم: حرب ما وراء الكواليس، وكأن الله يريد تسلية نبيه صلى الله عليه وسلم، وورثته من أهل العلم، بأن الكيد بكل صورته وأشكاله سيستمر يمارس عليكم، وخصومكم متفرقون في كل شيء إلا في الكيد على الإسلام، فإنهم يجتمعون عليه اليوم، وغداً،

وهذا قدر الله عليكم، وأرباب الكيد ظاهرهم الرحمة، وباطنهم العذاب. والكيد لا يصنع إلا في الخفاء والسرية الكاملة، ومجرد أن كُشف الكيد على الناس، احترق، ولكنه مكشوف على الله وملائكته ورسوله وصالحى المؤمنين، فهو محترق أصلاً، ولو رأينا مؤمنين أخذوا بالكيد، ففي نفوسهم وصفوفهم خلل، كما حصل يوم غزوة «أحد» لقد صارحهم الله بالخلل: «قل هو من عند أنفسكم» ومن لطائف الشيخ محيي الدين بن عربي: وكاد من أفعال المقاربة، نحو قوله تعالى: «يكاد زيتها يضيء» قارب الإضاءة، وكيدهم قارب تحقيق هدفهم...أه^(١)

ويداوى الكيد بأمرين: الصبر، والتقوى، قوله تعالى: «وإن تصبروا وتتقوا، لا يضركم كيدهم شيئاً» ٣: ١٢٠
وَأَكِيدُ كَيْدًا

ويتعاونون على الكيد: ويكيدون كيداً، وأكد كيداً. كيدهم تعاوني جماعي استمراري، يقابله كيد الله وحده المطلق على سرائرهم، وما تخفي صدورهم، وتنتظرهم مفاجأة الصدمة، إنما كانوا يجرون وراء السراب، كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّيْتُهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ «النور: ٣٩»

ويتجلى كيد الله في ثلاث حالات:

إحباط كيد الكائد وإفساده، من أول الطريق حينما تكتشف مكيدته وتفتضح.

تأييد من الله لمن يكاد بهم، وينصرهم على أعدائهم، ككيد إخوة يوسف مع يوسف.

(١) تفسير الشيخ ابن عربي...، ج ٤-٤٨٢. بتصرف

تدبير الله لأموال الصالحين من عباده، كقصة كَيْد واقعية، عندما قدموا لضيف ما كأس شراب مسمومة، لكن القدر هياً الأسباب وحُرَّكت الصينية، فأخذ الكائد الكأس المسمومة، فمن حفر حفرةً لأخيه وقع فيها، « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ومات فيها، مع التكتّم الشديد لأنها مسألة سياسية، والعرب تقول: الأجل خير حارس.

استدراج الله للطغاة والمجرمين، يمدّهم مدّاً طويلاً، وإذا أخذهم لن يفلتوهم. وفرعون نموذجاً.

فَهْلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلَهُمْ رُوَيْدًا

مهّل: مبالغة في التمهيل، وأمهلهم: توكيد معنوي لمهل، ورويداً: مفعول مطلق، نائب عن المصدر، للتوكيد.

هذه الجملة جاءت في سياق خاص، سياقها الحزم والعزم

« قول فصل، وما هو بالهزل، إنهم يكيّدون كيداً، وأكيد كيداً، فمهّل الكافرين، أمهلهم رويداً »

إن الله غالب على أمره، ولكن ينتظر الأجل المتبقي لهم، والطعام والشراب والهواء المخصص لهم، عندها تدق ساعة الصفر، فرعون وآله وحكومته وجنوده، غمسهم كما تغمس الإبرة بالبحر إلى الأبد، وقوم عاد وثمود دسهم بالرمل كأنهم عقب سيجارة إلى الأبد، هم غابوا، وخابوا، والدين وأهله، يزيدون، ولا ينقصون، يكرمون، ولا يهانون...

ويشي النص بالقول للنبي: اتند في سيرك ومسائرتك للكافرين، بالترث والتصبر حتى ينتهي الأجل المقدر لهم، ولكل أمة أجل، وغداً، يتلاومون على

استنفاد التمهّل والتريث، فيقولون: ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا ﴾ الأنعام: ١٢٨.

وعلى العاملين بحقل الدعوة، ألا يستعجلوا الأمور، ويقرأوا هذه الآية، التي يأمر الله فيها نبيه صلى الله عليه وسلم، وهو من أحلم الناس، وأصبر الناس، وأهدأ الناس، يأمره أمرين بالتمهّل!! وأكثر مصائب العاملين بالدعوة من نفاذ صبرهم، وعدم معرفتهم في كيفية التعامل مع السنن الكونية، فمعظم ولاداتهم يريدونها قيصرية وفي منتصف الحمل. ومن المسؤول عن هذه الدماء والأرواح؟!!

لأن الأمور مرهونة بأوقاتها.

سورة الأعلى مكية، وآياتها تسع عشرة

آية، وترتيبها بالقرآن (٨٧)

وفي التنزيل المكي (٦٨)

وجاء استهلال السورة بفعل أمر "سبح..." لما فيه من شحن للطاقة الروحية، التي لا يعرفها إلا الرابانيون المجربون، كون هذه الطاقة الخاصة لا تباع، ولا تقرض، ولا تورث، وفي التسبيح سر آخر "تأمين ضد الحوادث" وهذا إمام المسيحين يونس عليه السلام نموذجاً لذلك.

وأول من سَبَّحَ، وسَبَّحَ في جوف مسبح وسابح هو يونس عليه السلام.

والحروف الثلاثة كدواء مركب ثلاثي: «س. ب. ح» ثلاث حالات تطرأ على السابح، في الهواء أو الماء فيمر سريعاً خطفاً، فلما يُعمر السابح بالماء، ويخف وزنه، ويرتفع فوق سطح الأرض، فالمسبح لله، له هذه الخصائص الروحية. كناية عن سرعة المسبح في تنزيه ربه والوصول إلى رضاه.

فالله أرسل محمداً ﷺ بـ (اقرأ) وتعبده بقيام الليل وكثرة التسبيح «ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم» (يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً...) وبعدها صار توازن بين القراءة والعبادة، ثم قال له: قم، فادع، (يا أيها المدثر* قم فأنذر...) ومعظم دعاة الساحة أراحوا أنفسهم من قيام الليل، أو نصفه...، ومنهم بعد التخرج أراح نفسه من القراءة، واكتفى بمظهره، ومحصلتهم بلا تأثير، ولا تغيير في أسرهم قبل غيرهم، لأن كلماتهم خلية.

وسميت "سورة الأعلى" فلا يتوهم متوهم، هناك عالٍ، وهناك أعلى منه، لا معادل، ولا مفاضل، لله، ولكن الأعلى، الذي ما بعد علوه، علو.

جاءت سورة الأعلى بخمسة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١- ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝٥﴾
- ٢- ﴿سُنُقِرُكَ فَلَآ تُنْسَى ۝٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝٧ وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى ۝٨ فَذَكَرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۝٩﴾
- ٣- ﴿سَيَذَكَّرُ مَن يَخْشَى ۝١٠ وَيُنَجِّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝١٣﴾
- ٤- ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝١٥ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝١٧﴾
- ٥- ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۝١٩﴾

سورة النشيد الكوني، أو التسبيح الكوني، أو دقات القلب الكوني، وإن من شيء إلا يسبح بحمده، وكل في فلك يسبحون، ويسبِّحون!! وأول من سبح، وسبح في جوف مسبح وسابح هو يونس عليه السلام.

إنها سورة الأعلى... الذي ما بعد علوه علو. هناك عظيم وأعظم، وكريم وأكرم، أي أفعل التفضيل، ولكن بأسماء الله وصفات الله الوزن واحد، ولكن بلا مفاضل (كالأعلى - والأكبر...) فليس هناك علو يقاس عليه أو يدانيه، وليس هناك كبير يقاس عليه أو يدانيه، لا معادل ولا مفاضل لله.

هو الأعلى في الخلق والإبداع، والأعلى في تسوية الصنعة، والأعلى في التقدير

والهداية، والأعلى في إخراج النبتة من الصخرة الصماء، والأعلى في جعل الأرض مروجاً ومراعى، والأعلى في الإقراء وتثبيت المعلومات فلن تنسى، والأعلى في سماع أصوات الداعين بألسنة مختلفة، يعلمها، ويحفظها، ولحظة النطق بها هي لحظة الإجابة عليها، والأعلى في سماع أخفى الأصوات، وإجابتها قبل أن تحاك في الصدر، والأعلى في القدرة والعظمة والعفو والصفح والكرم والجود....

سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾

أمر ربنا رسول الله أمراً بالتسبيح ست عشرة مرة بالقرآن، وهي ما بين: سبح، وسبحه، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴾ ق: ٤٠. وكلها المأمور بها سيدنا محمد ﷺ بشكل فردي، وينتقل الأمر لأُمَّته، بينما لم يأمر الأمة بالتسبيح جمعاً إلا مرتين:

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ مريم: ١١ ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ الأحزاب: ٤٢. وهناك سبع وعشرون صيغةً، ما بين ماضٍ ومضارع، ومصدر، والجذر واحد، كلها تدفع نحو معنى: السباحة، والجري، نحو: سَبَّحَ، يَسْبُحُ، سَبَّحًا، وسباحة، المهم: السابح في الماء، والسابح في الهواء، والسابح في الذكر كلهم مغمور برحمت الله، وعناية الله تحيط به، وترعى العوالم السابحة.

والوحي حدد بدقة كل ما في الكون سابح ومسبح، قوله تعالى: " وكل في فلك يسبحون " يس: ٤٠. وكل موجودات الكون تسبح: " وإن من شيء إلا يسبح بحمده " فهذا الصلاة الكونية، والنشيد الخالد، حتى الملائكة تسبح بحمده، بقولهم: " ونحن نسبح بحمدك... " ٢: ٣٠. ولا يتخلف شيء حتى الحصى والحجر والطير والشجر، وهو صلة الرحم الإيماني بين كل العوالم المنظورة، واللا منظورة!؟

ودليلنا على صلة الرحم الإيماني بين كل موجودات الكون، آكلات اللحوم في البر والبحر، تأكل كل لحم، ولكنها تتوقف عن أكل المسبحين حقاً، فتخدمهم بدل أن تأكلهم، كما هو الحال بين الحوت ويونس، إنها صلة الرحم الإيماني، وهل يأكل مسبحٌ مسبحاً؟!^(١)، وهذا الحصان نصر النبي ﷺ ووقف بجانبه عندما سبح بين أصبعيه والعرب ترى وتسمع، وقصص السباع مع الصحابة والصالحين طويلة، تجدها في مظانها.

سبح اسم ربك الأعلى الخلاق الذي لا يزيد أحد عليه، أو يعدل في صنعته وفي تقديره وهدايته، وقدرته في حفظه للحبوب وتخزينها سنيناً في باطن الأرض، ثم تخرج بإذن ربها تشكل معرضاً لكل أنواع النبات والزهر ومسبحاً.

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۚ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۚ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۚ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى

الله الذي خلق الجماد والنبات والحيوان والإنسان، بدون أن يتعلم أو يقتبس من غيره، لأنه الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، فما من أحد سبقه حتى يقلده، فالخياط الناجح في خلق القميص وتفصيله، لقد تعلم ممن سبقوه، وزاد عليهم، بينما خلاقية الله عندما خلق طيراً أو حصاناً أو إنساناً، فهو الذي أبدعه على غير مثال، بعد أن لم تكن، نأخذ مثلاً من عالم الطير:

(١) في تسعينيات القرن الماضي أبحرت باخرة مصرية من (جدة) وعلى ظهرها ١٥٠٠ حاج ومعتمر وعامل من مصر، إلى الموانئ المصرية، فشقتها الشعب المرجانية من الأسفل، وامتلاّت بالماء، وغرق معظمهم في البحر الأحمر، وصار البحر ذلك اليوم أحمر حقاً من كثرة الدماء، ومتوسط عرض البحر الأحمر ٢٠٠ كم. وبعد ثلاثة أيام، وصل لتوه إلى الشاطئ المصري، عجوز صعيدي لا يعرف السباحة، وما زال حياً يقول: كان يتخبط وإذ بدابة ترفعه من الأسفل، وتمضي به، وكان يقرأ القرآن ويصلي على ظهرها، وكان يشعر بسعادتها، أو تعاطفها، أو سرورها عندما يقرأ القرآن.... وكان الخبر مادة صحفية طريفة في الإعلام الخليجي آنذاك.

تسعة آلاف أمة من الطير، ولكل منهم رسالة تخصه.

هناك طير من بين تسعة آلاف نوع من أنواع الطيور، يسمى: نقار الخشب . هذا الطائر تركيبه وتكوينه وقدراته تفوق الخيال، ولا يصدقه العقل، له مخالب قوية وكأنه ملزمة خشبية، تمكنه من الثبات على الساق، وتعطيه أرضية صلبة، وله منقار مركب من خلطة عجيبة حتى يصبح كالإزميل، أو مثقب الخشب، وزود بعضلات في رقبة قوية وشديدة من أجل الاستمرار في الضرب الإيقاعي مهما كانت نوعية الخشب صلبة، حتى يصل إلى دودة في لب الشجرة، والذي يحير العقل، من الذي علمه في داخل الشجرة حشرة، وحدد له مكانها، وارتفاعها، وأقرب نقطة من اللحاء، وجاء الثقب بإتجاهها؟^(١)

خلق فسوى أي كل كائن وعضو سواه وكمله وكل قطعة في هذا المخلوق، لن يأتي زمن ويثبت أن فيها نقصاً في الهندسة والتصميم والتشغيل والحجم.

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ

الله الذي قدر حجم كل مخلوق وحدد مهمته، وهده إلى دوره في هذا الوجود، لنأخذ- مثلاً - الحمام، ومهمة الحمام، وهدايته إلى هدفه، عندما استخدمه الهولنديون يوم كانوا في جزيرة سومطرة، وقطع سبعة عشر ألف كيلو متر، كمراسل بريدي، فقامت نظريات حول هذا الحدث، منهم من قال: معالم الأرض تنطبع بذاكرته، فنقضت هذه النظرية، بعدما عصبوا عينيه ووصل الهدف، وفرضية ثانية: يهتدي لهدفه كونه يشكل مع الشمس زاوية ما، فأطلقوه في الليل فوصل الهدف، وفرضية ثالثة: يهتدي لهدفه لأن في رأسه راداراً يوجهه، فجعلوا على رأسه جهاز تشويش، فوصل الهدف، وفرضية رابعة: يهتدي لهدفه

(١) موسوعة الإعجاز العلمي، د: النابلسي، باختصار، ص: ٣٧١.

عن طريق الساحة المغنطيسية في الأرض، فجعلوا في رجليه مايشوش الساحة
الممغنطة، ولكنه وصل الهدف... ويبقى السر عند الله الذي: قدر، فهدى...
وحملوا اللحم بطائرة في قفص مغطى، ولا يرى شيئاً في الاتجاهات الأربعة،
وبعد خمسة آلاف كيلو متر، أطلقوه، فعاد إلى موطنه بعد عشرة أيام... ويبقى
السر عند الله الذي: قدر، فهدى...

فالعلمانيون يسمون هذه الظاهرة: الغريزة، والمؤمنون: هداية الله: الذي
قدر فهدى... وثبت بالتجارب العلمية، أن كثيراً من الحيوانات الطليقة، إذا
مرضت، تأخذ من نبات ما، وبدون سابق تجربة، فتشفى^(١)

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى

وكانه يقول: انظروا إلى آثار رحمة الله

لقد ذكر المرعى لأن للأعرابي مصلحة فيه لمواشيه، وليت الدعاة يستفيدون
من هذا التوجيه، ويخاطبون الناس على قدر عقولهم وحاجاتهم، بعيداً عن
التهويم والمثاليات.

ومن آيات الله أنك ترى الأرض هامدة على مد البصر لبضع سنوات، ولا
ترى فيها أخضر ولا أصفر، وكل ما فيها هامد وميت، وكأنها بقعة من الأرض
كتب عليها الموت، من دون أرض الله، فإذا ما نزل عليها الماء اهتزت وربت

(١) كنت عائداً من العمرة، فأخبرني الأولاد أن كلب الحراسة مريض هامد منذ كذا، وكذا، فقلت لهم
أطلقوه، وجلست أراقبه، وأتابعه، فبدأ يفتش مسرعاً بين النباتات المحيطة بمنزل المزرعة، وكأنه
فقد شيئاً، فأخذ من نبات معين شيئاً قليلاً، ثم بدأ يبحث، وعاد إلى نفس النبتة، ثم عاد يبحث،
ورجع إلى النبتة... وبعد ست ساعات بدأ، ينددن قليلاً... ويريد الطعام. ولم يمض يوم كامل، حتى
صار مزعجاً. كنت قرأت بحثاً علمياً مفاده الحيوانات تحدد مرضها، وعلاجها، أي تجمع بين الطب
والصيدلة. وطبقته هنا. فنجحت التجربة. فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه، فهدى.

وأنبتت من كل زوج بهيج، فيحار النظر على أي لون من الزهر يقف ويتأمل،
ويطيش العقل على أي صوت من أصوات الطير يسمع، وجاءت أسراب من
الفراش والطير من مختلف بقاع الأرض، تشهد صلاة العيد في هذه البقعة التي
تجلت عليها رحمة الله. وكل ما فيها يقول: انظروا إلى آثار رحمة الله!!

والسؤال أين كانت هذه البذور طيلة المدة؟ ومن المعلوم أن البذور المخزنة
في المستودعات، تحتاج إلى تعقيم مستمر، ورطوبة معينة، وتهوية...والفساد
متربص يحوم حول المستودعات دائماً.

بينما هذه البذور تبقى مدفونة في جوف التربة. وليس في مخزن أو مستودع،
وعلى عمق معين، وكم لها من السنين مدفونة؟ وهي حية تتنفس في قبرها،
وتنتظر يوم النشور الخاص بالنبات.^(١)

علماً فترة الجفاف هي فترة تدمير وتفتيت وتعرية حتى الصخر الأصم
يتشقق وينطحن، وتبقى البذرة أي بذرة محتفظة برُشيم، وجذير، وسويق،
ومحتفظة بالغذاء، وقد يموت بعضها، وبعضها ينتظر إلى يوم المطر القادم يوم
النشور، وكأن ملكاً عنده صور ينفخ بالنبات، فإذا هي حدائق من نبات شتى.
قائلين: سبحان من بعثنا من مرقدنا هذا!!

(١) في الخمسينيات من القرن العشرين جف «نهر الذهب» الذي ينبع من مدينة الباب شرقي حلب
بأربعين: كم، ويصب في مملحة الجبول، وفي أول السبعينيات كثرت الأمطار وعاد نهر الذهب
يجري على استحياء، ولكن بدءاً من قرية عران إلى الجبول فترة ربيعية ثم جف، والعجب من عودة
النباتات والورود من مختلف الأشكال عادت حية، والأعجب من كل هذا وذاك، عودة الأسماك
والصفادع... وكلها صغيرة وناعمة، من الحيوانات التي كانت موجودة سابقاً... وبقيت في حيرة،
من أين جاءت؟ لعلها متصلة بحوض مائي جوفي، لعلها، ولعلها...؟؟؟
حتى رأيت حلقة تلفزيونية غريبة مدبلجة، يقول: تتكرر هذه الحالة في أنهار أوروبا الصغيرة وغيرها،
مما تجف في فصل الصيف، وتجري في الربيع، وخلاصة البحث: إنها البيوض تبقى في الأرض، حتى
إذا جاءها الماء دبت فيها الحياة!! فسبحان الحي الذي لا يموت!!

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ

الإعجاز في تبدل اللون من أخضر إلى حَوَى أي مال إلى السواد وتحول العود من طري إلى يابس، ومن أخضر إلى حَوَى خفيف، وأصبغ الله ثابتة، ويزكي الله ذلك في التنزيل: «صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة، ونحن له عابدون» ١٣٢: ٢. مهما غسل صوف الخروف بكل مزيلات الألوان يبقى الأسود أسود والأبيض أبيض، بينما صبغة البشر خيط (النيلو) يكون الصباغ على السطح الخارجي فقط دون جوف الخيط، فمزيل الألوان من المرة الأولى، يمسخه، فبقدره الله يتحول المرعى الأخضر إلى حوى ثم إلى غثاء تذروه الرياح، وكل تبنّة أو قشّة خالط سواد الفناء خضرتها فسودها وحوّاها، والحوّة: خُضرةٌ تضرب إلى سوادٍ، أو سوادٌ يضرب إلى خضرة^(١)

وهو تشبيه لدورة الحياة الدنيا، تكون خضرة نضرة، ثم تمضي إلى الفناء، فلا داعي للغرور وطول الأمل.

فما العلاقة والسر الخفي بين هذه المتباعدات، جاء الاستهلال سبح... ثم ظهرت قدرة الله في الخلق والهدي ثم إخراج المرعى، ثم إقراء الله للنبي صلى الله عليه وسلم والتعهد له بحفظ ما يقرأه...؟

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ① الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ④ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ⑤ سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ⑥

استدعى هذه الصيغة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حفظ القرآن الكريم، فأمره الله بالتسبيح فحسب، ويترك تدبير الأمر لله!

ونبهنا الله على تسويته لكل ما خلق، وتمام كماله خلقه، وهدى كل مخلوق لما

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

خلق له، ولسان حال القدر: مادام كامل خلقنا في النحلة، وهُديت إلى رسالتها،
فكيف لا نكمّل رسلنا وأنبياءنا!؟

وهذه البذرة في باطن الأرض مدفونة منذ بضع سنين نحن لا ننساها، ولا
هي تنسى رسالتها، وتحفل الأرض من كل زوج بهيج!؟ فكيف ننسى نبينا؟
وينسى ما نقرّئه، ونحفّظه إياه؟

سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ ١ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ ٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ ٣ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ ٤
فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝ ٥ سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنسَى ۝ ٦ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝ ٧
وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۝ ٨

فرق كبير بين: سأقرئك، أنا، وسنقرؤك نحن، إن الله تسعاً وتسعين
اسماً، ولكل اسم قوة وقدرة تتحقق فيه، بجموع هذه الأسماء، وبمضامينها،
سنقرئك... ، فلا تنسى.

ولعل سائلاً يسأل، مادام هو أميًّا، ماذا سيقراً؟

ما قرأ يوسف عليه السلام من ورقة، عندما رأى أحد عشر كوكباً والشمس
والقمر، ساجدين له؟ وما قرأ ملك مصر سبع بقرات سمان... الخ من ورقة؟
النظر في السطور قراءة، وفي السموات قراءة، وفي الأحداث قراءة.

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝ ٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۝ ٨

ولعله في هذا الاستثناء فرّق بين محمد النبي صلى الله عليه وسلم الذي
يستحال عليه النسيان من أمر الوحي والرسالة، وبين النسيان أو السهو
التشريعي، ولقد سها في صلاته وسجد للسهو أكثر من مرة، وتفصيل ذلك في
كتب الفقه، وبين محمد صلى الله عليه وسلم الأب، والزوج، والآكل الشارب...

يطرأ عليه ما يطرأ على البشر بالعموميات كالولادة والموت.
ولو تكلم أهل الأرض دفعة واحدة بكل لغات الأرض وبمختلف العلوم،
أو أخفوا ما في نفوسهم من خير أو شر، أحصاه الله كله، وعلمه كله.
وفي هذا تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم، وكأنه يقول له: لا تحزن، فإنك
بأعيننا“

فَذَكِّرْ لِن نَفَعَتِ الدِّكْرَى ٩

والملاحظ الدقيق: لقد أمره الله بالتذكير وليس بالتعليم، والتذكير يكون
لأمر يعرفه الإنسان من قبل، وربما نسيه لطول الزمن، والتعليم لأمر لا يعرفه من
قبل، ومهمة رسول الله ﷺ يذكرهم بالعهد الذي أخذه الله عليهم منذ أن كانوا
في ظهر آدم. " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى !! شَهِدْنَا... أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِنَّا كُنَّا عَنْ
هَذَا غَافِلِينَ «الأعراف: ١٧٢»

وبالكشاف: ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته،
وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة
والهدى، فكانه أشهدهم على أنفسهم وقرره وقال لهم: ألسنت بربكم؟ وكأنهم
قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا وأقرنا بوحدانيتك. وباب التمثيل
واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، وفي كلام العرب“

سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى ١٠

سيذكر من يخشى، لأن الخشية ثمرة المعرفة والعلم والخوف « إنما تنذر
من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب... ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

فاطر: ٢٨. فالعلم شرط بالخشية، فالطفل يعبث بالكهرباء، ولا يخشاها، وبعد فترة يخشاها ويحذرهما، لأنه علم، وعلامة الشقاوة تظهر على الإنسان الذي لا يريد أن يسمع كلام الله، ولا يريد القرب منه.

أشقى الأشقياء، الذي يهلك نفسه، وأهله، وممن حوله، ويصبح هو وإبليس دعاة إلى كل معصية.

وَيَنْجَبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصَلِي النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣)

فرق بين شقي وأشقى، الشقي شقاؤه لا يتعداه إلى غيره، ويورد نفسه المهالك في الدنيا والآخرة، وبين أشقى الأشقياء وأكفر الكفرة، الذي يهلك نفسه، وأهله، وممن حوله، هو والشیطان دعاة إلى كل معصية.

فالشقي له النار الصغرى، والأشقى له النار الكبرى، فلا هو ميت فيستريح، ولا هو حي فيسيح.

قَدَّافَلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥)

والفلاح المضمون لمن يتزكى يومياً، بل وفي كل ساعة، كالشجرة المثمرة ففي كل يوم تتزكى بنمو الأغصان، وعافية الأبدان، وحبات الفاكهة تتزكى في لونها، وريحها، وطعمها، وحجمها، والشجرة التي لا تتحرك بها الحياة إلا شيئاً قليلاً، بعيدة عن الفلاح قريبة من الفناء، كطالب العلم الذي يرسب في صفه بضع سنوات، وزملاؤه وصلوا المريح، الفالح الذي يتزكى بكل تسيحة، وسجدة وصدقة وإنجاز عمل، وإتقان مهمة، يتزكى عندما يكون عنده هدف بأنه الأول على من حوله في كل المقاييس.

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى

لماذا الذكر تأسيساً، والصلاة تنويحاً؟

الذاكر من يراقب ربه في ما أسنده إليه من مهمة، وتبحر بها، وخدمها، وخدم البشرية من خلالها وقدم للعالم ثمرة إسلامية، لأن الدار الآخرة مرهونة بما أسند الله إليك من عمل كطبيب أو مهندس...» وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة» فالطبيب الذي لا يطور نفسه، ويكرر الدواء، ويتضاعف المرض عند المراجعين...، والمهندس الذي لا يعرف المستجدات، ويهدر الأموال والأرواح، ثم يخر السقف على رؤوس السكان،^(١) فذكر الطبيب لربه عندما يخلص النية للمريض، وذكر التاجر عندما يكثر الأرزاق للناس من أجل إسعادهم برخص الأسعار وجودة الصناعة، وذكر القاضي إشاعة العدل بين الناس، حتى لا يخاف الضعيف من القوي، وتأتي الصلاة ثمرة ونتيجة لهذا الذكر.

ثم توج عمله بالصلاة (فصلي) ولم يحددها ماهية الصلاة، أكانت فرضاً أو سنة؟ ولم يحدد كيفيتها فهي صلاة الأنبياء أو الأولياء؟ المهم صلي، وقد أفلح بعمله وبتميزه، ثم أفلح بصلاته.

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾

تؤثرون الحاضر المزري على الغائب المغربي.

فالدنيا بها خير، وخير الآخرة أفضل وأدوم: و«خير» اسم تفضيل من

(١) منذ مدة ركبت سيارة أجرة (١٠ ركاب) من حلب إلى الباب، وكنت بجوار السائق، ومازلنا بأطراف المدينة حلب، وإذا أخرج السائق سُبحة من مائة حبة، وبدأ يشتغل بها مع المقود، فقلت له: مسباحك المقود، إذا أوصلت ركابك سالمين إلى أولادهم، وبقي الناس في الشارع سالمين، مسباحك أن تراقب أنظمة السير، وإشارات المرور، وبعد خمسين سنة وأنت وسيارتك سالمين ولم تسجل عليك مخالفة، إن ما تفعله الآن، هذا من التدين الناقص!! وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة.

(أفعل) التفضيل، خيرها أكثر، الدنيا بقاؤها حقبة من الزمن، والآخرة خير وأبقى.

بل تؤثرن الحاضر المزري على الغائب المغربي، واللذة العاجلة على السعادة الباقية، والمشاهد على الموعود، والمشكلة بالشك الذي يساوركم حول الموعود قد يتحقق، وقد لا يتحقق بظنكم، ولو جزمتم بتحقيقه لأفلحتم، وميزة الآخرة أفضل وأجمل وأدوم، وهي دار ديمومة، الشباب دائم وباقٍ، والعافية باقية، واللذة باقية، والأرزاق باقية... حياة بلا وجع ولا ألم ولا خوف ولا جزع ولا موت... الأمن والأمان. وهذا التعهد، وهذه البشارة منذ زمن إبراهيم وموسى عليهما السلام.

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (١٩)

دليل على أن مصدر الوحي واحد الذي جاء على الرسل والأنبياء، والمنهج واحد، كالتوحيد، والتقوى...

وملاحظ آخر: فيها وخزة ضمير لمن يؤمنون بإبراهيم وما أنزل إليه، وبموسى وما أنزل عليه، ولا يؤمنون بمحمد ﷺ وبما أنزل عليه، وهو مما عندهم!

سورة الغاشية مكية، وآياتها ست
وعشرون، وترتيبها بالقرآن (٨٨)
وبالتنزيل المكي (٦٨)

ولقد كشف الغطاء عن أربعة مشاهد في هذه السورة:

١- مشهد الغاشية مشهد رعب رهيب، كالليل البهيم الذي يغشى الشجر والحجر، والأمير والفقير، ومن يخرج يده لم يكديراها، ومن فوقهم غيوم مدلهيات، ومن فوق الغيوم رعد وبرق وصواعق، والكل يضع يده على قلبه قبل أن ينخلع من صدره.

٢- ومشهد من نعيم الجنة وأهلها - ومشهد فيه عرض لبعض مخلوقات الله، كالإبل والجبال، والسماء، والأرض... تحتاج إلى تأمل!
ترشيد للدعاة الذين يحمّلون أنفسهم، ما لم يحمله الله للنبي صلى الله عليه وسلم، «إنما أنت مذكر» وليس بمسيطر.

والخلاصة: الحديث عن مكنونات الجنة، ومكنونات النار، تحتاج إلى كلمات من مكنونات الدار الآخرة حتى تحملها، وكلمات الدنيا مخصصة لمحتويات الدنيا.
وجاءت السورة بأربعة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝١ وَجُوهٌُ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝٥ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ۝٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝٧ ﴾

٢- ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَّةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَمَنَارِقٌ مَّصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَائِبٌ مُّبْتُوثةٌ ۝١٦﴾

٣- ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠﴾

٤- ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيِّرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۝٢٦﴾

هل تحب أن تسمع عن الغاشية؟ هل أتاك حديث الغاشية؟ إنه يأتيك.. نعم! يجب، كونه لم يرها، ولم يسمع بها، والآن سيسمع عنها من أوجدها.

جاء استهلال سورة الغاشية باستفهام تعجبي، لأمر غيبية عجيبة، تصورها فوق الطاقة البشرية، فالكلمات والحروف التي نتداولها في الأرض، أدوات دنيوية لها قدرات محدودة من التحمل، بينما الحديث عن الغاشية حديث رعب رهيب، فأدواتنا التصويرية والتخييلية، لا تستوعب المادة التي تعالج أمور الآخرة، ولا توجد لها نظائر ولا شبيه في الدنيا، حتى ولا يخطر على قلب بشر سواء من صور الجنة أو النار، ومما ورد في الأحاديث الصحيحة، كالشجرة التي يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة سنة ما يقطع ظلها، فالأرض لا تتسع لغُصين واحدٍ، أو من صور النار الرهيبة الرعبية، وأدنى معذب بها في قدميه حذاء من نار يغلي مخه منهما، فأبي حروف أو كلمات، تستلهم الشكل والمضمون والأجواء المحيطة، بهذا الحذاء، ولا بسه، وبيئة التنور الخاص بهذا المعذب، من أصوات، ودخان، وبتن رائحة، ودرجة حرارة جهنم لا تتخيل: واحد وأمامه خمسة وعشرون صفراً، تزيد أو تنقص.

تحتوي السورة هذا الترهيب وهذا الترغيب، ولكن العقل لعله يتخيل أو يتأول أو يحاول أن يتخيل تصوير أشكال أصحاب أهل النار، وأصحاب أهل الجنة.

ويريد الله إطلاع النبي صلى الله عليه وسلم عليها، وإطلاع البشرية على كنوز من الغيب من خلال النبي صلى الله عليه وسلم تكريماً له، وتعظيماً لمكانته عند ربه، وكأنها يعرض عليه شريط تصوير فيه شيء من ملامح خريطة النار والجنة، وما فيها مفاجآت غير معروفة ولا مألوفة، ولا خطر على قلب بشر، ثم تحول الوحي ونبهنا على الكون الذي نعيش فيه، وكأنه يقول: يامعشر الأميين! منكم من يصدق هذه الأمور الغيبية، ومنكم لا يصدق: اقرؤوا الكون جيداً، تكونوا مؤمنين وسادة وقادة، ومن طول الإلفة أخذكم النسيان بعيداً، وجاء القرآن ليعلمنا كيف ننظر على كل شيء؟ وننظر فيه؟ كي نقيّمه، ونفكر فيه؟ ثم كيف نعرفه؟ حتى نتعامل معه، ونستفيد منه، قبل أن يسبقنا إليه الآخرون الذين سيطروا على الفضاء، وبدأوا يبيعوننا سماءنا وأجواءنا.

وفي منهجية القرآن الكريم الربط الدائم بين الغيبات والواقع المشاهد، كلما يذكر أمراً من الغيبات، والتي تريد إيماناً وتسليماً مطلقاً منا، يؤكد به بعض مظاهر كونه وخلقته التي تقودنا إلى الإيمان بالغيبات التي يذكرها القرآن.

وفي ختام هذه السورة علمنا مهمتنا في الدعوة والعمل الإسلامي وانتشاره في الأرض، بأننا دعاة، ولسنا قضاة، ولسنا هداة!!

الحاكم... هو الله!

والهادي... هو الله!

في الغاشية: للترهيب ستة مشاهد. وللترغيب تسع مغريات لأهل الجنة.

يقدم في هذه السورة لوحتين كبيرتين، أولاهما: للترهيب من خلال عرض ستة مشاهد للمعذبين. وأخرى: للترغيب من خلال عرض تسع صور لأهل الجنة ونعيمها، فرحمته أوسع من عذابه، ألا وهو القائل: "ورحمتي وسعت كل شيء"

لا أدري ترهيب و ترعيب للبشر أم للجبال...؟ وهل تطيق الجبال مثل هذا؟

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧)

كاف الخطاب في (أتا...ك) كاف القرب، والمودة، والحب، هذا الكاف المحمدي، يدور في معظم آيات القرآن، وكأن الوحي يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما نزلت قبل الإسراء والمعراج، لأن في ليلة المعراج اطلع الله رسوله على شيء من أهوال الغاشية:

هل وصل إليك نبأ من أنباء الغاشية وأهوالها؟

ما الغاشية؟

وجوه مسودة... ووجوه مبيضة... وهذه أنباء من كنوز الغيب، لم يطلع عليها أحد، ولم يعرفها أحد، ولأول مرة تُقرع الأسماع والقلوب بمثل هذه الصورة التي تهد الجبال هدأً.

والغاشية من الأسماء المطورة والمحوّلة إلى اسم من أسماء الآخرة، ومثلها الحاقة والقارعة... والجذر اللغوي للغاشية: غَشِيَ الليل... وأغشى: أظلم، والغشاوة: الغطاء... ولكن هناك فرق دقيق عميق بين: غَشِيَ الليل، وغَشِيَ الرجلُ بالبكاء، والجامع الغيبوبة، أي فقد وعيه، وتغير لونه، وهذا في قلب

السياق. وكأن الوحي يريد أن يقول: كل أهل العذاب يغشى عليهم من الخوف والرهبة دفعة واحدة، وكأنهم مصابيح أظلمت أو تحطمت دفعةً واحدة. لذلك ركز على تصوير وجوههم خاشعة خائبة خاسرة، ولماذا خاسرة؟ لأنها عملت، وتعبت، ونصبت.. ولم تنتفع من ذلك بشيء، إن الذين يجاربون الله ورسوله يتعبون، ويخططون، وينفقون، وينقلب عليهم هذا التعب والجهد إلى عدو يدفعهم إلى النارِ دفعاً، فيصلونها، وما أدراك ما هيه!؟ نارٌ حامية.

ومفهوم الصلي في زمن التنزيل: يلف العرب الشاة المذبوحة المسلوخة بجلدها، وتوضع بحفرة مليئة بالجرم، وتدفن الذبيحة وسط الجمر، ثم تغطى الحفرة بالتراب، وتبقى لليوم الثاني، ثم تُخرج، ويصبح العظم إن بقي عظم، ينسل من اللحم، انسلال الشعرة من العجين، وهذه الطريقة مازالت موجودة في جنوب الجزيرة العربية، ومطاعم فاخرة (بجدة) تحضرها لِعِليّة القوم،^(١) فخطب الوحي إناساً يتعاملون مع الصلي يومياً، والخبر ماترى، لا ما تسمع!
ومن يكون وسط هذا التنور فهو بحاجة للماء أكثر من الطعام، فقدم له الماء الإنّي، على الطعام الضريعي.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۝ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝ (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ ۝ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيْعٍ ۝ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝ (٧)

تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آتِيَةٍ

ما قال: يشربون من عين... بل قال: يُسْقَوْنَ... مرغمون خارجياً من جنود الله، وداخلياً من الحاجة للماء، وأي ماء! ماء آتية: (من الإنّي، أي

(١) والحضارم بجدة يقدمونها في اللواتم تحت مسمى الهريسة، مكونة من اللحم المذكور مع الخنطة المسلوقة جداً، ويهرسان سويةً مع بعض التوابل، ويصبح لونها كالفول المسلوقة والمطحون، وسمعتُ شيخاً حضر مياً، يجب الدعابة، يقول: في الجنة يسألون الحضرمي ماتأكل؟ هريسة.

ناضجة^(١)، من كثرة الغلي ومثلها ﴿وَيَنْ حَمِيمٍ أَيْنِ﴾ الرحمن: ٤٤. وحالته عند الشرب ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ إبراهيم: ١٧، صورة تهكمية، كما هو الحال في قوله جل في علاه: «فبشرهم بعذاب أليم» والبشارة للسرور، وليس بهاء آنية نضجت وجهزت من كثرة الغليان، دليل على توقف قانون التبخر هناك.

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْجُوعِ ﴿٧﴾

وهناك وجبات سريعة في جهنم: من زقوم، وغسلين، وذا غصة، ومقطع الأمعاء،...

وطعامهم من شوك يسمى الشبرق، وهو طري تأكله إبليس، وبعد أن يبس، تخافه الإبل وتتحاماه^(٢)، يتحول الطعام إلى أداة من أدوات التعذيب.

قال أبو ذؤيب:

رَعَى الشُّبْرَقَ الرَّيَّانَ حَتَّى إِذَا ذَوَى وَعَادَ ضَرِيحاً بَانَ عَنْهُ النَّحَائِصُ

وقال:

وَحُبْسٍ فِي هَزْمِ الضَّرِيحِ فَكُلُّهَا حَدْبَاءٌ دَامِيَّةُ الْيَدَيْنِ حَرُودٌ

وهو طعام أهل النار، وهناك زقوم، وغسلين، وذا غصة، ومقطع الأمعاء...

لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ

والضريح عند ابن كيسان^(٣): يضرعون منه، ويدلون، ويتضرعون إلى الله كلما يسألونه طعاماً، ومهمة طعامهم في الآخرة ليس للتغذية، ولكن للإيلام والتنكيل، بينما في الدنيا مهمته أن يعافي ويسمن، وفي أدنى الحالات، يغني عن الجوع.

(١) المصباح المنير للفيومي.

(٢) الكشاف - (ج ٧: ص ٢٨٠)

(٣) تفسير ابن عجيبة.

يألها من صورة رعية، صورة أناس غشي عليهم جميعاً من الخوف، ولو كانت الجبال مكانهم لغشي عليها، ويقتلها الندم على مافات من التعب والنصب، الذي انقلب وبالأعلى عليهم، عندما يسكنون وسط الجمر، ويشربون من ماء جهنمية، لاتعرف، ولا توصف، ووجبات طعامهم، ما بين ضريع وزقوم... سبحان الذي وسعت رحمته كل شيء، فمن رحمته على خلقه، يحذرهم، وينذرهم، ويهددهم بكلام مفصل واضح، أين سيكونون؟ وما يأكلون ويشربون؟ لعلهم يراعون!!

ويتنقل الوحي إلى صورة ترغيبية، فيها وصفان لنزلاء الجنة، وستة أوصاف للجنة..

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾

والشيء بالشيء يذكر، وبضدها تتبين الأشياء، فعقد مقارنة بين الوجهين: وجه من أهل الجنة، ووجه من أهل النار: وجوه ناعمة، ولسعيها راضية، ووجوه عاملة ناصبة خائبة.

وركز على تصوير الوجوه، لأنها محط الأنظار، وهي الصفحة المقروءة، ومن قراءة الوجوه تعرف الناس الصحة والمرض، والسرور والحزن، وعندما يعود الغائب إلى أهله، قبل أن يتكلم، يقرؤون وجهه، كما في قوله تعالى: ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ المطففين: ٢٤. وقوله: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ القيامة:.. وهي أول نعمة تهدي لأهل الجنة نضارة الوجوه يوم الحساب، قوله تعالى: ﴿ وَلَقَّهْمُ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ الإنسان: ١١. تظهر عليها نضرة النعيم دليل على الترف والنعمة، كما توجد النضارة على الوجوه، توجد

على الثياب الجديدة. والفواكه والخضار، وصور الله لنا ظاهرهم، ثم يصور لنا نفسياتهم من الداخل وسعادة الرضا عما قدموه.

ثم تحول الوحي ليصور لنا جنتهم توصيفاً خارجياً، وكأنها على قمة جبل، أو هي من ناطحات السحاب، يغري فيها الرجال، ثم سيتقل لداخل القصور ويركز على التأثيث، ويغري فيه النساء.

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾

علواً حسيّاً ومعنوياً، لأن الإنسان فطر على الاستشراق، والارتقاء، ولو وصل الإنسان إلى قمة جبل، يدخله شيء من نعمة السعة، ومن أسماء الله: الواسع ليس بضيق.

توحي جنة عاليةً بأنها بعيدة عن الأقدار والأكدار، وأجواؤها معقمة من التلوث البيئي، والأخلاقي، ومهما كان القصر فخماً، يفقد فخامته، إن كانت المنطقة المحيطة به، مليئة بالمقرزات والشتائم والسباب، وهذا ما يعانيه بعض سكان المدن، من جيرة السفهاء... لا يُسمع في الجنة صوتٌ إلا وفيه الجمال والكمال، لاكتمال اللوحة الجمالية، ومحتواه الذكر والتسبيح...

فعين الجنة تنبع، وتجري بأن واحد، وتتبعها مثلها، وهكذا دواليك، وتتكون صورة من العيون الجارية.

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾

كالتيار الكهربائي المتقطع، ومضات متواليات، فالمنبع في الدنيا ثابت، والماء يسيل ويجري نحو المنخفض، فأين ميزة عين الآخرة التي نتظرها؟ العين نفسها تنبع، ثم تجري، وتتبعها مثلها، وهكذا دواليك، كدقات القلب وتدفق الدم، دفقة بعد دفقة وتتكون صورة من العيون الجارية بعين واحدة من خلال

خريرها وصفق الهواء لموجها.

وفي توصيف العين بأنها جارية صالحة للشرب، وليست راكدة لأنها مظنة العفونة، ويريد فيها عيوناً جارية، أو فيها عين جارية لكل واحد منهم للاستقلالية ولمزيد من المتعة، وفيه إغراء للأعراب لأنهم في أزمة مائية بشكل دائم وأي ماء. تصوير للأثاث، والمفروشات، والسرر، والأواني... فيه تشويق وإغراء خاص بالنساء.

فِيهَا سُرْرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَنَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَائِبٌ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

وهذه فتنة الفتن للنساء، وكم من حسناء يجرح النسيم العليل خديها، والحريير الناعم يديها، رضيت بمن يمشي على ثلاثة أرجل، ويجدد وضوءه بعد كل عطسة، لقاء هذا الأثاث؟.

جاءت (سرر) بالجمع ومنكرة، فأما الجمع يكنى به عن سعة الغرف والردهات حتى تتسع لمثل هذا العدد من السرر، ووجود السرر الكثيرة دليل على وجود الناس الذين يجلسون عليها، ووصفت مرفوعة، يكنى بها عن ارتفاع الأسقف، وليس كما هو الحال في الشقق المعاصرة كالعلب الكبريتية، وجاءت سرر منكرة في كل القرآن، ليعطي الخيال سعة أكثر في تصور ماهية السرر، ولها وظيفتان: التقابل والإتكاء.

﴿ عَلَى سُرْرٍ مُنْقَبِلِينَ ﴾ الحجر: ٤٧.

﴿ وَسُرْرًا عَلَيْهَا يُتَكَّمُونَ ﴾ الزخرف: ٣٤.

بمثابة إعلان تجاري لمعرض من معارض المفروشات النادرة:

فِيهَا سُرْرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَنَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَائِبٌ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

ولها وصفان: مصفوفة وموضونة.

﴿ مُتَكِينٌ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ الطور: ٢٠.

﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ الواقعة: ١٥. أي محكمة النسج، أو منسوجة بالذهب

مشبك بالدر والياقوت.

وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾

موضوعة: كل كوب في مكانه بين يدي أهل الجنة، المراد الترتيب المحكم، مثل أجزاء الجسم، الحاجب فوق العين، والعين محمية بعظم... والكلية والقلب كل في مكانه...

وَنَمَارِقٌ مَّصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾

ونمارق: جمع النمرقة، وهي الوسائد الصغيرة أو التكايا التي يستند إليها، أو يتكأ عليها، لاكتمال اللوحة الجمالية، لأن الله جميل ويجب الجمال، لذلك أوجده في كل خلق خلقه، وما تقع العين في هذا الكون على أي خلق لله إلا وترى فيه جمالاً وكمالاً.

وَزَرَائِبٌ مُّبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

صورة البسط والسجاجيد هنا وهناك، كي تجذب وتغري الذي يمشي عليها، ويتابع سيره لآخر المعرض، إنه المعرض الجمالي والمثالي المتجدد حتى لا تمله العين. ولماذا مبثوثة وكل الذي حولها موضوعة ومصفوفة؟ لأن مهمة البسط في الدنيا للجمال والزينة، والأهم لتكتم البرد الصاعد من باطن الأرض إلى داخل البيوت، وأما في الجنة انتفت هذه الخاصية. والبسط في الآخرة مهمتها بسط الجماليات وبسط النفوس.

ثم يتحول الوحي من الإغراء والترغيب إلى التعليم والتأمل، ويقدم وسائل للإيضاح في خلق الله، منها سفينة الصحراء، و صفحة السماء، ويبدأ بالاستفهام الإنكاري، وباللوم والتقريع الجماعي، لم كلهم لا ينظرون فيما حولهم، ولا يتدبرون، ما لهم؟

ومن التجارب المعاصرة قطعت الإبل أربعمئة كم: بدون ماء^(١)

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾

ينبهننا أن نتأمل كيف خلقت؟ بمعنى كيف فصلت هذه الأعضاء ووزعت المقاييس، وتوازنية الثقل عند الإناخة، وعند الإهاجة، حسب ما تتطلبه المهمة التي جاء من أجلها؟
كَيْفَ خُلِقَتْ؟

مثال دقيق غاية في التأمل، منها مخرجات البعير، تكون بعراً بحجم الجوزة وشبهه جافة، لأمرين:

للسيطرة عليها وتجفيفها، لتوفير المخزون المائي لكائن كبير يعيش في الصحراء.

ولو كانت بعرة تتناسب مع حجمه، لجاءت بحجم كرة الأطفال، وتنزل من ارتفاع مترين ككرة جافة، ستكون مؤذية.

سبحان الذي ذلل البعير الضخم من أجل عمارة البوادي والصحاري الرملية، التي تشكل سدس اليابسة على مد البصر، فلا بد من وسيلة نقل مزودة بخفين لا يغوصان في الرمل، وقوائم مرتفعة عن الأرض ليبعد عن حر الأرض

(١) خبر صحفي.

وتلعب الريح من تحته لتبرده، ولا يحتاج للماء كثيراً، وزوده بجلد كتيماً للتعرق، ومن التجارب المعاصرة قطع البعير أربعاً مائة: كم بدون ماء^(١)، وإذا احتاج للماء يأخذها من أنسجة جسمه، حتى ليخسر ربع وزنه، ولا تضعف حركته، وله مستودع تموييني في أعلى ظهره يُسمى السنام، ومن أخلاقه الأنفة والانتقام، لا يذل إلا لمن يعامله بمودة ورحمة، ومن يقسو عليه، ينتظر الجمل الفرصة المناسبة، فينقض على من آلمه، ويحتم عليه حتى يقتله، إلا إذا جاءتة نجدة. “أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ؟”^(٢) جسماً وأنفة وانتقاماً.

وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ ١٨

كَيْفَ رُفِعَتْ؟ وكيف ثبتت؟ واستدامت، وما وقعت!!

الإعجاز في رفع الأثقال إلى الأعلى، لأنه يواجه ثقل الوزن، ويواجه شد الجاذبية، وتأتي نوعية المرفوع، وحجمه، وسمكه، ووزنه، فشيء بحجم السماء، يحتاج إلى مليار، مليار... كيل، وقطر الكيليل مليار، مليار... كم:

بلا عمد مرئية أو مخفية، تقف السماء والسحب الثقال، وجبال من برد، آيات للموقنين، إن الذي يرفع السحاب الثقال بلا رافعة، ومخالف لقانون الجاذبية، وتقف السحابة كأنها بحر بلا سمك في كبد السماء وبلا عمد، إنه: “الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها” الرعد: ٢. والذي وزع المجرات والنجوم والكويكبات بموازين الجاذبية كل حسب ثقله وسرعته عن المركز، قوله تعالى: «والسمااء رفعها، ووضع الميزان» الرحمن: ٧. وفرق بين آيتين: آية انتصاب الجبل، وآية تسطيح الأرض بيضوياً، ما هو بكروي، وما هو بأفقي، لحكمة في ذلك.

(١) خبر صحفي.

(٢) بعض هذه المعلومات مستفادة من موسوعة الإعجاز العلمي في الآفاق. د. النابلسي. ص: ٢١١.

وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾

كَيْفَ نُصِبَتْ؟ كيف رفعت؟ كيف غرست؟ كيف رصدت؟..

والإعجاز بالتنصيب الذي يراعى فيه التوازنية للاستدامة، مع فرحة التنصيب كتنصيب ملك؟ حتى لا يميل، ثم يقع.

وللجبل مهام عديدة منها:

فهو علم للسائرين، وملجأ للفارين من الجائرين، ونزهة للناظرين، ومعبد في (حراء) للمرسلين، وكهف للفتية المؤمنين، ومسمار للأرض حتى لا تميل ولا تميد، مهمة الجبل كمهمة المسمار الذي يبرط بين خشبتين بعضهما فوق بعض، وقد أشار القرآن إلى ذلك، قوله تعالى: "والجبال أوتاداً" النبأ: ٧. وثالث الجبل فوق الأرض، وثلاثه مغروس في العمق، حتى لا تتزحزح طبقات الأرض عن بعضها أثناء الطرد المركزي، ووزن الجبل ثقالة ضاغطة على طبقات الأرض حتى تستقر كل مكانها، وإلى ذلك أشار القرآن: "وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم" النحل: ١٥. ماد، يميد، ميداً، وميداناً، اضطرب واهتز، ومنه: ماد الغصن، والسكران، أي تمايل. ومن مهام الجبال مأوى مجاني للمضطرين، ولا تخلو الجبال من التجاويف والكهوف والمغر والسراديب، وكل له وظيفته، ويكفي أن الله أفرد سورة بالقرآن وسماها سورة: الكهف الذي آوى الفتية الصالحين من الظلمة، وغار حراء، وغار ثور آوى إليهما النبي صلى الله عليه وسلم. ولقد سكنها الإنسان البدائي مع مواشيه، وحمته من الحر والبرد والوحش والعدو، كما جاء في قوله تعالى: "وجعل لكم من الجبال أكناناً" النحل: ٨١. والكن: كل ما يقي الإنسان من المطر والشمس... والجبال تزيد بمساحة اليابسة، بوجوهها الأربعة، كما تفعل ناطحات السحاب، تزيد من مساحة البناء.

وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾

والتركيز ليس على ذات التسطيح، بل على كفيته البيضوية، ولو جاء تسطيح البيضة كروياً، لتدحرجت من أي اهتزاز، وتحطمت، وهذا الشكل للأرض يجعلها محكومة ضمن ميزان الجاذبية.

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾

والتذكير لأمر معروف ثم نسي إهمالاً، لكن التعليم يكون لأمر جديد مجهول من قبل.

مهمته يذكرهم، وليس يجبرهم، لأن التذكير لأمر قد عرفه الإنسان وتعلمه، ومن طول المدة نسيه، يذكرهم باليوم الذي قالوا به: بلى! أنت ربنا. ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف: ١٧٢)

ومن رحمة الله بنبيه حتى لا يحمله فوق طاقته، كشف له عن السر الذي أودعه فيهم، ومهمة رسول الله أن يشعل المصابيح السليمة، ولا يجهد نفسه في المصابيح المحطمة، حتى ولو حاول ذلك لن يسيطر عليهم، لأنهم ميتون.

وليت الدعاة والعلماء والمرين يلتزمون بهذا المنهج التذكيري، ولا يحملون أنفسهم، مالم يحمل الله به أنبياءه، وقال لنبيه: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ ق: ٤٥. ولكنه تذكير وتبليغ بأسلوب خاص ودقيق، وتبليغ كتبليغ المتوضئ الماء جميع المساحة المطلوب غسلها، قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ﴾ الشورى: ٤٨.

ومهمة رسول الله أن يشعل المصابيح السليمة، ولا يجهد نفسه في المحطمة،

لأنها ميتة.

إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾

والذي لاتنفعه الذكرى، ثم يتولى، ويحارب منهج الله، فيعذبه (الله) ولم يقل: ربه، أو خالقه، لزيادة الإحكام، وأسند العذاب له، وليس للملائكة، لزيادة الإخافة، وخاطبهم بالمفرد: من تولى؟ هو. من كفر؟ هو. تبليغ شخصي، حتى لا يزعم، ما فهم، وما علم... فالعذاب الأكبر، عندما يمرره على جميع العذابات في الدنيا، بدءاً من الجوع ونقص من الأموال والسيي والذل والقتل. ثم يهددهم

إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

إن "إلينا" حصراً مؤمنهم وكافرهم إياهم، ثم إن "علينا" حصراً حسابهم، تستبطن -إلينا وعلينا- الرحمة والترفق والعدل، سيعودون إلى الرحمن الرحيم، ويحاسبهم هو، منهم من يزيده من فضله، ومنهم من يقيم عليه عدله.

وجاء خاتمة السورة تترفق بالنبى ﷺ الذي أذهب نفسه حسرات عليهم، سيعودون إلينا، كونهم في قبضتنا، كسمك في برميل، مرغمين ولن يتخلف واحد منهم، ونعرف كيف نحاسبهم تهديداً؟

سورة الفجر مكية، وآياتها ثلاثون،

وترتيبها بالقرآن (٨٩)

وفي التنزيل المكي (١٠)

هذه السورة تبدأ بداية عالية لا نعرف عنها إلا القليل، وتنتهي بنهاية غيبية يصعب علينا تصورها، تبدأ من الفجر، أول انطلاقة النهار، وتنتهي بنا عند غروب شمس حياة الإنسان، عند الموت بوابة الآخرة ” يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ...“

وهي أشبه بدورة الحياة على الأرض التي تبدأ من السماء بهاء منهمر، ثم يخرج منه نبات شتى، ثم هشيم محتضر...

وعندما تتكون الغيوم في السماء، وتساق الماء إلى الأرض الجرز، ويقدح البرق، وينشأ الخوف والطمع، ويسبح الرعد بحمده، و تُرْسَلُ الصَّوَاعِقُ، فيصيب بها من يشاء، ويصرفها عمّن يشاء، وتفتح أبواب السماء بهاءٍ منهمرٍ، فتسيل أودية بقدرها، فاحتمل السيل زبداً رابياً، فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس، فيمكث في الأرض.

عاد وثمرود وفرعون بنوا حجراً، وقتلوا بشراً، بينما رسول الله لم يترك أحجاراً للسياح، وإنما ترك قيماً تحفظ الأرواح.

ويأتي الطوفان على الزبد والغثاء البشري كعاد وثمرود وفرعون، الذين تميزوا بالماديات كقوم عاد عندهم غابات من الأعمدة الحجرية، وثمرود نحتوا قصوراً داخل الجبال، وفرعون زرع أوتاداً أهرامية في الأرض، وأما الدين لا يقف ضد عمارة الكون، ولكن الماديات حملت هذه النماذج من الظلمة والجبارين على إفساد الكون، وتاريخهم يبنون حجراً هنا، ويهدمون بشراً هناك، فمحاهم الله

من وجه الأرض، ولم تبق لهم باقية، إلا أعمدة وأساطين من أحجار وأهرامات، بينما ما ينفع الناس هو من ميراث رسل الله، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يترك قصوراً يؤمها السياح، ولكن ترك قيماً أخلاقية تبقى حية إلى يوم القيامة، وتاريخ الفتوحات الإسلامية حافل بالعدل، ويبقى الإسلام للناس هو جنة الدنيا، ومن دخل جنة الدنيا، يدخل جنة الآخرة.

وهذه السورة تشترك برسمها السماء والأرض، والحسي والمعنوي، والرحمة والغضب، والربح والخسارة، والدنيا والآخرة، والعصاة والتقاة، والنار والجنة.

وجاءت السورة بستة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿ وَالْفَجْرِ ١ ﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢ ﴿ وَالسَّعْيِ وَالْوَتْرِ ٣ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسَّرَ ٤ ﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ٥ ﴾ ﴿

٢ - ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ ﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ٧ ﴿ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي أَلْبَدِ ٨ ﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ٩ ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْدَادِ ١٠ ﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي أَلْبَدِ ١١ ﴿ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ١٢ ﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ١٣ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ ١٤ ﴾ ﴿

٣ - ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ، فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ١٥ ﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ١٦ ﴾ ﴿

٤ - ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ١٧ ﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ١٨ ﴿ وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ١٩ ﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ٢٠ ﴾ ﴿

٥ - ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ٢١ ﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ٢٢ ﴿

وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَاتَىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَلَيَّتَنِي
قَدَمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴿

٦- ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخِلْنِي فِي عَبْدِي
﴿٢٩﴾ وَأَدْخِلْنِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾

استهلت السورة بقسم وعطف عليه بثلاثة، أو تكرر القسم أربع مرات، وهذا هو المرجح في هذا السياق، لأن جواب القسم مطوي وتعددت الآراء حوله منها: إنَّ رَبَّكَ لَبالمرصاد.

والفجر... ليتتقمنَّ الله من البغاة الطغاة، كما انتقم من عاد وشمود وفرعون...

وجواب القسم يريد به، تهديد الطغاة، ويحذرهم من الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية، وسيكون مصيرهم مصير الذين عجل عذابهم وعقابهم في الدنيا كعاد، وشمود، وفرعون، والوحي يتكلم بحزم وعزم، ويقول: العاقل الذي له عقل يحجره عن الكفر والفساد، ويحجره عن الهلاك، لا يحتاج إلى كل هذه الأقسام، إلا إذا كان ميِّت القلب والفترة.

«...مَنْ كَانَ ذَا لُبٍّ عَلِمَ أَنَّ مَا أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِيهِ عَجَائِبُ

ودلائل على التوحيد والربوبية، فهو حقيق بان يُقسم به، وهذا تفخيم لشأن المقسم بها، وكونها أموراً جليلة حقيقة بالإقسام بها لذوي العقول، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَّعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ (١) الواقعة: ٧٦

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلِيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾
هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾

(١) البحر المديد، ج٧: ص٦١.

لقد أقسم: ورب الفجر، وما الفجر؟

الشق الضوئي الذي يشق الليل، ومنه الفاجر الذي يشق ستر الحياء، ومنه الفجر الذي نصلي به، ومنه فجر الإسلام الذي جاء ليشق ظلام الكفر، ويشر بالنور الذي سيعم الكون. مفردة واحدة معطياتها متعددة وكلها في الهدف.

ورب الزمن التي تدب فيه الحياة، وتنزل الرحمات كونه من ثلث الليل الأخير، وقد أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم بأحاديث صحيحة، أن ربنا ينزل في ثلث الليل الأخير إلى السماء، ويوزع رحماته على المستعدين لاستقبال الرحمة، وبسطوا أكفهم بالدعاء، وقلبوا وجوههم في السماء، كما يفعل البدو عندما يتركون آنتهم تحت السماء ولما ينزل المطر يأخذون قسمتهم منه، بينما الكسالى واللامبالين، فوتوا على أنفسهم الماء والحياة.

وليلٍ عشر: هل هن متواليات كعشر ذي الحجة، وعشر محرم، وعشر رمضان، التي تفرغ لها النبي صلى الله عليه وسلم بالاعتكاف، أو عشر متفرقات كليلة القدر ونصف شعبان والعيدين... لقد جاءت (ليال) نكرة من أجل أن يجتهد الناس في طلبها وتأويلها هل هن مجتمعات أو متفرقات؟ كما هو الحال في ساعة الإجابة يوم الجمعة وليلة القدر.

وَالشَّفَعِ وَالْوَتْرِ:

وكان الله يقول: كل ما في هذا الكون شفيع، وتمام إيجاده بشفيعته، إلا أنا وتر. وفي الحديث الصحيح: « إن الله وتر، ويجب الوتر » والوتر واحد، أحد، فرد، صمد، هو لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. إنها دعوة للتوحيد.

ويقوم كل ما في الكون من الذرة إلى المجرة على مبدأ الشفعية أي الزوجية، كالذكر والأنثى، أو الموجب والسالب، كمبدأ الكهرباء، ومهما فجروا الذرة،

يتوالد مع كل جديد موجب وسالب، وهذا قانون كوني قوله تعالى: "ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون" الذاريات: ٤٩.

والليل إذا يسر:

« إذا ذهب ، أو : يسري فيه السائر ، وقيل : أريد به ليلة القدر ، وحُذفت الياء في الوصل ؛ اكتفاءً بكسرتها ، وسئل الأَخفش ، فقال : الليل لا يسري ، وإنما يُسرى فيه ، فلما عدل عن معناه عدل عن لفظه موافقاً^(١)»

جزى الله عنا الأَخفش كل خير: ولكن الليل يسري، ويسرى به، والله يقول: "يُغشي الليل النهار، يطلبه حثيثاً" ٧: ٥٤.

وبعد أن مهد لهذه السورة بأزمة الخير ومهابط التجليات. وجاء العرض متناسقاً تناسقاً عجيباً بين الموضوع ومفرداته، التي كانت ناعمة نعومة الفجر، وندية ندى الليل ذاته وبدون حروف ذات صغير يعكس صفو الفجر، وسكون الليل «وَالْفَجْرِ، وَكَيْالِ عَشْرِ، وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ، وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرَ، هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ،...» بهمسات ناعمة، لينة هينة، ولا تحس منها صوتاً، ولا تسمع لها ركزاً، رخية رخاء الليل، لأنه يسري بنفسه حتى يكور النهار، ويسري الخلق به على أقدامهم، وبه الإسراء الخاص للعباد وللعشاق في كل ليلة به معراج للمحبين والمشتاقين والعاشقين " تعرج الملائكة والروح إليه" وفي الليل حياة داخل الحياة.

ومفردة الليل تدور في القرآن لأن العرب تكثر حركتهم بالليل هروباً من هيب الصحراء، وندرة الماء لهم ولأنعامهم.

(١) البحر المديد، ج ٧، ص: ٦١. وسئل الأَخفش عن سقوط الياء من يسر، فقال للسائل: لا أجيبك حتى تخدمني سنة، فسأله بعد سنة، يا للعجب!! كم كان القرآن عزيزاً على الناس، وما أشد حرصهم على كل حرف؟.

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ...»

ما الحِجْر، والعقل، والنهي...؟^(١)

تدور حول الإنسان المحجور عليه في الحركة، والمعقول من رجليه كالبعير عن الحركة، والمنهي عن الحركة، هذه صفات العاقلين حركتهم دقيقة ومحسوبة، بينما الذين رفع عنهم القلم يتحركون في الجهات الأربع، بلا عقل، ولا بصر. فأصحاب الحجر لا يحتاجون لكل هذه الأقسام، لأن ما عندهم من الرشد يهديهم إلى سواء السبيل!

وبعد أن مهد باستهلال ” الفجر “ بملكه العظيم وقدراته في ضبط حركة الفجر، وحركة الليل إذا يسري، وحركة الشفع الزوجية المتوالية، والوتر الفردية الصمدية. وما من عاقل أو صاحب حجر ينكر ذلك، ثم يلتفت للجبارين المتكبرين الذي يتحركون بلا حجر ولا عقل، ومحسبون أن الله غافلاً عما يفعلون. وكأن الله يقول للطغاة البغاة: كل ما في الكون بحسبان، ونهايتكم بحسبان، وليس بنسيان، ونهايتكم بإمهال، وليس بإهمال.

ويذكر للنبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة نماذج من الطغاة الذين باعد بينهم الزمان والمكان، وجمعت بينهم عبادة الهوى، فكان الشيطان رائدهم وقائدهم إلى كل معصية. ولقد عجلنا لهم العقوبة، وفيها إيجاء لكل أعداء الدين بتعجيل العقوبة.

الله يخبرنا عن عاد، وثمود، وفرعون، وأصحاب الفيل... وكأنها وقعت أمام العين.

(١) بعض معاني التعريفات مستفادة من الشعراوي - رحمه الله.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾
 وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾
 فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْعُرْصَادِ ﴿١٤﴾
 أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ...

هذا الاستهلال يأتي في مطلع القصص التاريخي القرآني، نحو

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ »

للتعجب والتقرير والتذكير للمتلقي الذي قد سبق له، وأنه اطلع على هذا الخبر الفظيع الخبر التاريخي ...

وقد يأتي لمن لا علم له به، ولكن من أجل إعلامه، وتذكيره به، وشبهه من لم يره، وكأنه رآه، زيادة في المبالغة والتهويل والإشهار.

أو أن أطلع الله نبيه على الحدث التاريخي مناماً... يقظة... من خصوصيات النبوة.

وهنا بدأ يستدعي التاريخ من الذاكرة الاجتماعية، مما هو معلوم، ومتداول، ومتدارس بين الناس كخبر عاد، وثمود، وفرعون، وأصحاب الفيل... وكأنها وقعت أمام العين، لأن الله هو الذي يخبرنا، وخبره للمؤمنين عين اليقين.

نبوءة قرآنية جاءت بعد ثلاثين قرناً، وظهرت عاد إرم ذات العمد في الأحقاف بعد خمسة عشر قرناً من النبوءة.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ؟

ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟

وجاء خبر عاد ذهنياً، لأنهم طمروا تحت الرمل، وما من أثر يدل عليهم

كآثار ثمود وفرعون، وبدأ القرآن يكشف عن عاد الغطاء، نبوءة قرآنية في زمن التنزيل اتجهت نحو الماضي السحيق حوالي ثلاثين قرناً، نحو إرم ذات العماد، وبعد خمسة عشر قرناً من التنزيل، يُكشف الغطاء والوطاء عن إرم ذات العماد، نبوءة قرآنية عينها على الماضي، وعينها على المستقبل، عمرها أربعة آلاف سنة تقريباً، فمن أين للإنسان بعمره القصير يريد أن يحيط بنبوءة واحدة كونية؟^(١)

وقد لخص القرآن الكريم قصة المدينة المطمورة بالرمل:

إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد. الفجر: ٧. وقوله تعالى:

- أتبنون بكل ريع آية...؟ الشعراء: ١٢٨.

نعم!

إنها آية في الفن المعماري. توصيف للمدينة الأسطورة من جهة، ومن جهة أخرى لوم وتقريع للتبذير بالمال.

ومن تحذيرات الله لقوم هود.

- أمدكم بأنعام وبنين، وجناتٍ وعيون... الشعراء: ١٣٣.

دليل على البطر المعيشي الذي يولد العصيان والتمرد.

فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات... فصلت: ١٦. فطمرتهم إلى

الأبد.

(١) منذ تسعينيات القرن الماضي كشفت الأقمار الصناعية صوراً لمدينة جنوب الجزيرة العربية ذات أعمدة مطمورة تحت الرمل حوالي عشرة أمتار، وبها مجرى نهر يكفي لمائة ألف، أو يزيدون، وظهرت صور غابات وبها أسود، كلها طمرت حية، وأهل الأحقاف إلى اليوم عندهم مثل هذه الأخبار، ويسموننا الآن • (عُبار) والعُبرُ: الكثير من كل شيء، فتولد لها اسم محلي "عُبار" لما فيها من العبر، وكثرة الخلق الذين يمرون عليها من عابري السبيل، أو قطنوها... ربما جاءها الوصف من العبرة، وجمع عبرة، عبر.

ألم ترى يا محمد ﷺ كيف محونا الطغاة، وتركنا آثارهم تدل على قوتهم ومنعتهم، منهم من بنى بناً فوق الأرض ماله نظير من أعمدة وأساطين، ومنهم من تحصن داخل الجبال، فنحت قصوراً، وقبوراً، ومنهم من زرع أوتاداً في الأرض؟ ويرى صاحب الظلال أنها الأهرامات، ويشترك هؤلاء المتباعدون في الأزمنة والأمكنة: جنوب الجزيرة العربية بالأحقاف وشمالها مدائن صالح، وفي جيزة مصر، يشتركون في الطغيان وتجاوز الحد في كل شيء، ويحسبون أن الله غافلاً عما يعمل الظالمون، لذلك أكثروا فيها الفساد، وقمة فسادهم ظلم العباد، ومما يشهد على طغيانهم، اكتشفت بجوار الأهرامات، مقابر جماعية من السخرة الشديدة، ومن فسادهم ما تركوا ذهباً إلاّ أذهبوه، ولا فضةً إلاّ فضوها، ولا كريماً إلاّ أهانوه، ولا وضيعاً إلاّ سيدوه، ولا عرضاً إلاّ انتهكوه!!

فهذه الكتلة البشرية القائمة على بقعة من بقاع الأرض، أصبحت فاسدة ومفسدة، أصبحت كالعضو المعطوب، فمن باب الرحمة والشفقة على سلامة الجسد، ويبتتر هذا العضو، حتى لا تسري عدوى الفساد والظلم إلى الشعوب الأخرى، وعندما يهلك الله الظلمة، ليس من باب التشفي، ولكن من باب تحجيم الشر. كما قال جل في علاه: "فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين" ٦: ٤٥. وبعد كل عملية جراحية ناجحة، يقال: الحمد لله...

ومفسد السلطة لا يترك ذهباً إلاّ أذهبه، ولا فضةً إلاّ فضها، ولا شريفاً إلاّ أهانه، ولا وضيعاً إلاّ أعزه.

الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾

وعند الشعراوي الردع لمثل هؤلاء، يأتي من داخل الذات... وإن غاب ردع أهل الأرض، يأتي ردع السماء: «...نفس تلومه، وضمير يؤنبه، أو يأتي ردع من

المجتمع أو من سلطة القانون، فإذا مات الضمير، وترك المجتمع واجبه، يتدخل الردع الإلهي...» وإلا ستفسد البلاد والعباد، والكل في قبضة الله.

والمفسد الذي يأتي على كل صالح في الناس أو في الإنتاج، فيفسده، وبعض المفسدين يستلم البلاد وهي جنة غناء، فيها دخل الفرد عالٍ، وبعد عقد من الزمان يوصلهم خط الفقر، لأنه أفسد الزراعة والصناعة والتجارة، بكثرة القوانين التي تخدمه، وتخدم عصابته.^(١)

وفي الإسلام يستبعد ولي الأمر عن التجارة، سيستخدم منصبه فتفسد التجارة وتفسد الولاية

ومن صور الفساد المعاصرة كلمة الحب والحرية الشخصية والسياحة...، كلمة حق يراد بها ألف باطل، مثل كلمة الحب المفتوح والمبيع والمميع، وكلمة الحرية الشخصية توجوها بالزواج المثلي، وكلمة سياحة وزيادة الدخل، وتتحول البلاد الطاهرة والنادرة إلى مواخير، فبعد عقود من الزمن سيكثر أولاد الشوارع... يخطفون كل شيء، ويطاردونهم ككلاب الشوارع، ويرمونهم بالرصاص الحي، ويرمونهم في صناديق القمامة، وهذا ما يقع في بعض المدن الكبيرة بأمريكا الجنوبية، فتفسد البقية الباقية من قيم المجتمع، عندما تتحول قوى الإنتاج إلى مخدرين أو شبه معاقين من طول السهر، وشرب الخمر، وأخذ الحبوب، و...فتنتشر الجريمة، وتتوسع السجون، كما هو حال الغرب الذي بنى الأرض، وركب الفضاء والبحر، وبدأ يشكو من أزمة اليد العاملة بعد تحطيم القيم، ولو قطعت الكهرباء ليلاً نصف ساعة صار أكثر الناس بالشارع ذئاباً على أجسادهن ثياب.

(١) التجربة الماليزية والتركية: كان دخل الفرد ١٥٠٠ دولار أمريكي كدخل معظم البلاد العربية ولم يمض عقد من الزمان، حتى ارتفع قريباً من الدول الخليجية، ولم يمض عقد آخر حتى كاد أن يتجاوز دخل الدول البترولية.

واستخدم القرآن للمفسدين مفردة ”الصب” من علو، وكأنهم مسجونون في آبار أو ما شابه ذلك، معزولون عن أهل النار حتى لا يؤذوهم من تنتهم، وصياحهم، وحرّ ما هم فيه.

« فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوِّطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ »

« ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ » الدخان: ٤٨.

« يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ » الحج: ١٩

الصورة مع السياق توحى بأن الظلمة في قعر مظلمة كسمك في برميل بلا نهاية، ولا مجال لهم أن يخلصوا عن قطرة واحدة، وعذابهم بسائل كالزيت المغلي أو الحمم البركانية، فيُصب عليهم صباً، كما كانوا يصبون جام غضبهم على المظلومين، ولم يسند الصب هنا للملائكة، ولو جاء السياق فصبت عليهم الملائكة العذاب، لكان العذاب فيه ريحة النسبية، وطالما أسند العذاب للقوة العظمى، فهو أعلى ما في كلمة العذاب من العذاب، وقال: سوط عذاب، نكر السوط ليستوعب كل أنواع الشياطين، التي كانوا يسوطون الناس بها، وكلمة « سوط » لم تستخدم إلا مرة. ومع من؟ مع ملوك الشياطين عطاء عاد، وثمرود، وفرعون... من أجل أن يحجم حملة الشياطين في الأرض بعد البعثة المحمدية، وما زال التهديد لأهل الشياطين، بان الله يرصدهم رصداً.

وكان السياق يقول» جاء الإسلام وانتهى زمن السوط والجور والظلم، مالكم ألا تعقلون!؟

جاء الإسلام ليحرر البشرية!

إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ

كاف الخطاب في (ربك) الكاف الودادي المحمدي، ولو قال: أنا رب كل شيء، فمحمد فرد من آلاف مؤلفة من الأنبياء، ولكن قال له: أنا ربك، ارفع رأسك، فإنك بأعيننا، خطاب فيه حزم وعزم.

إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ

تقرأ من وجهين: لرسول الله ولورثته، وللجبابرة

أحدهما: لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تخف، أنا لهم بالمرصاد، وهم تحت المراقبة، ولورثته من العلماء الربانيين من بعده، يشد أزرهم ألا يخافوا، ولا يجزئوا، من جبابرة الشياطين، كما دمرناهم من قبل، سندمرهم إن كرروا الشياطين عليكم.

والآخر: تهديد للظلمة وأعدائهم أنا أصدكم ومتابعكم أيها الطغاة، الذين تقفون في وجه الإسلام والدعوات الإصلاحية، ويحذروهم من الظلم، ولا سيما ظلم الاصلاحيين، الذين يأمرون بالعدل والإحسان والخير، وينهون عن الفحشاء والمنكر والبغى، قوله جل في علاه: “ ولقد أهلكنا القرون ممن قبلكم، لما ظلموا” ١٠: ١٣.

لقد كانوا يفسدون وحلم الله وصبره يسعناهم، ويرصدناهم حتى إذا ما ظلموا، تخلى عنهم حلم الله وصبره.

وبعد أن طوى صفحة رموز الطغاة وهم قلة يدورون مع الزمن، تحول للقاعدة العريضة من الميسورين، ويصور نفسيات بعضهم من الداخل، وكيف يتعاملون مع الله من جهة؟ وكيف يتعاملون مع ضعفاء المجتمع؟ وعندهم المال هو المعيار الوحيد، ويريد الله أن يحول مفهوم هذه الكتلة البشرية ويجعلها مرتبطة مع القدر، وفي القدر:

يسر وعسر، ضحك وبكاء، صحة ومرض، غنى وفقر، سلم وحرب، حر وبرد، مطر وجفاف... فيقلب الله عباده بين هذه الظروف المختلفة، ليميز الخبيث من الطيب.

وربنا لا يعطي بالمصادفة، ولا يأخذ بالوهم، لمن يستحق، ومن لا يستحق، إنه بالمرصاد لكل فاعل خير يعينه، وينصره، ويرصده، وبالمرصاد لكل طاغية، فإن غضب الله غضبٌ للحق، ولا يأخذ إلاّ بحق ليزهق الباطل. وعندما انتقم لهرة حبستها امرأة، وأدخلها النار، لخلو قلبها من الرحمة للحيوان، ومن لا يرحم الحيوان لا يرحم الإنسان، وعندما سقت بغيّ كلباً، رحمها الله للرحمة التي فيها، فأدخلها الجنة. ” بالحق أنزلناه، وبالحق نزل“

كرامة الدواب بكثرة العلف، وإهانتها بقلته:

الكرامة بقدر التمسك بمنهج الله، والإهانة بقدر البعد عن منهج الله، ومن اختلت موازين العقيدة عندهم، يرون الكرامة بكثرة المال، كما ترى الدواب كرامتها بكثرة العلف، وشقاءها بقلته.

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَّهُ رَبُّهُ، فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾

أكرمه الله إذا نجح بالابتلاء والامتحان، وأما في المال، سيسأل:

- من أين اكتسبه؟

- وكيف استثمره ونهاه، ونفع به البلاد والعباد؟

- وأين أنفقه، وهل أعطى كل ذي حق حقه؟

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَّهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾

نعم...! ابتلاه بالحاجة ليرى هل يسرق؟ أو ينافق؟ أو يروج مخدرات؟ أو يصبر ويحتسب؟ العز كل العز بمنهج الله، والإهانة كل الإهانة بالتمرد على منهج الله.

رأى المهان جانباً ونسي تسعةً وتسعين جانباً، رأى الكمية عنده قليلة، قياساً لما عند الآخرين في محيطه، ونسي أن أولاده بصحة وعافية، وأولاد الآخرين ما بين مطعون بصحته، ومطعون بأخلاقه، ونسي أنه ينام ويستيقظ متى يشاء؟ ولكن الآخرين إما يطاردهم القانون أو المرض، ولا يدري أحدهم يمسى عليه المساء وهو في السجن أو المشفى أو القبر؟

نسي الشقي قانون العدل الإلهي، يعطي في زاوية ما، ويختصر في الأخرى، والمحصلة النهائية واحدة.

والله زجر الفريقين:

زجر الفريق الأول: فريق الأغنياء الذين يملكون المال، ويظنونهم كل شيء، وينسون المحافة على كرامة الضعيف، «كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ» وهنا طالبهم بالمرحلة الأخيرة، معناها هم قد سبق لهم وأن آووه، وكسوه وأطعموه، ولكن ما حافظوا على كرامته، وهددهم بإبطال صدقاتهم إذا مسوا كرامة اليتيم، بقوله تعالى: «ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى» حافظ الله على كرامته أكثر من لقمته.

أمره بعد أن تأتية زينة الحياة الدنيا من المال والبنين، والقناطر

المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة، ويخرج في كل ساعة على قومه بزيتته وبحلة جديدة وسيارة فاخرة، ويقول: إن ما أوتيته على علم عندي، ويصبح قارون زمانه، وقد يطغى ويتجاوز كل الحدود كصاحب الجنتين في سورة الكهف، الذي خاب ظنه بقيام الساعة، وأنكر أن هذه النعمة تتحول عنه، وطمع

إن كانت هناك آخرة، سيجد أفضل من ذلك، وهذا توصيف الله لحالته وهو يخاطب صاحبه الفقير الصالح: “ وما أظن أن تبيد هذه أبداً، وما أظن الساعة قائمة، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ” لقد رسب في امتحان النعمة.

وهذا موسى عليه السلام عندما فر من مصر بعد أن وكز القبطي ففضى عليه، فصار شريداً طريداً خرج يترقب الرصد واللاحق به، إلى أن بلغ مدين، بلا أهل ولا وطن، ولا يحمل مالاً ينفق على نفسه، حتى ضاقت عليه نفسه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، لجأ إلى ربه قائلاً: ” قال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ” ولما نجح بالامتحان جاءته إحداهما تمشي على استحياء، ووجد أهلاً خيراً من أهله، فوجد زوجاً، وبيتاً، وعملاً مضموناً لعشرة أعوام.

المسألة كما يتوهمها بعضهم بأن إقبال الدنيا إكرام، وإدبارها إهانة، بل اختبار للجميع للغني هل سيشكر؟ والفقير هل سيكفر؟

كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾

ويطالب الله المؤمنين من طرف خفي، أن يقدموا شيئاً جديداً للعالم، ولم يقل لهم: لا تظلموا اليتيم، وكأن مسألة الظلم انتهت من الماضي، بل قال: لا تكرمون اليتيم، وهذا الذي يريد نقل الأمة إليه، ولم يقل: ولا تطعمون المساكين، بل قال: ولا يحض بعضكم بعضاً على حمل الضعفاء في الملهمات والأزمات، لأن صوت المعدة أقوى من صوت الضمير، والمذاهب الهدامة، والمخدرات، والدعارة، والجانسونية ... تجرد المناخ الملائم في ضعفاء المجتمع، وهم الصيد المشاع...

زجرهم بالحد الأدنى من الاستطاعة، فالإكرام يتحقق بالكلمة الطيبة ويستطيعها أي إنسان، ويملكون أن يحضوا الأغنياء على الإنفاق، ربما الإنسان لا يملك مساعدة الناس بكل شيء وهناك أحمال فوق طاقة كثير من الناس، لكن لا يعفيه لو يعرف أحداً

يعين محتاجاً بحاجته الخاصة. كلاً، نهر وزجر لهم، وزعمكم بأن من أوتي المال تكريماً له، وأنه يستحق التكريم عندنا، لأنه أحسن إلينا، أو أنه زرع مسماراً في السماء التي بنيناها بأيدٍ، لا هذا، ولا هذا... ومن ضيقنا عليه رزقه، فقد أهناه.

والسؤال المرّ والعلقم: كيف إن كانوا ممن لم يسمعوا بشيءٍ يتيماً؟ أو ممن أفطروا باليتيم وتغدوا بالأرملة...؟

ما الفرق بين الميراث، والتراث؟

لعل الميراث الذي جمعه صاحبه من الحلال، ولعل التراث الذي نهبه نهباً وسلباً وفيه الميتة والموقوذة والمتردية والنطيحة، والله أعلم.

وتأكلون المنهوب الملموم بدون تفتيش اللقمة ”وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا“ ولو كانت منهوبة أو مسلوبة أو ملمومة تحت أي مسمى مزور، كمسمى الهدية أو الإكرامية... أو قانون مشي حالك!

وزجر الفريق الآخر: فريق المقدّر أو المقتر عليهم بالرزق أو الفقراء بأمرين:

الفقير السلبي في المجتمع لا يعفى، فإن كان لا يملك المال، ولكنه يملك بأن يحض الأغنياء على الخير ”وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ“ ويكون شريكهم في الأجر. وفي الآخرة كلاهما متساوٍ في الأجر.^(١) وهذه قصة فتاة أهملها الجيران، حتى عميت...

(١) سئل أحد الأغنياء عن أطرف موقف له مع العمل الخيري، كونه يذهب بنفسه إلى البيوت الفقيرة، ويدفع قدر الحاجة، قال: بأنه قرع باباً محطماً، فخرجت طفلة بثماني سنوات، أين أبوك؟ مات. أين أمك؟ ماتت. من معك أختي، أين هي؟ عمياء. ممكن أدخل، نعم، وجدها دون العشرين، منذ ولدت عمياء؟ قالت العمياء مرضت من بضع سنوات، وبعدها فقدت بصري، تتعالجن؟ نعم. أخذها بسيارته والدمعة تحترق، فطلب المشفى النفقات فقط، ستين ألف ليرة سورية، -آنذاك- فدفعت المبلغ، وطلبوا ولي الفتاة ليقوع على العملية، فعرفوا جميعاً ليس لها ولي إلا الله، هو وليها ومولاها، فالطبيب المعالج قال لا أعالجها: حتى أدفع نصف المبلغ، فكان له ذلك!! نحن أمة جوادة وخيرة نيرة... لكن المشكلة بمسألة الثقة، التي هزها النصابون.

نعم!

حتى عميت! ...

والجيران قد يعذرون من الفقر، ولكن لا يعذرون من الحض على علاج هذه المسكينة، التي عميت دون العشرين.

أين ألسنتهم؟ أين قلوبهم؟ وضمايرهم؟ وسيسألون عن هذه السلبية « وقفوههم إنهم مسؤولون » الصافات: ٢٤.

وفطر الناس على الأخذ وليس على العطاء، وعلى الانتفاع وليس على النفع، وفطروا على حبهم للمال « وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا » وحب التملك إن طغى تملك قلوبهم وعيونهم وأعمى أبصارهم عن القيام بالعمل الخيري، وبالذعوة إلى الله، وبالإقبال على الله، بصلة الأرحام، وبالإصلاح بين الناس.

ولو كان الإكرام والإهانة يقاسان بالمال، لأكرم الله موسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام. وما اشتغلا بالحرف كالرعي والتجارة.

وهذا خبر موسى عندما ورد ماء مدين، بلا رغيف خبز، ولا مأوى، ولا أهل: « فقال رب، إني لسمأ أنزلت إليّ من خير فقير » وهذا رسول الله وزوجاته، يمر عليهم الهلال والهلالان ولا يوقد في بيتوهن نار، ويعيشون على الأسودين التمر والماء.

وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

ووصف أنهم يأكلون الموروث بدون تدقيق فيه، ولما عدلوا عن الحق عدل إلى « التراث » بدل « الميراث » لأن الميراث هو المال الذي كان يجمعه الميت بموازين الحق، والذي جمع نهياً وسلباً سماه « تراثاً » ولما عدل عن خط جمعه،

عدل القرآن عن تسميته، لأنه لمه من الناس لماءً، وبعض الموظفين الذين يزرعهم الدهاة في مراكز احتكاكية مع الناس، ويتحول الموقع إلى بقرة حلوب على مدى اليوم والليلة والوظيفة، أو يتحول إلى صنبور ذهب قطره مائة (إنش) يصب في حياضه، أو بئر نفط، لأنه بين عشية وضحاها، يصير من أصحاب القيعان والأطيان، ولا يمكن أن تتحقق له صورة الغنى السريع، لولا الانحراف في كل الاتجاهات، وتحبون المال حباً جماً بتكديس بعضه على بعض، وبدون تفتيشه، لأن فيه عصارة أكباد الضعفاء، أكباد العمال الذين لا يملكون إلا زنودهم، المهم المال، وليس الأكباد، وعندهم الأكباد تولد أكباداً جديدةً جاهزةً للحلب...

ويريد الله أن يوصل إلينا رسالته من خلال لومه لأقوام مضوا، كانوا عبيد الدرهم والدينار، فتعسوا، وتعست رسالتهم. وكأن النص لا يكتفي بتحذيرنا من النهب المباشر وهذا ما لا يفعله المؤمن الكامل الإيمان، وإنما يريدنا نفتش الموروث قبل استلامه، نفتش ما جناه غيرنا ممن نرثهم من الأهل، ونفحصه، إن كان حراماً نرفع أيدينا حتى نعلم الناس الورع. حتى نتميز عن سبقنا وعاصرنا في كل شيء.

وتحول النص نحو تبدلات الكون الكبرى، يوم تبدل الأرض والسماوات، ويريد الله أن يرسل رسالة توحيد ضمنية، كونه الوحيد في ملكه، الوحيد في قراره: "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا لله قانتين..." ١٤: ٤٨. والرسالة الدعوية في هذه المشاهد الغيبية التي هي ركن من أركان الإيمان، للزجر والتخويف، من باب الرحمة والشفقة، لعلهم يتوبون أو يتذكرون، وليس للتخويف من أجل الإذلال.

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿١١﴾

الزجر والتخويف، للرحمة والشفقة حيطة، وليس للإذلال.

ويبرز لنا القرآن صوراً من صور الآخرة، عندما يتجلى الله على الجبال فتصبح كثيباً مهيباً، كما في قوله تعالى: « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً... » ٧: ١٤٢ .
ويصور لنا القرآن مراحل تبدلات الأرض وهي تتدرج نحو النهاية المحتومة لكل موجودات هذا الكون، تبدأ بالرجف ثم الرج ثم الزلزلة ثم مرحلة التسوية والتمهيد ثم الدك ثم كما قال جل في علاه: “ يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة “
موجة تجري وراء موجة: “ يوم ترجف الأرض والجبال... “ الأرض كل الأرض مع أوتادها، و « إذ ارتجت الأرض رجاً وبست الجبال بساً » ثم تأتي مرحلة الزلزلة: « إذا زلزلت الأرض زلزالها » وانتهى كل شيء، ثم تأتي مرحلة التسوية، وتجهيز المكان قبل بدأ الاجتماع الكوني، فلا بد من دكدت المكان المرتفع ليتساوى مع غيره: “ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا “ قبل أن تصل وفود الملائكة الأعلى، ثم تحشر بالمكان المعد عوالم الإنس والجن والحيوان.

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾

المجيء معلوم والكيف مجهول، وهذا من الغيب الذي تؤمن به مطلقاً، ويكون مجيئه بعد أن تأخذ الملائكة مواقعها في الصفوف. والهيبة والرهبنة تملآن الصدور، ويلتف الساق بالساق من هول الموقف، وإلى ربك المساق، عندها تلتوي الرجل بأختها من الخوف والاضطراب.

جهنم جندي من جنود الله، تعشق دورها، وتنتظر اليوم الموعود، وبشرها الله بأن لها زبائن كثيرين من الجن والإنس.

وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَاتِّقَ لَهُ الدِّكْرَىٰ ﴿٣٣﴾

فجهنم لم تأت، ولكن هناك من جاء بها، كيف يجاء بجهنم؟^(١) لا ندري؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها“ صحيح مسلم والترمذي. هذه الأرقام أسلوب عربي للتهويل والتكثير، وذات الرقم ليست مقصودة، ولو جمعناها أرقاماً تكون خمسة وأمامها تسعة أصفار. وهل هي فرن نووي يتحرك على عجلات؟ أم هي تمشي بنفسها، ولكن جروها حتى لا تحيد من شدة الاضطراب والغليان؟ أم هي صورة للترهيب والزجر؟ وإلا قوة ملك واحد يقلب الأرض، فكيف بخمسة بلايين ملك يجرونها؟.

وجهنم جندي من جنود الله، تعشق دورها، وتنتظر اليوم الموعود، وبشرها الله بأن لها زبائن كثيرين من الجن والإنس، وطمانها على وظيفتها الدائمة، قوله تعالى: ”ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ١٧٩: ٧. والمعافى من عافاه الله! وتنتظر اليوم الموعود، وعندما تراهم من مكان بعيد، تبدأ تتلمظ، وتزأر، وتزفر استعداداً للترهيب والتخويف، كما في قوله تعالى:“

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ الفرقان: ١٢.

وبعد أن يدخل الكافرون والمنافقون في جهنم جميعاً، تُسأل جهنم، هل امتلأت؟ فتقول مشتاقة: هاتوا ما عندكم.

«يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ؟ وَتَقُولُ: هَلْ مِن مَّزِيدٍ؟ ق: ٣٠.

وعندما تكتمل الحشود، تبدأ مسألة الترحيل والدفع ”وسيق الذين

(١) تفسير ابن كثير - (ج ٨: ص ٣٩٩)

كفروا إلى جهنم زمراً ” عندها يفيق الغريق، ويصحو السكران، ويتبته النائم، وتعض الأنامل من الندم، الآن يتذكر الإنسان، ويندم، ويتحسر؟ وحسرتة من اللهب، تلهب الدنيا، ودمعته تغلي كغلي الحميم، وكلاماته شاطت حروفها... بل احترقت... و احترقت!!

يا ابن آدم... الآن ندمت! وتمنيت! وقد عصيت...؟

يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾

يتمنى في الوقت الضائع، والأمني سميت أماني لأنها غير قابلة للتحقيق، كقول الشاعر:

ألا ليت الشباب يعود يوماً... لأخبره بما صنع المشيب

والشباب لن يعود، ويتمنى الكافر الظالم الطاغية: ياليتني كنت تراباً!

حجم العذاب بقدر عظمة المعذب

فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

وأسند العذاب والوثاق إليه سبحانه وتعالى: “عذابه - وثاقه” ليس من باب التشفي، ولكن لتحجيم الغرور والفلتان عند الطغاة، من أمثال قوم عاد وهود وفرعون... هذا ترعيب من أجل أن يرفع درجة الخوف، لأن حجم العذاب بقدر عظمة المعذب، ولا تستوي ضربة الطفل بضربة الرجل الشديد مادام « ليس كمثلته شيء» وعذابه ليس كمثلته عذاب، وإيلامه ليس كمثلته إيلام، وفي هذا إيحاء لرموز الطغاة، والذين سيأتون في قادم الأيام، وكأن القرآن يقول لهم: أنتم تُعذَّبون، ولكن عذابي أشد، وأنتم توثقون، ولكن وثاقي أشد. وأنتم تموتون، وأنا الحي الذي لا يموت.

وينتقل الوحي إلى تبشير النفس مطمئنة في الدنيا، بأنها مطمئنة في الآخرة.
العلاقة بين الجسد والنفس والروح، كالعلاقة بين السيارة والسائق والبترول.

يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾

ولو ضربنا مثلاً مبسطاً، قلنا: النفس هي السائق، والجسم المركبة، والروح هي البترول، والنداء هنا للنفس، للسائق الملتزم المستقيم!!

فالمعنى دقيق وخفي: النداء فردي وموجه للنفس، ولم يوجه للروح، أو الجسد، بل للنفس لأنها هي التي تتحرك ذات اليمين وذات الشمال، بل هي السائق الذي يقود العربة، قد يلتزم بأنظمة السير، ويبقى مطمئناً، وقد لا يلتزم بشروط الأمن والسلامة، والروح هي نفخة النور والحياة في آدم عليه السلام، والنور ساكن هادئ، والنفخة هي الطاقة التي تحرك الجسد، بل هي البترول في العربة، والجسد هو الهيكل المسخر تحت تصرف السائق.

ولم يأتِ الخطاب جماعياً: يا أيُّها الأنفس مطمئنات... والخطاب الفردي تكريم لكل واحدة بذاتها، ولا توجد واحدة غائبة بالسهو أو من الزحمة، ولا توجد واحدة مندسة من خارج المطمئنات.

والخطاب يحمل كل الود والحنان، وهذه أولى البشائر، كباقة الزهر والعطر التي تقدم للطالب الناجح، قبل تسليمه الشهادة، ففي هذه الباقة كل الشهادات.

أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾

ارجعي من حيث جئت، ارجعي إلى من أرسلك للخدمة في معسكر الحياة،

وقد تم تسريحك من الخدمة العسكرية، وقد قمتِ بالواجب خير قيام، وخدمتِ بجيش الإسلام أحسن خدمة، ارجعي إلى من أرسلك وكلفك، أنت كنت راضية عنه، عندما محصك بكل الظروف، وهو راضٍ عنك على هذه الطمأنينة خلال الخدمة في جيش الإسلام.

لماذا قدم جنة الأنبياء، على جنة الأزهار والأنهار؟.

فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾

فادخلي في عبادي، ولم يقل: فَادْخُلِي... في المسلمين أو المؤمنين أو عباد الدرهم والدينار وجاءت "في" لأنه ظرف غير حقيقي، من أجل أن يتعدى الفعل، وقال: في عبادي، كعالم السمك لا توجد لهم مجالس منضودة، هم عالم خيالي متحرك مفتوح على كل الجهات، أي ارتفعت الحواجز بين الطبقات، فالنبيون والصديقون والشهداء والصالحون، هم جنة داخل الجنة، والكل يريد القرب منهم، ويزداد السعيد بهم سعادة وسروراً، ونوراً، قدم الدخول عليهم على الدخول إلى الجنة، ومهما كانت الأشجار والأزهار والأطيار محبة للنفس، لكنها لاتداني لذة النظر إلى الأنبياء صلى الله عليه وسلم...

وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾

وأدخلي جنتي أضافها إليه، أي خصوصية الخصوصيات، مادام الجنة العامة، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت... خصوصية تكريم، فكيف بجنة الجنات؟؟ كمن يقول لضيفه: أنت تنام بغرفتي، وليس بغرفة الضيوف.

وقال سعيد بن جبير: مات ابن عباس _رضي الله عنهما_ بالطائف فشهدت جنازته، فجاء طائر لم نرَ على صورة خلقه فدخل نعشه، ثم لم نرَ خارجاً منه، فلما

دفن تليت هذه الآية على شفير القبر، ولم ندر من قرأها: ”يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي“ (١).

وهذه بشارة لكل مستقيم، وخص الله بها ابن عباس، ولو بقيت غيباً لم يدر بها إلا ابن عباس، وما دام أظهرها الله، هي لنا جميعاً، ولعل سائلاً يسأل: لماذا لم يقع مثل هذا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد وقع الكثير ولم ينقل إلينا إلا ما شاء الله، ينقل، وهذا أبو بكر عاش مع النبي ﷺ من الطفولة للممات، وروى بحدود سبعين حديثاً، بينما أبو هريرة عاش مع النبي ﷺ ثلاث سنوات روى عنه (٥٥٠٠) حديث تقريباً.

وأخيراً، النبي ﷺ مات، ورب النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت، فعال لما يريد في خلقه وملكه، وهذه المكرمات تستمر إلى يوم القيامة، لأن هذه الخوارق تقوي إيمان الناس، فهي محطة ضخ دعوية، لمن يصدقها، وغير ملزمة للآخرين من ضيقي الآفاق من مجبري الناس على التصديق أو الإنكار، ويحولونها إلى حرب داخس والغبراء.

(١) تفسير البغوي - (ج ٨ : ص ٤٢٥)

سورة البلد مكية، وآياتها عشرون آية

وترتيبها بالقرآن (٩٠)

وفي التنزيل المكي (٣٥)

مطلع السورة يصحح الموازين لجيران الحرم المكي، ويرد الأمور إلى أنصبتها، كانوا يظنون أن الكعبة هي أقدس المقدسات، وما كانوا يعلمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم أقدس منها، فلن يقسم بها، مع وجود محمد صلى الله عليه وسلم حالُّ بها.

وتأتي بعدها أرض الحرم أقدس من بكل بقاع الأرض، وكل الأرض مقدسة لأنها تبيح الصلاة لفاقد الماء بالميم، وهي سجادة مفتوحة لكل راع وساجد.

والإنسان مقدس، لأنه سيد هذا الكون. وكل ما في الكون في خدمته.

ويشي هذا الكلام بتوتر ساخن يدق فهمه على أكثر الناس إلا على جيران الحرم لأنهم المقصودون بهذا الملام، ويغمز أهل وادٍ غير ذي زرع، الذي يعتزون بهذا البيت، وهذا حقهم، لكن الذي فاتهم لم يميزوا بين البشر والحجر، وأيهما أولى؟ وإن الله عندما قدس مكة، أين كان سكان مكة؟ لم يؤخذ رأيهم؟ ولما قدس النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤخذ رأيهم، ويخلق ربك ما يشاء ويختار.

جاءت بأربعة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١- ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾
 ٢- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا بَدَأَ ۝٦ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾
 ٣- ﴿فَلَا أَقْنَمُ الْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُ رَبِّهِ ۝١٣ أَوْ إِطْعَمُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾
 ٤- ﴿تُرْكَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَثَائِبُهَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ۝٢٠﴾

جاء استهلال سورة البلد متعدد المعطيات الدقيقة والخفية، لذلك حامت الرؤى حوله، وكل طالب علم قد أخذ حظه بما قسم له الفتاح العليم، والقرآن كريم لا يرد طالب علم مسلماً أو غير مسلم ومن غير المسلمين لهم أبحاث في القرآن الكريم مثل (جول لابوم)^(١)، والله يزكي قرآنه بكرم النفاسة وبكرم العطاء بقوله تعالى: «وإنه لقرآن كريم» الواقعة: ٧٧. وجاءت مفردة كريم نكرة، لتستوعب جميع أنواع الكرم من حيث كرم النفاسة والعطاء، ولا يرد طالباً.

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣
 لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤

استهللت السورة بقسم مسبوق بنفي، وبسبب هذه الصياغة الجديدة، عرق

(١) راجع البحث الأول من موضوعات جزء عم، وقد تقدم في أول الدراسة، ص: ٢٩.

الجبين وكثر الأنين لدى العلماء المدققين بالقرآن، ومنهم ابن عطية:

وملخص ما ارتآه حول النفي: لا، رد حاسم جازم، على خصم معاند، يطلب من باب اللجاجة، فيأتي الرد، لا.

ومنهم من رأى، أنه أسلوب من أساليب العرب في القسم، فتدخل ” لا“ للتأكيد، ومنهم من رأى: لا أقسم بهذا البلد، وإن جاء أهله بأعمال توجب إحلال البلد الحرام لك- يا محمد ﷺ- لتردع هؤلاء الذين يجرمون قتل الطير في البلد الحرام، ويستحلون قتلك وقتل أصحابك. وقد قتلوا أم عمار بن ياسر، رضي الله عنهم، وهي أول شهيدة بالإسلام في مكة، وماتت بالتعذيب.

وسورة البلد مكية وفي بداية الدعوة، وتقرأ من وجهين:

١- وجه للنبي وللمسلمين الجدد وللدعاة الربانيين من بعده.

٢- ووجه آخر للكافرين والمعاندين للدعوة.

البلد الحرام مقدس، والإنسان أقدس، ومحمد أقدس المقدسين.

وأما ما كان للنبي: لا أقسم بهذا البيت العظيم، في البلد العظيم، وفيه أعظم عظيم من البشر: محمد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولو أقسمت، لأقسمن به، وبهذا رفع قيمة الإنسان، وأظهر مكانة النبي ﷺ والدعاة من بعده الذين هم ورثة الأنبياء، الدعاة الذين يحيون، ويموتون من أجل الإسلام، وليس من أجل المجد الشخصي.

وأما ما كان للمشركين ولأعداء الدعوة إلى يوم القيامة، كانت قريش تعترز بالبيت الحرام، وتستمد مجدها وعزها ورزقها منه، فلا ترى بعده شيئاً، ومعها شيء من الحق، ولكن الله أراد أن يصحح الموازين والمفاهيم والمقاييس، بين

تقديس الأماكن، وتقديس الأنبياء، هذا البلد الأمين مقدس، ومهما كان مقدساً، فالإنسان أقدس، وأقدس بني البشر هذا الذي تعادونه، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وللعلماء الربانيين نصيب من ميراثه في الاحترام.

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣)
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤)

لقد أقسم بالبلد، وأقسم بمحمد ﷺ، وأقسم بإعجازية التوالد وضبط النسب، وأقسم بألية المكابدة التي تسكن الإنسان.

ولقد ثبت علمياً، بأن الكعبة مركز العالمين القديم والحديث، وهي مركز الدائرة الأرضية.

أقسم الله بالبلد الحرام مركز الدائرة في الأرض، وهذا ما قرره العلم الحديث: الكعبة مركز العالمين القديم والحديث، وذلك بواسطة استخدام الحاسب الآلي لقياس المسافات بين مكة والمدن الموزعة على أطراف الأرض، فجات النتائج ثمانية آلاف كيلو متر، وعلى بعد واحد من مكة، وتبعد أطراف العالم الجديد - أي بعد أن تمزقت الأرض إلى خمس قارات - ثلاثة عشر ألف كيلو متر، وعلى بعد واحد من مكة، وخلاصة القول: إن الكعبة هي المركز الهندسي للأرض، وهذا ما يستوحى من قوله تعالى: "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعلمين" ٣: ٩٦. (١)

وأقسم بالآية الكبرى آية التوالد، في الإنسان والحيوان، والرحمة في الوالدين تجاه المواليد حتى الحيوانات المفترسة التي تأكل بعضها، إن لم تجد ما تأكله، لا تأكل صغارها، والسياق هنا يريد المؤمن، لارتباط القلوب فطرياً بمكة

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، آيات الله في الآفاق، د: محمد راتب النابلسي، ص ١٧١. باختصار.

المكرمة، كارتباط الإبر المغنطة بالقطب، وديمومة هذا الارتباط إلى يوم القيامة، وفي الظلال: ”والبلد هو مكة . بيت الله الحرام . أول بيت وضع للناس في الأرض . ليكون مثابة لهم وأمناً . يضعون عنده سلاحهم وخصوماتهم وعداوتهم ، ويلتقون فيه مسالمين ، حراماً بعضهم على بعض ، كما أن البيت وشجره وطيره وكل حي فيه حرام . ثم هو بيت إبراهيم والد إسماعيل أبي العرب والمسلمين أجمعين» .

وللأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في هذا الموضوع من تفسيره للسورة في « جزء عم » قال رحمه الله :

« ثم أقسم بوالد وما ولد ، ليلفت نظرنا إلى رفعة قدر هذا الطور من أطوار الوجود وهو طور التوالد وإلى ما فيه من بالغ الحكمة وإتقان الصنع ، وإلى ما يعانيه الوالد والمولود في إبداء النشء وتكميل الناشئ ، وإبلاغه حده من النمو المقدر له » .

« فإذا تصورت في النبات كم تعاني البذرة في أطوار النمو : من مقاومة فواعل الجو ، ومحاوله امتصاص الغذاء مما حولها من العناصر ، إلى أن تستقيم شجرة ذات فروع وأغصان ، وتستعد إلى أن تلد بذرة أو بذوراً أخرى تعمل عملها ، وتزين الوجود بجمال منظرها إذا أحضرت ذلك في ذهنك ، والتفت إلى ما فوق النبات من الحيوان والإنسان ، حضر لك من أمر الوالد والمولود فيهما ما هو أعظم ، ووجدت من المكابدة والعناء الذي يلاقيه كل منهما في سبيل حفظ الأنواع ، واستبقاء جمال الكون بصورها ما هو أشد وأجسم » .

لِمَ نسبة الذكور في الإنسان والحمام، غيرها في الدجاج والنخيل؟
والإعجاز الخفي يكمن في استمرارية التوالد، والحفاظ على نسبة الذكور

والإناث ففي البشر والحمام تعادل بين الجنسين تقريباً، وفي الأنعام عدد الذكور قليل بالنسبة للإناث، ولو أخذنا مائة بيضة دجاج تفقس معظمها إناثاً مع بضعة ديكية، ومثلها شجر النخيل، من كل مائة فسيلة، يخرج بضعة ذكور، فلا بد من قوة مطلقة تملك أنظمة حواسيب لكي تحافظ على نسب معينة بين الذكورة والأنوثة والعقم لكل جنس.

آيتان متلازمتان:

تلازم آية المواليد وآية الشوق والتوق للبيت الحرام، حتى من غير الملتزمين بدينهم، فالفرد الذي لا يصوم ولا يصلي ويرتكب الفواحش، إذا جاء زمن الحج أو العمرة، بذل ما بوسعه حتى يصل إلى البلد الحرام، وهناك تعلق فطري حتى من غير المسلمين، فكثير منهم تسلل إلى مكة في زمن طفرة البترول ووجود العمالة من شتى بقاع الأرض، والآن طبية مسيحية من بلاد الشام تتمنى الوصول، وتوصي الحجاج بالدعاء لها.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾

لقد أقسم الله بالبلد الحرام، وبآية الله العظمى آية التوالد، والارتباط الديمومي بينهما، وجاء جواب القسم، لقد خلقنا هذا الإنسان في كبد متواصل، ولم نأخذ رأيه عندما جئنا به من الغيب، ثم نذهب به إلى الغيب. وهذه مفاصل من مكابדתه:

مكابدة الولادة التي تبدأ حياته بالصراخ من اللحظة الأولى، وتنتهي بالأنين، والندب على مافات من السنين، ولات حين مندم. ومكابدة الرضاعة والمشى والمحادثة والتعليم والحرفة التي يمتنها... ومكابدة الأسرة والشيخوخة.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾

ولماذا خلقه في ضعف وكبد؟ ليبقى في حاجة مستمرة لمن خلقه، ويطلب العون والمدد منه.

ففي نفسه مكابدة مريرة ومستمرة بين النفس اللوامة، والأمانة، مكابدة الصراع بين الشهوات، والقيم، والحاجات، والمبادئ.

وفي جسمه مكابدة بين الصحة والمرض والحياة والموت، ومكابدة الخلايا التي تموت، ويحل محلها خلايا جديدة بالملايين، ومكابدة الدم في العروق، والمعارك الضارية بين الجيوش الجرثومية الغازية والجنود المدافعة في الأوعية الدموية والخلايا... ويصبح الجسم كله في خطر أحياناً، وصاحب الجسم نائم لا يدري ما الخبر!!

والمكابدات الخفية والسرية التي لم يكتشفها الإنسان في العلاقة بين الصحة والمرض، تفوق الذي اكتشفه الإنسان من المكابدات بآلاف المرات... هذه المكابدات تجعله دائماً كلما حس بخطر خارجي يداهمه، يقول:

أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق،... وكلما حس بألم نفسي، وتضارب بين المعتقدات والمشتهيات، يقول:

أعوذ برب الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس... الناس

ومن المكابدة الدائمة في بؤرة الشعور، هي الخوف المتواصل من الموت، فالماشي على قدميه خائف، وراكب الدراجة والسيارة والطيارة خائف من الموت، والراعي والأمير والوزير خائف من الموت والذين هم في وسط البروج المشيدة،

أكثر الناس خوفاً من الموت.

وكم يكابد المرء عندما لا يعجبه تاريخ أبويه؟ أو دمامته الشخصية؟ أو حظه العاثر من زوج ناشز، أو ولد عاق، أو عافية مهزوزة، أو مقتر عليه بالرزق...؟
المكابدة هي الحبل بين العبد وربّه، وهي العروة الوثقى التي يستمسك بها، وفي حالة الطغيان والعصيان ينقطع الحبل، ويصبح كالحصان المتفلت العائر، فيظن أن لن يقدر عليه أحد، ويظن أنه بعيد عن المراقبة والمتابعة، ولم يره أحد.

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾

ويتجه السياق إلى شخص بعينه، أو إلى نموذج من البشر يتكرر، نموذج المتفلت من منهج الله، منهج السكارى وما هم بسكارى، السكارى بالوهم المريح، بأنه امتلك القوة من أطرافها، وامتلك الأموال بكل أصنافها، وبنى فيها مجداً - كما يظن - في التبذير والتدمير، وسيكتب اسمه بجوار عمالقة الأرض، كما فعل أحد الأثرياء العرب في ألمانيا عندما دعا أكبر المشاهير في الأرض، ولم يحضر إلا نصف العدد، وكتب اسمه واسم عائلته بالليزر في السماء، وكان المسلمون في الصومال والبوسنة يموتون جوعاً في تسعينيات القرن الماضي، وكانت الكلفة أرقاماً قياسية، ربما ميزانية دولة صغرى.

والقرآن يخاطب بسر خفي ودي، هذا المخدر بوهم العظمة، ولا يحسب أن جنودنا وشهودنا، يسرون معه أينما سار، ويلازمونه كالظل. وينسى كل عضو فيه هو جندي لله، وشاهد عليه... كل هذا بلا هدف.

أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْتَهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾

لماذا له عينان؟

عين للبصر، وعين للبصيرة... عين للكم، وعين للكيف... عين للحدث،
وعين مَنْ وراء الحدث؟ عين ترى البعير، وعين ترى كيف خلق البعير؟ « أفلا
ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ »

له عينان يبصرانه قبل أن يبصر بهما، ولسان يخاطبه قبل أن يخاطب الآخرين،
وشفتان تطبق إحدهما على الأخرى حتى لا يتفلت اللسان هذا السارد الشارد،
ونجدان كلاهما شاهد وقائد، إمّا إلى جنة أو إلى نار، ولا ثالث لهما، وكل الأعضاء
له، وعليه بآن واحد، كما في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ النور: ٢٤. هذه الأعضاء جنود مأمورة تنفذ ما طلب منها،
وهي راضية أو غير راضية، وشهادتها تؤكد عدم رضاها، وهذه صورة أخرى
أكثر تفصيلاً ودقة. ﴿ وَتَكَلَّمْنَا بِأَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾
يس: ٦٥. الأيدي عملت، فتكلمت، والأرجل لم تعمل، ولكن حضرت،
فشهدت، ثم يتحول المشهد إلى تلاوم وتخاصم بين أعضاء الجسد الواحد: “
قالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا؟ قالوا: أنطقنا الذي أنطق كل شيء”
فصلت: ٢١. الجلود كل الجلود بفم واحد، قالت: أنطقنا الذي أنطق كل شيء”
وشهادة الجلد شهادة إحاطة بكل الأعضاء.

وشهادة الجلد شهادة السوار بالمعصم، شهادة إحاطة بكل الأعضاء،
والجلد شاهد على كل الشهود.

هلاً وجه الإنسان هذه الطاقات المالية والجسدية والعمرية نحو الخير في
البناء الإنساني والكوني.

فَلَا أَفْنَحُمُ الْعَقْبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقْبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُ رَقَبَةً ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ

﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾

بعد أن ذكره الله ببعض نعمه كالعينين واللسان والشفتين، يسأله متلوماً،
لِمَ لا تقتحم كل العقبات التي تقف في طريق الدعوة والخير؟.

فَلَا أَقْتَحِمُ الْعُقَبَةَ

«...الاقتحام الدخول بسرعة وضغط وشدة ويُقال قحم في الأمر قحوماً،
رمى نفسه فيه من غير روية، والعقبة الطريق الوعر في الجبل وفي البحر، وهي ما
صعب منه وكان صعوداً، والجمع عُقب وعُقَاب وهي هنا استعارة لما فسرت به
من الأعمال الشاقة المرتفعة القدر عند الله تعالى»^(١)

ومن كُبرى العقبات جهاد النفس والتغلب على الشح في سبيل المنهج
والأهداف الكبرى، ومن كُبرى العقبات أن يعطي المؤمن ماله بدون مقابل مادي أو
منفعة عاجلة، بل بوعد فقط، وفي الآخرة!! يتصدق على من يعرف ومن لا يعرف.

فطر الإنسان على الاستفادة وليس على الإفادة، على الأخذ وليس على
العطاء، وبدافع من الشح يخزن للأيام المقبلة، ومعظم عوالم الطير وغيرها، تغدو
خماصاً، وترجع بطاناً، حال الإنسان حال الأرض تستقبل بفعل الجاذبية كل ما
يقع عليها، باستثناء الطير والطيأة، يخالفان الجاذبية، ومثلها كل جواد وكريم
يخالفان جاذبية الشح، ويقتحمان كل عقبة.

الضعفاء في الأرض عيال الإسلام، من أي دين أو لون؟

لأن الضعفاء في الأرض عيال الإسلام. ولم يشترط النص فك رقبة مسلمة،
أو إطعام نسمة مسلمة محتاجة، أو رعاية أيتام المسلمين.

مالسر الذي يمنعه من اقتحام العقبة؟

(١) الألويسي، ٢٢: ٤٥٠.

« إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد... »

فطر الإنسان على الخوف من الفقر، وحب المال، وجمعه، والحرص عليه، ولاسيما في وجوه الخير، لذلك قدم الله الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في كل القرآن الكريم إلا في آية واحدة، قدم النفس على المال، قوله تعالى: “ فضل الله المجاهدين بأنفسهم وأموالهم على القاعدين درجة... ” ٤ : ٩٥ .

وفي كل الآيات يقدم الله المال على النفس نحو قوله تعالى: “ انفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله... ” ٩ : ٤١ . تقديم المال على النفس لاقتحام عقبة البخل والشح في المجتمع الإسلامي، من خلال المشاركة في حماية البلاد والعباد، ولكن في هذه الآية التي نزلت بمكة و المسلمون ما زالوا في المرحلة الابتدائية من حيث التعليم والتدريب، فذكر لهم بعض الأصناف من ضعفاء المجتمع، فإن نجحوا في هذه المرحلة، يثبتون عشقهم للمنهج وللتضحية في سبيله، ففي المراحل المقبلة سيكونون مهئين للتضحية بكل المال، أو نصفه، أو رבעه... أو بقبضة من التمر، كل على قدر وسعه، المهم لا يتخلى عن الدفع والرفع مع الجماعة، وقد تحقق كل ذلك!!

وهذا ما لم يحصل في تاريخ البشرية من قبل، ولا من بعد!!

أناس من البشر يغيرهم الإيمان حتى يصبحوا وكأنهم من كوكب آخر، يبيعون أنفسهم وأولادهم وأموالهم بوعود داخل الوعود، وبآخرة داخل الآخرة!! وتحول النص من التمحيص المالي والنفسي عند شريحة الأغنياء وأصحاب النفوذ، إلى الشريحة العامة، ويكلفهم باشاعة الصبر والتراحم، وهذا تكليف مقدور عليه، من العجوز والأعمى والأعرج، ويبدو في الصف الداخلة الطابور الخام يثبط ويهبط ويشوش ويزعزع، ويدعو للانتقام والالتحام، وينشئ الله له

فكراً وسلاحاً ودواءً مضاداً، باسم الصبر والتصبير والرحمة والترحيم.

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾

وعامة المؤمنين تتوفر بهم خصلتان: الإيمان المتعدي إلى الغير بالنصيحة، وبالإيمان نفسه يقبل النصيحة من غيره، ويتغير فعلاً، والخصلة الأخرى: الإيمان المتعدي إلى الغير بالرحمة، كالبغي التي سقت كلباً بدافع الرحمة، فالرحمة يعيشها ويوصي بها غيره.

والوصية بالنصيحة والرحمة، حياتها بالديمومتها واستمراريتها، فلو توقفتا كالماء إما فسدتا، أو ماتتا، بمثابة الماء للحياة.

المجتمع الإسلامي كالنحل لا يوجد به متفرج أو مصفق، كل له ميدان يعمل فيه وكل على ثغرة، فلا يؤتى من قبلها، وليس كل الصحابة كعثان... وعبد الرحمن بن عوف _ رضي الله عنهم _ يملكون المال ومطلوب منهم الإنفاق، ولكن هناك الشريحة الكبرى التي لا تملك المال، ولكن تملك النصح والإخلاص لهذه الأمة...

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٩١﴾
 وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴿التوبة﴾

نعم...!!

لا يملكون رصيلاً مالياً، ولكن يملكون رصيلاً من الإخلاص، ويتواصون بالصبر أثناء المحن والشدائد كأهالي (غزة) ظلوا محاصرين من العدو والصديق

أربع سنين، وإلا لا قيمة للصبر في زمن الرخاء، وأي قيمة للماء على شاطئ الفرات، ويتواصلون بالصبر في زمن يكثر به المرجفون والمشوشون باشاعات مختلفة، لضرب وحدة الصف من الداخل. ويتواصلون بالمرحمة للمسلم وغير المسلم، ويحققون رسالة نبيهم: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" ولم يكتف منهم بالإيمان بل طالبهم أن يجمعوا إليه الصبر والمصابرة والرحمة على الإنسان والحيوان، ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ « حتى يصلوا إلى مستوى أهل الميمنة:

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾

أشار إلى أصحاب الميمنة، فتوجهت الأبصار نحوهم، وصاروا معرفين بسيماهم وبصلاحهم في العالمين: الأعلى والأدنى، في الدنيا والآخرة، فالمؤمنون المتواصلون بالصبر وبالمرحمة والدفءون عليها، بشراهم كونهم من أهل الميمنة.

ويتحول النص إلى المرحلة الابتدائية لمسلمي مكة، وينشئهم على الخير، فيذكر لهم المحتاجين ولم يشترط دينهم: كفكك العبيد، والإطعام في زمن المجاعات، ورعاية الأيتام وعدم أكل حقوقهم من الأقارب، والمساكين الذين لا يجدون ما يأكلون، وهي المشكلات الحية القائمة، آنذاك، وما تزال قائمة ليوم القيامة من أجل اختبار الأجيال، وتريد حلولاً جذرية في زمنها وموقعها:

فَكُرْبَةَ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾
أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾

فكُّ رغبة : كان عتق العبيد من أولى أولويات الإسلام. وكان العبودية قيد في عنق الإنسان، وفي يوم ذي مسغبة : في يوم فيه جوع عام في زمن القحط أو الحروب. وظاهرة اليتيم عالمية، ومظنة الاعتداء عليهم ممن يحيطون بهم من

الأقارب والجيران متوفرة، ففي الحروب تكثر الأيتام، فيبدأ القرآن يحض قرابته .
أو مسكينا ذا متربة : فقيراً جداً، وفي الحروب والكوارث يصبح الناس ما عليهم
إلا ما يستر الجسد، معظمهم مسكيناً تربت يدها ورجلاه .

والمعنى في المفردات التالية: رقبة، ومسغبة، ومقربة، ومتربة... نكرات من
أجل التعميم والشمول، هذا التوجيه يستبطن روح الإسلام ليست كلمة تقال،
وليس شعاراً يرفع، وليست ضريبة تدفع، الإسلام عشق متبادل بين المنهج
وحامله.

أبو بكر حامل لواء أصحاب الميمنة بإنفاقه!

تميز أبو بكر بالتطبيق وليس بتشقيق المفردات والعواطف، حتى يوم
التحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، ثقل الأمر على بعضهم، وماج الناس، فقال
لهم أبو بكر: من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن
الله حي لا يموت، ولم يقل: مات حبيبنا... سيدنا... نور أبصارنا وبصائرنا... بينما
في زماننا كثر المادحون والمنشدون... مستعد أن يرعد ويزبد ساعة، حتى تعرق
السماء، ولكنه غير مستعد أن يقدم رغيف خبز.

وإذا ما وجد في المجتمع الإسلامي محتاج من أصحاب الرقبة، والمسغبة،
والمقربة، والمتربة... هذا خلل في الإيمان والعشق، وهذا أبو بكر وضع ماله في
فكأك الضعفاء... وهو العاشق الأول!! وهو الذي يحمل راية أصحاب الميمنة!!
ويتقدمهم، ويكاد يزاحم الأنبياء عليهم السلام.

ويتحول النص إلى الذين يحسبون أن لن يقدر عليهم أحد، وأن لم يرههم
أحد، وبنوا مجدداً من الأموال المنهوبة من جهة، والمستهلكة في الفساد، والذين
كفروا بكتاب الله، ورسول الله، وأمدهم برحمته عمراً مديداً، لعلهم يتذكرون،

وماتوا وهم مصرون.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾ (١)

كل الخلق في الحياة الدنيا ضيوف على الخالق، يعيشون على أرضه وتحت سائه، ويأكلون من رزقه، ويشربون من مائه، وإذا مرضوا شفاهم، وإذا أذنبوا سترهم وعلى مدى قرن أو أقل قليلاً، وكل ما في الكون يناديهم: في الكون إله، والقرآن منزل، والرسول مرسل، وليتهم كفروا، وسكتوا، وخنسوا، لأن الذنوب تقصر الألسن، بل جاهروا، وبارزوا، وحاربوا الله ورسوله وحاربوا من بعده الدعاة.

أي شؤم هذا!؟

أي لؤم هذا!؟

فهؤلاء نفايات البشرية في الدنيا، فلم يضعهم مع غيرهم، بل أفردهم في العذاب ولم يعلق عليهم الأبواب كغيرهم، بل أوصدها إيصاداً، أي لم يترك باباً، ولا نافذةً، ولا طاقةً، حتى لا تتسرب رائحتهم التنتة على من حولهم من أهل العذاب.

(١) قال الإمام أبو زرعة ابن زنجلة في كتابه "حجة القراءات" صفحة (٧٦٦) "فمن همزه جعله (مُفْعَلَةٌ) من (أصدت الباب) أي: أطبقته، مثل آمنت. فاء الفعل همزة، تقول: آصد يُؤصد إيصاداً. ومن ترك الهمز جعله من (أُوصد يُوصد إيصاداً) فاء الفعل واو. قال الكسائي أوصدت الباب وأصدته إذا رددته". - تفسير البغوي - (ج ٨ : ص ٤٣٤).

سورة الشمس مكية، وآياتها خمس
عشرة آية، وترتيبها بالقرآن (٩١)
وفي التنزيل المكي (٢٦)

كرر القسم في هذه السورة تسع مرات لأهمية النفس، وكونها بين أمرين مطاعين: العقل... والهوى، وكلاهما يناديها إلى جانبه، وهي قادرة أن تميل نحو التزكية أو نحو التدسية، وهي كسائق السيارة العاقل، يمر العمر بلا مخالفة أو حادث، وجنى منها ثروة، وأما السائق المتهور هو في خطر، وسيارته في خطر، والمجتمع منه في خطر. والطرق منه في خطر، وهيكل السيارة الذي يمثل الجسم، والبتروال الذي يمثل الروح، كلاهما ابتلى بهذا السائق الأرعن.
وجاءت في ثلاثة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١ - ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ٤ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ٥ وَالْأَرْضِ وَمَا طَبَّهَا ٦ ﴾
- ٢ - ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ١٠ ﴾
- ٣ - ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ١١ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ١٥ ﴾

لقد جاء استهلال السورة بقسم (ورب الشمس وضحاها...) وعطف على القسم بتسعة معطوفات، وهذا المرجح عند النحاة، ولكن قراءة (الواو

المكررة) على أنها حرف قسم جديد في الواوات التسعة، يعتبر من أكبر الأقسام في القرآن، وجواب القسم قيل

«قد أفلح...»^(١) وقيل: «محذوف تقديره، ورب الشمس وضحاها لتبعثن، أو ليدمدن الله على المكذبين» الكشاف.

ولأهمية الموضوع وخطورته في تكوين النفس الإنسانية، التي تملك - تفعل ولا تفعل - في صناعة الخير أو الشر، وقد أضمر القسم، وأظهر المقسوم به، وكأنه قال: ورب الشمس، ورب ضحاها، ورب القمر، ورب النهار... ونفس وما سواها، وفي مواضع أقسم باسمه وأظهره: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَطْقُونَ﴾ الذاريات: ٢٣. و: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ المعارج: ٤٠. ولعله عندما يقسم ببعض مخلوقاته، يريد توسيع، وتعميق دائرة الرؤية والتفكير في خلقه، من خلال التجوال التأملي والسياحة الفكرية في المصحف الكوني، وتربيتنا على الرؤية الشمولية، حتى لا نغرق في الدقائق، ودقائق الدقائق، ثم لا نعرف المخرج، وهذا ما يعييه المستشرقون على علماء المسلمين المتأخرين، عندما يقف العالم على مفردة واحدة، ويحللها، ثم يفصلها حروفاً... على حساب قضية مفصلية كاملة، لا يتوقف عندها إلا قليلاً. إذا توقف.

ونقول: المشكلة ليست في دقائق التحليلات، ولكن في غياب التوازنية بين أدق الأمور وأعظمها والربط بينهما. وبين المهم والأهم.

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ③ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④
وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ⑤ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ⑥

(١) الإملاء للعكبري، ٢: ٢٨٨.

لقد قابل بين الشمس والقمر، وبين الليل والنهار، وبين الأرض والسماء، للعلاقة التي بينهما، كالعلاقة بين الذكر والأنثى، والموجب والسالب، فما وجود واحد منهما بمفرده، لا يؤدي دوره إلا بوجود الطرف الآخر، لولا الليل ما دور الشمس وضحاها، والقمر، والنهار...؟ ولولا النهار ما دور الليل؟ ولأن الإلفة بالنعم وديمومتها، تفقدها شيئاً من التقدير، وتثمين دورها، وهذه الشمس بمثابة الساعة الكونية، مضى عليها زمن طويل، ولم تتعطل، أو تحتاج إلى قطعة غيار، أو إلى تزييت، ولو غابت يوماً، كم سيكون خسارة الكون، بدءاً من عالم النبات وتوقف التمثيل الضوئي؟ وتعطي الشمس إضاءتها مجاناً للأغنياء والفقراء، بلا من ولا أذى، وكثير من الناس لا يعرف قيمة النعمة إلا بفقدائها أو مرضها، كنعمة المثانة البولية، قد لا يفطن لها أحد لطول الإلفة إلا إذا أصيب بالحصر أو بسلس البول، أو بدأ يرافقه كيس التبول.

لماذا يرشد الله رعاة البوادي إلى عوالم السموات، وبدون تدرج، كما تدرج بالأحكام؟

ولعل سائلاً يسأل: كيف ينقل البدوي فجأة من الثرى إلى الثريا، ومن رعي الإبل إلى رعي الكواكب؟

وعندما يرشد الله الرعاة إلى تلك الإعجازات في صدر السورة، هو يعلم ما أودعه فيهم من القدرات، وهذه القدرات معطلة، وتنتظر من يثورها، ويستثمرها، لذلك أقسم بالمكونات الكاملة بالنفس، التي تفهم عن الله بالفطرة، وتستوعب كل هذه العوالم المتباعدة، وهي مبرجة ومخزنة في نفس وما سواها... وهذا نموذج من النفس التي تفهم عن الله، وتقرأ خريطة حياتها، وتقرأ سنن الكون من حولها، سيدنا عيسى عليه السلام، من الساعة الأولى، ولا يزيد وزنه عن أربعة كيلوجرام، يقول: «إني عبد الله، آتني الكتاب، وجعلني نبياً، وجعلني

مباركاً أينما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة، مادمت حياً...» وكل المواليد مثله تماماً، يأخذون حظهم من نفسٍ وما سواها، لكنهم لا ينطقون إلا ضمن السنن الكونية.

ولولا أن تكون النفس البشرية بهذه الأهمية، ماتكرر القسم عشر مرات لوجه الأنظار إليها، لأنها إن صلحت، صلح الكون كله، وظهر الصلاح في البر والبحر، وإن فسدت فسد الكون كله، وظهر الفساد في البر والبحر.

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾

وجاءت النفس نكرة لتستوعب جميع الأنفس من البعوضة إلى الفيل وكلها مكلفة ومأمورة، وكُرمت النفس البشرية من بين هذا الكم الهائل من الأنفس بحرية الاختيار، وبالنبوة، والكتاب، والخطاب، وأن الله صنعها بيده، ونفخ فيها من روحه، فهي قبضة من تراب، ونفخة من روح الله، وعلم الله آدم الأسماء كلها، وأسجد له الملائكة، كما في قوله جل في علاه: “وإذ قال ربك للملائكة: إني خالق بشراً من طين، فإذا سويته، ونفخت فيه من روحي، فقعدوا له ساجدين” الحجر: ٢٩.

فالإنسان خلطة عجيبة، فإذا لصق بالأرض تشبث بجذره وأصله، وصار جاهزاً لاستنبات كل الأشواك، ومخبأً للحشرات، ومزرعة لكل فكر هدام، وبُورَةٍ مؤذية من دعاة ومخدرات، وصار ذئباً لا يأكل إلا ضعفاء المجتمع كاليتيم والمسكين... لأنه مقدور عليهم، وكأنه غير مسؤول عما يعمل. فعندما يموت يسترد الله منه ملكه، وثوبه، وعلمه، وترابه الذي تكون منه. وترحل روحه التي كانت مأسورة إلى بارئها من عند هذا الذي دساها وخساها ومرغها

في التراب ولو ثنها بالحمأ المسنون.

فالإنسان تكوّن من متباعدين: طين، وروح، فالروح حية من حي، لذلك لا تموت، وتسمو، ولا حدود لسموها وصفائها ونقائها، فهذه الطاقة الهائلة، تجعله شرطياً على نفسه مراقباً لها، وها هو في رمضان لو أفطر منفرداً، يشكل من نفسه محكمة، ويحكم على نفسه بصيام يوم آخر، ثم يستغفر الله، ويتوب، هذا فيما بينه وبين ربه، ولو كان خطأه مع العباد، مع التوبة والاستغفار، عليه رد الحقوق لأصحابها، إن كان قادراً على ذلك، وإلاّ استغفر لهم، ودعا لهم، فالنفس قابلة للتركية، وهو قادر على التركية، ومن هنا جاءت المسؤولية.

الإنسان ما يرى نفسه إلاّ كاملة... ولو عرف أن كمها في عدم كمها، وقدرتها بعجزها... زكاها.

ومن لطائف النورسي: إن الإنسان يجب نفسه، ويدافع عنها، ويحملها، ويمدحها بحق وبغير حق، ويحول هذه الطاقات المودعة فيه إلى مدح نفسه، بدل حمد ربه وخالقه، وبدل أن يراها ناقصة يراها كاملة، فلو شكر بدل افتخر، واستغفر، بدل تمختر... وعرف أن كمها في عدم كمها، وقدرتها بعجزها، وغناها بفقرها، هذا سر دقيق مأخوذ من الآية «: قد أفلح من زكاها»^(١)

فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا

ومسألة الإلهام عامة وخاصة، عامة كما ألهم النحل، والطير، والغزال، كيف يقوم كل بدوره وبدون تدريب من أحد، ويأخذ ما ينفعه، ويترك ما يضره، ويحترس من عدوه؟ وأمّا الإلهام الخاص لدى الأنبياء يرون الملهم لهم جبريل عليه السلام أو غيره، ومادون الأنبياء من الصالحين لهم إحياءات وإشراقات

(١) كليات النورسي، ١: ٥٩٥، بتصرف، الفكرة له.

خاصة، يحسونه إحساساً نفسياً إيحائياً، يرون ما لا يراه الآخرون، ويسمعون ما لا يسمعه الآخرون.

ويقول أيضاً: إن النفس بين أميرين (العقل. والهوى) هذا يناديها، وهذا يناديها، وكلاهما مطاع. وله الخيار في أن يزيكها أو يديسيها.^(١)

وينتقل النص ليقدم لنا نموذجاً بشرياً يتكرر، كما يتكرر المرض من لدن آدم عليه السلام، نموذجاً بشرياً جهنمياً، يشعل الحرائق أينما وجد، ويجلب الأذى على نفسه، أو أسرته، أو مجتمعه، أو الكرة الأرضية كما يفعل أصحاب قبلة هيروشيما. كما فعل عاقر الناقة من ثمود.

كذبت ثمود يطغونها^(١١) إذ أنبعث أشقيها^(١٢) فقال لهم رسول الله ناقة الله
وسقيها^(١٣) فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسولها^(١٤)
ولا يخاف عقبتها^(١٥)

الطغيان قوة زائدة بجوار ضعف شديد...

كذبت ثمود من شدة غناها في المال والسلاح والرجال، وأعانها على ذلك ضعف المجتمعات المحيطة، فهي تزداد قوة إلى قوة يوماً بعد يوم، ومن حولها يزدادون ضعفاً، فهذا المناخ طغأها، وبغأها، كما هو الحال اليوم مع أمريكا والغرب، فالمناخ الطغياني يولد طغاةً جبارين، كالمناخ الرياضي والفني، يولد النادرين في الأرض في الجري والغناء، فمناخ ثمود ولد عاقر الناقة، ومناخ الغرب ولد (صهيون وبوش وبلير) فجعلوا فلسطين العراق وأفغانستان عاليها سافلها. ففي ثمود نماذج عديدة من الأشقياء، ولكن أشقاهم صاحب الناقة، وفي الغرب الأشقياء لا يعدون، ولكن أشقى أشقيائهم في العصر الحاضر (صهيون

(١) تفسير ابن عربي، ذات الآية، اقتبسنا المعنى.

ورئيسي أمريكا وبريطانيا عام: ١٩٩٢ م^(١)

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقَيْنَهَا ﴿١٣﴾

ولقد دار اسم الناقة سبع مرات في القرآن الكريم، وملخص قصتها: قوم هود (غرب - جنوب) تبوك، أرسل الله لهم صالحاً نبياً، فكذبوا نبوته، وطلبوا منه معجزة ناقة عشراء (٢) وتخرج من الصخرة الصماء، فأجاب الله طلبهم، ويعلم أنهم سيكذبون نبيه، ويعقرونها، ولكن ابتلاهم بأنها تشرب من ماء لهم يوماً بعد يوم، وترده لهم لبناً بدل الماء الذي حرموا منه، فيوم لها، ويوم لهم، فقوله تعالى: «وأتينا ثمود الناقة - بناء على طلبهم - مبصرة» تفتح أبصارهم وبصائرهم على عظمة الله، «فظلموا أنفسهم بسببها. وقسم صالح نبي الله الماء، فقال: هذه ناقة، لها شرب، ولكم شرب يوم معلوم» (الشعراء: ١٥٥). «(٣) فقال لهم رسول الله: ناقة الله وسقياها» عندما صمموها على عقرها، حذرهم من طيشهم "فعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم" ٧٧:٧. فالذي عقر الناقة أشقاهم وأتعسهم «فنادوا صاحبهم فتعاطى، فعقر» القمر: ٢٩. ولكن القرآن حكم عليهم جميعاً بالعقر، وجازاهم بالعذاب كلهم، فقال: «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾»

(١) رئيسا أمريكا وبريطانيا، أدخلتا بلادهما حرباً على الإسلام والمسلمين في أفغانستان والعراق... فدمروهما لنصف قرن قادم، ودمرا اقتصاد بلديهما، فهما اللذان عقرا البنوك... وزرعا حقداً بين الأمم والشعوب.

(٢) عشراء: الناقة الحامل في الشهر العاشر تكون في أوج جمالها في نظر عشاقها من البدو. وليس في نظر اليابانيين عشاق اللكزس.

(٣) لما كنت بجامعة الملك عبد العزيز بجده-١٩٩٦م-٩٩٧م، جاءني مجموعة من طلابي، من ديار صالح، ودعوني لزيارتهم، وأغروني، برؤية (نقرة) من الماء التي كانت تشرب منها ناقة صالح، كما يقولون: لا تزيد ولا تنقص، والناس تأخذ منها، وهي على حالها منذ زمن صالح عليه السلام، وخبرها متواتر عندهم، بأنها العين التي كانت تشرب منها الناقة، ولم أوفق بالزيارة يومها. مجرد خبر وللعلم فقط.

أشد المكذبين تسعة رهط، وعافر الناقة أشقاهم، فُنسب الجرم للقوم وحكم عليهم بالجمع: فَكَذَّبُوهُ فَعَقَّرُوهَا“ ؟

وكأنهم كذبوه كلهم، وعقروها كلهم، فأخذهم العذاب كلهم، لأن الاستعلاء والاستكبار مستطرق فيهم جميعاً، وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، ولو أخذوا على يد أشقاهم، لنجوا جميعاً، ولما صنفوا له جميعاً، أخذهم الله جميعاً، كأصحاب السفينة عندما حرق سفيهم السفينة من أسلفها غرقوا جميعاً، بما فيه العقلاء لأنهم لم يقوموا بدورهم.

وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

ولا يخاف هذا الشقي المستكبر عافر الناقة، وكان سيدهم، نتائج فعلته هذه، بأنه دمر قومه جميعاً، وفي حياتنا الاجتماعية يقوم بعض السفهاء بقتل رجل من حي مجاور لهم، فتضطر العائلة للهجرة وللرحيل، وترك ديارهم^(١)، فجاءهم العذاب لأنهم لم يضربوه على يده، وهذه الأمة الإسلامية دمرها أشقياؤها في الأندلس، ودمرها الأشقياء الآن في فلسطين وبغداد ودمشق...

وخلاصة السورة تدور حول تزكية النفس وما تجلبه من خير في الدنيا والآخرة على صاحبها وأهله والعباد والبلاد، وتدسية النفس وما تجلبه من شر في الدنيا والآخرة على صاحبها وأهله والبلاد والعباد. لذلك كرر القسم عشر مرات لأهمية النفس!!

(١) حصلت مشاجرة بين قبيلتين ووسطونا للصلح، وزعيم بأحد الطرفين ميسور ومتنفذ، فهذا يريد الثأر، والبقية من أهله تريد الصلح، فقلت له: اشتر لكل واحد منهم سكناً ودكاناً ورأس مال في محافظة بعيدة، وبعدها رحل أقاربك، وخذ بالثأر، أما تهرب بروحك، وتترك غيرك للموت، فهذا قليلاً... قليلاً. وعلت نبرتهم!

سورة الليل مكية، وآياتها إحدى وعشرون،

وترتيبها بالقرآن (٩٢)

وفي التنزيل المكي (٩)

ليليل دوره وللنهار دوره، وللذكر دوره وللأنثى دورها، أدوار تكاملية، وليست تفاضلية أو تعادلية، كما هو الحال بين الكلية، والعين... والعبث عندما تحول الأدوار، ويصبح الليل للعمل والنهار للنوم، ويستنوق الجمل وتستفحل الناقة، أو الذكر للبيت والأنثى للعمل، فالأولاد يسيحون في الشوارع، والبطالة تنتشر بين الذكور، فتنمو الجريمة في المجتمع، ومن عبث التغيير والتزوير، بعض الذكور تحول إلى أنثى، بعمل جراحي في بريطانيا عمره ثماني عشرة سنة، وتزوجه لورد، فضربه الله بسرطان نادر سريع قضي عليه في غضون شهر. وآخر بمصر تحول إلى أنثى، وسحبت نقابة الأطباء الشهادة من الجراح والمخدر^(١).

وللعبد الصالح دوره في البناء، وللطالح دوره في الهدم، فالأول وعده باليسير، والآخر توعدته بالتعسير، وتشي هذه السورة وهي تستبطن تحذيراً، بعدم المصادمة مع القوانين الفطرية، سيؤول إلى خسارة في الدنيا والآخرة.

وجاءت بأربعة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ - ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ

لَشَقِيٌّ ﴿٤﴾

٢ - ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَانْفَكَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ

(١) أخبار إعلامية.

وَأَسْتَعْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنَى ﴿٩﴾ فَسَنَسِرُهُُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾ وَمَا يَعْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾ ﴿٣﴾
 ﴿١٢﴾ وَإِنَّا لَنَأْتِيَنَّكَ مِنَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿١٣﴾ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا
 إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ ﴿١٦﴾

﴿٤﴾ - ﴿١٧﴾ وَالَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ
 تُجْرَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾ ﴿٢١﴾

والليل والنهار، والذكر والأنثى، والصالح والطالح...، ثوابت كونية.

جاء استهلال السورة بقسمين عظيمين، من رب عظيم، لأمر عظيم، لأن
 تكوين الإنسان واحد، والمنطلق واحد، والرسالة مختلفة، والأهداف متفرقة،
 وكلٌ ميسرٌ لما خُلق له. ومن رحمة الله بالإنسان خاطبه بالترغيب والترهيب، وما
 قسا عليهم إلا ليرحمهم.

وربُّ الليل... وربُّ النهار، وبقدرته خلق الذكر والأنثى من ماء واحد،
 ولكل منهما رسالة مختلفة، ولا يستطيع أحدهما القيام بوظيفة الحياة إلا مع وجود
 الطرف الآخر.

لماذا تقدم الليل على النهار في خمسين آية، والنهار على الليل في خمس آيات؟

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾

الليل ظرف للكون، والنهار ظرف محدود، وفي كل لحظة يتعاقبان، واحد يتغشى،
 والآخر يتجلى، وكل منهما يتعقب الآخر، لذلك جاء الفعل المضارع ” يغشى، ويتجلى“
 باسمرارية التعاقب، وكفّة الليل أرجح، لقوله تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾
 الأعراف: ٥٤. وجاء الليل متقدماً على النهار في خمسين آية، وتقدم النهار على الليل في
 خمس آيات، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ الحج: ٦١.

ومعطيات السياق في القسمين، ليست الظلمة ولا الضياء، ولكن الروح أو السر الغيبي الذي يسكن بهما، وكثير من الليالي تمر مقمرةً ضاحكةً، وكثير من الأيام تمر عابسةً مدهمةً وكأنها ليل.

والليل عنده جيوش من الظلام المهيبة المرعبة، تستعمر الأرض، وتحظر التجول على معظم المخلوقات، حتى النبات يتكوم على نفسه مع الغروب، ومع الشروق تفتح الأزهار دكاكينها للنحل والطير، وتبدأ النباتات تزاحم الإنسان والحيوان على (الأوكسجين) ليلاً، وفي النهار ترد ما استقرضته بالليل، وتعوض الهواء خسارته الليلية، وتجليات السماء على أهل الأرض ليلاً، لقوله تعالى:

﴿ يَتَأْتِيهَا الْمُرْمِلُ ① قُرْأَيْلَ إِلْأَقِيلَا ② نِصْفَهُ ③ أَوْ أَنْقَصَ مِنْهُ قَلِيلًا ④ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَبَّلَ ⑤ أَلْفَرْءَ أَنْ تَرْتَبِلَا ⑥ ﴾ المزمّل : ١-٤ . ولم يقل له: قم النهار... والله يتجلى في ثلث الليل الأخير، وينزل إلى السماء الدنيا، ويناجي العشاق الذين هجروا النوم، ويتنظرون النداء الندي، الرخي، الرحيم، وقوله تعالى: « إن قرآن الفجر كان مشهوداً » من تجليات الله، وجنود الله، وأسرار الله، وما يتنزل من رحمت الله، وابتلاءات الله، وما من مخلوق إلا وله حظ من هذه الرحمت أو تلك الابتلاءات.

والنهار إذا تجلى عن الرحمت التي هبطت ليلاً، وظهرت جليةً على أصحابها في كل نهار جديد، من مواليد نادرين، وكرامات، ومناصب، وأرزاق.... والابتلاءات التي أصابت أهدافها، وكم من حي يموت في كل يوم جديد؟ أو يمرض؟ أو يهتك ستره؟ أو يسجن؟ أو يعذب...

وفي كل مائة بيضة وفسيلة، تخرج حوالي عشرة ذكور، ما السر في ديمومة الأمر؟

« وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى »

ومن الإعجاز ضبط النسب في المحافظة على التوازنية بين الذكورة والأنوثة،

ما بين التعادل، أو الزيادة البسيطة، أو الزيادة المقصودة للإنتاج.

ويقسم برب الليل والنهار الذي يملك قدرة خلاقة، من ماء واحد، يخلق ذكراً أو أنثى، أو الاثنين معاً كالتوائم، ويجعل بينهما توازنية لكل صنف من الأصناف ولكل جنس من الأجناس، ففي الحمام تعادل، فلا مجال للتعدد، وعدد النساء أكثر من عدد الرجال، لذلك سن التعدد، ولكن في الدجاج من كل مائة بيضة يخرج بضعة ذكور فقط، وفي النخل من كل مائة فسيلة يخرج بضعة ذكور فقط، ولماذا لا يكون العكس؟ ولماذا لا يتساوى العدد؟ لأن الحياة تحتاج للإناث من أجل الإنتاج، إنها معايير كونية ثابتة. فهل من مدكر؟!

وهناك نباتات يسكن التذكير والتأنيث بها في زهرة واحدة... فهل من مدكر؟! وللذكور في عالم الحيوان أدوار مختلفة، منها تساعد أنثاهما في رعاية إنتاجهما، ومنها لا يساعد أبداً، ومنها تتوقف الرعاية على الذكر... وتستمر هذه القوانين في المخلوقات الكونية إلى يوم القيامة، فمن ذا الذي قال للصغار، ذكوركم لا تساعد أنثاكم، أو العكس، ويجب الالتزام بسير أسلافكم، ويرفضون مبدأ المساواة في الخلق، بمعنى أن يستنوق الجمل، وتستفحل الناقة، ولو بعملية جراحية!! ولا يرضخون للعلومة الغربية.

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى

وجاء خطاب الخالق له وجهان: عام للخليقة الكونية، وخاص للبشرية، عام موجه لكل خلقه الذي يغشيهما الليل ويجليهما النهار، ولكل ذكر وأنثى، لأنهم جميعاً يفهمون عن خالقهم، قوله تعالى: ﴿كُلُّ قَدْعَلَمَ صَلَاتُهُ، وَسَبِيحُهُ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ النور: ٤١. وكان الله يخاطبهم: خالقكم واحد، ومنطلقكم واحد، وسعيكم مختلف ومشتت. والكل يلتزم بما أسند إليه، وإلا دبت الفوضى في النظام الكوني.

وجاء خطاب الخالق خاصاً للبشرية المكلفة، للذكر وظيفته: الشقاء، والكد، والعناء، وللأنثى: السهر والتعب على تربية الأجيال، حتى قيل: الجنة تحت أقدام الأمهات. فلما تخلّت المرأة عن دورها في بعض الشعوب، وبدأت تأخذ دور الرجل في سياقة السيارة الشاحنة وغيرها... كثرت البطالة لدى الرجال، وكثر أطفال الشوارع من المشردين، وكثرت الجريمة... ولو عادت المرأة لدورها، لهدأت البراكين التي زلزلت الرجال بالبطالة، والأطفال بالتشرد، وعادت المياه إلى مجاريها، فالغرب أخرج المرأة لأن أجرتها قليلة في مصانعه، وعلى باب المصنع يبيعها أدوات التجميل، فاستثمر قوتها وانتاجها وأنوثتها، وهم أكبر المحطمين لأنوثة المرأة، وأكثر البكائين عليها.

وتحول النص إلى الترغيب والترهيب، وصار الخطاب فردياً، حتى يكون أمكن في التبليغ والمسؤولية

الخطاب الفردي أمكن في التبليغ.

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾

فأين المفعول به للفعلين؟ ولماذا غيباً؟ ليستوعب جميع المفعولات أو الاحتمالات التي تنزل في هذا المكان، ولو وضع مفعولاً به واحداً، ضيق واسعاً، نحو: أعطى روحه، ماله، أولاده، علمه... واتقى الله، واتقى النار، واتقى الكبائر... وجاء الفعل بصيغة الماضي، معناها وقع، وانتهى.

وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾

وتحول النص إلى التصوير الداخلي، ماذا في ضميره من قوة الإيمان؟ إيمان كامل، نصف كامل، وصدق بالنهاية الحسنى للمؤمنين حقاً، بعض المسلمين

يتعادل عطاؤهم مع أقوالهم، وبعضهم ترجح كِفة الفعل على القول، وسلوكه بالتقوى راجح مع صدق يقينه بالآخرة، وهذا النموذج سيجد من الله عوناً له في كل عمل خير.

فَسَيَسِّرُهُ لِلْيَسْرَى (٧)

هذا التعهد بالتيسير نتيجة صحيحة لمقدمات صحيحة، وكم من رجل يقدم خدمات في الأزمات أكبر من حجمه؟ فالله يؤلف القلوب حوله، فتشق به الناس، ويدفعون له، وأعرف عالماً، هو محور (مدينته) وأهل المدينة يصلون الجمعة بمسجد واحد، وبها سبعة عشر مسجداً، وبنى مشفى بمائة سرير أي بمائة مليون ليرة سورية آنذاك، وألحق بالمشفى مسجداً كبيراً للنساء والرجال، وأبى أن يقبر به، أو يكتب اسمه^(١) وكان يفتي، ويقضي، ويصلح بين المسلمين ولجيرانهم من نصارى (محرده)، ويخفف العبء على الناس وعلى الجهات الرسمية القضائية بفض المنازعات.

ولولا أن يسره الله لليسرى، ما كان له أن يقوم بما قام به، وهو من مستوري الحال.

وَأَمَّا مَنْ يُخْلِ وَأَسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩)

وأما من بخل... بماذا؟ واستغنى... بماذا؟ وعن ماذا؟ بخل بماله وعلمه وجهده وجاهه، واستغنى عن الله، وعن عونه ولطفه، ولماذا حذف المفعول به؟

(١) الشيخ حسين الموسى من مدينة حلفايا غربي حماة ٢٠ كم، وعدد سكانها ٢٥ ألف نسمة، وبها ١٧ مسجداً، وأهلها يصلون الجمعة بمسجد واحد، وهذه نادرة في بلاد الشام، لكثرة الزعامات، وبنى مشفى بمائة سرير، بلغت كلفة المشفى تزيد على ١٠٠ مليون ليرة سورية، البنيان فقط، ومثلها قيمة المساجد، ومات بعام ١٤٢٥ هـ وبقيت حاله مستورة، بينما هناك نازح بنوا مثذنة فقط، وفي النهاية، صاروا أطول من المثذنة!

ليستوعب كل المفعولات، ولو ذكرها ضيق واسعاً، بخل بحياته، بأولاده، بهاله، بجاهه، بقلبه أن يسلمه الله.... واستغنى بما عنده، عما عند الله في الدنيا والآخرة، ها هو فشل حسيماً وسلوكياً، ثم يتحول النص ليصور ما يدور في ضميره “ وكذب بالحسنى ” لقد كذب، بوعود الله وعطاءاته، وترغيبه، وترهيبه. لقد فسد ظاهره وباطنه.

فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعَسْرَى ﴿١٠﴾

اليسر ما يسره الشرع، والعسر ما عسره الشرع، سهل له ذات اليمين، وسهل له ذات الشمال، وعليه الاختيار.

فسنيسره لكل المنوعات الشرعية، كنوع من الاستدراج، ونضرب لذلك مثلاً: شخصان اتفقا على القيام بمفسدة الزنى، أحدهما: تحرش بامرأة وكانت حرة، فصدمته صدمة كهربائية لن يعود لمثلها مادام حياً، فتاب، وأتاب، وأراد الله به خيراً، بينما الآخر: تحرش بأخرى، فكانت صيداً هيناً ليناً وفي متناول اليد، متى شاء؟ ثم بدأت تعرّفه على مثيلاتها، حتى صار زير نساء. فيسره للعسرى، وعرفته على أمثاله في تجارة المخدرات، وأخذ الرشى،... فجمع المال الكثير، وهو لا يتأثم، ولا يتذمم.

وَمَا يَغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿١١﴾

وما يغني عنه ماله، الذي لمه كحاطب ليل، وكدّسه، ثم بخل به عمّن يحتاجه، واستغنى به عمّا عند الله، وما قيمة المال مهما تكدس، مادام صاحبه في الدنيا مأسوراً لشهوتي البطن والفرج، وتعيساً في عبادة الدرهم والدينار، لقد تردى من علو القيم الاجتماعية والإيمانية، إلى قاع الحمأ المسنون في الدنيا والآخرة.

ونسي أن السماء والشمس والأقمار والأشجار تعطي للمحتاجين وغير
المحتاجين بلا مقابل، والأرض تعطي بلا مقابل، أين هذا من سنن الله الكونية
في العطاء؟!

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٣

علينا أن نرغبهم، ونرهبهم، ونهديهم النجدين، ونعدل معهم بالهدى كما
نعدل معهم بسواد الليل، وضياء النهار، لقد أعذر من أنذر.

وَلِنَّا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝١٣

القرار لصاحب الدار، والله مافي السموات ومافي الأرض، ومافي الدنيا
والآخرة، وهو صاحب الأمر، وإليه يرجع الأمر كله. ولو كان معه آلهة أخرى،
ما انفرد بقراره.

وقدم الآخرة لأهميتها وخلودها وإليها المآل، بينما الدنيا فترة إقامة الإنسان
بها، كمسافر له مقعد بطائرة أو قطار، فينزل بالمحطة، ويخلي المقعد لراكب جديد.
ويتجه النص للتهديد الأخير.

يا للهول!! إنذار للشاردين والكفار.

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝١٦

إنذار للجميع، فإنذراه رحمة، قبل أن تقع الواقعة، فأنذر خلقه ناراً عاشقة
لدورها، وتلظى لنزلائها عندما تراهم من مكان بعيد، وهي جندي من جنود
الله، تتعبد الله بما أسند إليها من مهام، لذلك يصف القرآن حماس هذا الجندي: “
يوم نقول لجهنم: هل امتلأت؟، وتقول: هل من مزيد؟”

لابد من التمييز بين الشقي والأشقى، لعل الشقي الذي لا يتوب إلا متأخراً، والأشقى الذي يستمر في غيه وعناده، حتى يدخل في جهنم، ومن السهولة التمييز بين الشقي والأشقى في كل بيئة ما يناسبها من الأتقياء، وما من قرية صغيرة إلا فيها شقي وأشقى، والأشقى هو الأول دائماً بالإعتداء على حرمان الله، والبقية له تبع، ولكل ذنب من الذنوب مكان في جهنم يطلبه، والنار الكبرى للأتقياء أهل الكبرياء، لعنة أهل الأرض، الذين آلوا على أنفسهم أن يتصدوا بالمنهج الله، ولكل من يحمل هذا المنهج، لقوله تعالى: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى ۝١٠ وَيَنْجِبُهَا الْأَشْقَى ۝١١ الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ۝١٢﴾ الأعلیٰ : ١١ .

الأنبياء والدعاة معهم زوارق النجاة، ويدعون الناس مجاناً، فمن يركب معهم نجاة، ومن أبى، ذهب برجله إلى النار الكبرى، ولماذا أبى؟ ومن يأبى النجاة إلا المتكبر المتعالي؟ إلا المكذب المعاند؟!

والنار لم تخلق للحصان والحمار، ولكن خلقت للمستحمرين من البشر.

روى البخاري، عن علي بن أبي طالب قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بَقِيعِ الْعَرْقَدِ فِي جَنَازَةٍ، فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ». فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له». قال: ثم قرأ: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَى» إلى قوله: «لِلْعُسْرَى» (١).

وَسَيَجْنِبُهَا الْأَتَقَى ۝١٧ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝١٩ إِلَّا
أَبْنَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ۝٢١

وسيتجنب النار وأي نار صغيرة أو كبرى يتجنبها عظماء الأتقياء، هم رموز

(١) تفسير ابن كثير - (ج ٨ : ص ٤١٨)

الفضيلة في الأرض، وميز النص بين التقي، وبين الأتقى، الذي استوى على قمة الإخلاص، يطعم الطعام على حبه مسكيناً، ويتيمماً، وأسيراً، يؤتي ماله كل ماله، يتزكى به، حتى يقعد على الحديد، ولا يطلب من ذلك جزاءً أو شكوراً، وليس لأحد عنده سابقة فضل أو معروف، بل يؤتي ماله لمن يعرف، ولمن لا يعرف، يتغي وجه ربه، ومثل هذا النموذج الكامل المخلص توفر في أبي بكر رضي الله عنه، كلما يرى عبداً يعذب بسبب إسلامه، يشتريه من سيده، ويعتقه لله، لذلك لقبوه بـ (العتيق) وكان عمر يقول: أعتق سيدنا أبو بكر سيدنا بلالاً .

وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

بشارة وتعهد لأبي بكر، ولمن يفعل قريباً من فعله، ولن يندم أبوبكر عندما يرى عتقاه كبلال وغيره، أبلوا بلاءً حسناً في الإسلام جهاداً وسلوكاً وعبادةً، وكأنهم استدرجوا النبوة بين جوانحهم، وصاروا قادةً وسادةً، كالأرملة الشابة التي تربط نفسها على أولادها، وتلام من كل الناس، وفي النهاية يصبح كل منهم مفخرةً من مفاخر الإسلام بكل موقع يقف فيه، وكل الذين يعملون لله، ومن أجل الله، لن يندموا!

سورة الضحى مكية، وآياتها إحدى عشرة،

وترتيبها بالقرآن (٩٣)

وبالتنزيل المكي (١١)

ففي سورة الضحى ومضة تاريخية عن عناية الله لنيه قبل البعثة ويمنُّ الله بها على النبي صلى الله عليه وسلم بعدة من منذ طفولته، وقد سبق للقرآن أن كشف لنا عن عطف الله على موسى بدءاً من الرضاعة، وإلقائه في اليمِّ وعودته إلى أمه... وحظيت مريم بالرعاية، وهي في بطن أمها، وبعد الولادة، وكفالة زكريا لها... وأما عيسى منذ نفخة الروح في أمه، فكان حمله، ولادته، وكلامه، وموته تحت الأضواء، على أنبياء الله الصلاة والسلام، بينما رسول الله، ما تعرض القرآن لطفولته إلا في سورة الضحى وركزت على ثلاث مراحل من حياته صلى الله عليه وسلم:

- مرحلة اليتيم من الولادة حتى البلوغ، وهي خمسة عشر عاماً.

وتوجيه الأنظار إليه ففي حمله كانت أمه تُبشِّر بأنها حملت بخير البرية، ويوم ولدته خرج منها نور أضاء لها قصور الشام، ولقد شق صدره وهو عند حليلة... وكتب الصحاح والسِّير مليئة بالتفاصيل...

- ومن البلوغ إلى البعثة، ومدتها ربع قرن، وضع الحجر الأسود بمكانه، وبحكمة بالغة جنب قريش فتنةً داخلية، وتزوج بخديجة... مرحلة الاستعداد إلى حمل المسؤولية وتحقيق الهدف.

- ومن البعثة إلى الرفيق الأعلى، ومدتها: ثلاثة وعشرون عاماً، مرحلة العائلة الصغرى والعائلة الكبرى، فالصغرى خاصة بيته تسع نسوة يحتجن إلى نبي خاص، بل إلى تسعة أنبياء، وكثير من الرجال لا يستطيع استيعاب زوجة

واحدة، والعائلة الكبرى أمته. فلو كانت الأمة جسداً واحداً، لكان النبي صلى الله عليه وسلم هو روحها. فيقول الكلیم موسى ”وعجلت إليك رب لترضى“ ويشر الله الیتیم صاحب الإسراء ستعطى حتى ترضى من غير أن تسأل“ ولسوف يعطيك ربك فترضى“

«.. أقسم بالضحي كناية عن اللطف والعناية الربانية، لن يمسك أذى حتى حر الضحي؛ كقوله: (أَلَّا مَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى)، إلى قوله: (وَلَا تَضْحَى)، ولن يمسك الحر مساً، وأقسم بـ (وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى): بظلمة الليل التي تستر الخلائق كلهم في وقت واحد، وبالنهار الذي يكشف الغطاء الكوني، بوقت واحد، ولا يحس أحد بثقل الغطاء ولا ثقل الضوء، فتغيير الشراشف فوق السير لها أثر في بسطها وطبها، وهذه من آيات اللطف الكونية المتكررة، التي لا يلتفت إليها المشركون.

وكان الله يرد عليهم: موتوا بغیظكم، إن الله لم يقله، ولم يبعده ولكنه اصطفاه واختاره؛ ونصره وأيده، ولولا نصر الله له، من أين له أسلمة جزيرة العرب، وكان عددهم مليون..»^(١) وقبل أن يلتحق بالرفیق الأعلى.

وأبأ الله العالم عن حال نبينا كان فقيراً ویتيماً، لحكمة يريد لها، فمثل هذا لا يمكن له أن يقوم بأي دور قيادي، لأن هذه الأدوار لأبناء الملوك والأغنياء لقد توفرت بهم شروط الزعامة والقيادة، والناس عندهم قناعة مسبقة بهم، وأما یتيم فقير، يقود العالم في الدنيا والآخرة، معناها عناية إلهية!!

ومجاز كلمة یتيم، تعني الدرة الیتيمة النادر وسط الأعراب الأجلاف!!

(١) الدراسات الحديثة للأمم المتحدة كان سكان الجزيرة عددهم مليون، والأمم المجاورة عددها اثنا عشر مليوناً في زمن البعثة. وبعض المعاني مستفادة من تفسير الماتريدي

وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لم أوتم النبي صلى الله عليه وسلم من أبويه؟ فقال: لئلا يكون مخلوق عليه حق.

وجاءت السورة بأربعة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١- ﴿ وَالضُّحَىٰ ١ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ ﴾
- ٢- ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ٤ ﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ٥ ﴿
- ٣- ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ٦ ﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ٧ ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ٨ ﴿
- ٤- ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَفْهَرُ ٩ ﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرُ ١٠ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١١ ﴿

ومما صح من أسباب النزول لسورة الضحى، يثبت أن مشركي مكة ومن لف لفهم مثل المسلمين، كانت عيونهم معلقة بالنبي صلى الله عليه وسلم وبجبريل عليه السلام، وبالقرآن العظيم، والكل مراقب ومتابع ماذا نزل اليوم؟ ويتربص ما ذا سينزل غداً؟ كما جاء في البخاري:

«اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يقيم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أراه قربك منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله عز وجل: والضحى... الآيات الثلاث»^(١)

ولماذا بدأت السورة بقسمين تقديرهما: وربّ الضحى، وربّ الليل إذا سجي...؟

(١) صحيح البخاري، ج ١٠: ٣٣٩ و - تفسير ابن كثير - (ج ٨: ص ٤٢٤)

وما الذي دعا الحليم العظيم أن يقسم؟
إنها معركة الإعلام والإعلام المضاد.

روى البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، عن الأسود بن قيس: سمع جندباً قال: أبطأ جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال المشركون: وُدِّع محمد. فأُنزل الله:

وَالصُّحْحَىٰ (١) وَاللَّيْلَ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)

ولو تأملنا مواطن استدعاء القَسَم، في التقاضي بين الخصوم: البينة على المدعي، والمدعي هنا المشركون الذين يزعمون أن الله هجر نبيه وقلاه.

واليمين على من أنكرك، والقرآن ينكر هذا الادعاء، ويستدعي اليمين في الجدل والخصومات، لأن خصوم الدعوة ما بين غبي أو يتغابي أو يتعالى، المهم ألا يعترف بالحق، فيستوجب من الآخر:

بأن يقسم له بالله، حتى يرفعه إلى مستوى المتلقي العاقل، أو ليستدعي السامعين أن يحكموا بين الاثنين، فكل الحاضرين سيتحولون إلى قضاة منصفين، وينصفون أنفسهم أولاً، وهذا من أساليب الدعوة.

وما يستدعي القَسَم المتوالي بين المحيين: خطورة الموضوع، وعظمته، وثقله، لاستنهاض الهمم قبل فوات الأوان.

كل الأسباب التي ذكرناها، لقد استدعاها واقع الدعوة في بدايتها بمكة، فكان هناك احتكاك بين مجتمعين:

مجتمع مشرك وقوته في عدده وعتاده، وضعفه في منهجه ورؤيته، كالمجنون الذي يحمل عدة أسلحة، فتصبح عنده إما طاقة مهدورة، أو مدمرة. ومجتمع مؤمن قوته في عقيدته ووضوح خط سيره، ولكنه كان في خطواته الأولى.

كما هو الحال واقع الحضارة الغربية، والتي تملك ترسانة الأسلحة التدميرية، وقد فعلت ذلك بحربين عالميتين، ولم تقصر في تدمير أخلاق البشرية، وإن لم تجد ما تدمره، دمرت الثروة الحيوانية بجرثوم ما، لبيع المضاد الحيوي المكسب بالمستودعات، أو دمرت المحاصيل الزراعية لتتحكم بسعر الحبوب المتوفرة عندها، لأنها بلا منهج لعمارة الكون والاستخلاف بالأرض، بينما العالم الإسلامي اليوم متخلف جداً إلا في المنهج، وقوته في منهجه ووضوح الرؤية، والتجربة التاريخية قيادة العالم لأكثر من عشرة قرون.

والسؤال: ما حظ الأمة، وحظ الآخرين من سورة الضحى؟

يبدأ الضحى بعد ارتفاع الشمس برمحين أي عشرين دقيقة، وهو وقت صلاة العيدين والضحى، كناية أن الإسلام بدأ يتعالى في ضحاها، وليست الظلمة والظلام من مستلزمات الليل، وكم من ليلة والبدر ينير الكون؟ ولكن ليل هيبية، تمنع التجول، وتركع كل من على الأرض للسكون، بما فيه النبات يتكوم على نفسه مع الغروب، والليل إذا سجي، يكفّن كل شيء، وكأن الكون مسجى، كناية عن الكفر والبطش الذي لف العالم وسجاه، ولم يبق إلا نقله إلى مأواه ومثواه، وجاء الإسلام بالحياة وبضحاها.

وقدم الضحى على الليل، تقديم مهمة، كأنها يتوحد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل من يحمل منهجه من الدعاة إلى يوم القيامة، وبهذا التوحد أنس

النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه، وأغاظ أعداءهم حتى امتلأت صدورهم من الغيظ. لأن ما ينزل من القرآن يخص الجميع، ولكن يتلقاه النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه كمنهج للتنفيذ، ويتلقاه المشركون للتحدي:

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾

جاءت صيغة الفعلين بالماضي: ودعك، وقلاك، والمراد بها الحال والمستقبل، وفيها أمران:

- اعترفوا ضمناً بأنه نبي وأن له رباً يتواصل معه، والآن توقف التواصل.
- وفيها بشارة للنبي أنت بأعيننا، فما ودعناك وما قليناك، هذه من البشائر الودادية ذات الديمومة، للتشيت، لأن النجاح لا يتأتى مع الخوف والقلق!

والتوديع لحظة الفراق بين متحابين، وتودع منه أهمله ونسيه زهادة فيه، ويقول لنيه: ماربك، ليودعك، ولم يتكرر الفعل (ودعك) في القرآن لأنه لم يتكرر مثل هذا النبي ﷺ، ومثل هذا الوداد، ويزكي الله نبيه بأنه شديد التعلق بربه، ولو قلاه، أو جفاه، كأنها قلاه بزيت الحب والشوق والتوق، وقلبي الحب، أشد من قلبي الزيت، بل وبشره: بمستقبلين، وبنصرين، وتوفيقين...

وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَارْضَىٰ ﴿٥﴾

أما البشارة الأولى: ظهور الإسلام وهذا ما جاء من أجله النبي صلى الله عليه وسلم، وظهور المسلمين في الدنيا على غيرهم، وأكد القرآن ذلك أكثر من مرة، كما في قوله جلّ في علاه: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره الكافرون» وفي آية أخرى: «...ولو كره المشركون» وهاتان

الآيتان من أكبر البشائر حول سيادة الإسلام رغم وجود المدافعة من المشركين والكافرين. والثانية: ظهورهم في الآخرة بأنهم خير أمة أخرجت للناس، فلهم خير جنة أعدت للمؤمنين.

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ...الآن..وغداً..وإلى يوم القيامة، ولقد أعطاه قبلةً يرضاها:

«فلنولينك قبلةً ترضاها» وأعطاه كتاباً هو أعظم الكتب، وأعطاه من الملائكة، من لم ينزل إلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعطاه قدرات تربوية وإدارية وهو أميٌّ وفي بيئة أمية، لم تسبق، ولن تلحق، أعطاه قدرات بالتأثير والهداية، يأتيه الرجل يريد قتله، يرجع وهو أحب الناس إليه، أعطاه بناء وتأسيس منهج للبشرية، بينما الملوك وزعماء القبائل أسسوا لأفراد عائلاتهم، وأعطاه ختم النبوة به، حتى كل من يريد أن ينتظم في سلك الإيمان، لا يجد إلا باب محمد ﷺ، وأعطاه من أعظم الرجال هم المهاجرون والأنصار، وأعطاه من أعظم العلماء الربانيين إلى يوم القيامة كسعيد بن جبير والعز بن عبد السلام وأحمد الياسين^(١)... بالملايين، الذين يحملون المنهج بعشق، ولا يخافون في الله لومة لائم، وأعطاه المجاهدين الذين يحمون المنهج القائم في البلاد والعباد، وفي زماننا قدموا نماذج رائعة في أفغانستان والعراق وغزة وسورية...ولكن أهل الدهاء لوثوا هذه الصورة المشرقة للصحة الإسلامية.

هذه آية الرضى فهمت فهماً بعيداً عن سياقها، فتراخى المسلمون، وضعفوا بسبب هذا الفهم. فهمت فهماً مميحاً: وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ، فهماً أخرجها عن محتواها، بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يرضى وواحد من المسلمين

(١) أحمد الياسين فلسطيني، ثلث رجل، زائد منهج صحيح، صنع ما لم تصنعه زعامات الفنادق، وأبطال المكرفونات...

في العذاب، وهذا الفهم ولد المُسَيِّمِ اللين الهلامي، فمنهم من ترك العبادات أو تكاسل وهو متكئ على هذا الوهم المريح، ومنهم من ارتكب السبع الموبقات، وهو متكئ على هذا الوهم المريح... كما فهم النصارى أن عيسى يحمل خطاياهم، وفعّلوا الأفاعيل.

واستهلال السورة بقسمين: ماربّك، ليودعك، وينسأك، وهو الذي آواك، وهداك، وأغنأك... أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ

ومنذ وعيي على القراءة والتأمل ما يزيد على نصف قرن، أتوقف عند (ضالًّا) فلا تجتمع عندي: صادق، وأمين، وضال، وقلبتُ ما شاء الله من التفاسير، فلم أجد ما تطمئن له نفسي. ولعلي اهتديتُ!!

«العرب تقول للشجرة المنفردة في فلاة، ولا شجر معها «الضّالة» فيُهدَى بها على الجهة المرادة، وصحاري العرب تخضر في فصل الربيع فقط، وبعدها رمال تذرّوها الرياح، فالمسافر الحائر يعرف أهله جنوب أو غرب... الشجرة، مسيرة كذا، وكذا... وكأن الله يقول له: أوجدتك منفرداً ولا أحد على دينك، فهديت بك الخلق... بتصرف^(١).

والعرب تدفع الهلاك بالتفاؤل، فتقول للصحراء المهلكة مفازة، وللمسافرين: قافلة أي راجعة، وللدبيع سليم، ولمعوج الساقين: أحنف أي مستقيم، وتقول للشجرة التي ترشد الضالين إلى أهليهم: ضالة... هادية مهدية!!

(١) جاء في كتاب ثمرات الأوراق في المحاضرات، للإمام ابن حجة الحموي، نقله من كتاب الأعلام للقرطبي، ودار الفكر، جعلته على هامش المستطرف... للأبشيهي: ج ٢: ١٣. وهذا يوم عيد عندي فجر الخميس ١٤٣٦: ٢: ٥٥ بجدة... وبنعمته تتم الصالحات، ولكل أجل كتاب. وبعدها وجدته بتفسير القرطبي رحمه الله.

ووجدك ضالاً منفرداً وأنتك منفرداً، فهدى بك الناس أجمعين.

وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾

هذا الاستفهام ليس إنكارياً، ولا تقريرياً، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم ينكر، ولم ينس، ولم يتهاون، ولكن الاستفهام للتنمية الودادية، كما يحصل بين الأم وابنها، عندما تريد تنمي الوداد مع وليدها، تقول له:

مَنْ التي حملتكَ، وولدتكَ، وأرضعتكَ، وأدبتكَ، وخدمتكَ؟ هي لا تريد تعلمه، شيئاً يعلمه، ولكن لتنمية الوداد. يا أهل الوداد!!

لقد جمع عليه اليتيم، والحيرة، والعيلة، لم؟

ما أخذ الله أمه وأباه إلا ليتولاه، حتى لا يجد من يتعلق به سواه، وما أوجده إلا في منطقة أمية يختار الواحد ليسأل هادياً، يهديه ويرشده، لينفرد الله في ترشيده وتعليمه: «علمه شديد القوى» وفضمه عن الدنيا، حتى لا يتعلق قلبه فيها، ويتكى كالطير على الرزاق وليس على الأرزاق.

وأذاقه الله طعم اليتيم والعيلة، حتى لا ينسى ضعفاء المجتمع، كما سجن يوسف، حتى لا ينسى المظلومين.

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

وضعفاء المجتمع الإنساني بغض النظر عن دينهم، هم أمانة الأمانات في المنهج الإسلامي إلى يوم القيامة، وثلاث مهام جديدة مطلوب من النبي صلى الله عليه وسلم تنفيذها في هذه السورة، وفيها تغيير موازين ومعايير المجتمع الجاهلي والعالمى، وفتح أبواب العطف والاحترام لضعفاء المجتمع البشرى، وضعفاء المجتمع أمانة في المنهج الإسلامى، والآن بأوربا يموت المشردون في الشوارع

من البرد شتاءً، وبدأت المساجد تؤويهم، ويدخلون في دين الله، ولم يحدد عقيدة اليتيم والسائل مسلماً أو غير مسلم، لكنه إنسان، ومن قبل لقد أذقناك يا محمد صلى الله عليه وسلم شيئاً من معاناة الضعفاء، لتكون أقرب الناس إليهم، كما أذقنا يوسف عليه السلام شيئاً من الظلم العائلي، وظلم السجون حتى يحس بمعاناة المظلومين، ومهمة رسول الله ﷺ المحافظة على كرامتهم وأدميتهم، مقدمة على جوعهم وعطشهم وعريهم.^(١)

لأن الجائع إذا شبع نسي واستقام عوده، ولكن المنهور والمقهور محطم، ولن ينسى ما أصابه، ولن تقوم له قائمة.

وليس من خلق النبي صلى الله عليه وسلم القهر، ولا النهر، لعتاة المجتمع، وفراعة الأرض، فكيف يقهر، وينهر المستضعفين؟

والله يُذَكِّرُه بمنه عليه: "فبما رحمة من الله لنت لهم" وقوله تعالى: "ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك"

٣ : ١٥٩. ولأنه لا يعرف الغلظة، يحته الله حثاً، أن يغلظ على الكفار والمنافقين، لأنه رحمة، والرحمة والغلظة لا يجتمعان: «يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم» ٩ : ٧٣.

لأنها ليست فيه، حُضِه حُضاً على الغلظة في موطنها، كغلظة الطبيب الجراح في بتر ساق الطفل رحمة به.

(١) جاء في كتب السير، أن الأمين والمأمون يتعلمان عند أحد العلماء، وقبل التخرج قام الأستاذ بجلد المأمون جلداً مبرحاً وبدون سبب يذكر، والمأمون لم يخبر والده، وتكنم على الأمر، ولما بويع بالخلافة، أول شيء فعله، استدعى أستاذه وسأله عن العقوبة الظالمة، وما أسبابها؟ فقال له: يا أمير المؤمنين، توسمت فيك الخير، وأن هذا الأمر سيصل إليك، فأحبيت أن أذيقك طعم الظلم، حتى لا تظلم أحداً. فشكره على هذا الدرس العميق، ووصله!!

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

تقرأ من وجهين:

لينتشي أحبابك، ويغتاظ حسادك!!

ومنها رفع معنويات ضعفاء المجتمع، ومن المحال دوام الحال، ولو سمعوا منك يا محمد صلى الله عليه وسلم، وأنت تعدد لهم أنك كنت يتيمًا، فأواك وأيدك، وكنت أمياً مختاراً تبحث على الصراط المستقيم من أين يبدأ؟ فهذاك، وعلمك شديد القوى، وكنت عائلاً، فأغناك بالتوكل كما يغني الطير، تغدو خماصاً، وتعود بطناناً، وفي هذا علاج لهم ونجعة، وكلهم سيتعلقون بالله، ومثلك مثل من يأتي من بلاد بعيدة وهو يحمل منها الخير الكثير، ويبدأ يحدث الناس على الدنانير المبتوثة، فيهبج الناس للرحيل إلى مواطن الغنى والفلاح.

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

فحدثهم عن نعمة شكوى البعير إليك، وحين الجذع عليك، وكيف حنّ الجذع إلى فراقك؟ ولسان حال الجذع يردد ما قاله ابن عربي:

أنا غائب بك عني توهمت أنك، أني

توهمت بأن أنينك أنيني، وحدثهم كيف بادلك جبل «أحد» الحب؟ وكيف شهد الضب لك بالنبوة؟ وكيف جاءت الأشجار تحط الأرض بعروقها، فشهدت لك بالنبوة ثم عادت؟^(١) وحدثهم كيف كشفت الغطاء عن النشيد

(١) جمع في كتاب «من معجزات النبي ﷺ» ١٨٠ معجزة، لمؤلفه: عبد العزيز السلطان، الرياض: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، وكتاب آخر هام جداً: نبوءات الرسول، ماتحقق منها، وما يتحقق "محمد ولي الله عبد الرحمن الدهلوي الندوي، جمع ١٨٧ نبوءة، القاهرة، دار السلام، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م. إن لم تكن هذه من النعم الذي يُتحدث بها، فأني نعم بعدها تستحق الحديث؟!.

الكوني، بين عالم النبات والجماد والإنس والجان؟ والكل فيهم يسبح، ويجب كل مسبح، والكل يحبك، لأنك سيد المسبحين، وتحبهم... وقد ألفت كتب كثيرة حول نعم الله التي أودعت بمحمد صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو أكبر النعم وأدومها حياً وميتاً.

حدثهم عن بركاتك المستطرفة في العالم، وفي أمتك، وحدثهم أن بأمتك من يمشي على الماء، ومن تصير النار له برداً وسلاماً، ولما بلغ عمر رضي الله عنه، أن الأسود العنسي حرق مسلماً بالنار، ولم تؤذه، قال: الحمد الذي جعل بهذه الأمة كإبراهيم عليه السلام... وحدثهم أن هذا الدين يسير مع الأكسجين ويدخل كل رئة، ويدخل كل بيت من شعر وحجر، ويهيمن على الأديان والأيدولوجيات، ويأخذون بمنهجه لحل مشاكلاتهم وهم مجبرون، اعترفوا، أو لا يعترفون!، فالآن بدأوا يأخذون في الطلاق، وبنظرية الاقتصاد الإسلامي

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

لينتشي أحبابك، وليغتاز حسادك!!

لأنك حققت ما لم يحققه نبي أو رسول أو ملك أو زعيم...

أنت الذي طبقت مبادئك كلها على نفسك وعيالك، وحققت كل أهدافك، وربيت جيلاً من الرجال يتابع نهجك، وكأنهم أنت!!

وحدثهم عن نعمة المآذن التي تولد مئذنة جديدة في كل ساعة، وعن هذه المحاريب التي يكثر فيها النحيب، وكأن الوحي يقول لهم: هونوا عليكم "طه~، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى" وهذه المنابر تقارع أعداء الإسلام في خططهم، ومكرهم...

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

القرآن نعمة، والنبوة نعمة، والمهاجرون والأنصار نعمة، والعرب نعمة، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً نعم كموج البحر متتالية. وفي زماننا علماء من الغرب وعظماء من خيرة الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، وبينما أديان أهل الملل والنحل الدخول عندهم بالقطارة وومعظمهم من الدهماء، وأحدهم يغير دينه متى شاء، كما يغير سر واله؟.

- استيقظ عالم الصحوة الإسلامية اليوم، على يوم ليس تاريخاً من التاريخ، استيقظ على صوت هاتفٍ رحمني جاءه من الغيب في وقت السحر، وكأنه ينادي فيهم: اليوم ولد النبي، اليوم بعث النبي.

النبي بيننا، النبي معنا، النبي أمامنا.... النبي ﷺ...

وكانه اليوم هبط جبريل عليه السلام فوق غار حراء، وسمعوا نداءه، اقرأ، فجاءه الصدى: قرأنا، قرأنا عجباً يهدي إلى الرشيد.

ومن أكبر النعم -الآن- بدأت الأمة تتلمس العقد العظيم الذي انفرط، وبدأت بالعلم ثم الجهاد ثم وحدة الصف... وهي بدايات، والبدايات تحتاج الكثير. ويامن يقل لأعداء المنهج الإسلامي: « قل: موتوا بغيظكم، إن الله عليم بذات الصدور » ٣: ١١٩.

قوله تعالى « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » فالحالة التي مرت على النبي ﷺ وضاق بها صدره لتأخر الوحي، كالسما مرة ممطرة مطراً غزيراً ولأيام، ثم يتوالى المطر... وبفترة ما يحتاج المطر، وتضيق الناس به ذرعاً، ويصل إلى أن يهلك الحرث والنسل، ونحن أحياناً نشعر بخشوع ودموع بالصلاة وقراءة القرآن، ونرى رؤى مبشرة كالنبي ﷺ والصحابة والصالحين... وبفترات أخرى تمر، لا خشوع ولا دموع، ونصلي صلاة خالية من الدسم، ونحن غير راضين عن أنفسنا...!!

سورة الشرح مكية، وآياتها ثمان،

وترتيبها بالقرآن (٩٤)

وبالتنزيل المكي (١٢)

وهذا موسى الكليم العالي يطلب طلباً « رب اشرح لي صدري »
ويخاطب الله الرسول الأعلى محمداً تكرماً وتلطفاً « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، ... »
وسبحان من يختص برحمته من يشاء، بما يشاء، واختص محمداً ﷺ من دون
كل الأنبياء بشق صدره أكثر من مرة، ونزع منه حظ الشيطان، وملئ بما شاء الله
أن يملأ.

ونخلص: بأن محمداً ﷺ الذي ولدته آمنة، أجريت له عمليات تطويرية
لتخزين الطاقة التي تتسع للبشرية إلى يوم القيامة، والله لم يجعلها سرية، بل
جعلها جهاراً نهاراً وهو عند مرضعته حليلة، وأشهد الناس عليها، وأجريت
له أخرى قبل الإسراء والمعراج، من أجل تأهيل الجسد البشري للملأ الأعلى،
الملأ الغيبي، الملأ الروحي، وكيونونته بشرية، فلا بد من تجهيزها لمهمة الشفافية
وحركتها كحركة البرق الخاطف، فينضغط المكان والزمان، فمسيرة الشهر
كخطوة واحدة، ودون ذلك بكثير. كما يحصل بعالم النوم بغمضة عين يصل
الإنسان إلى آخر الدنيا ويعود.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾

٢- ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾

٣- ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾

سبحان الذي يختص برحمته من يشاء، بما يشاء، ومن منن الله على سيدنا موسى، وعلى سيدنا محمد صلى الله عليهما وسلم:

موسى يسأل «رب اشرح لي صدري»، و محمد يمنّ عليه منّا « ألم نشرح لك صدرك؟ وموسى يقول: «وعجلت إليك ربي لترضى» و محمد يقال له « ولسوف يعطيك ربك فترضى» وموسى يقول « اجعل لي لسان صدق في الآخرين» و محمد يقال له « ورفعنا لك ذكرك...»^(١)

معظم حالات الترقى والتلطف جاءت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسألها وهذه السورة ولها وجهان:

أحدهما: لرسول الله، وللدعاة من بعده.

والآخر: للمشركين ولخصوم الدعوة.

ويشيره بالنجاح حتى يطمئن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن رسالته ستتحقق بكاملها، وسيأتي وقت يفرغ من عمل الدعوة، ويدخل الناس في دين الله أفواجا، وفي المدة المتبقية من حياته، ستكون لله خاصة، وطالبه بالتسبيح

(١) تفسير ابن عربي، ج ١١٣: ٤. المعنى مقتبس، بتصريف.

والاستغفار:“ فسبح بحمد ربك، واستغفره، إنه كان تواباً“. السياق: فسبح بحمد ربك، واستغفر إنه كان غفاراً، فعدل إلى تواباً، زيادة في بشارتين: المغفرة والتوبة، وسنفضل القول من الوجهة البلاغية، بعون الله.

ومما يخص النبي صلى الله عليه وسلم، أن كثيراً من الرسل والنبين ماتوا ولم تتحقق أمانيتهم كاملة، منهم من لم يؤمن به أحد، ومنهم من آمن به الفرد والاثان والعشرة... وهذا نوح عليه السلام بعد عشرة قرون مع التعب المتواصل، كما في قوله تعالى: «إني دعوتهم ليلاً ونهاراً...» وكانت الاستجابة منهم قليلة قوله تعالى: «ما آمن به إلا قليل...» وقوله تعالى: «فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، مما تعدون» ومن الأنبياء والرسل مهمتهم وقتية ومحلية.

وميزة أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم عاشقون للأحكام، فالواحد لو تورط بالزنا، ولم يعلم به أحد، يأتي النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول له: أقم عليّ الحد، ويصرفه النبي صلى الله عليه وسلم لعله يغير رأيه، ثم يعود، ويصرفه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يعود، كما فعلت «الغامدية» رضي الله عنها. وهذه صور لم تتكرر في البشرية لامن قبل، ولا من بعد، تدفع الناس الرشاوى للتهرب من العقوبة... وهياً الله للنبي صلى الله عليه وسلم أجيالاً تحمل الرسالة من بعده - على مدى خمسة عشر قرناً - إلى هذا اليوم وبدون مقابل مادي، فالمؤمن يقدم روحه وماله وولده، مقابل ماذا؟

مقابل وعد، وفي الآخرة... أجره رضا الله والجنة!!

حروف الخطاب المحمدي في السورة

(ك...ت...ن...أنت) هذه الضمائر المنفصلة والمتصلة والمستترة، لكل

مسلم حظ من ميراثها

ونداؤنا للربانيين من ورثة الأنبياء: تأملوا جيداً هذه السورة، وانظروا ماذا ورثتموه من رسول الله من خلال حروف الخطاب؟ ولكم حظ من ميراثها، حسب استعدادكم، وردت كاف الخطاب ثماني مرات، ومنها: (...لك صدرك...) حديث هادئ وودي، وجاءت نون العظمة ثلاث مرات (شرح -نحن. ووضعتنا...ورفعنا- نحن) بكل أسمائنا وصفاتنا: شرحنا، ووضعتنا، ورفعنا، وجاءت تاء الخطاب

(فرغت...أنت) والسؤال: من المخاطب؟ ومن المخاطب؟ والأجواء كأنها قاب قوسين أو أدنى، ثم يأمره بعد نجاح الدعوة، أن يجتهد أكثر فأكثر، ويتيحاً للقاء ربه: فانصب، فارغب...للقاتنا!!

والسورة بمجملها لها وجهان: أحدهما للأمة وبالأخص للعلماء الوارثين لخلق النبي ﷺ، والوجه الآخر: للمكذبين.

الأمة لن تخلو من علماء، و(على ماء)، ودعاة و(دهاة)...!

لا تمنوا على الله بخطبة جمعة أو درس في المساجد...الله الفضل والمن أن رفعكم مكاناً علياً، وإلا كان منكم الحداد، والنجار، والبيطار...

كما كان النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون يترقبون الجديد من التنزيل، كذلك كان المشركون يترقبونه، ليروا مافيه من الوعد والوعيد لهم، وما فيه من الترغيب والترهيب لهم، وما فيه للنبي ومن معه من الأمر، والنهي، والأخبار، وما فيه من الترشييد والعتب واللوم...لكل تقصير عمداً أو سهواً...فيشمتون بالمؤمنين.

وفي سورة - الإنشراح - ما يغيب المشركين، ويقتلهم كمداً وحسداً، من شدة الود والحب الظاهرتين من خطاب الله، وقرب المناجاة، وتبشيريه بالنصر،

وهذا يتضمن هزيمتهم، وندامتهم، وخسارتهم...

تتضمن السورة ثلاثة معطيات، يذكر الله النبي صلى الله عليه وسلم بمنه عليه، ثم يهينه للتجلد والثبات عند الشدائد، ثم يبشره بالنصر المبين، والعاقبة للمتقين. وهذه الآيات التي تعدد من الله على رسوله: شرح، ووضع، ورفع...

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۚ
الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۖ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۚ

الاستهلال الاستهامي التقريري في مطلع السورة، ليس استفهاماً تقريرياً، فحسب، لأن النبي ﷺ لم ينكر، ولم ينس من الله عليه، ولكنه استفهام ودادي، لمزيد من اللذة والقرب، ومثل هذا الأسلوب، تكرر على لسان زكريا عليه السلام كلما دخل على مريم، ورأى أرزاق الله تأتي طازجة من الغيب، هو يذكر الله متلذذاً بقوله: أنى لك هذا؟ وترد مريم باللذة الودية: هو من عند الله؟! لا هو يسأل عن جهل منه، ولا هي ترد عن غفلة!

ألم نحب إليك الإيمان، ونزينه في قلبك، ونشرح لك صدرك، ونغسله بماء زمزم، ثم نطرح منه حظ الشيطان، ونملأه علماً وحكمة، منذ أن كنت عند حليلة وتكرر هذا الشرح، ولكل مرحلة شرح يتطلبه واقع الدعوة والمرحلة التكوينية للجماعة الإسلامية، وكتب السيرة والسنة أفاضت في الحديث عن شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم لأكثر من مرة. وطراً على محمد ﷺ الذي ولدته أمنا (آمنة بنت وهب) عدة مراحل من الارتقاء في التكوين، مالم يحصل لبشر، وما كانت أمه (آمنة) تدري أن سيطراً تغيير على اسمه، وعلى جسمه.

ووضعنا عنك حملك الذي أنك ظهرك، إذا أنت تحمل، ولا تحمل، أنت ترمي، ولا ترمي، أنت الذي تحمل الراية والشهرة، ونحن في الملاء الأعلى ندبر،

ونقرر، وننفذ، فألفنا قلوب العرب مع العرب، وقلوب العجم مع العجم، وجمعناهم جميعاً على قلبك، وحبيناك إليهم، وحببناهم إليك، وصارت قلوبهم في قلبك، وأيديهم في يدك، وسيوفهم في سيفك، ألفت بين أمم، لا تعد ولا تحصى، والرجل الفذ النادر عاجز أن يؤلف بين زوجتين.

وحملنا عنك حملاً، أبت أن تحمله الجبال وأشفقن منه، قوله جلّ في علاه:
 ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢).

البشرية امتداد لآدم من حيث اللحم والدم، وامتداد لمحمد من حيث الأخلاق والقيم ورفعنا لك ذكرك في السماء يوم الإسراء والمعراج، وعرجنا بك لا لنراك نحن، بل لنريك نماذج من السموات وعوالم الملائكة الأعلى، ونريك نماذج من خريطة الجنة والنار، ويراك الذين في السماء ممن لم يرك، ولا سيما الملائكة الذين يصلون عليك، ينتظرون رؤيتك عياناً، وكل من يصلي عليك يراك.

ورفعنا لك ذكرك في الأرض، فكل عطاء الأرض يخلدون أسماءهم، بقصور، وقبور، وتمائيل، تذكر السياح بهم، إلا أنت الوحيد، بنيت إنسانية الإنسان، وطعمت أخلاق البشرية بالرحمة، أنت كالشمس وحيدة في السماء، أينما سارت تسير معها العيون على مر العصور والدهور، واسمك هو السائح السائح الذي يمر على القلوب، فيسكن قلوب المؤمنين وعقولهم وشفاهم في الكوارث والملمات، وهم كلهم امتداد لآدم من حيث اللحم والدم، وامتداد إليك من حيث الأخلاق والقيم والحق. وإذا أراد سكان الأرض أن ينتخبوا إنساناً، تجمعت فيه كمالات البشرية، ويكون أسوة وقدوة، لن يجدوا غيرك.

ولو جاء وفد من أعلى المستويات من كوكب المريخ أو الزهرة..، وأجمع

أهل الأرض على من يمثلهم لن يجدوا غيرك، ولن يجدوا مثلك!!

ومن يدري باليوم الذي تنضج به البشرية من حيث الانصاف والعدل يبدأ الصراع العالمي على نوع جديد من المغنم والمكارم، بدأ الصراع البشري على الماء والكلأ، ثم على الأرض الخصبة، ثم على المعادن، ثم على الأسواق، وستأتي مرحلة الصراع على الرموز القومية والدينية، فنتيجة التمحيص كلها جربي، وأنظف واحد بهم فيه ألف علة، إلا الرسل والأنبياء، وحياتهم معظمها مطوية، والرسول المكشوف حسبه ونسبه ومولده ومدفنه هو محمد ﷺ لأنه مهياً ليكون قدوة وأسوة، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأحزاب: ٢١، ولم يقل: ... في رسل الله... فكيف تتأسى بواحد لا تعرف عنه إلا ومضة أو مضتين؟!؟

ولقد شرحنا، ووضعنا، ورفعنا عنك، ولا نريد منك إلا أن تصبر، في اللحظة التي يتطلبها الصبر. فكنت، نعم الصابر والمصبر...! ونعم الشاكر...!

ورفعنا لك ذكرك: ففي قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ النساء: ٥٩ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ النساء: ١٣ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ التوبة: ٦٢ رفع الله ذكرك في الأولين والآخرين، ونوه به، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به، وأن يأمروا أممهم بالإيمان به.

ومن جملة رفع ذكر محمد قرن اسم محمد ﷺ مع اسمه في الشهادة وفي الأذان وفيه يقول حسن بن ثابت:

أغرَّعَ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلَوِّحُ وَيَشْهَدُ
وَضَمَّ إِلَيْهِ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْحَمْسِ الْمُؤَذَّنِ أَشْهَدُ

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾

وكلما ضاقت الدنيا على المسلم، اتسع الشرع، فإن مع العسر في الصيام، يسر في الإفطار، ومع العسر في السفر، قصر في الصلاة، ولن يصل أحد إلى اليسر إلا بعد عبور العسر طال أم قصر، فإن عُسر تحصيل العلم، هو الذي يولد عظمة العلماء، وعُسر القتال، هو الذي يولد حياة الشهداء، وقال المتنبي:

لولا المشقة ساد الناس كلهم
الجود يفقر والإقدام قتال

والعسر واليسر هما ممزوجان مزج الروح والنفس بالجسد، وليس بينهما حد كالليل والنهار.

والعسر واليسر ليس بينهما حد، كالليل والنهار، والذكر والأنثى، بل هما ممزوجان مزج الروح بالجسد، فالجلبى في كل لحظة يزداد العبء عليها، ويزداد اليسر فيها، والترفق بها، فعند خروج المولود، يخرج رأسه ممطوطاً نسبياً من ضيق المخرج، وقوة الدفع، والله يقول: «ثم السبيل يسره» هنا مزج العسر واليسر. هي في غاية الكرب والسرور بعد دقائق ستسمع من يقول لها: يا أمي... هذا كلام كأنه من الجنة، يا أمي هزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً، سبحان من يجمع العسر واليسر في إناء واحد ولحظة واحدة، إنه اللطف المطلق» ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير»

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

وبهذه الآية يتبين ضغط البرنامج اليومي للنبي صلى الله عليه وسلم، لا توجد عنده دقيقة بدون إنتاج وترق، وكل ثانية محسوبة عليه، لم لم يستثمرها؟

ولعله عندما يستغفر، ويتوب، مائة مرة وأكثر، ليس من ذنوب لأنه معصوم، ولكن من لحظة مرت بدون ترقٍ.

فإذا فرغت من أي عمل، فابدأ بالآخر، وكذلك الأمة مأمورة أمراً، تنتقل من محراب المسجد، إلى محراب العمل، والحرص على الوقت بينهما، نحو قوله تعالى: "فإذا قُضيت الصلاة، فانتشروا في الأرض..." بعد صلاة الجمعة التوجه للضرب في الأرض.

الزمن أعلى من الذهب وأموال الأرض، وإذا العمر ولى لا يُشرى، وإذا الشباب ولى بتبذير الأيام والساعات، لن يعود، ولن يعوض، والفرق بين الشعوب الحية والمخدرة، احترام الزمن، الأمم الحية توقيتها بالثانية، والتي دونها توقيتها بالدقيقة، والتوقيت بالساعة من الماضي، والتوقيت على موسم الحصاد ندفع الفاتورة، صح النوم !!.

والله رغب بك منذ طفولتك، ووجه الأنظار إليك، وأنت لا تدري، والله يريد قلباً لا قوالب.

وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

هو رغب بك منذ طفولتك، فارغب إليه في رجولتك، يريد قلباً عاشقة راغبة إلى لقاءه، والله يريد نوعيّة، ولا يريد كميةً، وهذه رغبة النبي ﷺ على فراش الموت، لم تكن عينه تنظر إلى الوراء، بل كانت متعلقة بالرفيق الأعلى الذي ترفق به، ورافقه بمعيته، منذ طفولته إلى أن لقي ربه، وهذه المعية التي لا يستطيع النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخلى عنها، بل هي نفسه التي بين جنبيه، لذلك يقسم، ويكرر، ويؤكد عليها: « والذي نفس محمد بيده... » وكانت من أواخر مفرداته صلى الله عليه وسلم في الحياة، وهو على فراش الموت:

إلى الرفيق الأعلى، إلى الرفيق الأعلى، وأي راغب هذا؟!!

ومن منن الله: لقد اختص أناساً قبل أن يسألوه، وقبل أن يخلقوا بالرسالة والنبوة والولاية، وأجاب أناساً بعدما سألوه، وهذا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وامرأته العقيم والراضية المحرومة من الولد بقدر الله، وكانت في حالة سرور مع القدر، فسجل القرآن لها هذا الرضا، ثم جاءتها المكافأة والبشارة، قال جلّ في علاه: ﴿... وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ هود: ٧١، ومن رضي فله الرضا، وهي عجوز عقيم، ولم تحمل بعد... وباب الاحتمالات مفتوح، قد تموت، وقد لا تحمل، أو تجهض، أو يأتي المولود ميتاً أو مشوهاً وقوله تعالى: ﴿... وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ...﴾ الأنبياء: ٧٢. قبل أن تحمل وتلد كونها عقيم بشرتها الملائكة بولد نبي واسمه اسحق، وبابن له نبي واسمه يعقوب، من قبل أن يخلق... وهذا موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، دعوا الله خائفين، أن لا يفرط عليهما فرعون أو أن يطغى، أجابهما الذي يسمع ويرى: «قد أجيبت دعوتكما...» وعلى الأعم الأغلب جميع حالات الترقى واللطف جاءت موسى بعد أن سأل، نحو دعائه: ربّ اشرح لي صدري ويسر لي أمري “بينما معظم حالات الترقى، تأتي إلى رسول الله ﷺ منة ربانية

سورة التين مكية، وآياتها ثمان،

وترتيبها بالقرآن (٩٥)

وبالتنزيل المكي (٢٨)

جاء الاستهلال والقسم بشجرتين، وموضعين مقدسين، مستبطناً ميزان النفع والدفع عند أهل الكتاب، وعند المسلمين. حرك عقولاً نيرة، صارت تكدح كدحاً، لعلها تصل إلى الهدف من أجل هذا القسم، وما أقسم به، وما العلاقة بين الشجرتين والمكانين؟ والعلاقة بين أحسن تقويم، وأسفل سافلين؟ فأحسن تقويم من تخلق بأخلاق الله، وأسفل سافلين من دسّ نفسه بالطين والحمأ المسنون، ومن كل هذه الأطراف المتباعدة، تتجلى الحكمة الإلهية في النفع ومحدوديته عند أهل الكتاب، وعموم النفع للبشرية بالإسلام!

أ- رمزية العلاقة بين شجرة التين وطور سينين، محدودية النفع كالديانة اليهودية موقوفة عليهم.

ب - والزيتون والبلد الأمين، عمومية النفع للبشرية كالإسلام. وجاءت في ثلاثة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١- ﴿وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سَيْنِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾
- ٢- ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾
- ٣- ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾

الاستهلال ثور كثيراً من الناس في تحديد الهدف منه، ولا نريد أن نأول،
أو نكرر، أو نتابع ممن سبقنا، وهم ما بين مشرق ومغرب، ومبعد ومقرب، وكلهم
مأجورون ومشكورون. إن شاء الله!

وسياق القسم وربّ التين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين، خلقنا
الإنسان خلقاً قابلاً للارتقاء الرباني، وقابلاً للتسفل إلى ما دون درجة الحيوان،
بل هم أضل سبيلاً، والأنبياء ومن تبعهم كلهم ارتقوا لأحسن تقويم، والفراغة
ومن تبعهم كلهم تسفلوا إلى أسفل السافلين.

أقسم الله بأربع:

بشجرتين وموضعين، أما الشجرتان التين والزيتون، إحداهما نفعها محدود،
والأخرى نفعها نفع الشمس والهواء، وأما الموضعان طور سيناء والبلد الأمين،
فالطور محلي، والبلد الأمين يمشي مع الزمن، ويكبر كلما كبر الزمن، والجامع بين
الأربعة الفائدة المقدمة للناس، لأن التين ثمرة فصلية زمنها محدود، وتأكل محلياً
وفوراً لأنها سريعة العطب، وغير مهياة للتسوق ناضجة عالمياً، وهي كرسالة
موسى ومناجاته على الطور، أمره الله بأمرين:

الأول: أن يخرج بني إسرائيل من قبضة الفراعنة.

والآخر: أن يدعو فرعون وملأه إلى التوحيد.

فقدم إخراج بني إسرائيل وأخر دعوة فرعون وملئه لأنه ميؤوس من
إيمانهم. والجامع بين الزيتون والبلد الأمين الفائدة الممدودة، فالزيت يخرج من
شجرة مباركة، متعددة المنافع، وتدخل في جوف كل إنسان كطعام، ودواء،
وهذا البلد الأمين بلد إبراهيم الخليل عليه السلام، وما زال أبو الأنبياء كأنه يؤذن
فوق الكعبة، وتسمعه القلوب التي في الصدور، وما زال إبراهيم كأنه يسقي

الناس على حوض زمزم، ومنبع الإسلام الذي صدحت به مكة، وها هو يدخل كل بيت من أهل المدر والوبر، ويستمر عطاؤه إلى يوم القيامة، وجاءت شجرة الزيتون تجمع بين طور سيناء ومكة والذي يجمع بينهما التوحيد الذي دعا له موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبَّغٌ لِلْأَكْلِينَ﴾ «المؤمنون: ٢٠»

أحسن تقويم عالم ومعلم، وأسفل السافلين ممن يطفى نور الله.

لقد أقسم الله بأربع من مخلوقاته، بأنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، ليست مطلقة، لأن منهم من أولها بـ «العالم المعلم» وهنا أحسن ليست من أفعال التفضيل، ولا مفاضل بين الإنسان وغيره، لأن كل ما خلقه الله كامل الحسن، قوله ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ السجدة: ٧، كما هو الحال في (الله أكبر) ولا مفاضل بين الله وغيره، ولا بن عربي توجيه شديد لهذه الآية: ”لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، أولوه بالإنسان الكامل كأبي البشر، وإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام“ الإنسان العالم والمعلم والذي أوتي جوامع الكلم، والإمام محمد ابن الإمام إبراهيم، العابد، الزاهد، وخليفة الله في أرضه... بتصرف إنه الإنسان، إنه آدم ابن التراب الذي خلقه الله بيده وأسجد له الملائكة، ولا تسجد الملائكة إلا لكامل الخلق، والخلق، والتكوين، والرسالة التي يحملها كي يعبد الله وحده، “وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون“ خلق الإنسان له وحده، وخلق له ما في السموات والأرض، كونه سيد هذه الموجودات. ومهمته أن يستمسك بمنهج الله، وبجبل الله، وإلا ارتكس إلى أسفل السافلين.

ثُمَّ رَدَدَتْهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ

والحيوانات مهما انحرفت، تبقى بحدود الفطرة، ولا تتخلي عن صلاتها

وتسيبها، بمجرد أن حملت أنثى الحيوان لا تريد الفحل، ولا هو يريد لها حتى الولادة، ولكن الإنسان إذا انحرف هبط إلى الدرك الأسفل، وتحلى عن منهج الفطرة، بل ووقف ضد منهج الله في الأرض، ومنهم من قتل الأنبياء كاليهود والعلماء والصالحين كالعلمانيين، هل هذا في أحسن تقويم، أو في أسفل السافلين؟ شهادة عليه بعمى البصر والبصيرة.

ولقد جاور السياق بين أصحاب أحسن تقويم، وبين أصحاب أسفل السافلين:

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾

خلق الإنسان كل الإنسان في أحسن تقويم، أي رفعناه فوق كل خلقنا، فمن يؤمن ويستقيم فهذه فطرته في أحسن فطرة، ومن أبى الإيمان أهبطناه ورددناه إلى أسفل السافلين، لعل السافلين من الخلق العجاوات، وهم أسفل من العجاوات "هم كالأنعام بل هم أضل"

لا يقاس الفرد بالقامة، ولكن بالقيمة:

«موسى - وفرعون»... «محمد - وأبو جهل»...

لا يوزن الإنسان بالطول والعرض ولا بالمواصفات اليوسفية، وبالقامة الفارهة، والحدود المتوردة، وهو محلى بأجمل الثياب وأدوات الزينة، وهذا ما عليه أرباب الفن، وباعة الهوى، وكذلك طغاة الكنوز والبنوك، ويمثلهم (قارون) عندما خرج على قومه في زينتته، وفتنهم، وتمنوا أن يكونوا مثله، قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ «القصص: ٧٩»

ولا يتحقق لهم ذلك الغنى السريع إلا إذا أصبحت عندهم الغاية تبرر

الوسيلة، فالنهب والسلب والرشوة والمخدرات والدعارة... الطريق المختصر للشهرة والغنى، ولكن يوزن الإنسان بقدر تمسكه بالمنهج الإلهي، وراع صاحب كسرى أن يرى عمر ينام تحت ظل الدوح، مشتملاً بردة كاد طول العهد يبليها، بلا حراسة ولاخدم أو حشم، فقال الكسروي: حكمت، فعدلت، فأمنت، فتمت!!^(١)

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾

الإيمان الكامل الذي له جناحان: الأخلاق الإيمانية، والسلوك الشرعي ومشكلة المشاكل في زماننا ممن يؤمن بالله واليوم الآخر، وبكتبه، ورساله، وهو أبو حنيفة في كل شيء لكنه بلا فقه، والنووي في كل شيء لكنه بلا ورع، وخالد في كل شيء لكنه بلا سيف، هو نحل بلا عسل وما عنده إلا الإبر، وأجمل ما فيه لا يتدمم، ولا يتأثم.

فالإيمان مشروع حضاري ينهض بالبشرية، وقد طبقه الأنبياء والرسول وصحابتهم، وتحول الناس من رعاة إلى قادة، ومن عبيد إلى سادة، فلهم أجر في الدنيا والآخرة، والأجر لا يكون إلا عن نية وتعب، وتنفيذ ما يسند إليه، ولا مجال للمنة مع التعب إلا من جهة التوفيق، ولكن المنّة تأتي مع الهبة والهدية.

(١) ونظم الشاعر حافظ إبراهيم قصيدته «العمرية» والتي مطلعها:

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً	بين الرعية عطلاً وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها	سوراً من الجند والأحراس تحميها
راه مستغرقاً في نومه فرأى	فيه الجلالة في أسمى معانيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً	بردة كاد طول العهد يبليها
فهان في عينيه ما كان يكبره	من الأكاسر والدنيا بأيادها
وقال قولة حق أصبحت مثلاً	وأصبح الجيل بعد الجيل يروها
أمنت لما أقمت العدل بينهم	فتمت نوم قرير العين هانيها

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾

ولقد جمع السياق بين نموذجين من البشر، وحض العقل المتحرر أن يوازن بين:
الأنبياء وخصومهم.

وما الذي يجعلك أيها الإنسان أن تكذب بالدين، وقد قوّم الله بنيتك من
الداخل بقلب، وعقل، وفطرة، وقدرة على التعلم والترقي، وأراك ثمرات الدين،
وظلمات الكفر.

وأراك نموذج من قام بأحسن تقويم بمنهج الله كالأنبياء والصحابة
والصالحين...، وجمع بين الجمالين، جمال الصورة والمظهر، وجمال الإيمان
والمعشر، وجمال الأخلاق والسلوك، وجمال الأثر والتأثير في الصديق والعدو،
وكلما يستحسنه الناس، فهو دعوة للإسلام.

وأراك نموذجاً مختلفاً: كفرعون طغى، وبغى، وارتكس في معتقده وسلوكه
وخلقه، وتحول إلى ضار ومضر، وإلى فاسد ومفسد.

وبعد عرض النموذجين وأثرهما على البشرية في البناء والهدم، والإصلاح
والإفساد، فما الذي يجعلك أيها الإنسان أن تكذب بالدين.

أيها الإنسان مالك ألا تؤمن بأن الله الذي أحكم خلق الإنسان من التراب،
ومنهم من يترقى إلى نور، ومنهم من يتسفل إلى نار!!

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

الجمع بين الأنبياء والطغاة والنور والظلام والزهر والشوك، وهذا ليس من
التناقض، بل من التدافع، تدافع الخير والشر، والليل والنهار، والحياة والموت،

والمطر والجفاف، والحر والبرد... تدافع بين المتباعدات، وبحكمة الله استمر هذا الكون بدور التدافع الذي يولد الحياة المستجدة، كما يولد الماء الجاري صلاحيته بالتدافع واستمرار حياته، ولو توقف تدافعه، لأنتن، وفقد حياته!!

سورة العلق مكية وآياتها تسع عشرة آية،
وترتيبها بالقرآن (٩٦)
وبالتنزيل المكي (١) وتليها سورة القدر.

سورة العلق سورة التقاء العظماء: القرآن، وجبريل، ومحمد، ومكة. حدث
لن يتكرر.

وهذه أول رحمة، وأول نعمة وأول ما نزل من القرآن، على البشرية، وكان
اللقاء بين العظماء:

بين أعظم الكتب السماوية وأعظم الملائكة، وأعظم الرسل، وأعظم
الأماكن، وأشرفت الأرض بنور ربها، وتجلي ربك بواد غير ذي زرع، فاهتزت
الأرض وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج على مدى ثلاثة وعشرين عاماً...

وكان عرب (٢٣) أي الذين عاصروا التنزيل مؤمنهم ومشركهم، بين
مسلم ذاق حلوها، فآمن، ومشرك ذاق حلوها، فتنكر، وشهدوا فترة استثنائية
من عمر الكون، فترة فيها صلة رحم إيماني بين الملائع الأعلى والملائع الأدنى، وصار
الاتصال بواسطة الوحي، وكانت السماء ترصد حُطى أهل الأرض، وكلماتهم،
ونواياهم، فمرة تؤيد ما هم فيه، أو تصحح لهم، أو ترفضهم، أو تحذرهم، أو
تعطيهم البديل.

وعرب التنزيل من الصحابة، أول من بكوا بعد انقطاع الوحي، لأنهم
فقدوا أعز عزيز، لا يتكرر، ولا يباع، ولا يشرى.

ولأول مرة يتجيش العرب بأمر السماء، يقومون، ويقعدون، ويحاربون،
ويسالمون، ويصالحون، ويحزنون، ويضحكون، ويكون بواسطة الوحي من

خلال غرفة العمليات التي يديرها الله وحده.

إنه حدث عجيب رهيب مهيب، مجرد التخيل والتصور للموقف، يقف شعر الرأس، مجرد أن يتخيل المؤمن المشهد بأن جبريل عليه السلام يأمر، ومحمد صلى الله عليه وسلم يقول: ما أنا بقارئ!.

اقرأ، يا محمد القرآن... الذي أنزل في ليلة القدر..

”... فالذي يأمر أمراً بما يملك من الطاقات النافذة، كن قارئاً، فيكون قارئاً، كقراءة عيسى عليه السلام على قومه بيان حياته ومستقبله، وهو في الساعة الأولى، ومن يعتذر، يعتذر عن شيء لا يملكه، والحل: فمن يملك، يَفِضْ على من لا يملك، وما أمره بالقراءة إلا ليفيض عليه!!“^(١)

تتضمن السورة الموضوعات التالية:

الإعجاز في تعهد الله بأنه يعلم الإنسان القراءة والكتابة، وفي ”مطلع القرن العشرين كان هناك أكثر من خمسة عشر ألف لغة من اللغات الحية“^(٢) ولكل لغة قراءة وكتابة خاصة بها، فمن علم كل هؤلاء؟

علماً، بأن آدم عليه السلام مع أمنا حواء عليها السلام لهما لغة، وكلماتها معدودة لأن حاجتها محدودة، الأكل من الشجر والشرب من النهر، وستر العورة من جلود الحيوانات النافقة، والأمن في الكهوف.

فمن أين تولدت هذه اللغات المتعددة بالآلاف؟!

(١) بعض المعاني مستفادة من الشعراوي رحمه الله تعالى.

(٢) راجع بحثنا المقدم لمجمع اللغة العربية بيروت، ٢٠٠٣م بعنوان: «لومات العرب والمسلمون أو ارتدوا، جميعاً - لا قدر الله - هل الإنسانية تحتاج إلى اللغة العربية؟ ص: ٥. وفي القرن الحادي والعشرين يتقلص عدد اللغات إلى أقل من ٥٠٠ لغة، ثم يتقلص العدد إلى ١٢ لغة، وفي النهاية ست لغات فقط.

فالأوائل من كل لغة من علمه؟ من أهمه؟

وخط سير اللغة الصاعد، واحد يتعلم من واحد أكبر منه، إلى أن نصل
للأول من علمه؟.

علمه الكريم الذي علم الإنسان البيان، وعلمه الأكرم الذي علم بالقلم،
والأكرم الذي علم الأنبياء والرسل والأولياء هبةً وكرماً خاصاً، كما يعلم النحل
إلهاماً خاصاً به.

- وفي السورة: يحذر من خطورة الإنسان الذي يملك العلم والمال وهو بلا
دين، هذا جاهز للطغيان، وأول ما يتصدى للمصلحين والمصلين؟ ويكذبهم؟
ويفتش عن المصلحين والمصلين كي يفسدهم أو يهلكهم بدل أن يستثمرهم؟
والصلاة والصوم والحج... لا تضر الطاغية، لماذا يعاديهم؟ المصلي عنده
ميزان الحق، فيزن به للطاغية، كما يزن لغيره، وهنا تصدم مصلحة الطغاة مع
المصلين والصائمين...

السورة بخمسة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ٣
الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥﴾

٢- ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ٦ أَن رَّاهُ اسْتَعْجَلَ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ٨﴾

٣- ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ١٠ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ١١ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ

﴿١٢﴾

٤- ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ١٥﴾

نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ حَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ، ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾

٥- ﴿كَلَّا لَا نُطِيعُكَ وَأَسْجُدُ وَأَقْتَرِبُ﴾ ﴿١٩﴾

لو قال جبريل عليه السلام لطفل صغير "اقرأ" لقرأ فوراً، أو قال لجذع نخل "اقرأ" لقرأ كما قرأ جذع النخلة مهزوزاً بيد نفساء وتساقط عليها رطباً جنيماً، وعندما قال لعصا موسى: اقرئي، قرأت فوراً عدة لغات منها: حية تسعى، وثعبان مرعب، وفجرت العيون، وجمدت البحر... أوامره نافذة!!

اقرأ: استهلال هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن على أرجح الأقوال الصحيحة من عدة أقوال، منها: عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت:

« أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حجب إليه الخلاء. وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود إلى ذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها. حتى جاءه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك، فقال: «اقرأ». قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد. ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم قال: «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم». فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة، فقال (زملوني زملوني) فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: يا خديجة مالي؟ وأخبرها الخبر. وقال: (قد خشيت على نفسي) فقالت له: كلا. أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل

الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم خديجة أخي أبيها . وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية . كان يكتب الكتاب العربي ، وكتب العبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي . فقالت خديجة : أي ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : ابن أخي ، ما ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى . فقال ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى . ليتني فيها جذع ، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أو مخرجي هم ؟) فقال ورقة : نعم . لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عؤدي ، وإن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي . الخ . وهذا الحديث في الصحيحين من حديث الزهري . .

السؤال: لماذا غطَّ جبريل عليه السلام، رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ؟.

« فجاءه الملك ، فقال : « اقرأ . قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد . ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة .

فلم تقع عيني على من دندن حول هذا، نقول وبالله التوفيق:

النبي - صلى الله عليه وسلم - الأُمِّيَّة من معجزاته وخصوصياته الأُمِّيَّة ، والله يشهد له بهذه الأُمِّيَّة ، قال جلَّ في علاه: «هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم...» وقال: «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي... فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي...» الأعراف: ١٥٧ .

ولماذا يأمر الله أمياً بـ (اقرأ)؟ ولماذا غطه جبريل؟ فلهما عدة معطيات كما جاش في صدرنا، فمنها:

قال له: اقرأ، ولم يقل له: صلِّ، صمِّ، حج، حارب، اغز، اركب... فتش على المعادن في الأرض...

نحن أول أمة حملت راية العلم في الأرض والتزكية والكتابة والحكمة ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الجمعة: ٢.

نحن دعاة حضارة، ولسنا جبارين في الأرض. لأن الله بعث محمداً ﷺ هادياً، ولم يبعثه جابياً. والقراءة مفتاح الحضارة البشرية.

أمره بالقراءة أمراً، تعني خذ الكتاب بقوة، تعني الجد والحزم والعزم، وهو أمر متعدد إلى الأمة، لأن الأمة التي تقرأ تقود العالم. والتي لا تقرأ يقودها العالم.^(١) مادام الله يأمر من أوتي علم الأولين والآخرين محمداً ﷺ باقراً، فكيف حال البشر العاديين؟

والسؤال: لماذا غط جبريل رسول الله ثلاث مرات؟ ربما ليشحنه بطاقة فيها سر التأثير والتغيير، كما هو الحال بعصا موسى، كانت خشبة يهش بها على غنمه، فلما أودعها الله سر التأثير والتغيير، صارت حيةً وثعباناً مبيناً، له لحم ودم وعصب، وصارت تضرب الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً، ويضرب

(١) صدر كتيب صغير وزع مجاناً من دمشق عن اتحاد الناشرين السوريين، عنوانه: العهدة العمرية للدكتور شوقي أبو خليل، ط ٣: ٢٠٠٩. موقع اتحاد الناشرين السوريين (جاء في تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٣م. احصاءات اليونسكو سجلت بأن الإسرائيلي يقرأ ٤٠ كتاباً مقابل كل ٨٠ عربياً لكتاب واحد، فبعد عمر ثمانين سنة يقرأ الصهيوني ٣٢٠٠ كتاب، ووزنه الثقافي يعادل ٣٢٠٠ عربي، ومن هنا جاء الخلل، جهلنا طمع العدو بنا ودعاه أن يتجمع من كل مكان، فأخرجنا من القدس، وأخرج معادن أرضنا، بسبب الجهل الذي نعيشه. بتصرف

بها البحر، فينفلق كل فلقة كالطود العظيم، وماتت هذه الطاقة بموت موسى، كما كانت كف عيسى عليه السلام تبرئ الأبرص، والأبكم، وكلماته تحيي الموتى، كانت طاقة عيسى محدودة على حجم أفراد أحياءهم وشفاهم في حياته، وماتت طاقته مع موته.

وطاقة النبي ﷺ القرائية شحنت أهل الأرض في حياته، وبعد مماته ما زالت طاقته طاقة الشمس متقدة ومتجددة. تحيي المشرك والكافر، فتعيد صناعته وصياغته، فيتحول من عدو لدود إلى حبيب ودود، والذين فاتهم ميراثهم من طاقة النبي ﷺ، يخرجون على القنوات ويراهم ويسمعهم خلق كثير، فلا يتأثرون بهم، ولا يتغيرون منهم إلا قليلاً، لأن كلامهم خلبي لاروح فيه، وأما الوارثون يقولون كلمات بسيطة محدودة ومعدودة، تمشي مع الزمان والمكان، فتجد الزوايا والتكايامليئة بالتائبين من تأثير هذه الكلمات المشحونة من عدة قرون، وهي أثر موروث وممتد إلى غطة النبي ﷺ.

فالشيطان يملك طاقات من العلم والحيل وتزيين الكلام، ويكفي أن يوسوس بنفس اللحظة في صدور المليارات من الناس، وهو الأول في كل فنون العلم والمعرفة والحيل والفتن...، وهذه الطاقات الهائلة لم ينتفع منه أحد، ولم ينفع أحداً.

وبعض أهل المنابر لهم دنة ورنّة، ولم يسلم على يده واحد، أو يتب على يده واحد. فالقراءة في الإسلام لها جناحان متوازيان ممتدان إلى يوم القيامة: جناح الروح، وجناح النص، وهذه السلسلة الذهبية، تبدأ من غار حراء، بدأ النص (اقرأ) ولكن الروح والسر في (غطني)، تبدأ من جبريل إلى النبي ﷺ إلى العلماء الربانيين العاملين.

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ
عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم ④

مجمع العظماء: القرآن الكريم، وجبريل الكريم، ، ومحمد الكريم، وجبال مكة ووادي غير ذي زرع شهود.

ووادي إبراهيم عليه السلام، والبيت الحرام، شهود على ولادة عالم جديد، وإنسان جديد، وضمير جديد، شهود على إلتقاء الملائة الأعلى بالملائة الأدنى ماالسر أن يطلب جبريل من رسول الله أن يقرأ، ولم يتلق محمد عليه السلام كلمة واحدة من القرآن "المقروء" بعد؟ فمن يتحنت، يقرأ ما حوله، ويطرقى، وعلى مدى أربعين عاماً وهو يقرأ في الكتاب "المنظور" في خلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة...

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①

مرحلة التعليم الأولى: النظر في خلق الله، والعين لا تخطئ الكون والكائنات حول الإنسان، وهذا التعلّم الذاتي.

اقرأ باسم ربك الذي خلق الأكوان كلها وأودع بها أسرارها، وأنوارها وأدوارها، وماءها، ومرعاها، قبل أن يخلق الإنسان، حتى إذا جاء الإنسان، يجد كل موجودات الكون تناديه وتقول له:

إن لهذا الكون العظيم خالقاً عظيماً، وعليه أن يفكر ويتأمل بالموجود، على عكس ما في عالم السياسة والملك، يقولون من أول يوم للناس بيانا: سنجري لكم أنهاراً من لبن وعسل مصفى... ، قد يتحقق، وقد لا يتحقق منه شيء، ويعيش الناس على مواعيد عرقوب، وليس على الساسة أي حرج نفسي من الهذر على

الملاء، بينما أراد الله أن يقول لنا من خلال الكون الناطق الصامت: انظروا في الكون كنظر الأنبياء، تصبحون كأنكم أنبياء!

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾

وأول درس: فلينظر الإنسان مما خلق؟ خلق الإنسان من تراب، ثم طينة، ثم صار لحماً، ودماً، وعظماً، ونطفةً، وعلقةً، حتى أصبح بشراً، ينتج بشراً مثله! إن الله كشف للناس سر صنعته من باب التحدي، لعلهم يصنعون مثلها، وهذه الماء كل طلاب المدارس يعرفون مكوناتها وتركيبها، ولكن البشرية عاجزة عن صناعة كوب واحد.

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

عليك أن تقرأ... والله يتدرج بك من - أ، ب، ت،... - إلى علم الذرة والمجرة.

وانتقل إلى مرحلة التعليم الأخرى، وهي كسبية، وتحتاج إلى قارئ، ومُقرِّئ، وحروف مقروءة، أنت يا إنسان تبدأ بأول خطوة، والله يتدرج بك، يربيك، ويعلمك، يتدرج بك من - أ، ب، ت،... - إلى علم الذرة و علم المجرة.

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾

والتدرج بالتعلم مخزن بقوله: عَلَّمَ ، على وزن: فَعَّلَ ، قطع، قطع مرة، و قطع مرات، وعلّم مرات. والقلم أداة ووسيلة بين الإنسان والورق. فالقلم جعل أيدي الأموات تطول وتمتد مع الزمن، فيعلمون الناس وهم في قبورهم.

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمُ ﴿٥﴾

علم الإنسان الفطري كالطفل والبدوي، ما لم يعلم، علمه الرضاعة منذ الولادة، وعلمه فنياتها، بأن يطوق الحَلْمَةَ، ويضغط عليها حتى لا يتسرب الهواء فتفشل عملية الامتصاص. وكأن الله يذكره بمنه عليه، وتلطفه به كالرضاعة، والآن بعد أن عرف الله، سواء عبده أم لم يعبده، سيتكرم عليه بالعلم. ويتجلى كرم الله بالعلم حتى على الذين لا يؤمنون.

وكلما تعلم الإنسان ازداد قوةً ماديةً وعلميةً، ويبدأ يستغني بعلمه وماله عمَّن حوله، وقد يستغني عن الناس، لكنه لن يستغني عن الله، لأنه في قبضته، وهو راجع إليه لا محالة.

العلم بلا مراقبة الله، وسيلة طغيانية.

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَاءَهُ اسْتَعْتَصَبَ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ ﴿٨﴾

كلاً، أداة زجر ونهر، جاءت بعد نعمتي القراءة الكونية، والقراءة القرآنية، ونعمة القلم التي تحتاج إلى زمن طويل من كرم الله حتى يتدرج به، ويشتد عوده، لأنه يَعْمَى عن مواضع افتقاره فجاءت (كلاً) لتزجر النفوس الجاحدة، إما أن تبخل بالعلم على غيرها، أو تستخدمه في الإضرار،^(١) كما هو الحال في الحضارة الغربية، إن لم تجد ما تأكله، تشعل النيران هنا وهناك، حتى تبيع معدات الإطفاء، وتوقد ناراً للحرب هنا وهناك، حتى تبيع السلاح، فتصنع فيروساً ما، فتطرحه فجأة، وتضخمه إعلامياً، ثم تطرح علاجه، فيضطر العالم إلى شرائه ولو إلى

(١) كان الطلبة النصارى يدرسون في جامعة قرطبة، ولما يتخرج يقسم على القرآن الذي يوضع على رأسه ملفوفاً حتى لا يمسه، ألا يحجب العلم عن أحد، ولا يضر به أحد.

حين، فتكررت انفلونزا الطيور، وإنفلونزا الخنازير، والإيدز... أي طغيان هذا؟
وأي استغناء هذا! وأي بعد عن الله هذا! « ويبغونها عوجاً»

لذلك جاءت (كلا) لتردعهم، وتزجرهم. وتقول لهم:
تعس عبد الدرهم والدينار..

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾

ومما ورد في سبب نزولها، كما أخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن
أبي هريرة أن أبا جهل حلف بالللات والعزى لئن رأى رسول الله صلى الله عليه
وسلم يصلي ليطأن على رقبته وليعفرن وجهه، فأتى رسول الله عليه الصلاة
والسلام وهو يصلي، ليفعل، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي
بيديه، فقيل له مالك فقال إن بيني وبينه لخنذاً من نار وهولاً وأجنحة فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً
وأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿١﴾﴾ العلق: ٦ إلى آخرها. (١)

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿١٢﴾

ومنهج الصالحين على الهدى في أقوالهم وأفعالهم، ويأمرون الناس على
ذلك، ويأمرون بتقوى الله. فبدل أن يستجيب الكافر للمنهج الرباني، يكذبه،
ويصدده، ويرده، ويتولى الفساد في الأرض.

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾

من المسلمات أن الله يرانا، ومن المكرمات أننا نرى قدرة الله في صنعته وخلقته

(١) تفسير الألوسي، ٤٦: ٢٣.

ولطفه وعطفه، وفي الحديث: «إن لم تكن تراه، فإنه يراك» وفي الحديث القدسي «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أكون... بصره الذي يبصر به» إذا كذب وتولى، فسد ظاهره وإنتاجه، وإذا تجاهل بأن الله لا يراه فسد باطنه، ولا خير فيه. واستهلك الزمن المسموح به من حلم الله وصبره، ولم يبق إلا العذاب والعقاب.

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لَنْسَفَعَا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾

كلا، الزجرة الأخيرة، لأن لم ينته عن الكفر والفجور والكذب وترويج المخدرات والإضرار بالناس لَنَسَفَعَا - التنوين هنا: نون التوكيد الخفيفة - واستخدام السفح كمفردة وحيدة في القرآن - سفح - سفح بناصيته: أخذ بها، كناية عن القهر والإذلال، لأن صناعة الكذب والتزوير محلها غدة بمقدمة الجمجمة، وراء الجبهة، وهذه من إعجازات القرآن في القرن العشرين، وهذه الناصية الكاذبة التي تغذي وسائل الإعلام، كيف تطفئ نور الله في الأرض؟ وكيف تدوس على القيم؟ وكيف تحارب منهج الله؟ وقد نبهنا القرآن الكريم على أنه ما من دابة إلا وناصيتها بيد خالقها، يتولى حياتها وحركتها ومستقرها ومستودعها، قوله تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ أَخَذَ بِنَاصِيَتِهَا﴾ هود: ٥٦، ولا تستطيع أن تتفلت من إحكام قبضته عليها، يحيها، ويميتها، ويمرضها، ويشفيها، ويسعدها، ويشقيها، متى تشاء حكمته؟ وما من دابة مما يدب على الأرض، بدءاً من النملة إلى الفيلة أي كل ما يدب على الأرض في قبضته، وهي غدة في مقدمة الرأس مسؤولة عن السلوك الخاطيء، قوله تعالى: «كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنْتَه لَنْسَفَعَا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ» وهذا الفص الواقع خلف الجبهة متحكم بأقوال وأفعال ولا سيما السلوك الخاطيء للإنسان كالخطأ والكذب، ويتحكم بالنطق والنظر والحركات الارادية وتحليل المعلومات المكتسبة. ولم يكتشف هذا الإعجاز إلا

من نصف قرن، والقرآن تحدث عنه من أول نزول القرآن.^(١)
المستبد يدعو جنوده وملاه في الدنيا، والله سيدعو زبانيته.

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ، ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾

وما صفات الذي يدعو، فيطاع على الباطل؟ إنه المستبد في رأيه، وفي ماله،
وفيمن حوله من الأذلاء الخانعين الممولين. وهم كثيرون من أتباع المستبدين،
لذلك يُستدعى لهم كل الزبانية.

السياق: سندع الملائكة الزبانية، فحذف الموصوف وترك الصفة، لأن
اسم الله، واسم الملائكة، وبعض الأسماء المكرمة التي هي مصدر الرحمة، أو من
حملة الرحمة، لا تذكر بأجواء العذاب والانتقام. نحو قوله جل في علاه: «من يهد
الله، فهو المهتد، ومن يضلله، فلن تجد له ولياً مرشداً» بالهدى ذكر اسم الله، وفي
الإضلال حذفه وغيبه.

بمفرده يدعو أهل نادية في الدنيا، وليس كل الجيران معه في هذه المنازل،
وفي الآخرة سندع، كما دعا، من باب العدل.

بدأت المنازل مع الطاغية الفاجر، وهو معتز بمن حوله من الجند والحراس
والسلاح المتطور، وإن كانت النتيجة محسومة، ولكننا في الدنيا سنسلط عليه
الزبانية من أمثاله، وما الحرب العالمية الأولى والثانية، إلا لقاء بين جبارين
طاغيين طحنا بعضهما بظلمهما، وفي الآخرة سندع الزبانية، وهم كالشرطة الذين
يدفعون الناس دفعاً نحو السجن، وسمى بعض الملائكة بالزبانية الذين يدفعون

(١) المعلومة العلمية مقتبسة من كتاب: الناصية ووظيفة الفص الجبهي للدماغ، د. محمد سكر
ود. الصاوي، نشر الهيئة العامة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الرابطة بمكة، ط/٢،

٢٠١١-١٤٣٢م

المجرمين دفعاً نحو النار (وَزَبَنَهُ، يَزْبَنُهُ، زَبْنًا: يدفعه).

كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾ (١)

يحذرنا الله من طاعة المستبد، خنوع في الدنيا، وحساب في الآخرة. كلاً، زجر وقاية وحيطة للمؤمن حتى لا يقع في فخ الفاجر المتمرد، لأن عنده من وسائل الإغراء والخديعة، ما يزلزل به الجبال، لذلك يحذرنا الله من علياء سمائه، يقول لنا... وكل تبليغ مهم ولا سيما إن كان بشكل فردي، حتى يعمم تبليغ الزجر والحذر على الجميع، لا تطعه، ويقدم الله لك البدائل، فاسجد لمن علمك نعمة العلم، ونعمة القلم، واقترِبْ بهما إلى الله، من خلال تقديم ثمرات العلم للناس. (٢)

(١) توزيع السجرات الـ (١٤) في القرآن جاءت موزعة: الأولى في نهاية الأجزاء العشرة الأوائل، والثانية بعدها بخمسة أجزاء، والثالثة بأقل من ذلك، وهكذا... ولما نصل جزء عمّ تصل إلى سجدتين... نبهني هذا التوزيع من أجل التخفيف على من يجتُمون القرآن بالصلاة، لهذا لما أُحييت ليلة القدر بمسجد المدينة المنورة - بالباب، حلب، ١٤٣٤هـ قرئ القرآن كله بركعة واحدة، والثانية بالإخلاص، بست ساعات ونصف الساعة، فالسجرات وتوزيعها وتكثيفها في النصف الأخير لحكمة. «الله لطيفٌ بعبادِهِ» الشورى: ١٩.

(٢) عندما كان يتخرج الطلاب النصارى الأوربيين من جامعات الأندلس، يؤدون القسم على أمرين: ١- ألا يحجب العلم عن الناس. ٢- ألا يضر بالعلم أحداً. ومن أجل ألا تعلق يده على القرآن، فيرفعون القرآن على رأسه ملفوفاً تجنباً للمس، والآن يضع المتخرج قطعة مربعة الشكل على رأسه وكأنها غلاف كتاب. تخليداً لأمر مضي منذ بضعة قرون!!

سورة (القدر) مكية
وترتيبها بالقرآن (٩٧)،
وبالتنزيل المكي (٢٥)

تتجلى علاقة بين سورتي: الفلق، والقدر بالمحتوى والترتيب.

اقرأ، القرآن... الذي أنزل في ليلة القدر وعلى الجميع أن يتنبه ويستفيق على أمر عظيم، حدث مرة واحدة في الدنيا، قبل نزول القرآن ما كانت ليلة القدر، ولا رمضان، ولا غار حراء... ولا مهاجرين ولا أنصار... لقد سها معظم المسلمين المتأخرين في التعامل مع ليلة القدر، واهتموا بالظرف الزمني، على حساب المضمون، على حساب القرآن الذي أنزل فيها، بينما وفق المسلمون في ليلة المولد النبوي، عندما اهتموا بذات محمد ﷺ وأخلاقه وجهاده... ولم ينسوا يوم مولده وشهره.

نعم...! للوعاء الزمني ميزة، واهتموا بمحمد ﷺ، واعدوا مزاياه وسجاياه في كتب الشئال بدأت بأربعين خلق حميد ومجيد، والآن تجاوزت المائة من الشئال الحميدة والخصال المجيدة.

وهي من أبرك الليالي في تاريخ الشمس والقمر، ومن أرحم الليالي في تاريخ البشر، وما من نبي إلا جاء رحمة لقومه، وهي رحمة محدودة ومعدودة كما أرسل موسى لإنقاذ قومه فقط، وبعدها جاءت ليلة القدر، جاء الخطاب لإنقاذ البشرية جمعاء، وتكرر النداء للناس، قوله تعالى: « يا أيها الناس... ». أي كل الناس، وأطلق مهمة نبينا صلى الله عليه وسلم، بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ سبأ: ٢٨. وحدد مهمة موسى عليه السلام بقومه، وإخراجهم من بطش الفراعنة، ومن ظلم الفراعنة، بقوله تعالى: ﴿ ...أَنْ أَخْرِجَ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ... ﴾ إبراهيم: ٥.

بينما الذي أنزل بليلة القدر كان الخطاب عمومياً، بقوله: يا أيها الناس... كل الناس، وكما خاطب الكافرين كل الكافرين، بقوله تعالى: يا أيها الكافرون....“
ليلة القدر ليلة بشرية، إنسية، جنية، أي للإنس والجن.

ولولا...الذي أنزل بليلة القدر!

ما كان غار حراءٍ، ولا العشر الأواخر، ولا الاعتكاف، ولا شهر رمضان، ولا مليار صائم وقائم، ولا مئات الألوف من المساجد والمآذن تصدح: الله أكبر... ولا مئات الألوف من المنابر تصدع بالحق...

ولولا...الذي أنزل بليلة القدر!

ما دفن ببلاد الشام عشرة آلاف صحابي وماكان المهاجرون ولا الأنصار ولا الغزوات ولا السرايا، ولا انتشر أصحاب محمد ﷺ في بقاع الأرض، وهذه قبورهم شاهدة على ذلك، ففي بلاد الشام عشرة آلاف صحابي، وقد نزل بعضهم بوادي "نهر الذهب" بمدينة "بزاعة" (١) وأقاموا فيها، وماتوا وذابت ذريتهم وقبورهم، وعلى أسوار «منبج» (٢) استشهد الصحابي الجليل حنظلة بن خويلد، شقيق أم المؤمنين خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ، وقبره يزار رضي الله عنهم. وخص الله بلاد الشام بعشرة آلاف صحابي، بينما في البقيع عشرة آلاف صحابي (٣)،

(١) بلدة شرقي حلب مسافة ٤٠ كم. بقيادة الصحابي مسلمة بن حبيب الفهري، ١٧هـ فريق منهم خيم وسكن شمالي بزاعة الحالية، ولعهد قريب، كان البدو والأرياف، عندما يمرون من منطقة المخيم، احتراماً ينزلون عن دوابهم، ويخلعون أحذيتهم، ومن يعظم شعائر الله، فإنها من تقوى القلوب، وفريق آخر تابع سيره إلى الشرق نحو منبج وما بعدها، ومنهم أخو خديجة الكبرى حنظلة بن خويلد رضي الله عنها استشهد، ودفن على أسوار منبج وقبره يزار.

(٢) مدينة شرقي حلب مسافة ٨٠ كم

(٣) ولم يعرف من أسمائهم إلا (٢٤٨) صحابي، كما جاء بكتاب: عنوان النجابة في معرفة من مات بالمدينة المنورة من الصحابة، تأليف مصطفى العلوي الرافعي، ط/ ١٣٩٢، ٥٣، ١٩٧٢م، الدار العربية بيروت. دليل على أمية المجتمع. آنذاك.

فبلاد الشام هي البقيع الثاني، بينما في مصر قيل دفن: خمسة، وقيل: ثلاثة آلاف صحابي، وقيل دفن: ثلاثة سبعون من أصحاب النبي ﷺ في العراق!
ولولا...الذي أنزل بليلة القدر!

ماكانت دولة المدينة التي وحدت الجزيرة العربية، ولاقامت دولة بني أمية في دمشق، ولا دولة بني العباس في بغداد، ولا أشرقت شمس الإسلام على الغرب من خلال الأندلس...قال الشاعر:

لولا دمشق ما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغدان
ولولا...الذي أنزل بليلة القدر...

وماكان هناك خمسة ملايين مخطوط باللغة العربية في شتى أنحاء العالم^(١)، وفي مختلف العلوم...هذه الموجودات المتبقية والسالمة من عاديات الزمن، وماعدا المخطوطات باللغات المختلفة تبعاً للشعوب الإسلامية كالتركية والفارسية والأردية والإفريقية...وهناك آلاف المفقودات والمتلوفات والمسروقات...
ولولا...الذي أنزل بليلة القدر!

وما كان الجهاد والمجاهدون قائمين إلى يوم القيامة، يجرسون المنهج، والديار، ويجرسون الجغرافيا الإسلامية من تركستان إلى الأندلس، ومن غانا إلى فرغانا، وعظام الصحابة فوق هذه البقاع منارات هدى، ولولا الجهاد ما كان للفرنجية، والتتر، والاستعمار الحديث، وغزاة العراق، وأفغانستان وفلسطين...، أن يخرجوا كالجراد المنتشر، يحطم كل شيء ثم يؤولي!

(١) عن لسان الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية للمخطوطات، الدكتور صلاح الدين المنجد... أجريت معه لقاءً صحفياً ونشر بجريدة المدينة المنورة بجدة. في تسعينيات القرن الفائت. قال: جمع للجامعة العربية مليوني مخطوط، ولما تحولت الجامعة إلى تونس، تبخر الكثير منها في الطريق.

ليلة القدر من أبرك الليالي في تاريخ الشمس والقمر، ومن أرحم الليالي في تاريخ البشر.

وقد أخفى الله ليلة القدر، كما أخفى ساعة الإجابة يوم الجمعة، وأخفى الأجل، وقيام الساعة، وأخفى الأولياء الصالحين كقصة موسى والخضر، وهذا الخضر العبد الصالح الذي جاء من الغيب، وبعد المهمة دخل في الغيب، حتى يميز الله بين الطامعين والعاشقين في معرفة الصالحين، وكذلك حتى يميز الله بين الطامعين في ليلة القدر والعاشقين لها، فمن يقوم ليلة القدر من أجلها وما فيها من الخير، ويأخذ حظه منها كفرد، ومن يقوم ليلة القدر، من أجل ما أنزل فيها من خير دائم للبشرية، بدوام السموات والأرض، وهؤلاء الفائزون.

ومتى يحترم المسلمون أنفسهم، ويحترمون ليلة القدر، ويحترمون القرآن، ويطبّقون أوامره ونواهيه بعشق، ويحترمون هذه الليلة، كما احترّمها النبي ﷺ، وكان يشدّ مؤثره - كناية، أنه لا يأتي أهله - ويتحين ليلة القدر بعشرة أيام معتكفاً، وتتنزل الملائكة في كل عام إحياءً لليلة نزل فيها القرآن، وسيبقى الملائكة الأعلى والأدنى يكرمون هذه الليلة، ويأخذ المؤمنون حظهم من الرحمات والبركات ومغفرة الذنوب وسعة في الأعمار والأرزاق...؟؟

وسياتي اليوم الذي تفيق فيه البشرية من جهلها وسباتها، وتعرف أن مهمة القرآن الكريم الذي أنزل بهذه الليلة، يركز على أمرين:

- التوحيد...

- الرحمة بالخلق...

حتى الذين لا يؤمنوا به، تصلهم الرحمة، والعدل.

وفي هذه الليلة كُرم بنو آدم، وألغيت كل الامتيازات، وأصبح الاعتراف

بالعمل الصالح، ومنه تولدت حقوق الإنسان، والحيوان، والنبات، حتى الحصا، فهو شيء حي، وكل شيء يسبح بحمده...

وسياتي يوم تقف فيه البشرية جميعاً- المسلم وغير المسلم- في ليلة القدر، احتراماً لبشريتهم، ولتقدها، ولحبيها، ألا وهو القرآن الكريم، وقد بشر القرآن الكريم باستفاقة الوعي العام وإنصاف القرآن عالمياً، وإظهاره على كل الأديان والمناهج الأرضية والأيدلوجيات، ربما لا حباً به، ولكن فيه علاج لمشاكلاتهم، ولما اضطروا، أخذوا بالطلاق، ومن قبل كانوا يعتبرونه نقيصة وسبة على المرأة، ومثله التقنين للخمر، وقنبلة الربا التي نسفت دور المال العملاقة، والأزمة المالية العالمية (٢٠٠٩م) - وجهت أنظار العالم بما فيهم العامة، أن سلامة أموالهم مضمونة بنظرية الاقتصاد القرآني، ودمارهم بالربا، وأمر الأديان الأخرى ضعيفة، ومستقوية باتباعها، وليس بذاتيتها- بينما الإسلام قوي بذاته والمسلمون عبء عليه، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ التوبة: ٣٣. وآية أخرى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ الصف: ٩. إذن... سيأخذون بحلول القرآن لمشاكلاتهم الاجتماعية والاقتصادية... وهم كارهون مرغمون تجاه مصالحهم.

وقد تحققت هذه النبوءة القرآنية! لقد انحنوا أمام القرآن بعد أن نصبوا العداء له، ولمن يحمله دهماً طويلاً.

ستحتفل الإنسانية بليلة القدر عندما تبلغ سن الرشد

وسياتي اليوم الذي تبلغ فيه الإنسانية سن الرشد، وسيتفرق العقلاء عن الاحتفال برأس السنة الميلادية، من نتن ريحها، وفجور محبيها، وليلة الميلاد يهان

بها المسيح ودين المسيح، هذا إذا صح زعمهم بأنه ولد فيها، والقرآن الكريم يحدد ميلاد المسيح في فصل الصيف، زمن نضوج التمر، لقوله تعالى: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ سُقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِينًا﴾ مريم: ٢٥.

وتصبح ليلة القدر ليلة الاحتفال العالمي النظيف، وتعود الموازين والمكاييل الجائرة التي كان يكال بها للإسلام إلى أنصبتها وصوابها. وسيأتي يوم يؤرخ العالم بليلة القدر -آنذاك- وستكون بداية الرشد الإنساني، والنضوج الفكري، وهزيمة الهزائم للمكابرين والمستعدين في الأرض.

ولعل تسميتها بليلة القدر لعظمتها وجلالها، أو لأن الله يقدر فيها ما يشاء من أوامره إلى السنة القادمة كأمر الموت، والأجل، والرزق، وغيره.

وزمنها من غروب الشمس للفجر، تنزل الخيرات والبركات والرحمات، ما يكفي لعام قادم كمواد التموين، أو المطر الموسمي الذي يثري الأرض للموسم القادم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴿

ولعل قوله تعالى يشير إلى ليلة القدر: ﴿حَمَّ﴾ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبْرَكَةٍ.. ﴿الدخان: ٣﴾، وقوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾.. ﴿البقرة: ١٨٥﴾.

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

”من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه“^(١)

وعن أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسول الله صلى الله عليه وسلم في العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك. فاعتكف العشر الأوسط فاعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك. ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: ”من كان اعتكف معي فليرجع، فإني رأيت ليلة القدر، وإني أنسيتها، وإنما في العشر الأواخر وفي وتر، وإني رأيت كأني أسجد في طين وماء“. وكان سقف المسجد جريداً من النخل، وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قزعة فمطرنا، فصلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديق رؤياه. وفي لفظ: ”في صبح إحدى وعشرين“ أخرجاه في الصحيحين^(٢)

يؤرخ الله للقرآن بأنه أنزله في شهر رمضان وبليلة مقدره مباركة وبدون تحديد هذه الساعة المباركة واللييلة المباركة، ولكن الذي جاء في السنة النبوية والآثار المروية، ترجح هذه اللييلة، في الأوتار من العشر الأواخر، ولاسيما ليلة السابع والعشرين، وتليها بالترجيح العشر الأوسط، ولاسيما ليلة السابع عشر.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١

جاء أنزلناه بلغة الجمع، أي بجميع أسمائه الحسنی وصفاته العلیا، اجتمعت اجتماعاً للتكريم والتقدير والتبجيل لتنزيل القرآن، ولكل اسم من أسماء الله حقيقة وقدرة وطاقة في هذا الوجود محققة، وبهذه الأسماء مجتمعة نزل،

(١) صحيح البخاري برقم (١٩٠١) وصحيح مسلم برقم (٧٦٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (١١٦٧).

وهذا رأي الشيخ محيي الدين ابن العربي يكرره، عند نون الجماعة، والتي يسميها البلاغيون: نون العظمة للتفخيم. ويستوحى من ذلك أن كلاً من الأسماء الحسنى أخذ حظه من القرآن الكريم، وهو قائم فيه.

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾

أنزل القرآن جملة إلى السماء الدنيا من اللوح المحفوظ في تلك الليلة، وهي في شهر رمضان؛ لقوله: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ... .)، أي: أنزل من اللوح المحفوظ، ثم أنزل من السماء الدنيا على رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حب مراحل الدعوة ومتطلبات المستجدات من الأمر والنهي، والحلال والحرام، والمواعظ، وكل ما يحتاج إليه.

وللما تريدي رؤية ناعمة ودقيقة مفادها: ففي هذه الليلة سرّ لم نطلع عليه، هل اختبار للمسلمين من أجل ترغيبهم بها، أم اختبار للملائكة المنزلين كي يتعبدوا يوماً في الأرض؟ ولقد اختص الله بعض الأماكن بتفاضل بعضها عن بعض كالصلاة بالمسجد الحرام تعدل مائة ألف وفي مسجد المدينة دون ذلك، وفي الأقصى دون المدينة، فبين تلك الأماكن، وأما الأوقات المفضلة لم يحدد إلا يوم عرفة، بينما ساعة الجمعة، وليلة القدر... زمنها عائم من أجل الاجتهاد في طلبها.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾

وَمَا أَدْرَاكَ... بالماضي؟ تكررت ثلاثاً وعشرين مرة، نحو: وما أدراك ما العقبة؟ ثم يعقب عليها بالشرح والتوضيح، وَمَا أَدْرَاكَ..؟ استفهام على جهة التفخيم لشأن تلك الليلة، فيدريها للنبي، ليلة القدر خير من ألف شهر، بينما وما يدريك... بالمضارع، لم يدره أبداً، نحو قوله: وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً؟ الأحزاب: ٦٣.

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾

وهل هذا الرقم على ظاهره، أم عادة العرب على سبيل التمثيل والتكثير، قوله تعالى: ﴿يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ البقرة: ٩٦، يتمنى أن يعيش مدى الدهر. نحو (مائة مرحلة ومائة أهلين وسهلين)؟ وهل هو لبيان العدد أو لبيان الشرف؟ التربية القرآنية تركز القيمة وليس على القامة، تركز على النادر الكريم، كالأحجار الكريمة وليس على الحصى...

نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾

وقوله تعالى: ﴿يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرٍ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ النحل: ٢، ما قال نزلت... أو تنزل هي، بل: تنزل... إما موجات متوالية، وإما تنزيلاً متدرجاً مريحاً، وهل كل الملائكة نزلت، أم المسؤولون عن البشرية وعمارة الكون، وملك ما يسمى: الروح، والروح روح فيهم جميعاً، لقوله: تنزل الملائكة والروح (فيها) ولم يقل: تنزل الملائكة والروح معهم، أو والروح منهم، بانضباط شديد "بإذن ربهم" نزل كل ملك بأمر، والروح بأمر، وكل أمر بأمر.

وتتنزل الملائكة بإذن ربهم، لعلها لمهمات جديدة، لتنزل القرآن الكريم على قلوب الأجيال الجديدة المتكررة إلى يوم القيامة، كما نزلته في المرة الأولى على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (١١٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ الشعراء: ١٩٤. وعلى قلوب أصحابه، وما زالت مهمة الروح الأمين قائمة، لذلك كما تنزل على رسول الله في غار حراء يتنزل في كل رمضان لحملة القرآن الجدد في كل عام ومن كل جيل، ومن كل أمر، أي لكل حامل للقرآن خصوصية يقوم بها، وأمر يخصه، كما اختص الله عمر بآيات العدل

والحق وبدون أخذ رأيه، وقام بها، كذلك اختص خالدًا بآيات الجهاد، وقام بها، واختص عثمان بآيات الصدقات وقام بها، وكل مؤمن يُعطى حسب استعداده.

سَلِّمْهُيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ

ولعل الملائكة يسلم بعضهم على بعض فيها، وكأنها ليلة عيد الملائكة على الأرض. أو يسلمون على المؤمنين، أو يؤمنون على دعاء العابدين إلى وقت طلوع الفجر. كما قيل :

يا ليلة من ليالي الدهرِ قابلت فيها بَدْرَهَا بِبَدْرِ
ولم تكن عن شَفَقِ وَفَجْرِ حتى تولّت وهي بَكْرُ الدهرِ
سلام هي حتى مطلع الفجر
هل هذا خبر، أم أمر؟

لا ندري يخبرنا بعظمتها، أو يأمرنا بهذه الليلة أن ننشر السلم ونلتزم به حتى لا تتأذى الملائكة التي بيننا هذه الليلة كونهم من عالم الملائكة الأعلى، ولم يهبطوا إلا للنور والسلام المطلق كما هي أجواؤهم، وعندما تلاحي بعض أصحاب النبي ﷺ فيها، مع أدبهم الجم في الاختلاف، وكان قد خرج رسول الله ليخبرهم بها، فنسيها النبي صلى الله عليه وسلم.

سورة البينة مدنية، وآياتها سبع،

وترتيبها بالقرآن (٩٨)

وبالتنزيل المدني (١٤)

صارت بينات القرن العشرين وما بعده الإعجاز العلمي بالقرآن والسنة من سنن الله توالى البينات والضلالات، كتوالى الليل والنهار، والصيف والشتاء، والحياة والموت، والمصلحون والمفسدون، فكم توالى الظلم والظلمة بعد الأنبياء والصالحين، وطال في الكون هذا المدار؟!

والسؤال: ما مدى مسؤولية العالم العربي والإسلامي المعاصر في تحاذلهم عن نشر البينة؟ وما العقوبة المترتبة على ذلك؟

١- في صدر الإسلام حملوا البينة إلى كوريا الجنوبية وفيها قبر الصحابي الجليل ابن عم النبي ﷺ القثم بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم، ويوجد في تركستان الصين مسجد "سعد بن أبي وقاص" وكتب على بابه، إلى هنا وصل الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص، في الفتح الإسلامي. وفيه قبره،^(١) وغرباً عبروا من الأندلس نحو الشرق، ومعركة بلاط الشهداء في غرب فرنسا، وفيها قبر الشهيد عبد الرحمن الغافقي قائد المعركة، فانهزم المسلمون بسبب تركهم الجبهة وتحولوا يدافعون عن الغنائم، المهتم السلف حملوا البينة على قدر وسعهم وطاقتهم إلى العالم.

٢- ولما توقف المسلمون عن الفتح، وألقى الناس بأيديهم إلى التهلكة

(١) أنقل خبراً واقعاً على الأرض، فلا أنفي، ولا أجزم بقبري القثم وسعد رضي الله عنهما، وهناك من وقف على قبريها، لأن التاريخ الإسلامي لم يكتب بعد، وهو خط أحمر من القوى العالمية، والتاريخ مادة علمية المقدمات الصحيحة تقود إلى نتائج صحيحة وبالعكس، وكتب التاريخ الموجودة مستودعات ثقافية، وليست مادة علمية تاريخية.

رويداً ورويداً، حتى إذا جاء القرن السابع الهجري، حرك القدر المغول والتتر من الصين، ووجهوهم نحو بغداد: ٦٥٦ هـ، وحرك القدر الفرنجة من فرنسا وألمانيا وما حولهما، ووجههم نحو بلاد الشام، لأمرين :

- لمعاقبة ولاة الأمر من العرب والمسلمين على هذا التقصير، فقتل أمير المؤمنين ببغداد تحت سنابك الخيل، واحرقت كتبهم، ودمرت قصورهم ونهبت أموالهم التي كانت سبباً في تراخي الناس عن نشر البينة.

- فمن حكمة الله جاء بالكافرين، ليطلعهم الله بأنفسهم على البينة عند الشعوب الإسلامية، لأن السياسة شغلوا بخلافاتهم وملذاتهم، فالتتر عادوا مسلمين، والفرنجة تطوروا، وتحضروا... وسنفصل القول في داخل النص^(١).

والقرآن ومحمد ﷺ بيّنة البينات المتجددة، والحية المحيية للتوحيد، ومشكلة أهل الكتاب، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل أن يبعث مجمعون على تصديقه؛ لما وجدوه في كتبهم إلى أن بعثه الله تعالى. فلما بعثه الله، حسدوه وكفروا به. وقد استألفهم القرآن من خلال تكريم كتبهم، وتعظيم أنبيائهم، بآيات كثيرة منها: هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي...، وقوله - تعالى - : (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...)، وقوله - عزَّ وجلَّ - : (مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ...).

وقال قتادة: سمي الله كتابه بأحسن الأسماء، وأثنى عليه بأحسن الشاء، سماه: نورا، وهدى، ورحمة، وبركة، وآية، وشفاء، ونحوه...

(١) هناك كتب مؤلفة في مفردات الحضارة التي حملها الغزاة معهم، مثل: قطن، سكر، قنطرة، كرنه.. ومنهم من أوصلها لأربعين مفردة، ومن بضع سنوات خرج عالم - أظنه - عراقياً على إحدى القنوات، متفرغ لهذا البحث، فوجد في اللغة اللاتينية حوالي ٣٢ ألف مفردة جذرها عربي محورة - كما يقول.... ومن مخلفات الفرنجة سيئة الصيت والسمعة... "مرض الفرنجة" أي أمراض الشذوذ والزنا كالزهري، والإيدز.... وسب الخالق - سبحانه وتعالى - والكلام الفاحش... وحتى الآن متجذر في المناطق التي نزلوا بها بدءاً من لواء اسكندورن إلى قطاع غزة شرق البحر الأبيض المتوسط.

وجاءت السورة في أربعة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١- ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَنْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ (٢) فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ .
- ٢- ﴿وَمَا فَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (٤) وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴿٥﴾ .
- ٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (٦) .
- ٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ (٧) جَزَأَوْهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ .

قال بعض أهل العلم:

فسورة البينة من أصعب ما في القرآن الكريم حفظاً، ونظماً، وتفسيراً، ولعلي أضيف أربع آيات أخر صعبة على الفهم والتأويل في صدر سورة الإسراء، من قوله جل في علاه: ” وقضينا إلى بني إسرائيل لتفسدن... إلى قوله تعالى: وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ” الآيات (٤-٨) لقد حار العلماء، وترددوا، وما زالوا يتأولون...“ حول لتفسدن في الأرض مرتين، ولتعلن علواً كبيراً...“ منهم وجهها نحو الماضي، ومنهم أوقعها على الحاضر، ومنهم وجهها نحو المستقبل. والله أعلم!!

وأيضاً قوله تعالى ” الله نور السموات والأرض مثل نوره... يهدي الله لنوره من يشاء...“ فيها تمثيل وتشبيه مركب لمحسوس على غيبي مما وقع تحت أيدينا من تفاسير وتأويلات العلماء حول هذه المواضع الثلاثة، نجدهم جميعاً يحومون حول حمى المعنى، ويدعون وصل ليلي، ويلي لا تقر لهم بذلك. والقول الفصل، قد يكون أولت تأويلاً عظيماً وما زال مخطوطاً، أو أولت من عالم غير مشهور وفي بلد ناءٍ: « لكل أجل كتاب» ذلك تقدير العزيز العليم:

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۗ

توصيف لمسيرة البشرية كلما جاءهم نبي بين لهم الحق من الباطل، والنور والظلام، والعدل والجور، فمنهم من يتبع، ومنهم من يتدع، ومنهم من لا يرتدع، ومنهم من هو ضال ومضل، وكلما خَفَتَ نور النبوة والهدى، جاءهم نبي بنفس البينة التي سبقه بها أخوة له من الأنبياء والرسل مع بعض التفصيلات، وهكذا تتوالى البيئات، ويتوالى الضلال، ولا ينفكون عنه، حتى تأتيهم بينة جديدة خاصة بهم، فكل الأنبياء يدعون للتوحيد، والإيمان باليوم الآخر، كما جاء في الحديث الشريف:

«الأنبياء أبناء عَلاَت، وليس بيني وبين عيسى نبي دينهم واحد، وشرائعهم مختلفة.»

وأخيراً، جاءتهم بينة البيئات، وخاتمة الرسالات، وقد جمع القرآن بينات من تقدموا ” إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى“ وزاد عليهم بينة حيّة ومحياة، دائمة متجددة، فكيف سيتعامل معها الكافرون، والمشركون، وعلماء أهل الكتاب؟

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أولى الناس

بعيسى، الأنبياء أبناء عَلاّت^(١)، وليس بيني وبين عيسى نبي «^(٢) أما قوله: الأنبياء أبناء عَلاّت، أي مجموعة من الأخوة، أبوهم واحد، وأمهااتهم مختلفة.

والأنبياء دينهم واحد، وهدفهم واحد، كمرکز الدائرة، وشرائعهم دوائر متوالية، يحيط بعضها ببعض، فنوح عليه السلام، طلب منهم التوحيد والاستغفار، ثم تحضرت البشرية، واتسعت الدوائر، فطلب شعيب عليه السلام منهم مع التوحيد، ضبط المكاييل والموازين، ففي زمن النبي ﷺ كملت البشرية، وتمت متطلباتها، فرضي الله لنا الإسلام ديناً، قوله تعالى: " اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً".

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾

ووجه آخر: توصيف لأهل الكتاب، بأنهم، ملل ونحلل ومنهم الصالحون ومنهم القاسطون فهم حطب جهنم، فجاءت (من) للتبعض، أي منهم كفرون، ومنهم صالحون، فبينما المشركون صنف واحد قبل الإسلام وبعد الإسلام، فعطفهم على الكافرين بدون استثناءات، ولم يبين سينفكون أم لا، و (مُنْفَكِينَ) حتى يأتيهم الموت فهو بينة البيّنات، أو بنزول القرآن وبعث محمد ﷺ، ينفك منهم عن الكفر والشرك من ينفك، ويستمر من يستمر.

وما كان لأهل الكتاب أن ينفكوا عما هم فيه من الاختلافات إلا بمقدم الرسالة المحمدية؟ وما كان لهم أن ينفكوا عن الكفر والشرك، ليس لضعف الدليل، ولكن لقوة الباطل الذي أدمنوا عليه، ووصفهم بالكفر أولاً، ثم فصل: أهل العلم من أهل الكتاب خاصة، والعامّة تبع لهم.

(١) أبناء عَلاّت: أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفات، وأبناء الأعيان من أب وأم، وأبناء الأخياف: الأم واحدة والآباء متعددون. المصباح المنير، ص: ٤٠٦.

(٢) مسند أحمد، تعليق شعيب الأرنؤوط، اسناده صحيح على شرط الشيخين.

وأصحاب النفوذ يكون الضعفاء تبعاً لهم.

ولم يبين لنا منفكين عن ماذا؟ وإن كان السياق يؤول المقصود.

حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ

هناك من يقول: تَأْتِيَهُمْ، مضارع يراد به الماضي، أي حتى أتتهم البيينة. ولكن السياق وموضوع البعثة المحمدية، يريد مواكب الأحياء القادمة في مستقبل الأيام، وليس موكب الأحياء الذين فاتوا، وماتوا، وماتت بيئاتهم ومعجزاتهم، وعندما يتناولهم للعبرة والعظة وللتربية والترشيد.

وعندما تخلى المسلمون عن نشر البيينة، فجاء الله بالتر والفرنجة إلى البيينة.

حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ

تخترن هذه الجملة بشائر لا متناهية من البيئات في طريق الدعوة، فكلما استفحل الكفر والشرك، جاءتهم بيينة هَدَّتْهُمْ أو هَدَّتْهُمْ، فمن رحمة الله، البيينة كسيارة الإسعاف تذهب إلى مرضاها، وأحياناً المرضى يساقون إليها، ورأى الغزاة الفرنجة- لأول مرة- سيادة القانون فوق الجميع، وتحضروا، وتخلقوا بأخلاق البيئة المحيطة، فالأمة الإسلامية المهزومة عسكرياً، انتصرت دعوياً بسبب الأخلاق والقيم، وحال أمتنا المعاصر مهزومة في طعامها وشرابها وملبسها وتعليمها، حتى في قلم الرصاص الذي تستورده، فلا هي التزمت بدينها وطبقته على نفسها وهذه بيينة البيئات، ولو في جانب واحد، جانب التراحم والتوَادد، الذي لا يعذر به أحد، ولا يعفى منه أحد، كما قال جل علاه: ”أشداء على الكفار رحماء بينهم“ فإن كنا عاجزين جداً عن أن نكون أشدء على الكفار، فلسنا عاجزين عن التراحم، ولم نتراحم، وهذا غاية الفشل.

حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ

جاءت البينة في القرن العشرين من الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وبدأ المسلمون المهزوزون إيمانياً، يعودون إلى الصف الإيماني، وبدأ العلماء والخبراء في الغرب والشرق وخيرة الناس يدخلون في دين الله أفراداً، ثم صاروا أفواجاً، وكلهم على وعي بحالتنا، لذلك فرقوا بين الإسلام والمسلمين، وبعدما فرقوا، بدأوا ينفكون عما كانوا عليه، رغم كل التضيقات العالمية والمحلية والأسرية التي يواجهها الداخلون في الإسلام.

وعلى رأس هذا القرن جاءت بينة الإعجاز لتجدد هذا الدين وجاءت في السنة النبوية بشائر بأن المستقبل يحمل في طياته كثيراً من البينات التي تحيي إيمان المؤمنين كلما خفت، وتشق أجواء الكافرين والمشركين بنور جديد، كقوله صلى الله عليه وسلم: ” يأتي على رأس كل مائة سنة من يجدد لها إيمانها ” وقوله صلى الله عليه وسلم: ” بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً ” موجات كموجات البحر متتالية ومتوالية، وتنطلق كل موجة بيئة جديدة، إما عالم رباني كالإمام الغزالي وكتابه إحياء علوم الدين وغيره كثيرون^(١)، ومنهم أفضل، ومنهم دونه، كان بينة من البينات التي أعادت علوم الدين الإسلامي إلى نصابها الصحيح وصوابها الرشيد. وهذا الكتاب قام مقام جيش جرار يصد الغزاة، ويرد

(١) كتاب إحياء علوم الدين خلاصة ٢٠٠ كتاب للمؤلف، فقد معظمها، ويغني عن ألف كتاب في بابه، وكل من جاء من بعده عيال عليه، وهو شخصية تربوية عالمية، لذلك ترجم من قبل الشعوب إلى معظم لغات العالم، ولولا أن لهم به مصلحة ما ترجموه، بينما أي حكومة تترجم كتاب وتشره لها به مصلحة، والسر الرباني في الكتاب، لا يرد قارئاً، يبدأ مع الراعي وينتهي مع الفيلسوف، ففي الموضوع الواحد قصة يفهمها الراعي، وتتحول إلى فكرة، تدق على المتخصصين يتأملها الفيلسوف، وتصاغ حكمة يتمثلها الملوك والأمراء. بينما هناك كتب خاصة بأهل العلم، وقد قالوا: بع اللحية، واشتر الإحية... وهناك من تجرأ على تجريحه، ومنهم تجرأ على تكفيره... هداهم الله!! توفي: ٥٠٥ هـ. وهذا لا يعني أنه خلا من المؤاخذة، وأبى الله أن يكون الكمال إلا في كتابه.

المتلاعبين من الداخل على مدى عشرة قرون، يمشي مع الزمن، وكان المؤلف تركه البارحة، وكان الأول في تعليل الأحكام، أي لماذا نركع؟ نطوف؟...؟ وهو الذي صوف الفقه، وفقه التصوف.

رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قِيَمَةٌ ﴿٣﴾

فكلمة (رَسُولٌ) تقرأ من وجهين: حتى تأتيهم البينة رسول... بدل من البينة، ومن وجه آخر معنى مستأنف: رَسُولٌ... مبتدأ..

يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً... فيها غمز ضمني، هناك صحف مزورة، وصحف غير مطهرة، وما يتلوه محمد من صحف مطهرة ومعطرة، وهذا الصحف بين صفحاتها كتب قيمة كالزبور والتوراة والإنجيل... كصحف إبراهيم وموسى. كتب قيِّمة، قيِّمة بذاتها ومقيِّمة لمن يحملها، وقيِّمة لمن يطبقها، لأنها تسعده، ولا تخرجه في تطبيقه من التطبيقات، كما يخرج اليهودي والنصراني في بعض تطبيقاتهم، والهندوسي في معظمها.

أي دينُ المِلَّةِ القيِّمة، والأمة القيِّمة، والشريعة القيِّمة.

فلم تَبَقَ للمسلمين رغبة إلا حققها لهم هذا الدين، وبالمقابل حققوا أوامره ونواهيته.

رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قِيَمَةٌ ﴿٣﴾

تلا رسول الله قرآناً عن ظهر قلبه، وعلى مدى ربع قرن من الزمان ولم يزد حرفاً أو ينقص، وهو أميٌّ، بينما أي أميٍّ لو حفظ قصيدة أو خطبة واحدة في كل مرة لا بد أن يند منه حرف... لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وخلا من أي دعوة للظلم والكفر والسفاح وأكل أموال الناس بالباطل والتعالي على

الناس ورد الناس إلى آدم، ورد آدم أبا البشرية إلى التراب. ومما جاء بالصحف غير المطهرة.

ورسولنا يقدم صحفاً مطهرة، فيها غمز لصحف سماوية غير مطهرة

رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً

توحي كلمة « صُحُفًا مُّطَهَّرَةً » بأن هناك صحفاً سماوية الأصل، مزورة الواقع، وغير مطهرة وملئية بالفواحش وتجريح أعراض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ومن اسفافهم التّن تجريح الأنبياء وتلوّثهم بالحما المسنون، ما ملخصه: « زعموا أن لوطاً زنى بابتنتيه، وأنجب منها، وأن رويّن ولد يعقوب وبكره، لقد زنى بسريّة أبيه، وأن يهوذا بن يعقوب زنى بكتته، وداوود زنى بجارته، واتهموا بعض الأنبياء بالردة منهم سليمان، وإبراهيم تاجر بزوجه... و... و...»^(١)

وهذه الكلمات على إسفافها وتنتها، فهي مصيبة، والمصيبة الأعظم تخرج من علماء وعظماء وأمناء الدين عندهم، وأم المصائب كلها يقذف الأنبياء بها.

فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ

جمعت هذه الكتب بين طهر الهدف وطهر المستوى، كذلك عظمة المناهج، فالأرض مرت عليها مناهج سماوية اندرست أو كادت، ومناهج بشرية ناضجة أو دون ذلك، وكلمة: « كتب » هنا تعني مناهج، مثلاً: كتاب إحياء علوم الدين مقسم إلى أربعين كتاباً، نحو: كتاب شرح عجائب القلب^(٢)، وكتاب كسر الشهوتين... هي مناهج قيمة، والقرآن بعدله يقر بمناهج ذات قيمة في

(١) الكتب السماوية وشروط صحتها، عبد الوهاب طويلة، ص: ٢٧٥ وما بعدها من الطامات، وكلها طامات كبرى..

(٢) هذا الكتاب أي الفصل، لم يسبق ولم يلحق في بابه، فهو أعجوبة من عجائب الفتح الرباني. وكل من جاء من بعده فهم عيال عليه.

الأرض، ولكن مناهجه أقوم، وأدوم، وأعظم، قوله جل في علاه: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ الإسراء: ١٧. ومن واقع الحياة نأخذ منهج الميراث لقد تحول اليهود والنصارى^(١) في سورية وبعض البلاد العربية يأخذون به، لأنه أقوم، ومثله الطلاق، ومثله منهج الإقتصاد الإسلامي تحول العالم إليه بعد عام ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م. بعد أن ضرب الإقتصاد الرأسمالي.

وَمَا نَفَرَقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾

وفيهما تحذير ضماني للمسلمين من اتباع خطوات الشيطان وأهل الكتاب، وسينزله عليكم من العقاب ما نزل عليهم، فهل تتعظون؟
﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ « آل عمران: ١٠٥ »

والواقع التاريخي يثبت أن اليهود تفرقوا من بعد موسى عليه السلام، واقتتلوا، والنصارى تفرقوا من بعد عيسى عليه السلام، واقتتلوا، وكذلك اقتتل اليهود والنصارى، وقصة أصحاب الأخدود في القرآن الكريم، عندما حرق ملك نجران اليهودي، نصارى نجران في أخدود من الأرض، وسجل القرآن عليهم هذا التراشق: "وقالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله" ٣٩: ٩. وقالت اليهود: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء" ٥: ٦٤.

وبعد أن أسلم بعض اليهود والنصارى في بدء الإسلام، تفرقت كل ملة منهم، بل وتشظيت عقدياً وسياسياً وإلى اليوم وغداً.

(١) اليهود والنصارى بسورية يقتسمون الميراث حسب الشريعة الإسلامية بالمحكمة الشرعية وبرضاهم، وهناك مسلمون يتهربون من قسمة الميراث. ومنهم من يتجرأ ويطلب بإبطال قسمة الشرع.

ومما يستبطن النص في الآيتين السابقتين:

قالت اليهود كل اليهود: ليست النصارى.... وقالت النصارى كل النصارى: ليست اليهود.... كانوا كتلاً كتلاً عقديّة، وإن تفرقوا سياسياً، فلما جاء القرآن الكريم، تفرقوا إلى عقائد شتى، وهذا هو المهم، انقطع خيط المسباح،^(١) عندما آمن بعض اليهود وبعض النصارى على يد رسول الله، وبعد أن كشف القرآن الكريم دعواهم في إبراهيم عليه السلام، قال جل في علاه: «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً... ٦٧/٣». وأبطل دعواهم في العزيز وعيسى بأنهما أبناء الله، وجاء ثلث القرآن يتحدث عن بني إسرائيل، وهو يكشف خباياهم وخفاياهم، ويرصد القرآن صدورهم وقلوبهم وما يحاك بها من الآثام والوساوس، قوله جل في علاه: «تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى» بعد أن عريت هذه الكتل وانكشفت، تفرقت قلوبهم قبل أبدانهم، وهذه بشارة للنبي ولأتمته بأن أهل الكتاب، باطنهم مختلف وإن بدا ظاهرهم متفقاً.

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ

دِينُ الْقِيَمَةِ

- الإخلاص والصلاة: لله، فيقيمهما الله وحده.

- الاستقامة والزكاة: للمجتمع، ويطبقها المجتمع.

وما أمروا إلا بما أمر به من سبقهم من الأمم، ومن جاء من بعدهم، بالإخلاص، والاستقامة، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة. هذا هو الدين: روح، ونور، وجسد.

(١) عدد فرق اليهود التي على الأرض.... وعدد فرق النصارى تزيد على الآلاف... من باحث مصري، وقناة مصرية.

ومحور هذا الدين الإخلاص، ومن فاته الإخلاص فاته الخير كله، وجاءت مفردة الإخلاص من خلاصة الأشياء، كمن يستخلص الزبدة من المخض، وعند ابن عربي في تفسيره للآية: يستخلص هذا الدين مما يتناوشه من الهوى والنفس والرغبة والرغبة والشيطان والسلطان والجنة والنار.

الحنيف المستقيم: تطيروا من الإعوجاج إلى الاستقامة، كما يقال للديغ سليم، وللصحراء المهلكة مفازة، وللأعمى بصير...

حُنْفَاءٌ

جمع حنيف حنفاء، مثل: ظريف وظرفاء: والحنيف في اللغة المستقيم، ويقول ابن خالويه: «فإن قيل لك: لم سُمي المعوج الرجل أحنف؟ فقل: تطيروا من الإعوجاج إلى الاستقامة، كما يقال للديغ سليم، وللأعمى أبو بصير، وللأسود أبو البيضاء، وللمهلكة مفازة...»^(١)

مستقيمون على المنهج في السر والعلن، والرضا والغضب، واليسر والعسر، والفقر والغنى، والصحة والمرض، سيخضع للامتحان في جميع تقلبات الحياة، حتى تتجلى للناس حنفيه المؤمن بيضاء تسر الناظرين، وتكون أسوة للمقتدين.

حُنْفَاءٌ

التبس معناها بين الوضع اللغوي، وبين ما اصطاح عليه الناس، خارج الوضع اللغوي، نحو: ثكلتك أمك، لا يريد هلاكه، إنما تحريضه، فالتبس على كثير من الناس من أرباب اللغة، فقالوا: حَنَفَ الرجل حنفًا، اعوجت قدمه نحو الداخل، وتحَنَّفَ: اعتزل عبادة الأصنام، أي كان معوج الطريق فاستقام.

(١) كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، أبي عبد الله، الحسين بن أحمد، المعروف بابن خالويه، بيروت - عالم الكتب: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص: ١٤٦.

يقال للرجل الذي اعوجت رجله نحو الداخل: حَنَفَ، من باب التفاؤل أنها ستستقيم في مقبل الأيام، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ إقامة الصلاة تبدأ من المحراب، وتعود إليه، إذا ذهب للعمل هي معه تأمره، وتنهاه، وكأنه في محراب دائم، والصلاة المقطوعة خارج المسجد، صلاة منفكة عن الحياة، فهي كزهرة صناعية غاية في الدقة والجمال، وتخدع كل عين تراها، ما عدا النحل، فلا يقف عليها.

والذين يؤتون الزكاة، يؤتونها بدافع العشق يؤدون هذه الفريضة، ويوصلونها إلى مستحقيها، ويرون الفضل للذي يأخذ الزكاة، كونه ساعد على تأدية الفريضة، ولا فضل لمن يدفع الزكاة.

وَذَلِكَ دِينَ الْقِيَمَةِ

وذلك المنهج القائم على الإخلاص، والاستقامة، والصلاة، والزكاة، دين الأمة المستقيمة، دين القيم الحية، ودين القيم المحيية.

الذين مشوا بأرجلهم إلى النار، هم شر البرية.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ٦

قول فصل وما هو بالهزل، صنفهم بالكفرة، منهم من أهل الكتاب، وليس كلهم، ومنهم من المشركين، وليس كلهم، لأن بعد نزول هذه الآية، أسلم منهم خلق كثير، وما زالوا يسلمون، وتبقى الكتلة البشرية التي مآلها إلى النار، وقد تعددت أشكالها وألوانها وأسمائها وشعاراتها وراياتها، لأنها لم تتصل بالله، وإن أحسنت في بعض جوانب حياتها، ففي البرية خلائق شتى، وأخلاق مختلفة، ويتفاوتون في الشر، فمن يصدر الشر إلى الآخرين، فهو شرير، ومن يصدره إلى

نفسه، فهو أشد شراً، وكانت عندهم فرص كثيرة لإنقاذ أنفسهم! بل هم الذين حملوا أنفسهم إلى النار، لذلك هم شر البرية.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾

تستبطن تحذيراً لهذه الأمة؛ لئلا يتفرقوا كما تفرق أولئك في رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وفيما جاء به.

وقد جمع بين الكافرين من أهل الكتاب، والكافرين من المشركين كلهم في وحدة الجريمة ووحدة العقوبة

كقوله: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ... .)؛ فدل أن الكفر والشرك واحد؛

لأن أهل الكتاب ادعوا أنهم من نسل الأنبياء، ثم تركوا اتباع آبائهم وأجدادهم من الأنبياء والصالحين، وكانوا يهددون المشركين لو جاء الرسول المنتظر ليكون معه عليهم (. . . أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ... .)، ثم نقضوا ذلك العهد.

وأهل الكتاب ليسوا سواء منهم من آمن بمحمد، ومنهم من كفر به، ومن آبائهم من قتل الأنبياء، ومن آبائهم من نصر الأنبياء، فأعرضوا عن الصالحين من آبائهم واتبعوا كل أفك أثيم، قالوا: (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ)، فتركوا اتباع الصالحين من آبائهم، واتبعوا القردة والخنازير من أجدادهم.

ومصيبة مشركي العرب، هم من أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ لحماً ودماً وعشرة؛ فالحق يركبهم ويلزمهم ويوجب عليهم التصديق؛ فشدد القرآن على

هذه الشرائح التي لها صلة بالنبوة والدين، والتي لها صلة القربى والجوار

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

لقد ارتبط الإيمان مع العمل الصالح، ارتباط الروح بالجسد، فلا يصلح أحدهما بدون الآخر، فلا روح تقف بالهواء الطلق، ولا جسم يتحرك بلا روح، الإيمان له رسالة وهدف وثمره يتناولها الناس جميعاً، وبلا مقابل مادي، ولكن ثمرة الإيمان تنعكس على سمعة الإسلام، ” فالذي جعل الإسلام بمثابة عاملاً، ينتشر بأربعة وثلاثين مليون كم^٢“^(١)، ثمرة الإيمان وليس ثمرة السيوف، وهذه جزر أندونيسية وماحولها، ويبلغ عددهم ربع العالم الإسلامي، أسلموا بأخلاق التجار الحضارم. والبرية مليئة بالخيرين، وخيرهم من جمع بين الإيمان والسلوك والتطبيق.

وللما تريدي رؤية لغوية في البرية: من البري وهو التراب، ويرجع تأويل الآية إلى البشر؛ كأنه قال: أُولَٰئِكَ هُم شَرُّ مَا أُنشِئَ مِنَ الْأَرْضِ. وإن كان مأخوذاً مقدرًا من البرا وهو الخلق؛ فيصير كأنه قال: أُولَٰئِكَ هُم شَرُّ مَا خَلَقُوا؛ فيدخل في ذلك الملائكة والجن والبشر، وفي الأول لا يدخل إلا البشر خاصة.

جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

الجزاء درجات دليل على دقة العدل، لذلك كانت لهم جنات مختلفة تبعاً لدرجاتهم، وأما خلدوهم فيها، بشرى دائمة لن يتحولوا منها إلى غيرها، وبشرى ثانية لن يملوها.

(١) من كتاب «هل الإسلام هو الحل؟؟؟ د: محمد عمارة، المقدمة. ص: ٨. باختصار.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

لقد تدرج بالعطاء والبشائر، بدأ من جنات وأنهار ورضا لا سخط بعده، وإنعام الله لا يتناهى، ولا حدود لنهايته، وكله مطلوب ومرغوب ومبذول، فيتحدد رضا العبد بالقليل، وتظهر قناعته بما أعطاه الله، والعبد مهما اجتهد وبذل ما في وسعه، ما وثق، ولن يوثق، بما كلفه الله به، ولم يوف ما استطاعه، لذلك بحاجة أن يرضى الله عنه لتقصيره، فيما يستطيع. قد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة؛ لقوله: أولئك هم خير البرية، ومقام رضا الله عنهم نعمة النعم ومن أعلى الدرجات العلى، وهذه ثمرة الرضا بأحكام الله ومقدراته في العسر واليسر والعطاء والأخذ، فسروره بأخذ الولد كسروره يوم جاء! والرضا سرور القلب بمرّ القضا!!

ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

ترك باب الرضا مفتوحاً لمن خشي ربه، والخشية حمل كبير، وعبء ثقيل، لا يستطيعه إلا الزهاد من البشر، وهذا نموذج من أهل الخشية، وأهل التغيير: لقد تغير وجه أحمد بن حنبل عن أحد جلسائه، فسأله هل بلغك عني تقصير في الشرع؟ قال: نعم. بلغني أنك طينت جدارك من الخارج، وضيقت على المسلمين نصف أنملة، فالحق: إما تقشطه، أو تهدم الجدار وترجع به، ثم تطين بعدها ما تشاء، فهدم الجدار، ورجع به للخلف. لأنه خشي ربه نفذ الموعدة.

وماذا تقول: لمن حج وصام... ولا يتأثم ولا يتذمم!! فأخر السورة المتقدمة، وعد، والإنسان يتشوق للوعد لأن له به منفعة، قوله تعالى: جَزَاءُ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ «فكأن المسلم المكلف قال: ومتى يكون هذا، ومتى يبدأ؟».

سورة الزلزلة مدنية، وآياتها ثمان،

وترتيبها بالقرآن (٩٩)

وبالتنزيل المدني (٧)

الزلازل هزة أرضية أو رجفة تحدث في باطن الأرض، وقد تبقى مخفية في أعماق الأرض ولا نعلم عنها شيئاً، أو تخرج للسطح، وتختلف من مكان لآخر شدةً وضعفاً، وقد أيدت مدن بكاملها من الأرض^(١).

ويفسر علماء الأرض الزلزلة:

من شدة ضربات الغليان، يتصدع وجه القشرة الأرضية وسمكه ٩٠ كم.

وهي حركة في باطن الأرض، ينشأ عنها ضغط هائل، لا تحتمله القشرة الأرضية، عندها تتصدع القشرية الأرضية، وهي صمام الأمان، وهذه القشرة محشوة بكتلة ملتهبة ثقيلة جداً جداً، وجعل الله القشرة الأرضية من الصخور البازلتية، وهي من أقوى الصخور، ومن شدة الغليان والפורان تفرع على القشرة الأرضية، فتتصدع، كما يحصل في غطاء إبريق الشاي عند الغليان،

(١) كمدينة «مسين» إيطالية على البحر الأبيض المتوسط، ابتلعها البحر في مطلع القرن العشرين ١٩٠٨ م كما ابتلع الفراغ، ولم يترك لها أثراً أو خبراً، فجاءها الزلزال من أسفلها، والموج الحائطي من أعلاها، وقصدها الزبائن كعادتهم من كل مكان صباحاً، فوجدوها ماءً وسماً، فرثاها حافظ إبراهيم بقصيدة من ٥٩ بيتاً، بها لفته إنسانية تصويرية ومطلعها:

ما دهى الكون أيها الفرقدان
ودعاها من الردى داعيان
رض ينادي أبي أمي ادركاني!
ر تعاني من حره ما تعاني
يمشي مستميتاً ممتد اليدان
مسرع الخطو مستطير الجنان

نبئاني إن كنتما تعلمان
ما "مسين" عوجلت في صباحها
ربّ طفل قد ساخ في باطن الأ....
وفتاة هيفاء تشوى على الجم.....
وأب ذاهل إلى النار
باحثاً عن بناته وبنيه

فتحدث خراباً متفاوت الدرجات، وهناك مدن كاملة أبيدت، وساخت في باطن الأرض إلى يوم القيامة.

وسئل عالم بالزلازل، هل يمكن للإنسان أن يتنبأ بالزلازل قبل وقوعه؟ قال: لا، ولكن الحمار الذي يضرب به المثل في الغباء، يتنبأ بوقوعه قبل ربع ساعة!! هذا درس تهذيبي ليهدي من غرور الإنسان الفارغ من الإيمان «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» إبراهيم: ٣٤. وهذه ليست من صفات المؤمن.

والزلزلة التي جاءت بالقرآن لها أربع صور:

١- زلزلة الابتلاءات في الحياة الدنيا، كالفقر والأمراض المزمنة، والكوارث والحروب، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَالَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ «البقرة: ٢١٤»

٢- وزلزلة الجهاد زمنها أقصر من زلزلة ابتلاء المعيشة، ولكن الكرب مضاعف أضعافاً كثيرة، كما في قوله تعالى يوم غزوة الخندق: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾ «١٠» هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ «الأحزاب: ١١»

٣- وزلزلة الموت عند النزاع والغرغرة عندها تبدأ زلزلة أعضاء الجسم، وزلزلة كل عضو من أصله، وكل عضو يقول لجاره مودعاً ومواسياً، تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة.

٤- زلزلة يوم القيامة، زلزلة كونية، فلا يبقى شيء مكانه، فلا السماء هي السماء، ولا الأرض هي الأرض، ولا الجبال هي الجبال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ «الحج: ١» وبنفس السياق: يَوْمَ

تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾
 ”النازعات.... يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ“ المزمّل: ١٤. والمعافى من عافاه الله!

لاحظ سرعة التنفيذ والحركة، وكأنها مبرمجة، زلزلت من هنا، وخرج الخلق من هنا، والناس حيارى، فقالت الأرض تعمل بأمر ربها، وتحرك الناس نحو الحشر كالجراد المنتشر، وانتصبت الموازين، وسيق أهل الجنة إلى جنتهم، وأهل النار إلى نارهم، وقضي الأمر كله في ثوانٍ.

إنه سريع الزلزلة والحساب والعذاب!!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١- ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾
- ٢- ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾﴾
- ٣- ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾﴾
- ٤- ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾

حضرت إذا: «: فغاب السؤال، وحضر الجواب، لأن «إذا» تذكر عن سؤال قد سبق، نحو: متى تقوم الساعة؟ يكون الجواب بدايتها من زلزلة الأرض، ومقطوع بوقوعها، فأخبرهم عن علاماتها، ولم يخبرهم عن زمانها!!

وهذه نتيجة البيت الكوني رحل عنه سكانه، وانتهت مهمته، فيعد لمرحلة جديدة، وتمر الأرض بعدة مراحل: (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ. وَتَكُونُ

الجبال كالعِهْنِ المنفوش). وقوله - عَزَّ وَجَلَّ - : (فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)، كقوله - تعالى - : (يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ... الآية. وتصبح الأرض جاهزة لعرض ذرية آدم في أرض مستوية (لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا) (١٠٧).

زُلْزِلَتْ: مبني للمجهول، والمزلزل هو الله، فتكون قوة الزلزلة مطابقة لقوة المزلزل، إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا: المقدر له أن يقع، وهو الذي يفكفك الجبال ويطحنها، ويجعلها هباء منبثًا، ولها مراحل، وكل مرحلة تهيئ لأختها التي تليها، وهي أشد وأقسى من سابقتها.

ومراحل الزلزلة بالقرآن تبدأ: بالرجفان، ثم الرج، ثم الدك، ثم الزلزلة:

- أ- الرجفان: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾» النازعات «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ...» المزمّل: ١٤
- ب- الرج: ﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾. الواقعة: ٤.
- ج- الدك: وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَا ذُكَّةً وَحِدَةً. الحاقة: ١٤ ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾. الفجر: ٢١.

د- الزلزلة: إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا* أي نسف البيت الكوني

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾

الأرض مستودع لكل الأحياء على وجهها، فكل من ينتهي دوره بالخدمة العسكرية وعمارة الكون من بشر وبقر وشجر وحجر... يكفثهم في باطن الأرض من أجل الحساب للمكلفين والشهادة لغير المكلفين، والأرض هي التي تخرج المخبيين من الفراعنة والطواغيت، وآهم، وحواشيهم، وعساكرهم، والمصنفين، والهتافين بالروح بالدم... وألقتهم لمن ينتظرهم، وتخلت عنهم:

(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) من الإنسان والحيوان، سيحضر كل من عليه مسؤولية، وكل من عنده شهادة تسعد الصالح، وتشقى الطالح، يعتب الإنسان على أمه الأرض

وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝٣

قال الإنسان الكافر المستغرب: ما لها؟ والمؤمن مهياً لهذا اليوم، فلا يجتار ولا يندهش. فالكافر أحمق في الدنيا، وأحمق في الآخرة؛ وكأن الإنسان الكافر لا يدري ما يقول من هول الصدمة، وما الخبر؟ وفي نفسه عتب على الأرض التي هو منها؟ فأين صلة الرحم؟ فيسمع الرد بنفسه، فينطقها الله، بأنها نفذت أمر ربها. "بأن ربك أوحى لها" وكل حجر وشجر وعضو شاهد عدل، يقول الحق، قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُوا لِيُجْلِدُوهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢﴾ (فصلت: ٢٢)

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤

تحدث عن الصالحين وعن الفاسقين، كما تتحدث الأعضاء، والتي قد فُئيت، قوله تعالى: تكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون " كذلك تتحدث الأرض بلغة خاصة بها وبينها وبين خالقها، فتشهد على راعع وساجد، وعلى كل ظالم وجلاد وجالد، لأن الكافرين ينكرون، ويجادلون، ويقسمون

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥

الوحي معلوم والكيف مجهول، وأوحى ربك إلى النحل، وأوحى في كل

سماء أمرها، وأوحينا إلى أم موسى... فجاء الوحي لحيوان وجماد وإنسان غير نبي. الأرض جندي من جنود الله، فلما أوحى لها بالزلزلة، تزلزلت، ولما أوحى لها بالشهادة على سكانها، تتحدث كشاهد على كل عمل من خير وشر، ولها صلة رحم مع الصالحين، فتبكي عليهم يوم رحيلهم "فما بكت عليهم السماء والأرض.." "لأن المجرمين لا يستحقون دمةً يوم رحيلهم، فلما يتقدم الناس إلى أرض المحشر، ولا يعرف أحدٌ أحداً، فلا يتناصرون، ولا يتعاونون، وانتهت صولة الزعامات، وشهود الباطل، وأصدقاء النعمة، حشروا، ليُروا - مجبرين على الرؤية - فيمر شريط أعمالهم بالصوت والصورة، فلا يستطيع أن يغمض جفنيه عند مرور المخزيات المخجلات، وتعترف جوارحه بكل شيء وهو مختوم على فمه" يوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم، بما كانوا يكسبون" ويطمئن الله جميع الناس بالعدل، فلا محسن تنتقص له حسنة، ولا مسيء تزداد عليه سيئة.

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾

فبعد أن ترتوي الأنعام من الماء، وتتجه بصدورها نحو الراعي، يقال لها: صدرت بعد أن أخذت حظها من الماء، وكذلك البشر صدروا بعد أن أخذوا حظهم من القبور والانتظار، يصدرون مشتتين لانقطاع الأرحام والصلوات والصدقات، والطغاة بلا زمارات ولا سيارات ولا تحيات، ولا يسأل حميم حميماً أي سؤال؟

لماذا؟ لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ... مرغمين على الرؤية، وما قال: يعاتبون، يوبخون، يعذبون... بل: لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ... مرغمين على الرؤية، ليروا شريطاً مسجلاً صوتاً وصورةً، فلا يستطيع إغماض عينيه من هول الصدمة، وهو متلبس بمخازيه،

ولا يستطيع الإلتفات يمينة أو يسرة، لأنه لم يعد يسيطر على أعضائه، وهذا عذاب ناعم لكنه يطحن العظام طحناً، وهو أمام الخلق وأهله والأنبياء والرسل والملائكة والحق متجلٍ في يوم الحق، اليوم يقال لكل واحد : وكفى بنفسك عليك حسيباً“

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾

الأعمال منها الحسي كالصدقة الجارية، ومنها المعنوي كالصدق والكذب، كالحديث الشريف: كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان بالميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم!!« متفق عليه.

الإعجاز كيف تتحول المعاني إلى أوزان ونراها يوم القيامة، حتى لا يشك أحد باللجنة الفاحصة، أنقصت له علامة، أو زادت عليه خطيئة؟

كان اللغويون القدامى يقولون : الذرة النملة الناعمة أو الهبأة التي تسبح في الغرفة أو ذرات التراب التي تلتصق بكف لا مست الأرض، وهذا أصغر ما تقع عليه العين، فتصوروها الذرة . . .

وأما الذرة في عصرنا يقول سيد قطب: فلا ترى أبداً حتى بأعظم المجاهر في المعامل . إنها هي « رؤيا » في ضمير العلماء! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره . وكل ما رآه هو آثارها!«

يرى الكافر ما عمل من خير في الدنيا، وأما في الآخرة فلا يرى إلا هباءً منثوراً؛ لأنه لا يؤمن بها، ولا يعمل لها؛ كقوله - تعالى - : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ . . .)، والمؤمن يرى ما عمل من شر في الدنيا، وما عمل في الآخرة؛ وإن تاب وصلاح قبل الموت، قد لا يرى من سيئاته شيئاً، ويبدلها

الله له حسنات، فتتضاعف سعادته، لأن الله لم يعاتبه، ولم يقرره، ولم يفضحه، ورأى مقعده في النار خالياً، ومقعده في الجنة ينتظره.

ومن يزرع الحنطة، يحصدها، ومن يزرع الشوك، يحصده، فمن يعمل مثقال ذرة من خير أو شرٍ، فهي له، أو عليه.

السؤال: الأشياء المحسوسة لها وزن، كمن يرفع شوكة عن الطريق، ولكن المعنويات كيف توزن؟ كيف يوزن التسبيح، والخشوع، والصدق؟ وكم ذرة مثقال الصدق؟

ولكن من ذكر الله خالياً، وفاضت عيناه بالدمع، عمل نوراني، وكل نور لا وزن له، ولكن يحوله الله - هنا- إلى شيء موزون محسوس، ومثلها في مضاعفة العدد، فمن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وفي مجال الترهيب والترغيب، عندما يذكر سقر، لواحة للبشر، عليها تسعة عشر،... فالأعداد والأوزان للترغيب والترهيب، والله يعدنا بتحول المعاني كالصدق والوفاء إلى محسوسات موزونة، من باب الترغيب والترهيب وتقريب المعاني للنفس البشرية، كون البشرية تتعامل بهذه الأعداد والأرقام والأوزان، وتعرف الفرق بين الواحد والعشرة.

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨

وقد جاء الوعد، والوعيد في سياق واحد، قوله تعالى: ” وإن تبدوا ما بأنفسكم، أو تخفوه، يحاسبكم به الله، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء..“ ٢٨٤:٢. قد يبدي الإنسان أو يضمّر نوايا طيبة أو خبيثة وكلها معانٍ لا وزن لها، ولكن الله عنده موازين كثيرة تضبط المحسوس والمعنوي، ولقد تطورت الموازين، وتنوعت في الفترة الأخيرة، فصار للحرارة والبرودة موازين، وللصدق

والكذب موازين، وصار معظم موجودات الكون منضبطة بموازين ما، وبعد ألف، ألف عام، كيف ستصبح الموازين والمكاييل؟

ومن يدري سيأتي اليوم الذي يعرف الإنسان فيه معظم أعماله، ومعظم أوزانه، ووزن كل ذرة من أعماله حسية أو معنوية، من خيرٍ أو شرٍ؟! (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) و (شَرًّا يَرَهُ)، على سبيل الإحصاء والحفظ؛ كقوله - تعالى -: (لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا..)، أي: لا يذهب عنه شيء قليل ولا كثير حتى الذرة.

ومن الأخلاق العربية، إذا وعد العربي، نفذ وعده لأنه بالخير، وإذا توعد بالشّر والأذى، قد ينفذ، وقد لا ينفذ، ولا يلومه أحد على عدم تنفيذه، بل يثنون عليه لأنه صفيح، ولم ينفذ، لذلك قال شاعرهم:

وإني إذا أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز وعدي

والحكمة من الزلزلة درس تطبيقي للبشرية، وكلهم يرى، ويسمع، ويعقل.

ويستوحى من سورة الزلزلة عدة وجوه تربوية، منها:

١- استقرار الأرض نعمة كبرى، من أجل قيام الحضارات ﴿أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ النمل: ٦١.

٢- تخويف الناس من خلال هزّ العصا ﴿وَمَا تُرْسِدُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ الإسراء: ٥٩. إذا أمن واطمأن الإنسان قد يتهادى في الظلم، فلا بد من إشارات تحذيرية. ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ الملك: ١٦.

٣- تبقى المفاجأة والمباغطة في بؤرة الشعور، حتى لا يسترخي الإنسان ويغرق

في الظلمات، ويبقى متحفزاً دائماً. ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً
وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الزمر: ٥٥.

أفرد الله للزلزلة سورة باسمها من دون علامات الساعة. إن في ذلك لذكرى
لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٤- ومن أجل تعميم هذه الآية الترهيبية جعلها متحركة في معظم بقاع
الأرض، مع الفارق بقوة التدمير. وهي رسالة مقروءة من الجميع ولا
تحتاج إلى مترجم أو ترجمة. ومراكز الزلازل منتشرة، تزود وسائل الإعلام
بالتحذير.

وزلزلة واحدة ترد الخلق إلى الله، أكثر من آلاف الخطب الوعظية، وهي
درس عملي تطبيقي لكل سكان الأرض، فكل من يرى ويسمع ويعقل، يعرف
أن هذا الكون على حافة الخطر، والعناية الإلهية تتولاه، حتى يأتي الأجل المسمى.
ولكن المعالجة العالمية للكوارث، والعبرة المستفادة، أقل بكثير مما يجب أن
تكون.

وفي المجال الإعلامي معالجة خبرية وللإثارة، ومجردة من التوجيه
التربوي الإيماني، وربط هذا الكون بخالقه. والمفردات المتداولة، بعد الزلازل،
والأعاصير... غضبت الطبيعة، قامت... قعدت... وأين الله!؟

تنمية روح التعاون بين الإنسانية في مثل هذه الأحداث وتحريكهم لتقديم
ما يستطيعونه من المساعدة.

هذه الأحداث تكشف معادن الأفراد والشعوب، وتكشف نوعية التربية
السلبية أو الإيجابية.

ومهمة الإعلام تلميع الدول الكبرى بأنها هي المبادر الأول بالمساعدات، ولا يظهر غيرها من الدول إلا على استحياء، والتبرعات التي تصدح بها وسائل الإعلام شيء، والذي ينفذ على الواقع شيء آخر، قد تتبرع دولة ما بمبلغ ضخم جداً، وتبدأ لجانها بالدراسات، وتأخذ أجرتها أضعافاً مضاعفة، فلا يصل المنكوبين من الجمل إلا ذيله. ومنهم من يفرض على التجار مئات الأطنان من الأغذية، فتُخرج الأغذية المعطوبة من المستودعات، وتكفن بأكفان وردية، وترسل نكبة أخرى على نكبة المنكوبين.

أو تحول إلى أدوات كهربائية منزلية، وربما البلد المنكوب لا توجد به كهرباء، ولقد أرسلوا في أواخر القرن العشرين إلى الصومال الاستوائية: شرشف كهربائية، وهذا من المضحك المبكي.

سورة العاديات مكية، وآياتها إحدى عشرة،

وترتيبها بالقرآن (١٠٠)

وبالتنزيل المكي (١٤)

محتوى السورة: تحمل المسؤولية.

وكم خسر العالم العربي من ضعف الإيمان باليوم الآخر ببعض زعاماتهم؟ وثلاثة الأثافي إذا اجتمع بفرد أو عصابة الإلحاد أو العلمانية والجهل والمال والزعامة والجماهير المستذلة، في رأس كالطبل بلا دين ولا دنيا، بلا إدارة ولا مهارة، وهذا ما ابتليت به بعض الشعوب العربية بعد الحرب العالمية الثانية.

وكانت حصّادات الإلحاد العلماني، تهلك الحرث والنسل، وتحصد أهل القيم، وتحصد حراس الفضيلة، وتقدم المسلمين قرايين وهمية، لعناوين شخصية، أو جهوية. لقد مات آلاف مؤلفة من المسلمين لأمزجة شخصية، تحت تأثير السكر الطبيعي، أو جنون العظمة، بلا أي مبرر عقلي. كحرب البسوس التي دارت رحاها في نجد أربعين سنة قبل الإسلام، من أجل فرسين، أيها السابق!؟

وإس المشكلة عندما تجتمع الزعامة والمال، ويغيب الدين، يتحول الإنسان كصخرة وقعت من قمة الجبل، تدمر كل شيء في طريقها، وكل ما على سفح الجبل خائف، لأنها تمشي بكل الاتجاهات.

وجاءت في ثلاثة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١- ﴿وَالْعَدِيَّتِ صَبْحًا ١﴾ فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا ٢﴾ فَالْمُغِيرَتِ صَبْحًا ٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ٥﴾ ﴿
- ٢- ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ ﴿
- ٣- ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ١١﴾ ﴿

لو طلب مني اختيار عنوان لسورة العاديات، لسميتها سورة « تحمل المسؤولية» ولها محاور ثلاثة:

- من يملك القوة يبدأ بنهب أموال الناس .
- فطر الإنسان على الاستفادة وليس على الإفادة، فطر على الأخذ وليس على العطاء، فطر على حب التملك، لذلك لا يرى إلا ما عند الناس، ومهما كثر ماله لا يراه، لأن الفقر يركبه.
- سيسأل الإنسان يوم القيامة عن الجمع بين غريزتي القوة والتملك. (١)

هذه السورة من التنزيل المكي، ومطلعها يسجل ما كانت عليه البشرية عامة، والعرب جزء من هذا العالم، وبعد الإسلام يلام العرب أكثر من غيرهم كونهم جيران المساجد الثلاثة التي يشد إليها الرحال، وأرضهم مهبط الرحمات، وكل الأنبياء من هذه الأرض، ولم يبعث الله نبياً من خط الاستواء، أو المحيط المتجمد...

(١) بعض المعاني الثلاثة مستفادة من محمد المبارك، وكتابه دراسات أدبية، لنصوص قرآنية.

فالإسلام هدبهم وحضرهم وارتقى بهم إلى حضارة إنسانية لم تسبق، ولن تلحق، وإذا ما تخلوا عن الإسلام، رجعوا إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام، وصارت ثقافة النهب والسلب محمداً بعناوين جديدة، وأصحابها يرفعون رؤوسهم بين الناس بالرشوة والتزوير والتحريش... والغش في السدود غير الغش في الأحذية، عندما انهار سد « زيزون » في سهل الغاب بسورية، لنقص في المواد، تكتموا على خسارته وعلى الأنفس التي قتلت، والحيوانات السائمة وبالمداجن، وقرى بكاملها أبيدت، وبطل القضية فوراً أصابه جنون مزعوم، فذهب إلى لندن للعلاج، وبقي لليوم يدير الأموال المسروقة جهاراً نهاراً. لضعف إيمان من أعانه على فساده.

وكانت الخيل وسيلة حربية لسرعتها في الكر والفر، وزود الله الخيل بمنخرها صفارة إنذار، وبحافرها قرح نار:

وَالْعَدِيدِ صَبْحًا ١) فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا ٢) فَالْمُعِيرَتِ صُبْحًا ٣) فَأَثْرَنَ بِهِ نَقْعًا ٤)
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ٥)

والوجه الإيقاعي يجري بجري الخيل، له وقع معين على الأرض لا تخطئه الأذن البدوية، والغارات الخيلية تخلو من الخلطة كالحمير والبغال والجمال، فيتقارب الإقاع الجماعي، والآيات خلت من الجمل المعترضة والطويلة والمعطوفات، فكاد الإيقاع أن يتوحد لمن يتذوق عسيلة موسيقى جماليات الحروف:

وَالْعَدِيدِ صَبْحًا ١) فَالْمُورِبَتِ قَدْحًا ٢) فَالْمُعِيرَتِ صُبْحًا ٣) فَأَثْرَنَ بِهِ نَقْعًا ٤)
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ٥)

أقسم الله برب الخيل التي فطرها على العدو السريع، كأداة حربية، وتتميز

هذه الآلة الحربية بميزتين للترهيب:

الأولى: بمنخارها صفارة إنذار.

والأخرى: بحافرها قدح نار ونار.

فأقسم الله بها وشجع النبي ﷺ على اقتنائها وهي وسيلة من وسائل إعزاز الأمم في زمانها، وهناك أحاديث كثيرة في السنة، تؤكد هذا التوجه الحربي في اقتناء الخيل، حتى لو اقتنيت لغير الحرب، فهي نعمة من النعم التي تحققها بالركوب والزينة، كما جاء في التنزيل: "والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة" ورتبتها الأولى على المركوبات.

وهيأ الله خلقها وتصميمها للمهمة، من رئة واسعة ومنخارين يجري بهما التنفس على قدر الطاقة المستهلكة، ويصدر المنخاران صوتاً فيه عمق وبعده ورهبة، وكل هذه المميزات تكملة للآلة الحربية، من أجل التأثير المعنوي على العدو.

ثم زود الإنسان الفرس نعلًا حديدياً، لتزداد قوتها وقدحها في الأرض، قال "فالموريات قدحاً، من ورى الزند: أشعله، قدحه، والدقة في توصيف الصورة:

تبدأ بالجري ومع بداية التسخين يبدأ الضبح، ولما تشد القوة، يبدأ القدح، لذلك عطف الجملة بالفاء، راعى الترتيب الزمني المطابق للواقع" والعاديات ضبحاً، (ف)الموريات قدحاً، وبعض المفسرين، قال: هي الإبل، احتمال ضعيف، لأن للإبل خفاً من لحم ودم، لا يوري النار. وقالوا الضبح للثعلب، فاستعير للخيل كما في قول عنتره^(١):

(١) وقبر عنتر معروف قريباً من حائل، فقد قتل كغاز.

والخيل تكدح حين تض بح في حياض الموت ضبحا

فَالْمَغِيرَاتِ صُبْحًا ٣

والغارة المبيتة ليلاً، تبدأ مع الفجر، لأن العدو يكون مستغرقاً في نومه، والمفجأة هي مفتاح الغلبة، فالحيوانات المفترسة التي تجيد الغارة ليلاً بالصبر، والتربص، ومفاجأة الطريدة، فهي الأكثر حظاً من التي تصيد نهراً.

فَأَثَرَنَ بِهِ نَقْعًا ٤

لقد اجتمع الضبح، والقدح، والنقع، والصبح، والريح والنقع هو الغبار الذي يحجب الرؤية، لذلك يقول الشاعر بشار بن برد:

وكان مثارَ النقع فوق رؤوسنا.. وأسيفنا ليل تهاوى كواكبه والغبار يرمز لكثرة العدد، أو أن العدو مرتبك كما يصوره بشار في بيته، وللغبار دور في غزوة مؤته، عندما تولى القيادة خالد بن الوليد، بعد استشهاد القادة الثلاثة، فأمرهم بالليل أن يتفرقوا، ويشعلوا نيراناً، متفرقة حتى يوهموا العدو بمدد جاء للمسلمين ليلاً، فغير العدو خطته من الهجوم إلى الدفاع، وبهذه اللحظة أمر خالد جنده بالتراجع، وأبقى منهم بقية لإشعال النار وإثارة الغبار، فلما تعالت الشمس، عرف العدو أنهم وقعوا بخديعة، وفاتهم الظفر لأن المسلمين يملكون قدرات تكتيكية، تعوضهم ما ينقصهم من العدد والعتاد.

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ٥

وبالمفاجأة دقت ساعة الصفر، وانحسرت المعركة وصار الغزاة وسط القوم، وما زال سكان الخيام يغطون في نومهم، وهذا ما يتكرر في عالمنا الإسلامي الذي يغط في سبات عميق، وعدوهم لا ينام وهو يخطط لهم ليل نهار، كما حصل

بحرب عام ١٩٦٧م، تحطمت الطائرات على مدرجاتها عند الفجر، لأن الطيارين كانوا في سهرة للفجر، والسهرة جزء من مكيدة مدبرة.^(١)

والمشهد الأول ظاهره صورة من صور الغزو القديمة، يظهر القوي يأكل الضعيف، والقائم يأكل القاعد، والقاعد يأكل المتمدمد، ولا مكان للضعيف في هذا المشهد الكوني الرهيب، لأن كل موجوداته مرعوبة، ومهددة مما هو أقوى منها، فما قيمة الأولاد والأموال والعز... إذا كانت كلها على كف عفريت، فلا أمن، ولا أمان.

ولم تعرف البشرية لذة الأولاد والأموال والعيش الهنيء، إلا في ظل الإسلام، العدو والصدیق سواء في هذه النعمة، بينما حضارة الغرب المعاصرة، مواطنهم عنده أمنٌ نسبيٌ وقوانين تحرس هذا الأمن، بينما الإنسان الذي يعيش خارج أوطانهم هدف لهم استعماري اقتصادي، وإذا لم يجدوا ما ينهبوه، فتحوا صدره، وأخذوا قلبه، وكليته،.... وحولوه إلى مخزن لقطع الغيار، فالغرب كالسباع المفترسة، تعطف على جراها، وماعداهم من الخلق مطعم مفتوح، لهم ولجراهم. وكل مالديهم من ناطحات للسحاب، والأنفاق، والقصور المفروشة، هي من جماجم الشعوب الضعيفة!

وأقسم الله برب الخيل لأن بفطرتها الكر والفر، وفي تسعينيات القرن الماضي كانت حرب في جنوب السودان، استدعت استخدام الخيل في مواضع

(١) ولقد صدر كتاب (تحطمت الطائرات عند الفجر) للجاسوس الإسرائيلي باروخ نادل، الذي كان يعمل بمصر وقتها كتاجر خيل، وكان الكتاب يباع على الأرصفة في بيروت، يتحدث عن مخازي بعضها فوق بعض، وآخرها الضربة الاستخباراتية بالسهرة المشؤومة التي استمرت للفجر المخصصة للطيارين، فخر جواثمالي حتى النخاع، ويقول كلاماً عن مخازي هذه السهرة يقف له شعر الرأس. والطيران الإسرائيلي بدأ مع الفجر فوق القاهرة يحرق المطارات وما عليها. ولي رأي بهذه الكتب الجاسوسية بها مبالغات لإظهار قدرة العدو، وتحطيم معنويات الصديق، ولو حذفنا بالمائة تسعين من كلامه، والعشر الباقيات مخازٍ وطامات.

معينة، وفوجئوا بأنها حربية بالفطرة، هي تنظم نفسها كمجموعة، تكرر، وتفر،
والفارس مهمته يسدد.

ونتحول إلى المشهد الثاني، تصوير فطرة النهب والسلب عند خالي الإيوان،
الذي لو أعطي وادياً، لتمنى ثانياً، ولو أعطي ثانياً، لتمنى ثالثاً، ولا يملأ عين
ابن آدم إلا التراب.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾
وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾

دقة التصوير بالمفردات: كنود، شهيد، شديد.

ما قال: إِنَّ الْمُسْلِمَ لِرَبِّهِ... بل الإنسان الخام، فالدين يرفع مستوى الفرد
والأمة عقدياً فكرياً حركياً، فالدين كمصنع نسيج يدخله القطن خاماً فيخرج
من طرف آخر ألبسة جاهزة، وبأسماء وصفات جديدة. فالإسلام استلمهم رعاة
وعبيداً، فجعلهم سادة وقادة، فالمؤمن لا يعرف الكند والتكر بل هو من أهل
الشكر، والرضى باليسر والعسر.

والكنود هو الإنسان الذي يذكر مصائبه وامتحاناته، ويكررها حتى
يموت، وهو يشكو ربه للناس، ويتجاهل ما أنعم الله عليه، من صحة وزوج
وولد ومال وبنين.

وكما هو بخيل بقول الحقيقة والاعتراف لأهل الفضل بفضلهم، فهو كنود
بنعمة الله عليه وعلى من حوله من الضعفاء، وهذه الصفة لا توجد بالمسلم، ومنذ
نصف قرن في البادية السورية والسنة محل شديد والمكان شرقي حلب بأكثر من
مائة/ كم، ينادي منادٍ بعد العشاء حتى لا يخرج الناس: العشا يا جوعان !!

وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾

وهذا الكنود يكون البخل في دمه وهو عنده سجية، لذلك دائماً في حرص شديد، ويشهد على كل درهم، يدخل، أو يخرج، ولا يثق بأحد.

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾

يعرف كيف يدخل الدرهم في صرته للأبد، فلا إنفاق، ولا صدقة، ولا قرضة، غني بهاله فقير بحاله، ومن أراد التوسع فليقرأ للجاحظ كتاب البخلاء.

لأنه شديد الجحود والإنكار للنعم، وهي أمام عينيه وكأنه لا يراها، لم؟ لأنه لا ينظر إلا إلى من هم فوقه، ويريد اللحاق بهم، ويتجاوزهم، ولو تحقق له اللحوق، بدأ مرحلة أخرى، وهكذا دواليك!

ولو أعطاه الله تسعاً وتسعين نعمةً، وأبقى له واحدة بعيدة عن المتناول، توتد أمامها، ونسي كل شيء.

ولقد جاءني من زعم أن عائلته كبيرة، وبالغ في فاقتة، وسألته: هل في العائلة أعمى؟ أعور؟ كسيح؟ أعرج؟ غسيل كلي؟ سرطان؟ هل من يبلى سريه؟؟... لا، والحمد لله، قلت له أنتم تملكون ثروة عظيمة، هل تبيع كلية واحدة من عشرين كليةً، أو عيناً من عشرين عيناً، أو أذنأ من عشرين أذنأ، رجلاً، يدأ...، بمبلغ عظيم عرضته عليه؟ قال: لا!!

وقلت له: هناك أناس من جيرانك يبحثون عن الولد بهال الدنيا، وأنت عندك عشرة؟! وكلهم بعافية، ولهم مأوى، وعندهم قوت أكثر من شهر، ولماذا هذا الجحود؟

وذكر لنا القرآن قصة نهم الملوك والزعماء بشفط أموال الضعفاء، ووصفه

القرآن بأنه (مَلِك) حقاً، وليس اسماً صغيراً. ومع كل هذا المال، كان دينياً، يأكل الميتة والنطيحة والموقوذة والمتردية... حتى السفينة التي كانت لمجموعة من المساكين ولكل واحد خشبة منها، يغتصبها غصباً، قوله تعالى: "وأما السفينة فكانت لمساكين، يعملون في البحر، وأردت أن أعيبها، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً »

والسؤال: لماذا هذا التكالب على أموال المساكين؟ لغياب الإيمان باليوم الآخر. «إنهم كانوا لا يرجون حساباً» إذاً علاج هذا النهم والكند والجحود، هو الإيمان باليوم الآخر، إيماناً حقيقياً، ووراءه حساب. وكم خسر العالم العربي بضعف الإيمان باليوم الآخر؟

ويأتي المشهد الثالث والأخير، يصور كيف تتبعثر القبور بمن فيها، وتخرج الأسرار من مخابئ الصدور، ويقف الجميع أمام العليم الخبير؟

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۙ

أفلا يعلم هذا الضال المضل إذا تبدلت الأرض غير الأرض، وبدأت تدفع بشراً للأعلى، كما تدفع الزهر والشوك والعشب بعضهم فوق بعض، وكلمة (بعثر) هنا فيها إعجاز قرآني، لأن بعثر تأتي لشيء منضد بعضه فوق بعض، ومن أسفله من يرفعه، ويدفعه، ويبعثر المنضد، و(بعثر) غير نثر، وبذر، لأن البذر غير منضدة...

وربما مع طول الزمن وعملية الحت التي تأكل الأعالي من كل الجبال والوهاد، وتدفن بطون الأودية بما فيها من مقابر، حتى تصبح مقابر بعضها فوق بعض واللاحق لا يدري خبر السابق. كما يقول أبو العلاء:

ربّ لحد قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تراحم الأضداد

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾

ويأتي دور تحصيل الأعمال من صدور الناس، وهي مخازن الأسرار التي لا تكتبها الملائكة، ولا تشهد عليها الجوارح، بل هي أسرار الأسرار، وخفايا الخفايا، وهي: الله!! وفي التنزيل: "وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله." المحاسبة لإظهار قدرة الله وإحاطته، وبعد المحاسبة قد يعذب، وقد يغفر له...

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

إن ربهم خبير بهم يوم كانوا أجنة، ويوم ماتوا، ويوم يبعثون بعد ملايين السنين، وهم أكثر من رمال الأرض، ولا تتقص خبرته بهم، وكأنهم فرد واحد، ولد، ومات، وبعث، وحوسب في لحظة واحدة، من أجل أن تطمئن الخلائق، بأنهم لن يظلموا.

الجرس والإيقاع:

المزاوجة بين المحتوى من جهة، وبين الجرس والإيقاع من جهة أخرى:

أجواء الغارة على الخيل، وبدون بغل أو حمار لأنه سينقطع عنهم، فيكون الإيقاع موحداً وكأنه فرس واحدة.

وهذه الآيات التصويرية، وكأنه جملة واحدة تتكرر، أو ختم يطبع نفسه، لذلك خلت من اللواحق، وحروف المعاني والتوكيد، والعاديات صباحاً، فالموريات قدحاً، فالمغيرات صباحاً. الجري يرسم بالحروف.

فأثرن به نقعاً، فوسطن به جمعاً. تصوير اختلاط الجموع، ودور المناورة. ووقت المواجهة أقل من وقت الغارة. فجاءت الجمل أقل ومقطعة ثلاثاً.

سورة القارعة مكية، وآياتها إحدى عشرة،

وترتيبها بالقرآن (١٠١)

وبالتنزيل المكي (٣٠)

القارعة لمن قارع الإسلام وأهله، وليست للمؤمنين، فما دام أسلموا، لماذا يقرعون؟

القارعة للكافرين والمشركين وللطغاة والمتجبرين الذين قرعوا الإسلام والدعاة، ومن شدة القرع والطرق، نُثروا كالفراش المبتوث، فلا وزن لهم ولا قيمة، والذين كانوا كالجبال الراسيات، كالعهن المنفوش. وجاءت بأربعة مفاصل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١- ﴿ الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ ﴾
- ٢- ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ ﴾
- ٣- ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ ﴾
- ٤- ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ١٠ نَارُ حَامِيَةٍ ١١ ﴾

القارعة: مفردة طورها القرآن، من قرع إلى قارعة، كـ«الحاقة» و«الواقعة» ولصاحب الظلال إضاءة: ”لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة: «القارعة» بلا خبر ولا صفة. لتلقي بظلمها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب!

ثم أعقبها سؤال التهويل : « ما القارعة؟ » .. فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل!

ثم أجب بسؤال التجهيل : « وما أدراك ما القارعة؟ » .. فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك ، وأن يلم بها التصور!

ثم الإجابة بما يكون فيها ، لا بما هيتهها . فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا . وما أدراك ماهيه؟

سؤال التجهيل والتهويل المعهود في القرآن ، لإخراج الأمر عن حدود التصور وحين الإدراك!

ثم يجيء الجواب كنبرة الختام :

« نار حامية »

فاستهلال سورة "القارعة" بمفردة جديدة ومرعبة كالطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية ، فتوحي بقارع ، ومقروع ، وأداة للقرع ، وأما من خفت موازينه فهو المقروع؟

فالقارعة: من المفردات التي طورها القرآن الكريم، من قَرَعَ إلى قارعة... ونقلها مجازاً إلى "قيام الساعة" ويوم الحشر، عندها يُقرع من يُقرع، ويفوز من يفوز، والقرع متفاوت وليس درجةً وحدةً، تبعاً لقوة القارع، فقرعة الصبي دون قرعة الرجل القوي، فكيف بقرعة الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد؟

وما الحكمة من هذه المفردات الجديدة التي تقرع القلوب وكأنها قذائف ذكية تريد أهدافاً دقيقة عميقة، تريد قلب الإنسان وعقله، تريد مركز القيادة، فإن صلحت القيادة، صلح المجتمع، ويتأولها الماتريدي: « خلق في بني آدم

نفسا يدرك بها الشهوات واللذات في الدنيا، وعقلا يتذكر به عواقب الأمور وأواخرها، ويزيده ذلك تيقظاً وتبصراً، ثم العقل مرة يدعو إلى نفسه حتى يميل إلى ما يدعو به في جزاء ما أطمع في العاقبة، والنفس مرة تدعوه إليها؛ فيصير هواه وميله فيما يتلذذ به من الشهوات في دنياه، وعلى ذلك تأويل قوله: (وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي . . .)، أي: يرحمه ويعصمه عن اختيار السوء.

أو رحمه حتى جعل هواه فيما توجهه العواقب من الجزاء والثواب؛ فلذلك ذكر الله - تعالى - عباده بما يستقبلهم من الأهوال في ذلك اليوم؛ ليعملوا عقولهم في أفكاره، والتذكر عنه؛ فيزدجروا عما زجرهم عنه.

أو يتذكروا ما وعد لهم من الجزاء في ذلك اليوم؛ فيزدادوا بذلك حرصاً في الخيرات».

الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣

من هم الذين تلقوا نبا القرع؟ ومن هم بحجم هذا التهديد؟ هم أهل وادٍ بغير ذي زرع، لأنهم شعب أخذ من الجبل شموخه، ومن الصخر صلابته، ومن السيف حده، وفي قرارهم الحزم والعزم حتى في الخطأ، وقد تمكن منهم هذا الخُلُق، فلا بد من تحريرهم مما هم فيه، فتطلب علاجهم بالصدمات الكهربائية، مرة بعد مرة، أو بالقرع تلو القرع، وهذه اللغة تقررهم جميعاً كما تقرر غيمة غيمة حبل بالماء، فمن شدة قرع الماء بالماء، ينقدح البرق الذي يذهب بالإبصار، ويقرع الرعد القاصف الأرض ومن عليها، فليلتصق عتاة الأرض بالأرض خوفاً من الله، وهذه تعدل ألف، ألف واعظ وموعظة، وأهل الملاء الأعلى، يأخذهم ما يأخذهم من الرعب والرهب، فيقولون بضم واحد: "وَيَسْبِحُ الرَّعْدُ

بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ...”

فكيف لو قرع البشر بالبشر، والجبل بالجبل، وهذا يصبح كالفراش المبتوث، وذاك كالعهن المنفوش؟ ومن أجل أن يوصل القرآن لهم هذا المعنى جاءهم بجديدين:

- جديد اللغة المطورة، وهم أبناء بجدتها، من قرع إلى قارعة، إلى تبدلات الكون الكبرى.

- لتصوير شيء لم يألوه، ولم يعرفوه، ولم يسمعوا به، يوم تبدل الأرض غير الأرض...

وفي الحروب يتوقف النصر على الخطة الجديدة، أو الطرح، أو السلاح، فجديد اللغة يروضهم لجديد الطرح، لأن مشكلة العرب ليست الشرك وحده، وعدم الإيمان بيوم القارعة، وهم لم يعرفوها، وأنى لهم أن يعرفوها؟ مشكلة العرب في التحول من الأنفة وعدم الانقياد ورفض الخضوع، إلى عبودية مطلقة لله، وهم يظنونها عبودية انصياع وخضوع لمحمد و لأولاده من بعده، فأكثر القرآن لهم:

- أطيعوا الله، وأطيعوا الرسول..

- أطيعوا الله، والرسول..

- أطيعوا الله، ورسوله... ولكل صيغة معطيات خاصة بها.

لأنهم كالصقور اعتادوا الحرية، وعدم الانقياد.

وليس لله ورسوله أي هدف استثماري أو منفعي بإسلامهم، ولا يتضرران

بكفرهم، إنما هي رحمة الرحمن، والرحمة المهداة.

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾

رؤيتان:

الأولى: من رحمة الله يغير تكوين الناس وينثرهم ويصبح جسمهم لا وزن له خفيفاً كالفراش يحملهم الريح وإذا وقعوا لا يتحطمون، وتحتهم الجبال القاسية تتحول إلى صوف منفوش ملون زاهر.

والأخرى: قال يوم يكون الناس... وليس يوم يكون المسلمين... وتختزن الآية صورة خفية موجهة للكافرين، ولأصحاب النفوذ في الدنيا، فلا ينفع صديق صديقه، ولا حميم حميمه، والقوة والحشم والخدم تطايروا جميعاً، وانتشروا في كل الجهات محطمين ضعفاء، وأعظم عظماء الأرض، وأقوى أقوياء الأرض، كفراشة محطمة من حيث القوة والوزن والقيمة، تداس تحت الأرجل، ولا يلتفت إليها حيةً أو ميتةً. وأما المسلمون فلا يحزنهم الفزع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون..

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾

السؤال: أي جبال ستكون كالعهن المنفوش؟ وهي لم تذب قط، وتسبح بحمد ربها، وتؤب مع داوود؟ جبال مكة، أم هي جبال البشر الذين توتدوا في طريق الدعوة، لاهم يسلمون، ولا يتركون الإسلام يتقدم في الأرض، فلا بد من نفضهم نفضاً، ونزع القوة والوزن والتماسك منهم، ولم يبق منهم إلا الاسم والرسم.

وربما يراد من هذه الأخبار الحقيقية والمخيفة والمجلجلة، تحجيم كل الشر في الناس وخاصة أصحاب النفوذ الذين بأيديهم الوسائل التي يضررون بها الناس، ولا ينفعون.

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾

وجاء بتفسير الكشاف: منه حديث أبي بكر لعمر رضي الله عنهما في وصيته له: «وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقلها في الدنيا، وحق لميزان لا توضع فيه إلا الحسنات أن يثقل، وإنما خفت موازين من خفت موازينه لاتباعهم الباطل وخفتها في الدنيا، وحق لميزان لا توضع فيه إلا السيئات أن يخف»

وكان الموازين على هيئة قبان، وليس بكفتين وبينهما مؤشر؟ والسياق يستدعي، فمن ثقلت كفة حسنته فهو في عيشة راضية، لأن الموازين في الدنيا تطورت في الفترة الأخيرة، ولم يعد هناك إلا كفة واحدة؟ وتعددت أنواعها: موازين للحرارة، وللسكر في الدم، وللرطوبة في الجو، وللأنوار موازين مائة شمعة، وألف، وألف ألف... الخطاب كان على قدر مفهوم المُستقبل للخطاب، فمخاطبة الطفل، غير مخاطبة العالم، فيقال للطفل كلما يرى حشرة (دودو).

خاطبهم على قدر تصورهم للموازين، توضع الحسنات بكفة، والسيئات بكفة، فمن ثقلت حسنته، فاز فوزاً عظيماً، ومن خفت حسنته يلقَ عذاباً أليماً. وهذه الصورة تهدئ الظلمة، لئلا يظلمون، فالحسنات لا تنقص واحدة، والسيئات لا تزيد واحدة.

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾

يعيش المؤمن في الجنة وكل ما حوله حيّ يبادلُه الحب، ويظهر ذلك عليها، وكلها حنان له، ففي الدنيا عنده أمٌّ واحدة، ولكن في الجنة كل أشياء أمهات للمؤمن. وكلها راضية عنه لما قدم، وعاشقة له، حتى يكتمل سروره.

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۖ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾
نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾

ومن خفت موازينه كونه أحمق في الدنيا، أحمق في الآخرة، « فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ » مصطلح دعائي في اللسان العربي كقولهم : ثكلتك أمك « هوت أمه من الشكل والحزن عليه، قال شاعرهم :

هَوَتْ أُمُّهُ مَا يَبْعَثُ الصُّبْحُ غَادِيًا ... وَمَاذَا يَرُدُّ اللَّيْلُ حِينَ يَتُوبُ؟

وعندنا صورة تقريبية تتكرر بعد نتائج امتحانات الثانوية بسورية:

فأما من خفت درجاته، ونقصت علاماته، أول من يهوي على الأرض من الصدمة: أمه، « فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ » صورة أدبية، تقولها العرب لمن ألقى بنفسه على التهلكة : هوت أمه، ثكلته أمه، ندبته أمه...

وقوله: وما أدراك...: كاف الخطاب للجميع، مَنْ مِنَ الْبَشَرِ رَأَى النَّارَ وَعَايْنَهَا، أَوْ رَأَى مِثْلَهَا، أَوْ سَمِعَ بِمِثْلِهَا، وَهَذَا جَاءَتْ (نَارُ حَامِيَةٍ) نَكْرَةً، آخِرَ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَوَّرَ مِنَ الْحَمِيِّ وَدَرَجَاتٍ لِلْحَرَارَةِ.

وعن أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم". قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. فقال: "إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً"

وفي الصحيحين بعض ألفاظه: "أنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حرها"^(١).

وعن أبي هريرة يقول: سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول:

(١) صحيح البخاري برقم (٣٢٦٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٣).

” نار بني آدم التي توقدون، جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم“. فقال رجل: إن كانت لكافية. فقال: ”لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً حراً فحراً“^(١)

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة“^(٢) إن الله يقرعهم بهذه السورة قرعاً، من باب الرحمة لعلهم يستيقظون مما هم فيه من التخدير الذي أطال نومتهم وسكرتهم، والخطر مداهمهم، وهم لا يشعرون، بدنو الأجل الكوني، وتبدل الكون كله، لأن البعثة المحمدية، علامة من علامات الساعة، كما جاء في التنزيل: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(٣)، والله يصارح عباده حتى لا يفاجأوا، والخطاب موجه للذين لا يؤمنون بالآخرة، رغم وجود الأدلة ووضوحها، لأن مشكلتهم ليس بنقص الأدلة، ولكن بالعناد والتعالي المستحکم فيهم، من هنا جاءهم القرع.

(١) المسند (٢/٤٦٧).

(٢) سنن الترمذي برقم (٢٥٩١) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٠) وقال الترمذي: ”حديث أبي هريرة في هذا موقوف أصح، ولا أعلم أحداً رفعه غير يحيى بن بكير عن شريك“.
* عالمة أمريكية متخصصة بالنار، فأسمعوها الحديث، فاستبعدت صحة المضمون، لكنها استثمرته بمخبرها، وبعد صبر طويل، نالت به فتحاً، وأسلمت! احمرار، وابيضاض، واسوداد. من أين لك هذا يا محمد؟ هو من عند الله!

(٣) سورة القمر: ١.

سورة التكاثر مكية، وآياتها ثمان،

وترتيبها (١٠٢)

وبالتنزيل المكي (١٥)

الدنيا: الغني ملته بجمعها، والفقير ملته بتحصيلها.

نبوءة قرآنية تتحقق، فأصبح التكاثر هدفاً، وصارت الغاية تبرر الوسيلة.
والتكاثر: جمع كل شيء زاد عن حاجة الإنسان أو حاجة المجتمع المحيط به،
سيكون على حساب ما فيه سعادته في الدارين، ويدخل في باب السمعة والتكاثر.^(١)
وعلينا أن نفرق بين التكاثر الميِّت والمميت، والتكاثر الحيِّ والمحبي كالتقنية
وعلومها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس، هدف
من أهداف عمارة الأرض، وأما التكاثر الغربي من ثقافة الأجوفين، والفن،
والرياضة، والترفيه... كلمات حق، يراد بهن ألف، ألف باطل. لتفريغ الناس من
دينهم وأفكارهم ومستقبلهم، ويتحولون إلى أدوات، يقودهم الإعلام الميسس
عن بعد، كما يقود الراعي القطيع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- ﴿أَلْهَنكُمْ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾

٢- ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ

عَلِمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ
لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨﴾

(١) بعض المعنى مقتبس من تفسير ابن عربي.

الخطاب للمسلمين والكافرين، وللأغنياء والفقراء، كون الغني ملتئمة بجمعها، والفقير ملتئمة بتحصيلها...أهاكم التكاثر، خطاب يستبطن اللوم للملتئمين الذين لا يقدرّون قيمة الزمن، وأن العمر جولة واحدة. وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ“^(١).

والمشهد الذي يتراءى لنا في مسمى السورة، وانقسم العلماء نحوه إلى قسمين:

- منهم من وجه لوم ”التكاثر“ نحو المسلمين...للتقصير

- ومنهم من وجهه نحو الكافرين، للزجر...

والنص يقرأ من وجهين الأول:

هو للكافرين... لذلك تصاعد التوبيخ والوعيد والزجر والإبطال...بسبب الفراغ الذي يعيشون فيه، فملأوا وقتهم بالتكاثر واللهو... وإن كان الخطاب موجه للمشركين، هل أهاهم التكاثر عن التوحيد واتباع الرسول ومناقشة الأمر بهدوء؟

وللمسلمين يذكرهم بأسلوب مبطن خفي، ربكم حب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان، وأسند لكم حراسة المنهج، فكيف تلتهون عنه بما دون ذلك؟ وإن كان موجهاً للمسلمين، ففيه تفرّيع، المال مالنا ونحن حولناك فيه، ونحن الذي يبسط ويقبض، فكيف تلتهون بشيء ليس لكم؟

(١) صحيح البخاري برقم (٦٤١٢) وسنن الترمذي برقم (٢٣٠٤) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٧٠).

أَهْلَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾

خطاب مباشر من الخالق للمخلوق وبدون وساطة، أهاكم التكاثر عن ماذا؟ وهذا من الابتلاء الذي ينطبق على المؤمن والكافر. وغيب المراد حتى يشدهم للاستماع والإصغاء إليه، ويتابعون كلامه للأخير!

أَهْلَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾

أَهْلَكُمْ: فعل ماضٍ... لو قيل لهم هذا التفرغ يوم القيامة، جاء الفعل في سياقه، وجاء الكلام والملام موجهاً للمفترطين أيّاً كانوا، وإن كان لمن عاصر التنزيل، جاء بالماضي وكأنه وقع، وتمّ، نحو: أتى أمر الله، ونحو: قد أفلح المؤمنون...

والملتهي: من أسند له أمر، وكلف به، وبتنفيذه بوقت معين، فتهاون عنه وانشغل بشيء لا قيمة له، حتى فات الأوان. كما يلتهى طلبة المدارس بالكرة، عما أسند إليهم من العلم. فتقع واقعتهم.

أَهْلَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾

التكاثر من كل شيء من مال، وولد، وعمومة... لها مزايا في الدنيا، وليس لها أي وزن في الآخرة، إلا من أحسن استثمارها لأنها إعارة، وعند الموت تسحب منه، كما جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن الشَّخِير، قال: انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يقول: أَهْلَكُمْ التَّكَاثُرُ قال: يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت، فأفנית، ولبست، فأبليت،

وتصدقت، فأمضيت؟»^(١)

وصاحب التكاثر إذا أصبح من أهل التوتر العالي، سيتجاوز المعقول عندما يفرض نفسه على الدنيا والآخرة، ويقرر مصيره بنفسه في الآخرة بأنه يُكْرَم ولا يعذب، وقد قالها صاحب الجنتين في سورة الكهف: "وما أظن الساعة قائمة، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً" وكما جاء في التنزيل: "وقالوا: نحن أكثر أموالاً وأولاداً، وما نحن بمعذبين"^(٢) لأنهم غرقى بسكرهم، يقولون: «وما نحن بمعذبين» لأنهم أغنياء أقوياء. وهذا الأعمى صناجة العرب:
ولستَ بالأكثر منهم حصيً وإِنما العزّة للكأثر

حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾

ولم تنتبهوا حتى سكتتم المقابر، ومفهوم الزيارة تعني الوقت القصير المحدود، وهل هذه الآية تصف مرحلة ما قبل الموت، وكأننا في الدنيا زوار؟ أو أنها تصف مرحلة القبور البرزخية مؤقتة ونحن كالزائرين، وبعدها إلى جنّة أو نار. ورداً على مقولتهم كما مرّ: نحن لا نحاسب، ولا نعاتب، والعلة في جهلهم بما وعدهم ربهم: سوف تعلمون. ما وراء جهلكم.

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

وكلاً الأولى غير الثانية.

ونتأول بـ«كَلَّا» الأولى «سوف تعلمون» يبدأ هذا العلم من سكرات

(١) المسند (٢٤/٤) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٨) وسنن الترمذي برقم (٣٣٥٤) وسنن النسائي (٢٣٨/٦).

(٢) سبأ: ٣٥.

الموت. وب« كلاً» الأخرى: تبدأ من سكنى القبور. أو الأولى من الموت للنشور، والأخرى من النشور إلى النار أو القصور.

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

ثمَّ: توحى بفاصل زمني ما بين القبور إلى النشور.

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾

عندما يستقر العلم على حقيقة عالمية، يُسمّى علم اليقين، كمن يعلم أن هناك كعبةً يحج إليها المسلمون، وتكون بمكة، ولو لم يرها الناس، استقر أمرها عندهم، وعندما يزورها المرء صارت بالمشاهدة عين اليقين، ولما وقف عند الكعبة وأدرك السر المودع بها، ولماذا فرض الله زيارتها من دون كل بيوت الله، استقر علمه بأنها حق اليقين؟.

ظاهرة التكرار في السورة القصيرة، من أجل تركيز الانتباه والوعي وعدم نسيان ما يراد إيصاله للمخاطب، كالتهديد، والتشجيع، والوعيد، والرجاء، والتقنيط... وتكرر العرب: الويل الويل، و بخٍ بخٍ... أفٌ أفٌ..

وهذا قَسَمٌ في سياقه، بأنهم لا يعلمون علماً يقينياً، وكل ما لديهم علم غير مرجح حول جهنم، لذلك غير خائفين منها، ولترونها على مرحلتين:

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾

الرؤية الأولى: بدءاً من النزع، وبعد حساب الملكين في القبر، وبعدها يتحول القبر إلى روضة من رياض الجنة، أو قطعة من النار.

ثم: هناك فترة ما بين رؤية النار في القبر، ورؤيتها في جهنم، ففي جهنم لا

ترى النار من بعيد، بل صاروا هم منها، وهي منهم
(عين اليقين)!!

ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

وهذا القسم في لسألن: إما للتذكير والمباشطة والملاطفة، وإما للمحاسبة والمناقشة، وهذا من العذاب.

وختمها بخبر مؤكد بلام القسم، لقسم مقدر، ثلاث مرات: لترون، لترونها، لتسألن، وختمها بنون التوكيد. قضية المساءلة لمن ألهاهم التكاثر من أي ملة كانوا، قول فصل وما هو بالهزل.

والمساءلة للجميع، وهي على نوعين: للتذكير والمباشطة والملاطفة وهذا من الفضل والرحمة، أو للمحاسبة والمناقشة.

الأولى: تقرير العبد بالنعم التي كانت من حظه في دنياه، على سبيل المباشطة والملاطفة، والعبد مستلذ باللقاء وبالمساءلة

والأخرى: مساءلة على سبيل التقريع والتوبيخ والإقرار بالنعم التي كانت تجري عليه. من أين جاءت؟ وأين ذهبت؟

فالمساءلة والمحاسبة على الجميع، لقوله تعالى: «وقفوه، إنهم مسؤولون» وقوله: «وإن تبدوا ما أنفسكم أو تخفوه، يحاسبكم به الله» بعدها إما يغفر، أو يعذب» فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء» والمشكلة في المناقشة، كل نعمة يسأل عنها العبد مرتين، من أين جاءت؟ وأين ذهبت؟ فمن نوقش، عذب، ولكن قد يمر شريط الأعمال، وبدون نقاش، فهذا حساب يسير.

وقدر الله أن النبي ﷺ وبعض أصحابه خرجوا من بيوتهم في الظهيرة، وما

أخرجهم إلا الجوع، فنزلوا ضيوفاً على أبي أيوب الأنصاري، فذبح عليهم، وبسط لهم الرطب والبسر والماء البارد، فقال لهم النبي ﷺ بعد أن شبعوا، وارتووا: "ثم لتسألن يومئذ عن النعيم" وعند ابن عربي ماملخصه: كلام فيه إنذار وبشارة لأهل ذاك المجلس، ولكل الأمة، للتقليل من الحلال، إما للنشاط في الطاعات، وإما لخفة الحساب^(١)

والتهديد القرآني باطنه الرحمة، يحث على النضوج الإيماني، قبل أن يرتفع الوحي.

وتهديد الرحمة لاينم عن حقد وكرهية وتربص بالخصم حتى تأتي ساعة الغفلة عندها يفاجأون بالانتقام، كتهديد الأبوين للابن اللاهي والسادر في غيّه وطغيانه، من الخوف عليه، وليس من الحقد عليه، ولا مقايسة بين لسانها الشديد وقلبها الرحيم، والله المثل الأعلى، ولكن للتهديد والوعيد القرآني رسالة استعجال للنضوج الإيماني، لأن إيمان الصحابة متتابع ومتوالٍ، وأول إيمان نضج إيمان أمي خديجة، وإيمان أبي بكر، رضي الله عنهما، وتوالت أفواج المهتدين على مدى ثلاثٍ وعشرين سنة... كعناقيد العنب تنضج متواليّة.

ويتناسب ارتفاع الصوت وحدته بقدر عمق النائم في نومه، والبعيد في الأرض، والضال في طريقه، فمن خلال إرتفاع الصوت يتبين بعد الطرف الآخر. وسورة التكاثر ذات ظلال متعددة، منها:

كم كانوا غرقى وسادرين ولا يسمعون الكلمة الحانية من أرحم الراحمين، حتى أغضبوا رب السموات، فنبههم، وقرعهم، وهددهم؟
كلاً: أداة زجرٍ ونهيٍ، وتكررت ثلاثاً وثلاثين مرةً، وفي التنزيل المكي

(١) تفسير ابن عربي، ج٤: ٥٣٩. بتصرف.

حصراً، لأن المخاطبين من فصحاء الأعراب وأشدائهم، ولها وقع في نفوسهم، بينما في المدينة كان المجتمع أخلاطاً من ذرية آدم عليه السلام، فما كانت لـ (كلاً) حاجة، وفي كل مرة بـ (كلاً) كإبرة بالوريد ينزجر الأعراب وتنخفض عندهم درجة الحرارة والعناد، ويرتفع مستوى النضوج، واحتاجوا إلى ثلاث وثلاثين مرة ”كلاً“ أو إبرة بالوريد، حتى ارتفع مستواهم، ولما نضجوا، استراحت (كلاً) منهم. وأول ما بدأت ”كلاً“ من سورة طه، وبدأت هينة لينة، قياساً لما بعدها، وفي جزء عم اشتد قرعها وزجرها، كونه من أوائل التنزيل المكي، ووقفت في ”الحطمة“، بعدما حطمت كل الغرور التي مرت به.

وللعقل أن يتخيل كم كانت شكيمة هؤلاء الذين احتاجوا إلى هذا العدد من الزجر، ومن الله بالذات؟!

وللعقل أن يتخيل كم كانت معاناة النبي ﷺ، مع هؤلاء الذين قد تجلدهم من الصخر!!

ثُمَّ لِنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

ثم: للتراخي، وبعد فترة القبور، أو بعد فترة الانتظار بالمحشر، يأتي الحساب والمساءلة، عن النعم من أين جاؤوا بها؟ وإلى أين ذهبوا بها؟ وبعضهم عنده أهرامات من النعم المكدسة من جماجم المستضعفين في الأرض، وتحولوا إلى فاسدين مفسدين؟ وكانوا يفرضون الفساد على الناس في الأرض، وكانوا يدمرون كل كلمة مستقيمة، وهدف مستقيم، وكل خط مستقيم، حتى ولو وجد على ورقة.

لماذا؟

ويبغونها عوجاً!

”ثم... لتسألن يومئذ عن النعيم“

وإن كان الخطاب للمؤمنين فهو في سائر النعم وأولها التوحيد، والقرآن، ورسول الله، والمنكح، والمأكل، والمشرب، والملبس...

فالكافر يُسأل تبيكياً وتوبيخاً كونه يشرك مع الله شريكاً ولم يقدم له شريكه شيئاً، وكل النعم التي بين يديه من الله، فهو أحق خلق الله!! والمؤمن يُسأل عن تقصيره بالشكر لله، لمن أنعم عليه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ”يقول العبد: مالي مالي؟ وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فاقتنى وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس“^(١).

وتمثل الأحنف بقول الشاعر:

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك

كما جاء في الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رجل من الأعراب يعودده، فقال: ”لا بأس، طهور إن شاء الله“. فقال: قلت: طهور؟! بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور! قال: ”فنعم إذا“^(٢).

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٥٩).

(٢) صحيح البخاري برقم (٥٦٦٢، ٥٦٥٦، ٧٤٧٠).

سورة العصر مكية، وآياتها ثلاث،

وترتيبها بالقرآن (١٠٩)

وبالتنزيل المكي (١٣)

وربّ العصر لن ينجو من مهالك كل عصر، إلاّ الملتزمون بالمنهج الرباني والذين يجرسونه هم الملتجئون إلى الله، وفوضوا أمرهم إليه، واحتموا به في اليسر والعسر. ومعنى العصر لغة: أي الملجأ والمناجاة. (المعجم الوسيط) فالخائف المدعور يلجأ ويناجي ربه ، وهو يعصر نفسه عصراً، فيكون أقرب ما يكون من ربه. ولا يوجد في السورة ريحة للزمن من بعيد أو قريب، ولو وجد ما له سياق يخدمه، أو بيئة تحتضن القسَم، ولو مجازاً، وكل من رأى (والعصر) فيه ريحة زمنية، أبعده الرمي! والله أعلم.

وما قال: والعصر إن المسلم لفي خسر، بل قال: إن الإنسان لفي خسر، فيها سعة وبشارة، وأمرنا أمراً بالتواصي ليكمل بعضنا نقص بعض، حتى لا نتردى في مهلكات العصر، وهذه من الوصية النافذة والملزمة بين المؤمنين، بسبب عقد الأخوة، والإنسان صاحب غفلات تأخذه سنة، ونوم، وغفلة، وسهو، وقد سها أكمل الأنبياء وأكمل البشر صلى الله عليه وسلم، ونبهوه في الصلاة، فسجد للسهو. وكان إذا التقى الصحابييان لا ينصران حتى يقرأ أحدهما سورة «و العصر» تجديداً للعهد في حمل راية التواصي، وحراسة المنهج.

وأهل العصر هم عقلاؤه وأذكيأؤه الناجون من ويلاته، ببركة اللجوء إلى الله، والمناجاة الدائمة.

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

لقد أقسم الله بعدة استهلالات لسور مرت علينا ترمز لزمن معين من ليل أو نهار، وجاءت خمس سور متواليات في (جزء عم) منها: الفجر ترتيبها: ٨٩، والبلد: ٩٠، والشمس: ٩١، والليل: ٩٢، والضحي: ٩٣، سور متتابعات، ثم أقسم بالعصر: ١٠٣، وجاءت منفصلة لأنها ليست منهن، كما تتأولها. والله أعلم. والعصر: كلمة واسعة الطيف، قالوا:

الوقت في آخر النهار إلى احمرار الشمس، وصلاة العصر، والعصران: الغداة والعشي، والليل والنهار، والدهر، والزمن ينسب إلى ملك أو دولة أو صناعة، كعصر الرشيد، والعصر الأموي، وعصر الذرة. والسور التي تحمل أقساماً بالزمن كالفجر، والشمس... نجد في النص للزمن ما يتكئ عليه من الزمن، نحو: والفجر وليالٍ عشر... اتكأت كلمة (الفجر) على الليالي العشر، والشمس وضحاها... اتكأت كلمة (الشمس) على الضحي، لقد استغرق المعنى الزمني في القسم والنص، بينما في سورة العصر، تكون (العصر) يتيمة من حيث الزمن، لأنها لا تستغرق مع النص الذي بعدها. لذلك ملنا إلى منحنى عند اللغويين:

العصر: أي الملجأ والمناجاة. (المعجم الوسيط)

ومحتوى السورة يقرر بأن البشرية في خطر محتم، وقليلهم ناج، وكثيرهم هالك، ولا مفر لهم من ذلك إلا بالملجأ إلى الإسلام ومناجاة الله، وهكذا يحافظ النص على وحدته وتماسكه لفظاً ومعنى.

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾

وتأويل آخر: ورب العصر الذي أنزل فيه القرآن، وكان الإنسان على شفا حفرة من الهلاك والخسران، وجاءت مفردة (خسر) نكرة، لأنها واسعة الطيف، لتشمل جميع أنواع الفساد والهبوط نحو الحيوانية في كل المعايير كانت خسارته فادحة في الأخلاق والقيم والسلوك، ومن خسارة إلى خسارة أشد منها باتجاه المنحدر.

وينقل الله لنا الصورة التي كانوا عليها من الهلاك الكامل الشامل، بما ينتظرهم من حفرة، ومن نارٍ، وليس بعد النار نار ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ فجاء الفرج عندما امتدت يد النبي صلى الله عليه وسلم على أهل الكرة الأرضية لحظة الغرق، فرفعتهم ودفعتها نحو الشاطئ، لأنها رحمة للعالمين، لذلك حتى الآن لا يتخيل العالم كل العالم فضل النبي صلى الله عليه وسلم على البشرية. إلا إذا تخيل الوضع الذي لبست به البشرية أكفانها، واتجهت برجلها نحو حفرتها.

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣)

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

والحق: في الأصل كل ما يحمد عليه فاعله، من توحيد الله وطاعته، واتباع كتبه ورسله، والزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة.

والصبر: هو الكف عن كل ما يذم عليه فاعله؛ كالمعاصي والصبر على الطاعات، وعلى الابتلاءات.

وهذه ومضة سمعتها من الشعراوي رحمه الله من خلال القنوات، يدندن حول التواصي. بتصرف:

فالمجتمع عندما يتواصى يكون كورشة الصيانة، كل منهم يصلح خلل صاحبه عند الزلل، فيستمر المجتمع جاهزاً وكأنه جديد، كمثال السيارة إذا تابعت عليها الصيانة أولاً بأول، تبقى جاهزة للعمل والعطاء، وكثير من الحضارات تحطمت لغياب التواصي بالحق، واليوم المجتمعات الغربية توجد بها نسبة من التواصي عبر وسائل الإعلام لذلك تأخر سقوطها عن السوفييت، والذي عجل سقوط الممالك الإسلامية غياب التواصي في ظل الفرعة السياسية. وللسيد قطب آفاق داخل الآفاق من خلال قوله تعالى:

«...إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر»
وفحوى ما يقوله:

منهج كامل يصنع في كلمات معدودات، ولا يستطيع هذا إلا الله، منهج واحد لله، وراية واحدة لله، وطريق واحد إلى الله، وكل المناهج، والطرق، والرايات، هي مناهج الشيطان وطرقه وراياته مهما اختلفت أسماؤها وألوانها، لأنها لا تستمد حياتها من الحي القيوم، وهي صناعة عصابات لهم أهواؤهم وميولهم وفخاخهم، يتصيدون بها المكاسب والأرباح، من خلال غفلة الجماهير، وإن شئنا قلنا عصابات، وإن شئنا قلنا آلهة، لهم أهواؤهم ومصالحهم، فيستمدون قوتهم من قدرتهم على الكذب والمخادعة والتزوير والبطش، وكل من يخالفهم متهم، هو وأمه وأبوه، وجده الذي مات في طوفان نوح، ومن يلوذ به، فليس لهم نافع، ولا شافع ولا دافع.

الدين ينفي الهوى والمصلحة، ويرفع المؤمن عن حوله من الناس،

ويشعره إن الله رفعه، فيعتز بذلك، وإذا زلّت قدمه، شعر بالتقصير والخجل، ويشعره الدين بأنه حر الإرادة ولكنه تحت المراقبة الشاملة لكل خطوة، لأن له قيمة، والتافه لا يراقب، وكل عمل مرتبط بخيط من خيوط الإيمان، وكل عمل ليس فيه خيط من الإيمان يهدره الإسلام، والإيمان كالأريج ينتشر بنفسه، حتى يصل الناس ويسعدهم، وإلا فهو زهر مزيف».

فالأمة التي تشعر بكيانها تشعر بواجبها، ومن واجبها أن تحرس الحق. ولا تنهض الأمة إلا بالصالحين من أبنائها، لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا، فربحوا وسعدوا، والذين اشتروا الدنيا بالآخرة وقعوا في الخسارة والشقاوة. وكأن الدنيا متجراً والناس فيها يتجرون، ومعظمهم خاسر إلا من تمسك بالعروة الوثقى!

والعالم كله في خسران لأنه فقد القيادة الخيرية، وأبعد الأمة الإسلامية عن منهجها، وهي خير أمة من خلال تجربة أربعة عشر قرناً، ويعلل أبو الحسن الندوي فكرة نجاح الزعامة الإسلامية للعالم، بأنها عزلت قيادات السوء عن قيادة الأمة، ولم تكن القيادة عندهم مغنماً، بل مغرمأ وأمانة، ولم تكن القيادة محاصصة في جنس دون الآخر.^(١)

وعند الشيخ محيي الدين، مفردة «التواصي» بالحق والصبر، هي النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ولكنه تألق وتأنق عندما عصر مزن السماء، واستحلب منها هذه الرؤى:

النصيحة لله: يشفع المؤمن لأخيه الإنسان، والمؤمن يؤلف بين العبد المذنب وربّه، بقوله: يا من لا تنفعك طاعة الطائعين، ولا تضرّك معصية العاصين، يا من

(١) اقتباس بعض الأفكار من الظلال للسيد قطب، بتصرف.

تحضنا على الصفح والكرم والعفو، وأنت الأولى بذلك، أنت تصفح وتعفو عن عبدك فلان.

والنصيحة لرسوله: الإنسان ابن الغفلات، فسبحان الذي لا يسهو ولا ينسى، فسها النبي بصلاته ونبهه الناس، وسجد للسهو، وأمره أن يشاور الناس، فيما ليس فيه نص، ولقد شاورهم يوم بدر، ونزل عند رأيهم، وتحولوا إلى منبع الماء وحرسوه.

والنصيحة للعلماء: فقد يصدر العالم فتوى متسرة وغير ناضجة، فتجلب الضرر على المسلمين... والنصيحة حتى لغير المسلم الذي يصنع منكراً في الشارع، فاقنعه أن يعمل منكروه في البيت، فرفع الأذى عن الناس، وإن أقنعه على تركه، حقق خيرين، وإن أقنعه بالإسلام فقد فاز فوزاً عظيماً، حتى الحيوان الضال الذي لا يعرف مكان الماء، فإن ساقه باتجاه الماء، يكون قد نصحه.

والسؤال: أيهما أقوى وأولى النصيحة أم الوصية؟ النصيحة من باب الوعظ ورفع الهمة، بينما الوصية من باب الإلزام، والله طالب الأمة « وتواصوا... » مرتين، ولا توجد مفردة واحدة بالقرآن، بهذا الوزن، تقول: « وتناصحوا »^(١)

السورة تقرر حقيقتين متلازمتين:

- الإيمان.

- العمل به.

الإيمان كالروح لا يقف منفرداً، فلا بد من جسم يمثله ويتحرك به، ويقدم ثماره للناس.

(١) مقتبسة من تفسير ابن عربي لسورة العصر بتصرف.

الإيمان المحض لا يقف وحده في الهواء الطلق، لا بد له من عريشة، يعرش عليها، ويسلطن فوقها، تكون قضبانها من العمل، والعمل الصالح حصراً. كالصلاة كلما ذكرت بالقرآن، تلتها الزكاة، لأن الصلاة عمل روحاني، والزكاة عريشة مادية تتكئ عليها.

فالصلاح العبادي والأخلاقي، لا يكفي، ويحتاج إلى قوة، وهذا رسول الله كانت عنده قوة تحميه وتحمي قيمه، فلا بد من الصلاح الحركي، والأمة دائماً بحاجة إلى ورشة صيانة، كالعشرة المبشرين بالجنة أصلحوا الناس، وكل فرد في موقعه، عامل صيانة صالح ومصلح، وقابل للإصلاح والصيانة.

والنجاة لها جناحان: الإيمان والعمل الصالح ويأتي دور التواصي بالحق، الذي يمثل ورشة الصيانة لهذا الكيان، والحق اسم من أسماء الله، ومادام الحق موجوداً، فإن الظلم غائب أو ضعيف، ومهما اشتدت الكربات، ومادام الخلق يتمسكون بكلمة الحق، وموقف الحق، والصبر على الحق، وقدوتنا نوح عليه السلام في الصبر على الحق ولو طال الزمن عشرة قرون.

ولو غابت كلمة الحق، ما الخلل الذي يطفح على المجتمع؟

يطفح الخبث والنفاق والغدر، ومن نتن الرائحة يتمنى أهل الحياء والحكمة والقيم الموت، وكل يكتم أنفه، لأن البيئة لا تصلح إلا الذباب الطنان الأزرق، بينما أجواء الفضلاء أجواء النحلة لا تعيش إلا في زهر الفضيلة والمكرمات.

ورواد كلمة الحق الرسل والأنبياء والبكريون والعُمريون والمهاجرون والأنصار... في كل زمان ومكان، الذين يقولونها عند سلطان جائر، مواجهةً جهاراً نهاراً، والحديث الشريف يحدد مكان الكلمة ” عند سلطان...“ وليس من بعيد عن السلطان، ويخطئ بعض الدعاة عندما يقول كلمة الحق في مدينة

الحسكة، والسultan الجائر في دمشق، فخر من وجهين:

- إذا وصلت الحاكم تصله مزورة، ومقززة، ومستنفرة له .

- أثار فتنة في المنطقة، قد يقتل بعض المسلمين، ويسجن بعضهم، ويهرب ...

فكلمة الحق مواجهة، كصدمة كهربائية لقلب محتشٍ... بعدها قد يفيق من

غروره، ويقراً ما حوله جيداً.

سورة الهمزة مكية، وآياتها تسع،
وترتيبها بالقرآن الكريم (١٠٤)
وبالتنزيل المكي (٣٢)

إنها نبوءة قرآنية تتحقق بالإعلام الهامز، اللامز، الغامز...

نبوءة قرآنية تحذر وتندر من وسائل مستجدة، ومن يملك هذه الوسائل يملك قوة تدخل في أسماع الناس تجرهم من آذانهم بالحق وبالباطل، وهذه الأدوات تجعل المرء يصبح مصدقاً بأمير ما، ويمسي كافراً به، والحق حقهم، والباطل باطلهم، قوتهم مرهوبة من خلال التفنن في صناعة الهمز واللمز، كما تقوم إستراتيجية المتصهينين في عصرنا على الإعلام الذي يجمع الأموال بصناعة الفضائح^(١)، والغاية تبرر الوسيلة، والسؤال: لمن يكون الهمز واللمز والغمز في عصرنا؟

يكون لكل من يخالفهم، ويتعرض لهم، ومنهج الإسلام من ألفه إلى يائه، يرونه ضد مصالحهم، ويعمم هذا على الداعية الكاملة الفاضل، كونه من حماة الفضيلة في الأرض، لأنهم يقفون في وجه طوفان الظلم والرذيلة، كونها المناخ المناسب لهم، تقف هذه الوسائل لتشويه صورة المناهج الربانية في الأرض، والدليل الذي لامراء فيه: أكثر ممن سُنقوا، ودُفنوا أحياءً، وعُذبوا، وطُوردوا، هم العلماء الربانيون وليس الـ (على ماء) فإن العلماء الربانيين الذين يملكون مشروعاً مجرباً واضحاً، فهم ناجحون قبل أن يبدأوا العمل به، وأما صاحب

(١) تأخذ بعض وسائل الإعلام مبالغ معينة للسكوت، حتى لا تنشر غسيل دولة ما، وتأخذ دفعة ثانية للمدح، وهناك مجلات للفضائح، يلتقطون صوراً مخزية، لفلان، أو ابنه، أو بنته، أو من العائلات الثرية... التي تخشى الفضائح، فتوضع الصورة على غلاف المجلة، وتعرض عدة نسخ من المجلة للمساومة، فيقبضون ثمن ملايين النسخ، وسعر النسخة بعشرات الدولارات على أن تحرق كل الأعداد، وفي واقع الحال: لم يطبعوا إلا بضعة نسخ للابتزاز.

الهمز واللمز لا يتعرض للناقص لأن ما فيه، وهو العيب كله.

لماذا وصف الهامز واللامز، وغيب المهموز...؟، المرض واحد، والمرضى لا يعدون.

وجاءت السورة بمفصلين:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١- ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. ۝٣﴾

٢- ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِئَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَسَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۝٩﴾

قيل معنى الهمزة واللمزة: الدفع والطعن. وقيل الهمزة: هو الذي يؤذي جليسه بلسانه، واللمزة: الذي يؤذي بعينه. وقيل: الهمزة: الذي يطعنه بحضرته، واللمزة: الذي يطعنه بغيبته...

والسورة نبوءة قرآنية تتحقق، تحذر وتندر من وسائل الإعلام الهامزة واللامزة للمسلمين.

وقد جمع القرآن على صاحبي الهمزة اللُّمزة كل الدعاء والزجر، والنبذ، والحطمة، فالزجر للغضب، والنبذ للإهانة، والحطم للنهاية الباطشة.

فبدأت السورة بالويل والثبور، بأسلوب تقيعي توبيخي تهديدي لمن انحطت قيمه، ومرضت أخلاقه، ولم يسمه القرآن، أي لم يقل: ويل لكل إنسان همزة لمزة...وهنا ذكر الصفة وغيب الموصوف وترك بعض لوازمه، لأنه لا يستحق الذكر أو الإشارة إليه، وكل هذا التهديد لمن يهمز ويلمز حملة الإيمان،

فكيف بمن يضرهم، أو يقتلهم؟ لأنهم كملت أخلاقهم ومحاسنهم، وانتشر أريج إيمانهم بين الناس ومعشر السفهاء استطابوا لحمهم.

والسؤال: لم ذكر الفاعل، ولم يذكر المفعول، ذكر الظالم، ولم يذكر المظلوم، ذكر صاحب الهمزة اللمزة، وغيب المسكين المهموز الملموز المنتقص؟

حضرت غيرة الله على هذا المهموز الملموز، لأنه بالواقع ما فيه ما يعاب منه، حرصاً عليه وتكريماً له، ولما تطلع الشمس تحتفي النجوم عن الأبصار، وهي موجودة ومتقدة.

وكان الاستهلال بتوصيف من هبطت أخلاقه بصيغ المبالغة (فُعلة) كهُمزة، لُمزة، حُطمة، أي صار يعرف بها، وتعرف به، لأنه أدمنها، نحو: فلان ضحكة دائم الضحك بسبب وبدون سبب، وتختلف صورة الهمز، واللمز، والغمز من فرد إلى آخر، حسب ما تعارفت عليه الشعوب من الشتائم، التي تثير النفس للانتقام.

والذي جمع (مالاً) أي مال وجاءت نكرة، تعددت وسائل جمع المال بالتهب والسلب وتجارة الممنوعات، وعدده ما بين إبل وغنم، واليوم ما بين عقارات وسيارات وطائرات... ويظن ظناً أنه الذي لا يقهر، والذي يريده ينفذه كقارون، فيصبح الإنسان تحت تأثير التوتر المالي العالي، يخرج على قومه في زينته، ويظن أن الحالة لن تبيد هذه أبداً، كما ظن صاحب الحديقة في سورة الكهف، ظن ثلاثة ظنون:

فأما الحديقة فلن تتغير، وظن الساعة لن تقوم، وظن إن رجع إلى ربه سيكرمه أيما إكرام لعظمته وجبروته ويظن أن ماله أخلده ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ الكهف: ٣٥ ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾

وَلَيْن رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ (الكهف: ٣٦)

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾

ما العلاقة بين الجمع بين مفردتين متباعدين، النبذ والحطمة؟

يريد أن يخبرنا إيجائياً بأن النار حامية، ولا يمكن الوصول إليها لإلقاء الأَشقياء بها، ولكن ينبذون الأَشقياء من مكان بعيد، كما يُلقى المجرمون للِسباع من شاهق. وجاءت مفردة النبذ للإهانة.

وَمَا أَدْرَبَكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾

كاف الخطاب للنبي، ولنا كلنا. ولا يمكن أن ندرك نار الحطمة أو نتصورها التي صنعها الله، وأضافها لنفسه، نار الله غير نار الناس، غير نار الأفران ونار البراكين...

نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ ﴿٦﴾

جملة اسمية معناها، هي موجودة وثابتة ودائمة، وبها خصوصيات الإبصار والتأكد من وصولها إلى كافة الأعضاء.

الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾

ومهمتها الاطلاع والتدقيق، وليس الدخول، مادامت النار جندياً من جنود الله، تحرص على العدل، لذلك تفحص وتشوف ما في الفؤاد من أمراض الهمز واللمز، والتعالى المالي، وهي متخصصة بجميع الأفئدة المريضة التي آذت المسلمين وأهانتهم، فتفتش عليها وتجمعها وتحطمها، لماذا التحطيم بالذات دون غيره من العذاب؟ لأنهم كانوا يقصدون بهمزهم ولمزهم أمرين، الأول: تحطيم

معنويات المسلمين الجدد، والآخر: كي يتباعد الناس عن الدخول في الإسلام، من كثرة الويل والسخرية التي تصب على من أسلموا. وكان همهم أن يصدوا الأبواب في وجه المسلمين الجدد.

أوصدوا الأبواب في وجه الدعوة والدعاة، وأوصدوا أبواب السجن على الدعاة والمظلومين ربع وقرن وثلاث قرن...^(١)

إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٨﴾

فأوصد الله عليهم أبواب جهنم جزاءً وفاقاً، لما فعلوه بمحاربة الرسل والأنبياء والدعاة، والتنكيل بالدعاة. فأوصد عليهم باب جهنم للتأييد، وقطع الأمل.

فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ ﴿٩﴾

الأبواب المؤصدة تكسر إن كان مزلاجها ضعيفاً، أو قفلها رقيقاً، ولكن في "الحطمة" ما كان القفل عموداً واحداً، بل هي أعمدة كثيرة وكبيرة ومن صنع الله، لنار الله، هذا التصوير لتقنياتهم من الخروج.

هذه السورة تقدم نموذجين من البشر:

أحدهما: استعز بهاله وسلطانه وصار مصنعاً للأذى من صغيره إلى كبيره، ويصدره للجميع، بدءاً من الهمز واللمز إلى تحطيم كرام الناس...

(١) خرج أحد الذين سجنوا ثلاث قرن على قناة فضائية، يقول: أصابهم مرض جلدي ونقلوهم إلى مشفى تشرين بدمشق وعددهم ثمان وعشرون، والغرفة ٣×٢ م، وكل ساعتين ينام نصفهم والباقي يقف، وكل ٢٤ ساعة حمام ٥ دقائق، فجاءهم جهنمي جديد عفس ورفس... ثم أمرهم بالتعري، وبعدها أمرهم بعمل قوم لوط، انتحبوا بالبكاء، فغير عقوبته، فكومهم كالقش وصعد عليهم وبدأ يتبول ويشرش بولته عليهم جميعاً، وانصرف، فقال لهم أحدهم: اسجدوا جميعاً وادعوا عليه جميعاً، ففعلوا، وسمعوا طلقة نارية، فجاء من يخبرهم همساً، لقد أخرج مسدسه، ووضع برأسه وفطس!! إن ربك لبلمرصاد!!

وفي عصرنا تبدأ صناعة الأذى من الحرب الإعلامية التي تقوم بالهمز واللمز، إلى تحطيم خير أمة أخرجت للناس بكافة الأسلحة التدميرية والممنوعة دولياً، تستخدم بفلسطين، والعراق، وأفغانستان وسورية....

والآخر: على المؤمن أن يستعد للصبر ولصنوف الأذى بدءاً من الهمز واللمز إلى قتال العدو، ولا يتمناه إلا إذا فرض عليه فرضاً. وكأنه يقول الله للمؤمنين:

أن الهمز واللمز أولى درجات الامتحان. أتصبرون!؟

السورة تبدأ بتهديد جنس معين من الناس، مريض بمرضين: أما الأول: أخلاقه هابطة إلى درجة الإسفاف، وأما الآخر: اختل توازنه بسبب كثرة ماله، وهذا الجنس يتكرر عبر الأزمنة والأمكنة، ونحن لا نرى إلا الذي أمامنا، ولكن الله أحصاهم عدداً، ويجمعهم كمداً، ولا يغادر منهم أحداً، ويحطمهم بدداً، والتوبيخ منصب على مفرد أينما كان مكانه أو موقعه أو زمانه: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ. ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. ﴿٣﴾ ولكنهم في يوم ما، سيجمعون، ويتحطمون دفعةً واحدة، وسيستمر عذابهم ولا فرج لهم بالخروج، لأن أبواب جهنم أوصدت عليهم، ولقد نبذوا ونبذت معهم المفاتيح عندما نبذوا في الحطمة، ونسيهم البواب.

سورة الفيل مكية، وآياتها خمس،

وترتيبها بالقرآن (١٠٥)

وبالتنزيل المكي (١٩)

ومن منن الله على العرب من دون خلق الله، بأنه جعلهم جيران بيوته الثلاثة في مكة المكرمة، والقدس الشريف، والمدينة المنورة، وأسأل الله ألا يقلعهم من هذه الأمكنة، وأسأله تعالى ألا يقلع العرب أنفسهم بأنفسهم من هذه الأماكن، كما فعلوا في الأندلس، فأهانوا شعائر الله، فهانوا على الله، فبدأوا يدعونه، فلا يستجيب لأحد منهم!!

توحي السورة بتعهد من الله بحفظ الدين وشعائره كالمساجد والعلماء أيضاً، وتبقى الكعبة أم الشعائر الإسلامية ومن يردّها بالحادٍ بظلم نذقه من عذاب أليم، وستكون نهايته كالعصف المأكول. وفي قصة الفيل جمع بين الإخبار، والتنفيذ.

وعندما تعهد الله بحفظ القرآن الكريم «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» أي تعهد بدوام الإسلام. ولم يقل: وإنا للمسلمين لحافظون، وكانت تدار هذه المعركة من غرفة العمليات بالملا الأعلى في السماء وجاءت المعركة بين الفيل وهو كبير حيوانات والأرض، وبين طير نادر من صغار طيور السماء تقديراً وتدبيراً، فأوحى الله لجنوده أمراً، والكل يعي، ويسمع، وينفذ، أمر الله: الفيل يبرك، والطيور يجلب الذخيرة، أو يستخدم الحجارة الذكية (جو - أرض) وكل جندي يعرف كيف يتلقى الوحي الخاص به، ويعرف الدور الذي يطلب منه، ولا يتعداه؟.

وتبقى الكعبة هي كنز ثمين، وسر دفين، وهذه أول غزوة صليبية تريد بيت الله، الذي تولى القدر حراسته، ريثما يولد الإسلام، ويقوم المسلمون عندها

يتولون الدفاع عنه. ومن ثمار الغزوة أن رفع الناس رؤوسهم نحو السماء، يتدبرون أن في السماء إلهاً، وفي الأرض قبلة القلوب والجباه، فكانت أول دعوة للتوحيد، وأول إرهابٍ للنبوّة، وأول غزوة صليبية.

الفيل جندي يرفض أمر ملك جبار، فلم يهدم حجراً، فكيف بشر لا يرفض أمراً فيه القتل ظلماً؟

فكيف بالإنسان الذي غزا، ونهب، وسلب ظلماً وعدواناً؟ وكيف بالمسلم الذي ينتسب للقوى الأمنية، أو الجيوش العسكرية، وهو يصوم، ويصلي، وينفذ أمر القتل بقوم لأنهم يصومون ويصلون؟.

وهذا نموذج ثالث: سائق التركس الصهيوني الذي يقلع الأشجار، ويهدم البيوت في فلسطين المحتلة، عربي مسلم فإذا سمع الأذان نزل عن الآلية وصلى فرض الظهر مع السنة القبلية والبعديّة، وسبح وحمد وكبر ٣٣، وإذا سئل عن هذا التدمير، يقول: عبد مأمور!!^(١)

ليته يفقه، ما فقه الفيل!!

جنود الله جاءت من الغيب، وذهبت إلى الغيب، فأين الأبايل؟ وأين الأحجار الذكيّة؟

غزوة الفيل أول غزوة صليبية تريد بيت الله، إنذار مبكر، لمن يفكر.

(١) عندما تخلى العرب والمسلمون عنهم وهم من أغنى الناس وأقوى الناس، وتركوهم لعدة أعداء: الصهيونية، والفقر، والجهل... وصوت المعدة أقوى من صوت الضمير، من الملام حقاً؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ
مَّاكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾

شعائر الله تحت الحراسة المشددة، وكل من يريد لها، نهايته محتومه، سيكون
كالعصف المأكول.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ...

هذا الاستهلال فيه التعجب والتقرير والتذكير لمن سبق له علم بالنبأ، وله
وجه آخر لمن لا يعلم، ويراد إعلامه، ويخاطب بأسلوب من يعرف، من أجل
المبالغة والشهرة، أو لعل الله أطلع نبيه على الحادث مناماً، أو أي خصوصية من
خصوصيات النبوة!!

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ - أَلَمْ يَجْعَلْ - وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ - فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ ...

ولماذا أسند النص أمور المعركة كلها لله، وحده المدبر، والمخطط، والمرسل،
وفيها من التهديد الخطير لكل من تمت يده إلى شعائر الله، في النهاية يتحول إلى
مخلفات كعصف الدواب، حتى لا يستطيع صاحبه ومجبه أن يقف عليه، إلا وقد
سد منخره، وولى، ولم يعقب!

والسؤال: هل هذه الحراسة محدودة الزمان والمكان؟ لا... مطلقة، والدليل
في القرن الأخير كثرت الزعامات والأحزاب الملاحدية، وأول شيء في جدول
أعمالهم:

يؤذون الله ورسوله وكل نسيج موصول بهما، وبعد ربع أو ثلث أو نصف قرن من الحكم، ولا يسألون عما يفعلون، ما قدموا إلا المخازي، وهذه آثارهم كالعصف المأكول، لن تصلح لشيء.

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم هذه الغزوة بقوله يوم بركت ناقته القصواء في الحديبية غربي مكة عشرين (كم)، فقالوا: خلأت القصواء - حرنت - فكشف لهم النبي ﷺ عن السر الذي أوقف الناقة عن المسير تجاه مكة، فقال: ما خلأت وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل" (١)

وفي يوم فتح مكة سلط الله رسوله والمؤمنين على المشركين ليقلع الشرك من العاصمة المقدسة، وأذن لهم بدخولها، وهو اليوم الأول والأخير، فقال رسول الله: "إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب" (٢)

ودليل آخر: إقرار قريش للغزوة ومن حولها من القبائل، ممن يتصيدون على الدعوة أي شيء ليشهروا بها، وهذه فرصتهم عندما نزلت سورة الفيل، ولكنهم، لزموا الصمت، كونها حقيقة ومن مسلماتهم، ومعظمهم عاصروها، أو رأوا من شاهدها.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾

بدأت السورة باستفهام تقريرية تعجبي، ألم تر وتسمع من قومك يا محمد، ماذا فعل ربك؟ وكأن الله رب محمد وحده، إنها متطلبات الدعوة آنذاك، ليشد عزمه، ويغيظ عدوه، لأن الحمل ثقيل، والعدو شرس، والمشوار طويل، والنتيجة

(١) أخرجه البخاري.

(٢) رواه الشيخان.

محسومة لصالح رسول الله. ووصفهم بأصحاب الفيل ومكمن العبرة، ماذا فعل ربك؟ ربي يفعل الخير!!

من أين جيء بإبرهة، والفيل، والطير، والحجر؟ وأين ذهبوا؟ جاءوا من الغيب، وذهبوا إلى الغيب.

أسند المعركة والمواجهة له سبحانه وتعالى، وكانت المعركة تدار من السماء، فجيء بالفيل من خارج بلاد العرب لأن له رسالة، حتى وصل مكة، وجيء بإبرهة يريد الكعبة، وكف الله أيدي العرب عن هذه المعركة، ونامت سيوفهم في غمدها، حتى لا تكون لهم منة على الكعبة، وتولت جنود الله المهمة، حتى تكون معركة ربانية، إدارة، وتدبيراً، وجنوداً.

والفيل رمزية الغازي الضخم القادم من بعيد وللفت نظر العرب لأنه غريب عن البيئة، وإبرهة رمزية الغازي الصليبي للإسلام والقادم من بعيد، والطير رمزية حماية الله لشعائر الله والقادم من بعيد، وكل ذلك تحقق، ويتحقق.

أرأيت! كيف دبروا، ودبرنا؟ ومكروا ومكرنا؟ وكادوا، وكدنا؟

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾

لقد رأيت، وسمعت يا محمد! كيف دبروا، ودبرنا؟ ومكروا ومكرنا؟ وكادوا، وكدنا؟ فضل تدبيرهم ومكرهم وكيدهم.

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾

وسياق النص: وأرسلت عليهم طيراً أبابيل أي حسب الهجوم ما بين أبابيل مجتمعين ومتفرقين.... فعدل بالخطاب من المتكلم إلى الماضي الغائب، فقال: وأرسل ليس الآن.... وربما أمر الإرسال كان منذ أن خلق الله السموات

والأرض، وجاءهم من حيث لا يحتسبون!

ولله جنود السموات والأرض. ولكن لماذا كان الطير محارباً؟

ما كان خسفاً أو زلزالاً أو ناراً؟... حرمة للبيت ليبقى آمناً هو ومن حوله، وأما الزلزال والخسف يبقى محلياً، يفقد قيمته كونه يتكرر، ومحدود الرؤية والشهود، والله يريد خبراً عالمياً نادراً ولا يتكرر حتى يهز ثوابت الكفر والشرك في العالم، ويراه أكبر عدد من الناس سواء كانوا في الوادي أو الجبل أو البادية، فكان الطير الغريب العجيب^(١) كغربة الفيل، كلاهما من خارج البيئة للفت النظر، ويقوم الطير بهذه المهمة الإعلامية والعسكرية.

تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾

لو قال: رمتهم... فقد انتهى الرمي، ولكن ترميهم: فعل مضارع يعني الاستمرار، وفي هذا بشارة وتهديد مستمر لمن تسول له نفسه أن يهاجم الكعبة. وكلمة (ترميهم) هدف خاص مسدد وكل حجرة مأمورة أن تذهب، وتصيب هدفها، مسألة خاصة جداً، بينما قد سبق وسقطت حجارة من سجيل كعقوبة عامة على قوم لوط، قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾^(٢)

(١) يتناقل الناس خبر هذا الطير شفوياً وبدون توثيق، فلا ندرى كان آيةً ربانية وانتهت مهمته، وعاد إلى الغيب من حيث أتى؟ أو أن هناك طيراً أسود قريب من السنونو، وأكبر منه قليلاً كامل السواد وميزته بلا أرجل وبلا سيقان، لذلك لا ينزل على الأرض ولا يقف على شجر، ويعيش على البعوض والبعاث في الجو، ويشرب غرماً وخطفاً من السواقي والبرك الطويلة حتى تنجح معه عملية الموازة مع سطح الماء بضعة أمتار، ويكرر ذلك، وينام في جحور الأبنية العتيقة وشقوق الجبال، فيهبط على صدره وله بقية باقية من الأرجل المشوهة وكأنها محروقة، وعندما يخرج من الغار على صدره وبدفع من بقية بأرجله وبدفع من جناحيه، فيهوي، فتحمله الريح، ويكثر فوق المدن الكبيرة، وفوق الحرم المكي، ويتناقل الناس شفوياً: إن هذا من الطير الأبايل، أو أنهم حكموا عليه من رجليه المحروقة من حمل الأحجار السجيلية، وتركه الله عبرة!! ولا يوجد خبر موثق!!

(٢) سورة هود: ٨٢.

أمطر على القرية أو الجماعة الشاذة أحجاراً مرقمةً معلمةً لأهدافٍ عامةٍ.

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

فجعلهم: أي أسند الله الفعل له، وجعل: من أفعال التحويل والتصيير، كانوا شيئاً، وصاروا شيئاً آخر، كالحنطة نجعلها طحيناً ثم عجينةً ثم خبزاً... وجعلهم كلهم، الراكب والمركوب وسلاحهم، ولم يستثن شيئاً منهم، وهناك من يقول بلا دليل: بقي إبرهة حياً.. حتى يحدث قومه... فجعلهم كمخلفات الدواب من باب الإهانة.

فقه السورة وما ترشد إليه:

غزوة الفيل للكعبة فاضت بها كتب التاريخ والتفسير ووافقت العام الذي ولد به النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه أول بركة من بركات النبي ﷺ على وادٍ غير ذي زرع وعلى العرب وعلى الكعبة.

وملخصها:

ملك اليمن الموالي للحبشة، بنى كنيسة في صنعاء وأمر الناس أن يحجوا إليها بدل الكعبة، فثارت النخوة العربية للبيت المعمور، فدخل أحد العرب الكنيسة، ولوثها بالنجاسة، فأراد (إبرهة) ملك اليمن الموالي للحبشة أن ينتقم لمشروعه من العرب، أن يهدم (الكعبة) فجاءها بجيش لا قبل للعرب به متفرقين، وقامت عدة قبائل متفرقة لإيقاف هذا الغازي، ففروا من وجهه، وأسر من أسر من زعمائهم، وبين مكة والطائف فنهبوا الأنعام في طريقهم، فذهب عبد المطلب جد رسول الله، يسترد إبله، فلما رآه إبرهة تهيبه، وقال لعبد المطلب جد رسول الله ما تريد؟ قال: إيلي.

إبرهة: لماذا لا تكلمني بشأن الكعبة؟

قال: أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً يحميه.

قال إبرهة: ما كان ليمتنع مني.

قال له جد رسول الله: أنت وذاك!

فأمر عبد المطلب قريشاً أن تخرج من مكة إلى الجبال، ثم قام وأخذ بحلقة

باب الكعبة، وهو يقول:

لا هُمَّ إِنَّ الْعَبْدَ يَم
نَعُ رَحْلَهُ فَا مَنَعُ حَلَالِكَ
لا يَغْلِبَنَّ صَليُّهُمْ
وَمِحَاهُمْ عَدُوًّا مِحَالِكَ
إِنْ يَدْخُلُوا الْبَلَدَ الْحَرَا
مَ فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ

وبعدها تابع إبرهة سيره إلى وادي المُحَسَّر (ما بين المزدلفة - ومنى) وسُمي المحسر، لانحسار الفيل فيه، أي برك الفيل، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وأمطرهم بحجارة من سجيل، كانت ترميهم بها أسراب من الطيور متلاحقة، وهي بداية لسلاح جديد (صواريخ جو، أرض) وتناثر إبرهة وجيشه في أرض المعركة، كما تتناثر الحشائش المأكولة في مريض الأنعام، مأكولة ومداسة ومهانة.

والعبر المستفادة من هذه القصة كثيرة، ومنها:

وإن في هذا الكون أسرار منها عرفناه أخيراً، ومنها ما لا نعرفه، وما وقع لإبرهة مما لا نعرفه، كونه فوق الطاقة البشرية: البيت سر، والطير سر، والمعركة سر! والحجر سر! فالذين يبررون كل شيء بالعقلانية، ويريدون أن يقدموا الأعداء الإسلام كل إعجاز وخارق جاء ذكره بالقرآن أو السنة مبرراً عقلاً، يتكفون أمراً قسراً، كمن برروا الحجارة السجيلية، كانت تحمل معها مرض الجدري.

ديننا قسم منه غيبي، كالإيمان بالله وباليوم الآخر ومابه من جنة ونار....
بماذا يبرر؟

وديننا الإيمان المطلق، بالقدرة المطلقة!!

وبعد الحادث صرف الله عقول وقلوب وأبصار سكان الجزيرة العربية،
وممن حولها من الأمم نحو السماء التي كانت مسرحاً للطير وحجارتها، فقوي
إيمان الناس بعظمة الكعبة وبوجود الله ووحدانيته.

ووافق الحادث ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن الناس لا يعلمون،
سببعته الله بعد أربعين سنة، وبدأ القدر يهيئ الناس كل الناس له، وتكون المدة
للبعثة كافية لنشر الخبر بين الناس في الكرة الأرضية، وتكون القلوب والعقول
جاهزة، لقبول الدعوة، والدفاع عنها، بدأ الله يهيئ الكون لميلاد الدعوة، كما هو
الحال مع لبن الأم الوالدة، من لحظة علق الحمل يبدأ جهاز الحليب بالاستعداد
ليوم الميلاد، حتى يتوافق خروج المولود من أمه، واللبن من الحلمة لبناً سائغاً.

وجاءت السورة للتذكير وليس للإخبار عن قصة وقعت في التاريخ، لأن
معظمهم عاصرها، وتقرأ القصة من وجهين:

استنهاض همة رسول الله ﷺ وأصحابه والدعاة من بعده: إن الله بالغ
أمره، وحامي دينه، وحامي رسوله، لذلك يأمره أمراً: ”فقاتل في سبيل الله، ولا
تكلف إلا نفسك“ ٤:٨٤. والنتيجة مضمونة.

وهي رسالة مفتوحة من السماء إلى سكان الأرض، وإلى كل دابة صغيرة
أو كبيرة كالفيلة، إن الله سيحطم كل جبار يريد الإسلام، من حيث لا يحتسب،
فما كان يظن إبرة إن الله رصد له طيراً صغيراً وحجراً أصغر، والله جنود السموات
والأرض، وهذا لكل جبار ممن يريد أن يحطم شعائر الله، ودين الله، ومنهج الله،

وأهل الله. وما زال الواقع يشهد على ذلك ويتكرر التحطيم في زماننا، ولقد حطم الله الاتحاد السوفيتي بكل ما فيه، ومن فيه، وعنده أعداد هائلة من القنابل النووية والصواريخ العابرة للقارات والجيوش بالملايين، ولم يطلق طلقة واحدة، مزق الله ملكه، في ثمانينيات القرن العشرين على أيدي قلة من الأبايل الأفغان، وما دار في ظنه وخَلده يوماً، أنه ستكون نهايته على يد عصابات من البدو، أو تيوس الجبل كما يسميهم الغرب، وقد تحطمت القوة التي لا تقهر، وبعدها جاء دور أمريكا وهي أقوى أمة مشت على المعمورة، فدمرها اقتصادياً على أيدي أبايل في العراق، وأفغانستان.... فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا. وهي منة يمنها الله على جيران البيت الحرام، ليشكروه ويعبدوه، ولا يكفروه.

ووجه آخر: تحذير وإنذار مقدم لأهل مكة، عليكم تفرقوا بين حرمة البشر وحرمة الحجر، وحرمة رسول الله ﷺ أعظم من حرمة البيت.

ووجه ثالث: بشارة لرسول الله ﷺ حفظنا الحجر ولم نضيعه، فكيف نضيعك وأصحابك ومهما كان العدد قليلاً، والعدد ضعيفاً.

أبو رغال أول عميل يعمل لصالح العدو، وكل عمالة للأجنبي رمزها أبو رغال، وما أدراك ما أبو رغال؟

أول من تجسس على قومه، وجاء على ظهر الفيلة التي تريد الكعبة كعميل مأجور، دلّ إبرهة وجيشه على الطريق من اليمن مروراً بالطائف إلى مكة، فمات بالطريق.

والعبرة في رمزية أبي رغال في زماننا، تعددت، وتشكلت، وتلونت، والخيانة واحدة، وفي الساحة كثيرون ممن يخدمون العدو، ويدلونه على مقاتل أمتهم!

وتشاءمت العرب منه، وصار مثلاً يطلق على كل من يغدر بأهله، أو قومه، أو بلده. ومن أبتلي بأمثال أبي رغال من أهل (بغداد) في ٦٥٦ هـ بالعلقي، وبعد عام ١٤١٣ هـ، امتلأت مزابل بغداد ودمشق وفلسطين بألف، ألف أبي رغال... وكانت العرب إذا مرت بقبره بين الطائف ومكة ترجمه وسمي «صاحب القبر المرجوم»^(١)

وهذه بشارة لطيفة: للسيد في ظلاله حول سورة الفيل: إن الحرم المكي هدف للقوى الطامعة فينا، من الصهيونية والغرب عامة، فمادام حفظ الله بيته من طمع إبرهة، وحفظ قريش ببركة البيت مع العلم أن معظمهم مشرك وأصنامهم حول البيت، فسيحفظه الله من الصهيونية والغرب، لأن المسلمين موحدون، وإن كانوا مقصرين.

ولقد سُئل أحد العلماء المعاصرين بدمشق من دبلوماسي سوفيتي، جذوره إسلاميه، كيف تكرم البقرة في أول كتابكم المقدس؟ فأجابه: لأنها منتجة لها أكبر سورة، بينما الفيل ضعيف الانتاج فله كلمات معدودة وفي آخر القرآن، وفلسفتكم تقوم على الإنتاج، فأفحمه.

(١) ينقل الدكتور عبد الله النفيسة عن رئيس الاستخبارات الإسرائيلي قوله: لولا المخبر الفلسطيني، لم نستطع على الإسلاميين.

وأعقب على د. النفيسة: ولولا المخبر البعثي السني، ما وصلت العراق وسورية إلى ماوصلت إليه من الدمار والحراب والإبادة على مدى نصف قرن على يد العلمانيين والرافضة....

سورة قريش مكية، وآياتها أربع،
وترتيبها بالقرآن (١٠٦)
وبالتنزيل المكي (٢٩)

أكرم الله قبيلة قريش بأمر، منها:

— جيرة البيت المعمور.

— وأفرد لها سورة باسمها، وذكرها قرآناً منه وتفضلاً.

— واختار خاتم رسله وسيد المرسلين منها.

وهي القبيلة الوحيدة في القرآن، للجوار من جهة، ولخدمتهم للبيت وزواره، كونهم كانوا يطعمون، ويسقون، ويخدمون، ويشرفون بهذه الخدمة مجاناً، بل ويقتتلون أحياناً، وتقع منهم ضحايا من أجل خدمة البيت وحجابه، بينما الحاج في زماننا حولته شركات السياحة إلى بقرة حلوب.

ومن منن الله على العرب أن ارتضاهم يسكنون جوار بيوته الثلاثة الثابتة التي تشد إليها الرحال في مكة والمدينة والقدس...

وتبقى مكة المكرمة : كرم نفاسة، وكرم ندره، وكرم قداسة... وكل ما فيها لله، وهي أول فندق يضمن لنزلائه الإطعام والأمن والأمان، وعلى مذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه والإمام مالك رضي الله عنه كراهية إكراء السكن بمكة، ورأى عمر رضي الله عنه واحداً سور بيته بمكة وجعل له باباً، فأمر بكسره وحرقه، لأنه حجز مكاناً وخصصه له من دون الأمة، وهذا المكان للأمة على الشيوخ، وبقية الجمهور يرى لا بد من أخذ الأجرة لتدوم الخدمة وتحسن بما يليق مع الزمن، وميزة نزلاء مكة من أصحاب الأخلاق العالية والنفوس الصافية،

وأولهم الأنبياء عليه السلام وأصحابهم وأتباعهم من الحجاج والمعتمرين... والجوع والخوف لا يقربان مكة ولا يحومان حولها، لأن الله تفضل عليهم بنعمة الإطعام، وجلب الأرزاق منذ دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

فهي مركز الأمن الحسي والنفسي وبها أول معرض للكلمة القيمة التي تمجد الأخلاق الحميدة والخصال المجيدة ومركز الثقافة العالية للشعراء والحكماء وسوق عكاظ شاهد على ذلك، ووفود الحجاج والمعتمرين من الأنبياء صلى الله عليه وسلم والصحابة والصالحين، حتى المجرم يتهدب، ويتأدب في منطقة الحرم، كونها مهبط الرحمات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ ۝١﴾ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴿

وَقَالَ وَائِلَةٌ بِنِ الْأَسْقَعِ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ. رواه الشيخان. وعن أم هانئ بنت أبي طالب؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ”فضل الله قريشا بسبع خلال: أي منهم وأن النبوة فيهم، والحجابه، والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل، وأنهم عبدوا الله، عز وجل، عشر سنين لا يعبده غيرهم، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن“ ثم تلاها رسول الله: بسم الله الرحمن الرحيم ” لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف“ (١).

(١) ورواه البيهقي في مناقب الشافعي (١/٣٤) وهو في المستدرک (٢/٥٣٦) وقال الحاكم: ”صحيح الإسناد ولم يخرجاه“، وتعبه الذهبي فقال: ”فيه يعقوب بن محمد الزهري ضعيف، وإبراهيم صاحب مناكير هذا أنكرها“ وقد حسن الحافظ العراقي هذا الحديث. وللشيخ ناصر الدين الألباني مبحث حول هذا الحديث في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٤٤) ذهب إلى تحسينه، والله أعلم.

كانوا آمنين في أسفارهم لأن الناس تعظمهم لجيرة البيت، ومن عاشرهم من الناس كان آمناً على نفسه وماله. ومن منن الله تعالى عليهم: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَكَمًا عَامِنًا وَيُخَاطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ العنكبوت: ٦٧، ومن مستلزمات النعمة الشكر عليها، قوله تعالى يحذرهم من الشرك: ”فليعبدوا رب هذا البيت « وحده، وهذا أمر للنبي بعبادة ربه وحده، وأمر آخر أن يكون من المسلمين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَكَذَا بَلَدَةَ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ النمل: ٩١، وللقشيري: ”ووجه المنّة في الإطعام والأمان هو أن يتفرّغوا إلى عبادة الله؛ فإنّ مَنْ لم يكن مكفياً الأمور لا يتفرّغ إلى الطاعة، ولا تساعده القوة ولا القلب“ قريش تصغير (قرش) اسم حوت في البحر سيمت بها قريش لأنها تأكل ولا تُؤكل وتعلو ولا تُعلّى، وقال الشاعر:

قريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشا

ومن منن الله عليهم تعظيم الناس لهم، فلو هدم إبرهة الكعبة هدمت مكانت قريش، وتوقفوا عن رحلتي الشتاء والصيف، وتبخرت الإلفة التجارية. ومن منن الله عليهم لو هدمت الكعبة توقف الحجاج والزوار والتجار الذين يجلبون الرزق لوادٍ غير ذي زرع.

ومن منن الله عليهم بعد هلاك إبرهة زاد تعظيم الناس، وتهيبتهم الجبابة إلى الأبد، وهذا رصيد أمني مستقبلي لهم. ولما جاء الحجاج بن يوسف ما كانت الكعبة هدفه، وإن هدمها، بل يريد ابن الزبير.

سورة (حقوق الجوار) بعد أن أكرم الله جيران بيته، أمرنا باكرام جوارنا، تخلقاً بأخلاقه. وكيفية حقوق الجوار، أرجح من كفة معتقداتهم وأخلاقهم، لأنها

حقوق ملزمة. وليست معلمة.

وميزة قريش تخدم وتطعم وتسقي مجاناً، بينما اليوم الحاج بقرة حلوب..
وسياق الكلام عند ابن عاشور: فليعبد القرشيون رب هذا البيت الذي أطعمهم
من جوع وآمنهم من خوف عندما ألفت قريش رحلة الشتاء والصيف. بتصرف.

أي عز هذا يا قريش!

أي مجد؟ أي فخر؟ والقرآن لا يذكر إلا من يستحق الذكر!

ولهذا التميز القرشي عطاءات، منها:

قريش جيران بيت الله الحرام، وكانوا يكرمون الحجاج وبدون مقابل،
وزادوا على ذلك أنهم اقتتلوا مرات ومرات، وفي كل مرة يموت من يموت،
ويجرح من يجرح، من أجل خدمة الحجاج، والإطعام، والسقاية، وتسمى:
الحجابه، والسقاية، والرفادة... فمن باب العدل الإلهي، أن يخلد لهم هذا الاسم.

الاسم الخالد (قريش) ثروة لا تنضب، وعز لا يداني، فلو فكرت بعض
الفرق الضالة، أو أحد الغزاة أن يمحوهم من الأرض، سيتذكر أنهم موجودون
في القرآن، ولو فكر أن يؤخرهم للصفوف الخلفية، سيعترف بأن الله قدمهم
وثبتهم في الصف الأول.

و حجاج زماننا في القرن الخامس عشر هم ضحايا بعض شركات السياحة
لأنها لا تنفذ ما يتفق عليه، ويذبحونهم ذبحاً أحياناً غير شرعي بدون تسمية وبلا
وضوء، من أول خطوة يسيل دمهم إلى آخر خطوة.

والجار قبل الدار، إن الله يصطفي من يشاء من خلقه لجيرة بيته، وجعل
العرب جيران مساجده الثلاثة: الحرام، والمدينة، والأقصى. هو عرفهم قبل

أن يعرفوه، واختارهم قبل أن يختاروه، لن يضيعهم بعد أن عرفوه، وأحبوه، وسجدوا له، وتكفيهم أنهم لم يسجدوا لغيره بعد أن عرفوه.

إن الله يكرم جيران بيته، ثم يأمرنا أن نتخلق بأخلاقه، ونكرم جيراننا، كما هو الحال في الصفح والعفو والمسامحة، هو يصفح عنا، ويعفو، ويغفر... بعدها يطالبنا بالعفو والصفح عن بعضنا...

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢

وقد خص الله قريشاً من دون خلق الله في ذلك الزمن، ألفت الزمان والمكان والطريق من الشام إلى اليمن، وفي الحر والقر، قرون عديدة ويحمل واحد منهم روحه وماله ولا يخاف إلا الله والذئب، على نفسه وماله في السفر، وعلى عياله وأمواله الذين خلفهم من بعده وراء ظهره، في زمن تموت الناس من الجوع، وتخطف اللقمة من الفم.

والله يمن عليهم بقوله: "أطعمهم من جوع" من وسط الجوع المحكم والذي لا فكاك منه ماداموا في وادٍ غير زرع، فهو غير ذي ماء، فهو غير ذي حياة! ثم يمن عليهم مرة أخرى: "وآمنهم من خوف" أي من وسط الخوف، خوف الجوع، وخوف الجائعين الذين يغيرون على الناس.

لقد منّ الله عليهم بالمهابة وهابهم الناس كونهم جيرة الحرم، ومشيت معهم هذه الهيبة تحرسهم وتمشي معهم أينما يمشون من اليمن إلى الشام. وقد ألهم الله امرأة فرعون أن تطلب الجار قبل الدار، كما في التنزيل: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ التحريم: ١١. فيانعم جيرة الحرمين! ويانعم جيرة الصالحين!

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٢﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

اسم الإشارة: (هذا) البيت، صرف أنظارهم وقلوبهم نحو هذا البيت، وبركته أكلوا، وشربوا، وطربوا، وأمنوا في زمن جاعت به الناس، وخافت، وقل في الآمن المطمئن، وسماه بيتاً من اللحظة الأولى، وبعدها كلما ترقّت البشرية، كشف الغطاء عن سر من أسراره فقيل البيت الحرام، ثم قيل الكعبة البيت الحرام، ثم قيل المسجد الحرام...

ويرصد القرآن العظيم كيف تطور التوصيف للبيت الحرام:

- إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً“٣: ٩٦. ماكان على وجه الأرض غيره، و«وضع» تدل على أنه وضع دفعة واحدة، كما تضع الأنثى مولودها دفعة. وليس مجزأً.
- «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ...» الحج: ٢٦. بعد أن كان مطموراً.
- «وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ..» البقرة: ١٢٧. الأساس موجود، وإبراهيم رفع القواعد...يفيد أن البيت لم يتزحزح عن مكانه الأصلي.
- « جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ » المائدة: ٩٧. بدأ يتطور التقديس (كعبة - حرام - قياماً) إضافات جديدة على البيت.
- « وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » آل عمران: ٩٧. والله على المسلمين فقط حج البيت، لأن أهل الكتاب لم يفرض عليهم حج.
- «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ» الإسراء: ١. تغير اسمه ووظيفته ببركة زيارة النبي ﷺ له،

وبنفس الليلة فرضت الصلاة على المسلمين وفي المساجد.

ليس الأعجوبة أن ترى زهرة وسط الحديقة، ولكن تراها وسط الجحيم.

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

الذي أطعم يوسف وموسى -عليهما الصلاة والسلام- أطعمهما من جوع محقق، وخوف واقع ومميت، أطعم قريشاً بهذا الوادي النائي، وكان الوادي رحم وقريشاً جنين بداخله^(١)، ورعاها الله كما يرعى الله الجنين في بطن أمه. وكما يرعى القدر قطرة البترول والأحجار الكريمة ملايين السنين في باطن الأرض، لليوم الموعود، وكذلك رعى قريشاً من أجل حمل الرسالة الخاتم.

(١) أتمنى على أبناء مكة ينظرون إلى القادمين من الآفاق وبعضهم فقير حتى العظم، فببركة دعوة إبراهيم جاءهم الضعيف لينفق من ضعفه بمكة، فلا يستقلوها (من القلة)!!

سورة الماعون مكية، وآياتها سبع،

وترتيبها بالقرآن (١٠٧)

وبالتنزيل المكي (١٧)

أيعقل دين يهتم بالماعون، ويفرد له سورة؟

سورة للحبل، والدلو، والماء، والملح، والقدر، والغطاء، والوظء...!

هذه أمور ناعمة نعومة الكريات الحمر والبيض، خطيرة خطيرة الحياة، هذه التي تبني جسم الأمة من الداخل، وهي تنتقل بين كل الأعضاء، وهذه المواعين تنقل التعاون والمودة إلى كل بيت تدخله، فالحب كخيطة المسبحة، يشد القلوب، والدلو يتدلى إلى المحتاجين في أماكنهم، وهكذا...!!

ومن أراد أن يعرف نعمة الماعون على القلوب، يذهب إلى الأحياء المستورة، الذين يتبادلون الماعون عند الحاجة، وبسببه يتساندون في الأفراح والأتراح، وكأنهم أسرة واحدة، بينما أحياء الأغنياء، صار الماعون عندهم عادة من الماضي، فالعلاقة بينهم باردة أو مجمدة، وقصورهم متجاورة، وقلوبهم متباعدة، وكأنهم عابرو سبيل، جمع بينهم المبيت، أو كسكان قبور.

الدين دم الحياة يتحرك مع الحبل والمنخل والقدم، ويزيد الذين آمنوا إيماناً، وليس الدين طقوساً في زاوية، لا ينفع، ولا يدفع، ولا يرفع... وجاءت السورة بمفصلين، الأول: فردي، والآخر: جماعي، لأن النفاق يبدأ فردياً كأى مرضٍ معدٍ، ثم ينتشر، والمجتمع المنافق تُودع منه.

الدين يحول الطاقة السلبية إلى إيجابية بدل دع الضعفاء، حصّ القادرين على إطعام المساكين والضعفاء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- ١- ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾
- ٢- ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

الدين ليس شعاراً يعلق على الجدار أو هتافاً يردد، والدين حصراً ما جاء به القرآن العظيم، والدين الذي طبقه رسول الله على نفسه ودين الذين معه، دين حياة تصل الناس، كالشذى الذي يخرج من الزهرة إلى خياشيم الناس ليسعدهم وينعشهم بلا مقابل، بينما الأديان الأخرى كثير منها عبث بها الأهواء، فصارت كالزهرة الصناعية، فيها كل شيء إلا الحياة ونفع الناس.

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ﴿١﴾

استفهام فيه استنفار للسامع، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وكأنه يقول له: هل عرفت هذا الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يظهر الصلاة والصوم ويدع اليتيم، ويتنصل من الأخوة الآدمية وقوله - عَزَّ وَجَلَّ - : (أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ... الآية).

فهو بلا رغبة في ثواب الآخرة، ولا خوف من العقاب؛ لعدم تصديقه بالحساب والعذاب. وجزاؤهم من جنس عملهم، قوله تعالى: (يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً).

هذا الذي يكذب بالدين، يكذب باليوم الآخر وما فيه من وعد ووعد، أو

يكذب بالإسلام من ألقه إلى يائه، وإن قام بمظاهر العبادات، الدين ليس شعاراً يردد في الطابور الصباحي، الدين حياة تحيي محاييح المجتمع، وما قيمة الأدوية الطبية، إذا لم ترفع الألم، أو تخفض الحرارة، وتجلب العافية.

والذي يكذب بالدين، مكذب بالمعاد والجزاء والثواب ولا يفعل الخير، ولا يشجع غيره عليه ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ ١٧ ﴿وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ الفجر: ١٨.

فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحِضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿٣﴾

ولم يطلب من صاحب الدين أن لا يدعُ اليتيم المسلم، بل كل يتيم محسوب على الإسلام، ضعفاء المجتمع أمانة في عنق الإسلام، وقد أعطى العُمران: ابن الخطاب، وابن عبد العزيز رضي الله عنهما، المحاييح من أهل الكتاب من أموال الزكاة، فهذا الذي يدع اليتيم جفت منابع الخير في جسده، ويرى المساكين والمحاييح جوعى وعنده ما يعينهم، فلا يعينهم بخبزه، ولا يعينهم بلسانه إن كان مسموع الكلمة، لقد مات الخير في شعوره وقلبه، ودفنت الكلمة الخيرية بين فكيه. والدين الحق هو الذي وجه عمر بن عبد العزيز أن يجمع الحيوانات الضالة في أماكن مخصصة لها، فالمرريض منها يعالج مع تأمين غذائها ومأواها، حتى الطيور يأمن لها الحب خارج العمران عند سقوط الثلوج، وتغطي وجه الأرض لمدد طويلة، وإلى هذا اليوم في البوسنة والهرسك واستنبول... أوقاف خيرية للطيور ترش الحبوب على الطرق المطروقة لخلوها من الثلج، وبعض القنوات تمتعت الناس بهذه الرحمة.

والإسلام رحمة للعالمين جمع عالم الإنس والجن والحيوان وليس للمسلمين، وأول ما تبدأ الرحمة بمن هم بحاجة إليها، تبدأ بالضعفاء والمحاييح، دون النظر

إلى دينهم ومعتقداتهم وشعوبهم وألوانهم، وأول ما يبدأ بالمحافظة على كرامتهم قبل المحافظة على لقمة عيشهم وسلامتهم، فمن تسلب منه كرامته، عاش مطحوناً، ولم يعد يستطيع الإنتاج، والإبداع، والتألق، والتأنق، لذلك نبهنا الله وحذرنا بقوله تعالى: وأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر“ حاشا للنبي صلى الله عليه وسلم أن تكون أخلاقه على مستوى القهر والنهر، وللضعفاء أيضاً، (ولكن هذا من أساليب العرب: الكلام لك، واسمعي يا جارة! ومثل هذا: يا أيها النبي اتق الله..) من هو المتقي إن لم يكن رسول الله هو المتقي. والله يقول: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوءَ صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ البقرة: ٢٦٤. الكرامة مقدمة على لقمة الخبز.

وعند علماء المنطق: إن صحت المقدمة، صحت النتيجة، والمقدمة الخطأ نتيجتها خطأ، ففي سورة الماعون صورتان:

الصورة الأولى فردية:

رجل يزعم بأن له ديناً كونه يصلي، ولكن يده طويلة بإذلال ضعفاء المجتمع، ولسانه قصير في الخير، طويل بالأذى.

إن هذا الدين قليله لا يغني عن كثيره، وشكله لا يغني عن مضمونه، وعقائده لا تغني عن عباداته، وعباداته لا تغني عن معاملاته، ومعاملاته لا تغني عن أخلاقه، فهو كالجسد الواحد يحيا كله، ويموت كله، تتصافر عقائده وعباداته وأخلاقه وسلوكياته لتقديم النموذج الأمثل للإنسان الكامل، ولا يعمل كأجزاء متفرقة، يصلي ولا يزكي، يتصدق ويرابي، يصوم ويرثشي... هذا مسلم خداج، كفاكهة غير ناضجة سقطت على الأرض لا تصلح إلا علفاً للدواب، وليس بها من الفاكهة إلا اسمها.

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾

فمصلّ آخر صلاة العصر التي هي الوسطى، إلى آخر وقتها، وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب، لم يطمئن ولا خشع فيها أيضاً؛ ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً.

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ (عَن) ولم يقل (في) صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ

فويل للمصلين من باب الحض، ليس من باب الدعاء، وأن يقع عليهم الويل والثبور، الويل هنا منصب على التراخي، وقد يصلحها بغير أوقاتها، وهنا مربط الفرس، يفوته أجر كبير، وخير كثير، بسبب التأخير وبدون عذر، ومصيبة فوات الأجر من أكبر المصائب، والويل على ما فاته، وهو قادر على أن لا يفوته، كما قال لمن تتاح له فرصة الزواج من ذات الدين، ويتحول عنها لذات الجمال والمال: تربت يداك!

وهذه نبوءة قرآنية تتحقق يومياً عند المنافقين قوله تعالى: «فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون» وثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»^(١)، ومن علاماتهم إذا خلا لهم الجو لا يصلون، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ النساء: ١٤٢.

السؤال: لم قال: عن صلاتهم... ولم يقل: في صلاتهم؟ يجيب ابن عربي: «من شرف الصلاة أن الله علق الوعيد بمن سها عنها، لا فيها، لأنه ربما يسترسل المصلي بالتدبر بالتلاوة، فيؤثر ذلك شكاً في صلاته، فلا يدري ما مضى من

(١) صحيح مسلم برقم (٦٢٢) ولم أفع عليه في صحيح البخاري، ولم يعزه المزى له في تحفة الأشراف.

صلاته، فشرع أن يسجد سجدي سهو، يرغم فيها الشيطان... وذلك في النفل
والفرض سواء، وما توعد الله من سها في صلاته»^(١)

الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

والصورة الأخرى جماعية:

أصل النفاق يكون فردياً، ولكن عندما يستشري الداء ويتغلغل في ثنايا المجتمع، وتصبح المداهنة والنفاق من لوازم المجتمع، يظهرون شيئاً، ويبطنون آخر، وقد يلقي الأخ أخاه في اليوم أكثر من مرة، فيسأله عن أولاده وصحتهم، وإذا سأله قرضاً أو ديناً، وهو يملك، تبرم، وحلف كاذباً، بأنه هو بحاجة، هنا طارت العواطف مع الريح وما جعلت الصلاة للصلاة، إنها جعلت قوةً وطاقَةً للمسلم، كسحن مستمر كلما تردد المسلم على المسجد، ويرى الناس دينه من خلال خدمته وأخلاقه، ويرون رحمة الإسلام من خلال يديه، وليس من لسانه الذي بين فكيه!! ويعرفون الإسلام من خلال قلبه الذي بين جنبيه!

(١) تفسير ابن عربي، ج: ٤، ٥٤٧.

سورة الكوثر مكية، وآياتها ثلاث،

وترتيبها بالقرآن (١٠٨)

وبالتنزيل المكي (١٥)

وجاء بالحديث الصحيح: «بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا في المسجد، إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً، قلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت علي أنفا سورة»، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم «إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شأنك هو الأبر» ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهر وعدنيه ربي، عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي. فيقول: إنك لا تدري ما أحدث بعدك»^(١).

وعن أنس بن مالك قال: لما عرج بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال: «أتيت على نهر حافته قباب اللؤلؤ المجوف فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر»^(٢).

في هذه السورة ثلاثة مفاصل:

عطاؤنا يبدأ من الدنيا، ولا ينتهي في الآخرة، كيف وقد أعطيناك كل الكوثر؟ ورتبنا عليها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت!

والكوثر كرم ومنة من الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وأمره بالتعبد الروحي والمالي، والتعهد له بالحفظ والحماية السرمدية. وحسم الأمر مع خصوم الإسلام.

(١) صحيح مسلم برقم (٤٠٠) وسنن أبي داود برقم (٤٧٤٧) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٧٠٢).

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٩٤٦).

فصلٌ لنا، وانحرُ لعبادنا. وما السر في الجمع بين الصلاة والنحر هنا؟
الجمع بين عبادة الروح وعبادة المال لضبط التوازن الحركي.
ويبشره من يشنؤك، مهما كان كبيراً وعظيماً، فرداً أو أمةً بترناهم بترأً،
وكانهم ما كانوا!!

روى البزار عن ابن عباس، قال: قدم كعب بن الأشرف مكة، فقالت له
قريش أنت سيدهم، ألا ترى إلى هذا الصنوبر المنبت من قومك، يزعم أنه خير منا،
ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، وأهل السقاية، فقال أنتم خير منه، فقال:
فنزلت: ”إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ“

وكانه استلم العطية منذ زمن، وميزة أعطيناك، غير بعثنا لك، أو أرسلنا
إليك، فأعطيناك: فعل، وفاعل، ومفعول به، بكلمة واحدة، وليس بينهما فواصل
أو استقلال بالمفردات، وكاف الخطاب: دلالة على قرب المُخاطَب من المخاطَب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ
الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

سورة العطاءات الإلهية (لرسول الله) التي لا تحذ ولا توصف في مجالات
الدنيا والآخرة، وسر هذه العطاءات الربانية التي لا تتناهى لأنها غير مخزنة في
مستودعات وليس معدودة على واهبها، لذلك حولها النبي صلى الله عليه وسلم
إلى عالم الآخرة، وترك للإيمان بها أن يستوعبها، كالجنة وما بها من أشجار، وشجرة
واحدة يسير الجواد السريع مائة سنة ما يقطع ظلها، فالعقل البشري لا يمكنه أن
يتخيل هذه الشجرة، وأن الكرة الأرضية لا تتسع إلى عُصين من هذه الشجرة، كما

جاء في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها" متفق عليه.^(١)

وكل موجودات الجنة ليس فيها من الدنيا إلا الاسم، مثلاً: الرمان في الآخرة، مختلف كما كيفاً عن رمان الدنيا باستثناء الاسم، كما يختلف إبراهيم عليه السلام الذي كان أمة، عن أي إبراهيم كما وكيفاً باستثناء الاسم، وفي الدنيا ليس كل من اسمهم إبراهيم سواء، وليس كل من اسمهم محمد وموسى وعيسى سواء.

واسم (الكوثر) مسمى جديد على العرب، كمسمى البراق، والفردوس الأعلى... فشرح النبي صلى الله عليه وسلم للناس معظم هذه الأسماء، مع شيء من التشبيه. كما ثبت في الصحيح، ما الكوثر؟ « نهر في الجنة، حافته من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأبيض من الثلج، من شرب منه شربة، لم يظمأ بعدها أبداً»^(٢)

وعن أنس قال: "بينما رسول الله ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاء، ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال: أنزلت علي أنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم" إنا أعطيناك الكوثر... " ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، فيه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد، (أي يتنزع، ويُقتطع) منه، فأقول: إنه من أمي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك"^(٣)

وفي روايات أخر في الصحيحين وغيرهما، عندما تقول الملائكة للنبي ما تدري ما صنعوا بعدك؟ فيقول: بعداً.. وسحقاً!!

(١) رياض الصالحين، رقم-٧: ١٨٨٦. ومسلم: ٢٨٢٨.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) مسلم والترمذي.

وفي حياتنا اليومية الأب الموقر، إذا قيل له هذا السفية ابنك؟ وهو ممن
تسربل بالموبقات السبع، لا يعترف به!!

ولقد هلك المسوفون الذين لا يتأثمون، ولا يتذمّون، ويقولون وراءنا
شفاعة محمد...؟ ما غركم بربكم الكريم ونبىكم الرحيم!! غرهم جهلهم
وحمقهم.

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ١

إننا نحن أعطيناك، بكل أسمائنا الحسنى وما فيها من عطاءات أعطيناك.
والعلماء يقولون هذه (النون) للعظمة، وعند البلاغيين يقولون (إننا) لتوكيد
مابعدھا، وهناك كلام طويل منه:

ومنهم من يسميها نون العظمة، كالشيخ محيي الدين تأنق وتألّق بقوله:
إن الكناية هنا عن الأسماء التي عنها تقع الآثار على اختلافها، وإن جمعتها ذات
واحدة، فهو العالم من حيث كذا، والقادر من حيث كذا، والمريد من حيث كذا،
والرازق من حيث كذا، فكثرت الوجوه والنسب، فطلبت النون^(١)

ولتوضيح الصورة: لكل اسم من أسماء الله وصفاته طاقة معينة، فبمجموع
هذه الأسماء والطاقات: إننا أنزلناه في ليلة القدر، وبمجموع هذه الطاقات: إننا
نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون، وبمجموع هذه الطاقات: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ
وهل هو كوثر واحد، أم كوثر؟!!

فالرسالة كوثر، والنبوة كوثر، والقرآن كوثر، وصلاة الملائكة عليه كوثر،
والصحابه كوثر، وجيوش المجاهدين إلى يوم القيامة كوثر، والعلماء كوثر،

(١) تفسير وإشارات القرآن، للشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي، ج: ١، ص: ٣٠.

والعشاق كوثر، وفي كل فجر جديد تزيد المواليد، ويزداد المحبون حباً من كل الفئات كوثر.

وعن أي كوثر نتحدث؟! كوثر الدنيا أم الآخرة؟ كوثر الدنيا تحت السمع والبصر فلا يحاط به، فكيف بكوثر الآخرة؟!!

ولعل ” الكوثر ” خير سرّي أعطاه الله لنبيه، ولم يأمره بإبانتته لنا، ولعل هناك أكثر من كوثر ولكل كوثر خصوصيته كالأنبياء!!

فَصِّلْ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرِ ۝٢

انتقل السياق من التكريم، إلى الأمر بالصلاة ونحر القرابين، فما العلاقة بينهما؟ ففيه دلالة خفية لمن يأتيه الخير ربما يختل توازنه حتى يصل درجة الطغيان، ويصبح المال وبالأعلى عليه، فلا بد من القيام بأمرين حتى يحافظ على توازنه، ويضمن نجاحه، هي الصلاة والصدقة:

الصلاة تجعله دائماً واقفاً بين يدي الله، وكل مصلاً من تكبيرة الإحرام حتى السلام وخروجه من الصلاة، لا يمكن أن يذنب، فهو معصوم في هذا الوقت. فكلما كثرت الصلاة وطالت، طال زمن الاعتصام.

والنحر للإبل، والذبح لبقية المواشي، والنحر رمزية العطاء الكثير، وهذا من حظ الفقراء، وهو من حقهم وحصلتهم في هذا المال الذي يملكه الأغنياء، والمحظوظ من الأغنياء له عينان: واحدة على الله، والأخرى على الفقراء، ولكن بعض الذين ينحرون في زماننا، تلعب بهم ريح النفاق الاجتماعي، فعند توزيع الأضاحي أطايب اللحم تذهب لمن بشموا من اللحم، والكرشة والأمعاء والعظام تذهب للفقراء.

إِنَّ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ

والشَّانُ هو البغض القلبي، وهو أدنى درجات العداوة، فتعهد الله لرسول الله، إن شانتك مبتور ومخزي في حياتك وبعد مماتك، فما هو حال الذي يشتم النبي صلى الله عليه وسلم؟ وما مصير من يضربه؟ في الدنيا والآخرة؟

موسى صاحب كوثر، وفرعون هو الأبتَر.

إبراهيم صاحب كوثر، والنمرود هو الأبتَر.

محمد صاحب الكوثر، وأبو جهل هو الأبتَر، وولده عكرمة يقول: اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، ويبتَر أبا جهل.

وأولاد الرسل والأنبياء...يفتخرون بأبائهم، وأبناء الطغاة يبترونهم بترًا.

ومسألة البتر في البوادي والأعراب من أكبر المصائب، لأنهم يتفاخرون ويتكاثرون بالأبناء والأموال، وقول الشاعر:

نحن الأكثر حصيًّا وإنما العزة للكاثِر

ولماذا جاء إلى أصغر شيء يمسه النبي من العداوة فذكره، وهو الشَّانُ؟ ولم يقل له: إن شاتمك، أو ضاربك، أو جارحك...هو الأبتَر.

وذكر مثلها في عقوق الوالدين: ولا تقل لهما أف...أدنى شيء في سلم العقوق - ولا تنهرهما - أعلى شيء في سلم العقوق.

وذكر مثلها في نوعية أثاث الجنة "بطائنها من استبرق" البطانة مخفية عن النظر، ولكن العقل العربي، يفهم مادامت البطانة من الحرير الغليظ، فكيف حال الوجه!!؟ مادام من يقول: أف، صار عاقاً، فكيف بمن يضرب؟ مادام من

يشنأ النبي بقلبه، يبتتر بترأ، فكيف بمن يضر به؟

والمشركون لم يجاربوا رسول الله لشخصه، فهو الصادق الأمين قبل أن يبعث، ولما بُعث قاموا ضده، إنما حورب لما جاء به، وما زالت الحرب قائمة عليه، وعلى من يتمسك بدينه، وتأخذ الحرب صوراً شتى، وتعهد الله له بالحماية والحفظ والرعاية، وبتتر أعدائه، وإن كان وصفه بعض خصومه بالأبتر لانقطاع نسله من الذكور، ونسوا أن المتصل بالله، لا يبتتر، وإنما المبتور المنفصل عن الله، فهذا أبو جهل المبتور، وهذا ولده عكرمه رضي الله عنه، يقول: اللهم صل على محمد وآل محمد، ولم يقل يوماً: اللهم صل على أبي جهل، من الموصول؟ ومن المبتور؟
ما كان لله فهو المتصل، وما كان لغير الله فهو المبتتر.

فهذه الكتلة الشيوعية صبت جام غضبها على المسلمين، وقتلت منهم الكثير، وشردت، وسجنت بالملايين، ويكفي ما فعلوه بأفغانستان على مدى أربع عشرة سنة، بدءاً من ثمانينيات القرن العشرين فبتترهم الله بترأ، ولم يقدموا شيئاً لخدمة بلادهم أو الإنسانية، وتدمرت أسلحتهم في مخازنها، ولم يطلقوا منها طلقة، وهي وجدت لتحرس البلاد من الداخل والخارج، وما كان في حسابهم أن الله سيبتترهم من حيث لا يحتسبون، وهذه أمريكا وأشياعها دمروا أفغانستان والعراق وفلسطين في مطلع القرن الواحد والعشرين، وبدأ البتر بأرصدتهم وبنوكهم تتهاوى أمام العواصف البتارة، وفي العالم الإسلامي قامت بعض الأنظمة ومهمتها ليس القضاء على الفقر والجهل أولاً، بل جعلت مهمتها إرضاء الأعداء في التصيق على المسلمين، وبعد نصف قرن من الحكم الذي لا يسألون فيه عما يفعلون، لم يقدموا شيئاً يستحق الذكر في سجل التاريخ ومضوا مبتورين من كل خير، موصولين بكل شر.

وقصة من الواقع: رجل من عامة الناس في بلد عربي، بلغه أن ولده: س، ص... موظف بمراقبة المساجد، أي متابعة المنابر وحلق العلم، فقال له أبوه: إما أن تغير هذه المهمة، أو تترك هذه الوظيفة، وإلا لن تقف على جنازتي وقبري، ولن أكلمك حتى أموت، ويتابع الأب قوله: مابقي علينا إلا نطارد علماء المسلمين لصالح الماسونية العالمية.

وجاء تعبير النبي بالأبتر، فواساه الله وعزاه وعوضه بالكوثر.

محمد ابن قومه ومجتمعه وكلهم يتفاخرون ويتكاثرون بالأولاد من أجل الغزو، ومن أجل أن يتهيبهم ممن أراد غزوهم، فكل من مات أولاده الذكور بتروه وعيروه.

وتتجلى شيئاً من الحكمة، بأن النبي قبل النبوة عنده أولاد ذكور وإناث، وبعض نسائه عندهن أولاد كأم سلمة، وبعد النبوة ربط الله أرحامهن جميعاً، ومات أولاد النبي قبله، باستثناء فاطمة، ولو رزقت كل زوجة ولداً مجموعهم يزيد على العشرة، ولكل واحد شيعة تخصه، فعلى الأمة السلام، ولد واحد من فاطمة باسمه انشقت الأمة.

وكل واحدة من زوجات النبي تحلم أن ترزق ولداً يقال له: ابن محمد، فالله عوضهن جميعاً بمليارات الأولاد ”أمهات المؤمنين“.

سورة الكافرون مكية، وآياتها ست،

وترتيبها بالقرآن (١٠٩)

وبالتنزيل المكي (١٨)

سورتان بالقرآن الكريم: «سورة المؤمنون» برقم: ٢٣ و «سورة الكافرون» برقم: ١٠٩، لم تخضعا لقواعد المضاف والمضاف إليه: سورة المؤمنين» و «سورة الكافرين» ولماذا استحقا الوصف الثابت بالرفع؟ فمن السنن الكونية المؤمنون والكافرون، والنهار والليل، والشمس والقمر.. فلا تستطيع قوة أرضية تغيير الثوابت الكونية، عليها أن تتعامل مع الموجود. فلما ثبتا، ثبت وصفهما.

لقد جاء النداء “ للذين عاصروا التنزيل وما بعدهم، اسمعوا، وعوا: يأيتها الكافرون عبادتنا مختلفة، لأن عقائدنا مختلفة، وهذا لا يمنع أن نتعاون في الحياة، لكل ما فيه الخير، ومن خلال الاحتكاك الاجتماعي والتجاري، سيتعرف كل منا على عقيدة صاحبه، وأي منا هو الأقوم، والأدوم، والأنفع، ويتعرف على عدد الداخلين فيه، والخارجين منه، والعاشقين له، والزاهدين فيه. ويبقى الاحتكاك أفضل ميادين إثبات الحق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾

سورة “المفصلة” في العقائد، مفصلة بين الحياة والموت، والليل والنهار، والدنيا والآخرة، والحق والباطل...

وأخطر ما يواجه الدعوات الإصلاحية انحرافها ذات اليمين وذات الشمال، وتفريغها وتذويبها، فالإسلام كالسيل لا يمكن إيقافه، ولكن يمكن تحويله عن مساره وهدفه، والعدو يترصد لهم بمصيصة الطمع العاجل: المال والنساء والمناصب، ففي المرة الأولى جاءت قريش وعرضت على النبي ﷺ المال والنساء والمناصب، فصدّهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر على يساري أن أترك هذا الأمر ما تركته... وفي المرة الثانية صدّهم التنزيل " قل: يا أيها الكافرون...."

- أخطر موقف، وأجراً كلمة، وأعظم مواجهة بين فرد وأمة!

- وأعظم مساندة من جنود النصر: كالمنزليين والمردفين والمسومين، وألطف لطف تولاه في هذا الموقف. وإلا اختطفته الطير، قبل أن تحتطفه رؤوس الرماح! هذا موقف لم يمرّ به رسول ولا نبي من قبل، بكلمة يحطم كبرياءهم جميعاً الشاهد والغائب، والحي والميت! بينما أوصى موسى وهارون: فقولا له قولاً لينا لعله، يتذكر أو يخشى!!

كلمة المواجهة!! كلمة الصدمة الكهربائية، كلمة الإبرة الوريدية!!

قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾

لعله خبر تربوي، وليس أمراً يجب تنفيذه، كلما أرى كافراً، أخاطبه: يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وبين الكافرين دائماً مسلمون، سينضجون بأوانهم، والكافرون فرق شتى منهم المسالم، ومنهم المخاصم

فمن قبل صدّهم النبي، واليوم يصدّهم القرآن، وزاد عليهم بصفة تخرجهم، وتغضبهم، وتذلّمهم، عندما أمر نبيه أن يقول لهم " يا أيها الكافرون "

واسمعهم النبي صلى الله عليه وسلم إياها بلا خوف أو وجل

- مختلفون بالمعبود:

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾

- مختلفون بالعبادة:

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾

فرد يخاطب جماعة، فرد ينبذهم جميعاً، فرد يبئسهم منه.

والحكمة!! منهجنا ثابت، وعدونا دائم لكنه متلون ومتغير، ويدور حول منهجنا دائماً، كما تدور الضواري حول الفريسة، وتدور اللصوص حول الكنز، فيعجزون عن الوصول، فيستخدمون الوسائط التمييزية، فيخرج علينا المتسرعون من بني جلدتنا، ويظنون أنهم يحسنون صنعا، فإذا جاءت الشيوعية ولهم مصلحة، فينتقون الشواهد من القرآن والسنة ويقسرونها قسراً حتى تؤيد رأيهم الكليل، ومثلهم مع الليبرالية الغربية، فينتخبون أدلتهم انتقاءً، ولما اشتد ساعد الشيعة والتشيع، بعض الأكاديميين بدأ ينقب في التاريخ، ليجد مدخلاً يكتب به أو يحاضر به من أجل منصب أو شيك، وبعض أهل العمام بدأ يحاكم معاوية، وآخر يتحرش بعائشة، وثالث توشح بالسواد من عمامته إلى حذائه... ومثلهم مع الصهيونية، يؤيدون مواقفهم بآيات من القرآن الكريم، ومما يستشهدون به بشأن إرغام العرب على الصلح: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها" والصهاينة مازالوا ينهبون الأرض، ويهتكون العرض، ويقتلون الأنفس، من أين جنحوا للسلم؟

ولو ردوا الأراضي لأهلها، وعوضوا الناس عن طردهم منذ سبعين سنة،

الآن جنحوا للسلم، وبعدها يبدأ الصلح. وهناك فتوى أصحابها يجرمون من يقتل الصهاينة بأنه انتحاري وحكم المنتحر جهنم، من أجل ماذا؟ بسبب لعاعة الدنيا، من أجل دراهم معدودة، ومنصب لا يضر العدو، ولا ينفع المسلمين، بل هو الويل على الإسلام والمسلمين.

ومنهم المميعون من يرى جواز إمامة المرأة بالصلوة للرجال، وجواز خطبة الجمعة من المرأة، واختلاط الرجال والنساء بالمسجد، وكأنا (بأستاذ رياضي)... وقد حصل هذا وتكرر، تحت شعار الإسلام دين السباحة واليسر... وهم لا يفرقون بين والعقائد والعبادات. التي شعارها:

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۖ

وبين المعاملات التجارية والعلمية والمصاهرة، التي ميزانها:

﴿ وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٣:٧٥)

لكم دينكم من عقائد وعبادات، ولي ديني من عقائد وعبادات، هذه أمور لا تقبل الخلط ولا المزج ولا التلون ولا الزيادة ولا النقص، هي، هي إلى يوم القيامة. كالإنسان خلق بعينين ولسان وشفيتين ويدين ورجلين، فلو أراد دعاة التطوير والتجديد لكل قديم، وكل قديم مبذول، ويزعمون أن المحافظة عليه من باب التعصب والتخشب، والحياة المعاصرة تحتاج إلى مرونة، ونسألهم: أي مرونة تريدون؟ عاقلة أم مجنونة؟

لو طورنا الإنسان التقليدي وجعلناه بعين واحدة، ورجل، ويد، وشفة، وبلا أنف... هل هذا تطوير أم مسخ؟! هذه الأعضاء ثوابت، وهذه العقائد

والعبادات ثوابت، وأما بقية الحياة من معاملات ومجاورات واحتكاكات ومصاهرات ودراسات وتدريبات... فيها مرونة واسعة.

مقارنة بين (لكم) بالجمع و (لي) بالمفرد، لكم: دينكم الذي فيه ألف رقعة ورقعة، وكل رقعة ترمز للجماعة بين مندثرة وحاضرة، ولا يوجد تجانس بين هذه الموصّلات، بينما (لي) دين واحد وبلون واحد ومفصل عليّ ، وعلى كل من يتبعني فقط، لأن من يتبعني حجّم خطوته على خطوتي، وربط لسانه على لساني وقلبه على قلبي، فسلوكي سلوكه! وكأنه أنا...!! ومن يتبع المعصوم، فهو معصوم مثله.

سورة النصر مدنية، وآياتها ثلاث،
وترتيبها بالقرآن الكريم (١١٠)
وبالتنزيل المدني (٢٨)

هي سورة النصر الدائم، والفتح الدائم!!

بعض المفسرين سمّاهم سورة "التوديع" أو "النعي" كلا الوصفين يلامس جزءاً من المضمون تأولاً، وكأنها ما جاءت إلا لتقول للنبي أنت راحل..!!، لقد ضيقوا واسعاً جداً.

ما جاء النصر إلا ليقم عندهم، وما جاء الفتح إلا ليستم بالفتح معهم، وفي كل مجالات الحياة بحاجة للنصر وللفتح.

وإنما جاءت لتنهى النبي ﷺ، وتبشره بالنصر والفتح الدائمين من بعده، حتى إذا التحق بالرفيق الأعلى يكون مطمئناً، ولذلك سماها بنفسه رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة النصر، وهي في كل المصاحف بهذا الاسم، ونزلت في آخر الدعوة، وبعد فتح مكة، ولو نزلت في أول الدعوة، قلنا: تحقق مضمونها وانتهى في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وكأنها تؤرخ لفترة محددة، وانتهت، ولكنها جاءت قبل التحاق النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى، وكأن النبي صلى الله عليه وسلم يعهد بالدعوة من بعده لجنديين من جنود الله، هما: النصر، والفتح ويسلمهما الأمانة في الأرض قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى، وهو مطمئن على خط سيرها من بعده.

فما جاء النصر إلا ليقم، وما جاء الفتح إلا ليستم بالفتح، وما دخل الإسلام أرضاً وخرج منها كلياً، وكم من غزاة دخلوا ديارنا، وخرجوا منها، ولم يتركوا إلا نقطة حبر سوداء على ورقة التاريخ؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾

لقد روى الإمام البخاري عن ابن عباس قال: كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه، لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: إنه من علمتم !! فدعاني ذات يوم وأدخلني معهم - قال: فما رأيت أن دعاني إلا ليريمهم - فقال عمر: ما تقولون في قول الله تعالى: إذا جاء نصر الله والفتح؟ فقال بعضهم أمرنا بأن نحمد الله ونستغفره، إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لي: أكذا تقول يا ابن عباس؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله أعلمه إياه، إذا جاء نصر الله... فذلك علامة أجلك .

(فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) فقال عمر: والله ما أعلم منها إلا ما تقول» هذه السورة منهم من سماها سورة "التوديع" لأنها أنبأت النبي صلى الله عليه وسلم ومن حوله على دنو الأجل، لأن مهمته إدخال الناس بدين الله، فدخلوا، ولما جاء نصر الله في ميادين شتى كقيام دولة، ونظام اجتماعي، واقتصادي، وسياسي، وسلطة تشريعية وقضائية، وتنفيذية، وذوبان القبليّة، وليس القبليّة، والتحول من نظام قبلي، إلى نظام لم تعرفه البشرية من قبل قط، ولم تلحقه بعد خمسة عشر قرناً، وعلى رأس كل هذا العدل الاجتماعي، والنصر الميداني ثمرة من ثمار كثيرة، ما كان النصر والفتح رومياً أو فارسياً للنهب والسلب وتحطيم الناس، وشفط معادن الأرض، وكان العمل الجهادي لفتح الأبواب المغلقة أمام الدعوة، وليس لفتح الخزائن المغلقة. لذلك بدأت الناس تدق أبواب الإسلام كي تتفياً في ظلاله، وانظر في فتح (حمص) و (سمرقند)

و (مصر) دخلت مدن الإسلام بكاملها وأحياناً بلاد بأكملها دفعة واحدة، لأن الدعوة منسجمة مع الفطرة، ومهمة رسول الله يدعوهم إلى الله، وليس يدعوهم لمصلحته ومصلحة أهله من بعده.

والأفراد الذين دخلوا الإسلام بدار الأرقم بن أبي الأرقم، لم يرد منهم واحد، لأن كل واحد منهم إمام وأمة، بينما الردة كانت من بين هذه الأفواج، والسؤال: لماذا لا نكون من الأوائل، حتى نكون بين الأفواج؟ لماذا لا نحرر إرادتنا؟

فلذلك ما كان نصراً واحداً، ولا فتحاً واحداً، إنما هي انتصارات في جميع الميادين، وفتوحات لا تخص المسلمين بل تخص العالمين.

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

فكان الله يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم: كنت فيما مضى مشغولاً بأمر الدعوة، فكمّلت دعوتك، وتمت نعمتي عليك وعلى المسلمين، واستقر دين الله في الأرض، والآن أريدك تسبّحني، وتستغفري، وبمعنى أدق: أريدك تتفرغ لي. وروي في الصحيح عن عائشة، قالت: ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاةً بعد ما نزلت عليه سورة: إذا جاء نصر الله والفتح، إلا يقول: سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي يتأول القرآن

إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا

من أعظم البشائر «إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» وما زال تواباً للجميع بدءاً من آدم عليه السلام، وإلى قيام الساعة: «فتلقى آدم من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم»

ويهنئه بالنجاح حتى يطمئن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تحققت رسالته بكاملها، وأتى الوقت الذي فرغ فيه من عمل الدعوة، وفي المدة المتبقية من حياته، ستكون لله خاصةً ، وطالبه بالتسبيح والاستغفار: « فسيح بحمد ربك، واستغفره، إنه كان تواباً». السياق: فسيح بحمد ربك، واستغفر إنه كان غفاراً، فعدل إلى تواباً، زيادة في بشارتين:

عندما يريد أن يجمع بين جملتين، فيحذف رأس إحداهما، ويحذف ذيل الأخرى، ويجمع بينهما، نحو: فسيح بحمد ربك، واستغفره، إنه كان غفاراً، وتب إليه إنه كان تواباً، فصارتا بعد الحذف، واستغفره، إنه كان تواباً.

يسن التسبيح والاستغفار، بعد الستين من العمر، وهو ما التزم به رسول الله، وفي عصرنا ما بعد الستين عند بعضهم تبدأ مرحلة المراهقة الثانية، في سوق الرقيق الأبيض بين القنوات والمشتريات والشوارع، والمعافي من عافاه الله.

سورة المسد مكية، وآياتها خمس،

وترتيبها بالقرآن (١١١)

وبالتنزيل المكي (٦)

وقال الإمام أحمد: عن ابن أبي الزناد، عن أبيه قال: أخبرني رجل -يقال له: ربيعة بن عباد، من بني الدليل، وكان جاهلياً فأسلم - قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: "يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب^(١).

عنوان السور "المسد" غمز يخص امرأة أبي لهب، ولعلها هي وراء إغراق أبي لهب في اللهب، وتبت يدها من الحبل المسدي الناري الذي في جيد حمالة الحطب، عندما يقودها، ومشكلة أبي لهب مع النبي ﷺ خوفه على ماله من المقاطعة أو المضاربة أو الإفلاس، ولم ينقل عنه كان يؤذي أحداً من ضعاف المسلمين، فبينما قارون بغى على موسى وعلى قومه ونسي قرابته بهم ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ القصص: ٧٦. فأبو لهب مشكلته مصالحه مهددة، ومن أجل المحافظة على المركز المالي والاجتماعي، تخلى عن فطرته الإيمانية، وعن موكب النور، وعن ابن أخيه ولحمه ودمه. وهو على بينة من أمره، وصار عنده صوت المال، أقوى من صوت الإيمان. «تبت يدا» دعاء عليه، «وتب» خبر عنه، أي قد تحقق. وإنما عبر باليدين؛ لأن الأعمال غالباً تزاول بهما. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ الحج: ١٠، بما صنعت نفسك، فأبو لهب هذا هو أحد أعمام

(١) المسند (٤/٣٤١).

رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه: عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة. وإنما سمي "أبا هب" لإشراق وجهه، وكان كثير الأذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم والبغضة له، والازدراء به، والتنقص له ولدينه..

ولم يسجل القرآن على واحد من آل عبد المطلب ما سجله على أبي هب، كونه أسمع المشركين تبتة لمحمد، ليرضيهم حتى لايقاطعوه، أو يضاربوا عليه. ولكن الله قاطعه، وضاربه. وما زال العالم الإسلامي يعاني من ألف، ألف قارون ممن غلب عندهم صوت المال على صوت الفطرة!

والسورة تتضمن دعاءً ووعيداً على أبي هب خاصة، وتتضمن صورة ساخرة ومهينة لامرأته، لذلك تأثرت أكثر من أبي هب وبدأت تبحث عن النبي ﷺ، وتقول لأبي بكر صاحبك هجاني، وتريد الانتقام منه.

وجاء في البخاري، قال عروة: وثُوبئةٌ مولاةٌ لأبي هب، وكان أبو هبٍ أعتقها، فأرضعت النبي ﷺ، فلما مات أبو هبٍ أرىه بعضُ أهله بشرَ حبيبةَ (حالةً)، قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو هبٍ، لم ألقَ بعدكم، غيرَ أني سُقيتُ في هذه بعتاقتي ثُوبئةً»^(١)

وصاغ شاعر المعنى:

إذا كان هذا كافر جاء ذمه	بتبت يدها في الجحيم مخلدا
أتى أنه في يوم الاثنين دائماً	يخفف عنه للسرور بأحمدا
فما الظن بالعبد الذي كان عمره	بأحمد مسروراً ومات موحداً

وهذا أشد أنواع الهجاء بالصورة الموحية، لعائلة من عظماء الوادي المبارك. فشمت بهم كل حسادهم، وكأنهم يرونهم رأي العين!!

(١) صحيح البخاري، ٧/١٢، رقم: ٥١٠١.

وكم في عصرنا ممن يصومون ويصلون ووقفوا مع الذين يجاربون الله ورسوله، وهم يشاركونهم ببعض التَّب أو السَّبِّ، حتى يحافظوا على مركزهم الوظيفي أو المالي، وبعد التقاعد يتوبون، كأخوة يوسف قرروا قتل نبي من أنبياء الله، وبعدها يتوبون ويربون لحاهم ، ..وتكونوا من بعده قوماً صالحين! (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

وكان سبب نزولها كما جاء في الصحيحين عن ابن عباس قال: “صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على الصفا فنادى ”يا صباحاه“ (كلمة ينادى بها للإنذار من عدو يصبح القوم) فاجتمعت إليه قريش فقال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، رأيتم لو أخبرتكم أن العدو ممسيكم أو مصبحكم، أكنتم تصدقوني؟ قالوا ما جربنا عليك كذباً، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعنا؟! فنزلت تبَّتْ يدا أبي لهب“

التَّبُّ: الخسران، والانقطاع، والهلاك، والخسارة، والضعف، وفي الدعاء تبَّتْ يده: وتباً له، وفي التنزيل ”تبَّتْ يدا أبي لهب، وتب“ وهذا من باب العدل الإلهي، أبو لهب دعا على النبي ﷺ بالتب، فَرُدَّ عَلَيْهِ تَبَّهُ، على مبدأ العين بالعين جزاءً وفاقاً.

(١) دخلت على دكان مفتتح جديد، وصاحبه في نهاية الخمسينيات مكتنز العضلات، وحيته ومسبحته مدبل نفس السنة أو الشهر، وبدأ يخطب عليّ كصلاح الدين.. ثقافته الإسلامية متوسطة، فكلما أصبح له يشمخ، وبعدها قال: أنا الضابط...متقاعد جديد، قلت له لما كنت على الكرسي تضر وتنفع، وترفع، وتدفع...كنت تقول مثل هذا الكلام، قال: لا...فقلت له: عندنا الشارع مليء بالخطباء واللحن والمساييح...فوجم!!

وتبت يده، هذا القول من لغة القوم ومثله: ويل للمصلين، وثكلتك أمك يامعاذ (حديث صحيح) لا يعقل. وهل النبي صلى الله عليه وسلم دعا على معاذ بالموت كي تندبه أمه. وهو يكرمه ويودعه خارج المدينة أميراً على اليمن، ولمعزته خرج النبي ﷺ معه، وكيف يدعو رسول الله ﷺ مجاب الدعوة على حبيبه، وهو صالح ومطيع؟

ذُكر أبوهب في القرآن لأنه يستحق الذكر... وهناك من آذى إيذاءً شديداً، ولم يذكر!!

صار علماء التفسير في هذه السورة بالذات متحرزين وبدقة متناهية كجراح العيون، يخشون الجور على النص، أو الجور على عم رسول الله ﷺ.

وقد نزلت (تبت) في بدايات الدعوة، لتؤسس منهجاً جديداً، ومجتمعاً نادراً على الأرض، كان الترابط الاجتماعي والأسري والقبلي يقوم على مبدأ العصابات، وكل فرد من أفراد العصابة على حق ويجب مناصرته، وقال شاعر من قبيلة (غزية) يصف التماسك مع قبيلته على الحق والباطل:

ما أنا إلا من غزية، إن غوت غويت، وإن ترشد غزية أرشد

ومن المحال دوام الحال في هذا الكون، ولا بد للشتاء أن يولي، ويأتي الربيع بأزهاره وأطياره وثماره، فكان نزول القرآن بدايةً لربيع كوني، وبدأ الناس يدخلون في دين الله فرادى... فرادى وعلى تخوف من المشركين، وفي عرفهم أي واحد دخل بالإسلام فقد شق عصا الطاعة والولاء الأسري، وهنا بدأت تتناصف الأسر، نصفها مع القوم، ونصفها مع محمد ﷺ، فالله عز وجل أراد أن تتناصف أسرة بني عبد المطلب (آل محمد) كقدوة وأسوة في الجاهلية والإسلام، وجاء التفريع لأبي لهب (جزاءً وفاقاً) مطابقاً لما قاله، بينما أناس غير أبي لهب

أصابتهم صواعق الكلم في الدنيا والآخرة كالوليد بن المغيرة، فأفسد الله عليه الدنيا فلم يكتب له الإسلام، وحرمه من رحمته في الآخرة، ويكون عذابه عذاباً مميّزاً:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا ۝١٦ سَأَرْهُقُهُ صِعُودًا ۝١٧ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝٢٤ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا بَقِي وَلَا نَذْرُ ۝٢٨ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ ﴾ المدثر: ٣٠، وفي سورة القلم يعدد للوليد بن المغيرة تسع صفات من العيوب والمثالب التي أفسدت عليه دنياه:

﴿ وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَاظٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَنِيمٍ ۝١٢ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَا كَاسْطِيرُ الْأُولِينَ ۝١٥ سَنَسِيحُهُ عَلَى الْخَزْطُورِ ۝١٦ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ ﴾

وأبو هب ذكر في القرآن بكنيته، والكنية أرفع من الاسم، بينما الوليد لم يذكر لا اسماً ولا كنية، وكلاهما مهدد بالنار، وأبو هب ذكر لأنه يستحق الذكر في القرآن^(١)، وهي مفخرة له، والنص يستبطن أن أبو هب رد الله عليه جهاراً نهاراً، وسبب تقيعه للنبي من أجل المحافظة على مصالحه ومركزه الاقتصادي، لذلك جاء التهديد والتشهير بأمواله أولاً، لأنه قدمها على نفسه، ثم جاء الوعيد بصليبه في النار، ولكن لم يقل: خالداً فيها أبداً، ومفردة الصلي قد تدوم دقيقة وقد تطول

(١) وفي بعض كتب السير، حدث في المدينة المنورة وقبل أن يضرب الحجاب أن تلاحت بنت أبي هب مع أحد المسلمين، فلما انقطع، فقال لها: أنت بنت الذي أنزل فيه قرآن، قالت: أبي وأبوك في النار، وأبي يستحق الذكر، فذكر، فاستعبرت، وبكت. ولقد حذر النبي بعدم المساس للموتى احتراماً لشعور الأحياء وجاء في الحديث الشريف "لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء" صحيح ابن حبان ٣٠٢٢.

آلاف السنين:

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ، وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصِلَىٰ
نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾

فهي نار محرقة بلهب وغير لهب، وخصصت هنا باللهب تأكيداً على ضخامتها وضررها.

وامرأة أبي لهب، حملت النبي ﷺ حملاً ثقيلاً بتطليق بنتيه، فحملت حطبا للإهانة.

وَأَمْرَأَتُهُ، حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

ولما سمعت ما نزل في زوجها وفيها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر - رضي الله عنه - وفي يدها فهر من حجارة ، فلما وقفت عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه؛ والله إني لشاعرة :

مُذَمَّمًا عَصِينَا ... وَأَمْرُهُ أَيْبِنَا ... وَدِينُهُ قَلِينَا ...

ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أما تراها رأتك؟ قال : « مَا رَأَيْتَنِي لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ بَصْرَهَا عَنِّي » .

ثم تحول النص إلى توصيف مهين إلى امرأته، وهي بعرف البدو لليوم وظيفة الحمارية عندهم خدمة المنزل، لأنها هينة لينة، ويبعدون الذكر غيرة خلف البيوت، حتى لا ترى الحريم سلاحه، وهو منتصب، وكأنها حمارية على ظهرها حزمة من الحطب، وفي عنقها حبل تقاد به هنا وهناك.

والعرب تضع في أنف البعير خزام أو خطام، أو عران، وفي رقبة الحمارية

حبله لتحبسها من الشرود، وتبقى تحت الطلب، وكلمة الرسن للخيل على الأغلب، فكان مقتل امرأة أبي لهب ” في جدها حبل..“

حساسية الكلمة الألكترونية الذكية عند العرب، وللحطيئة هجاء في

الزبرقان بن بدر:

دع المكارم، لا ترحل لبغيتهما واقعد، فإنك أنت الطاعم الكاسي

فشكاه لعمر بن الخطاب، فجمع عمر بعض الشعراء كلجنة تحكيم متخصصة في الشعر، لعله يجد مخرجاً سلمياً للطرفين، فسأل حسان بن ثابت: هل هجاه؟ قال: لا، بل سحل عليه...!! ومنهم زاد أكثر من ذلك!! فسجنه عمر^(١).

فالخطب التي تحملها ستحرق به هي وزوجها زيادة في النكايه، وبمعنى أنها جلبت العذاب لنفسها بسبب ظلمها لبنتي النبي ﷺ وتطليقها، لا لتقصير منها، بل لإيحاء النبي ﷺ من خلال بنتيه،

ولا يعقل امرأة ابن عبد المطلب، سيد من سادات الوادي كانت تحمل حطباء لتؤدي النبي ﷺ، والقرآن يؤكد أنه ذو مال وبنين وخدم وعبيد، فأمرها داخل البيت مقضية بالإشارة، كيف تخرج وتجمع الخطب وتحمله على ظهرها لتؤدي به رسول الله، إلا إن كان هذا التوصيف لحالها في الآخرة، وهي آذت رسول الله في تطليق بنتيه، وهما بريئتان صالحتان، وكانتا كنتين عندها، وهذا ميدان الانتقام عند الحموات التطليق عندما يراد الانتقام من أهل المطلقة، أو تزويج الولد زوجة ثانية، وثالثة. والتطليق لواحدة مصيبة، فكيف لبنتين بوقت واحد؟ وأبوهما محمد ﷺ، أحنّ البشر، وأعطف البشر؟ ولقد حملت النبي ﷺ حملاً من

(١) راجع الأغاني للأصفهاني تجده يقطر أدباً رقيقاً، وإن رقق دينه، وقلّ حياؤه!!

الهمّ والغمّ، كلما يرى مطلقتين مظلومتين في بيته وهو السبب^(١)، ثم تزوجها عثمان الواحدة بعد الأخرى، وماتتا في حياة النبي ﷺ، ولقب عثمان بذي النورين جبراً لخاطرهما. ولكن الله عوضهما خيراً وطيب نفس النبي ﷺ، عندما أبدلها ديناراً عثمانياً بفلسي أبي هب.

لماذا استمر أبو هب على شركه حتى مات، بينما كثير من المشركين آذوا النبي أكثر من أبي هب وأسلموا وماتوا على الإيمان؟

حَكَمَ اللهُ عَلَيْهِ بِالتَّبِّ، فلا بد من أن يتحقق ذلك، ولو أسلم لأخرج القرآن.

نحو قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِينَ كَانُوا عَلَيْهَا﴾

البقرة: ١٤٢، حكم عليهم بالقول، فقالوا، ولو سكتوا، لأخرجوا القرآن.

(١) دخل عليّ رجل لا ينقصه المال ولا الرجال ولا المنصب الرفيع من جزيرة العرب، يبكي، وهو يردد بنات أخيك (بناته) اثنتان صارتا عندي في البيت مطلقات وبوقت متقارب، وهذه الصورة لها وقع اجتماعي قبلي شديد. فما نقل إلينا خبر عن حالة النبي ﷺ عندما دخلتا عليه مطلقتين، وليس كل أبوة كأبوة محمد ﷺ.

القلل الثلاث: أقدم شركات للتأمين اليومي: على الأنفس، ما عدا الموت!!

قصار السور كالقلل وغيرها، كشف لنا النبي عن بعض أسرارها العطاء الغالي والنفيس بدون مقابل، والإنسان فطر على الأخذ وليس على العطاء، فمن يقرأ المعوذتين له كذا وكذا... من أسباب الوقاية والسلامة من الجن والعين والهدم والردم والغرق وحوادث المرور... ظاهرها التأمين الصحي، ومن معطياتها تمكين النشء من اللغة وتحبيبتهم بالقرآن وتعريب الأعاجم.. وسنفصل القول في حينه.

وعن عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: "قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ" و "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ" و "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات، يعلمنا كيف نأخذ بالأسباب للحفظ والبركة والاستشفاء؟. (١).

وعن أمنا عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله: من قرأ بعد صلاة الجمعة: قل: هو الله أحد، و قل: أعوذ برب الفلق، و قل: أعوذ برب الناس، سبع مرات أعاده الله عز وجل بها من السوء إلى الجمعة الأخرى (٢)

وفي الترمذي: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الجان وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان، فلما نزلتا، أخذهما وترك ما سواهما»

وفي الصحيحين عن عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه: "أن النبي صلى الله

(١) تفسير ابن كثير، ج٨، ٥٢٧. حديث صحيح.

(٢) الأذكار للأمام النووي، رقم الحديث: ٤٥٢. وهناك من ضعفه.

عليه وسلم كان إذا آوى إلى فراشه، نفث في كفيه: بقل هو الله أحد والمعوذتين جميعاً، ثم يمسح بهما رأسه، وما بلغت يده من جسده. قالت عائشة: فلما اشتكى (أي مرض)، كان يأمرني، أن أفعل ذلك به»

وبهذا يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم حاجتنا الضرورية إلى هذه السور، ولا يستغني عنهما أحد، وأن لهن تأثيراً خاصاً بدفع ورفع الشر المنظور، وغير المنظور كالسحر والعين، ويقول ابن القيم: إن حاجة العبد لهاتين السورتين المعوذتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس" (١)

والمقدرات تأتي بلا استئذان كمصائب الحريق وحوادث السير والغرق...، والإنسان ليس مسؤولاً عن مجيئها، ولكنه مسؤول عن عدم أخذ الاحتياطات اللازمة، وتنفيذ أمر النبي ﷺ "اعقل، وتوكل" وعند ابن القيم "سورة الفلق من شر المصائب، وسورة الناس من شر المعائب" (٢).

وهي أقدم شركة تأمين صحي يومي باستثناء الموت، والانتساب للشركة يكون يومياً في كل صباح ومساءً، وبها يقر المنتسب لربه، بأنه ضعيف وعاجز ويطلب الحماية من ربه الذي لا يشرك معه شيئاً: هو الله أحد، ويطلب من رب الفلق: يحميه من كل موجودات الكون، ويطلب من رب الناس، الذي يحميه من شر الوسواس.

والله يحبنا قبل أن نعرفه، وأوجدنا من غير أن نسأله، وأعطانا قبل أن ندعوه، ويعلمنا كي نحافظ على سلامتتنا وسلامة الآخرين، لأنه لا يمكن الجمع بين أمرين متباعدين، الإيمان بالله وأذى الناس.

(١) التفسير القيم، ٥٣٧.

(٢) التفسير القيم، ٥٩٩-٦٠٠: بتصرف.

وعلمنا عند الخطر ماذا نقول من كلمات يحملن سرّاً ربانياً ندفع به مانكره، وهذه السور الثلاث كان يقرأهن النبي ﷺ خارج الصلاة كثيراً، لكثرة حاجتنا إليهن.

فسورة الإخلاص، هي بمثابة الخوذة العسكرية لتحفظ الرأس وما وعى حتى تبقى العقيدة قوية تتجلى في الشدائد، والعقيدة الخالصة تنادي صاحبها في الملهمات لا تحف: إن الله مع الذين اتقوا... وإن ربك لبالمرصاد. ما دام الإنسان لم يشرك بالله ” إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك“ وكما قال الشاعر عمر الخيام^(١):

إن لم أكن أخلصت في طاعتك فإنني أطمع في رحمتك
وإنما يشفع لي أنني قد عشت لا أشرك في وحدتك

وعندما يقتحم علينا البلاء فنقرأ: قل أعود برب الفلق من شر ما خلق... فهني درع حصينة مسرلة، ضد الحريق والرصاص وكل مهاجم، وتسمى: سورة المصابئ.

(١) عمر الخيام ولد ٥٠٦ هـ ببلخ-نيسابور ووفاته مختلف بها، وملكب بحجة الحق، لعلمه وورعه وصلاحه، وعالم في الرياضيات، والطب، والفلك... ثم شاعر، وأصل الرباعيات فارسية لم يعرف صاحبها، وترجمت لعدة لغات، ومليئة بالتناقضات، ولصقت باسمه ظلماً، واحتار الناس فيه، بين شكه ويقينه، وكفره ودينه، فمن له مصلحة في دمع هذا المسلم العالم الشامخ غير العدو؟، والعجيب صار اسمه معماً بسرعة على كل مواخير العالم، والهدف لعله دفع الشباب الإسلامي نحو الإنحلال، والإقضاء بهذا العالم... وأول من فعل ذلك الشاعر الإنكليزي فتنر جيرالد ١٨٥٦ م، وتصدى له و لكشف الحقيقة: أبو النصر مبشر الطرازي الحسيني التركستاني وهو من أبناء اللغة الفارسية، ويجيد العربية والتركية، وألف كتاباً بذلك عنوانه «كشوف اللثام عن رباعيات عمر الخيام» طبعته وزارة الثقافة المصرية، ١٩٦٧ م وولده كان مدرساً للغات الشرقية، وزميل لنا بجامعة الملك عبد العزيز بجدة. ١٩٩٠ م. وهدف الغرب من نشر الرباعيات التزوير والتشويش على ثوابت الأمة، وهذا مثال آخر:

وقع تحت يدي كتاب أدبي بالإنكليزية، عنوانه الشعر العربي، فذكر به حوالي أربعين شاعراً عربياً من أزمنة وأمكنة شتى، واختاروا لكل شاعر البيتين والأربعة... وانتقوا أحسن الشعراء، أو أحسن ما عند الشاعر أخلاقياً ودينياً. وما كان الهدف القيمة الأدبية، ولكن البحث عن مواطن الزلل والخلل.

وعندما نشعر ببركان الغضب بدأ يتململ في نفوسنا، وهو على وشك الثوران، فنقرأ: قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الجنة وشر الناس، ولو قالها آدم عليه السلام، لم تؤثر به وسوسة إبليس حتى أكله من الشجرة، فأفتى له إن الله منعك من القرب والقطف والأكل، فالشيطان قطفها وآدم بعيداً وأكل منها بعيداً، فأوقعه بالفخ، ولو قالها موسى عليه السلام، لسيطر على صمام غضبه، ولما وكز القبطي، وأصبح من النادمين.

وهذه السور الثلاث لكل واحدة منهن عمل تطلبه، ودور تؤديه، وبالمجمل هذه السور من الأذكار المستمرة في اليوم واللييلة، وحروف الأذكار كخيوط ممتدة بين العبد وربّه، وكلما زادت الأذكار، زادت الخيوط وزادت القوة. وصار العبد من الذاكرين لله كثيراً.

سورة الإخلاص مكية، وآياتها أربع،
وترتيبها بالقرآن (١١٢)
وبالتنزيل المكي (٢٢)

التوحيد وحدنا على قواعد خمس:

إله واحد، وأب واحد، وقرآن واحد، ونبى خاتم واحد، وقبلة واحدة.
والإخلاص: أن يخلص المسلم القواعد الخمس مما يطلبها، فالتوحيد يطلبه الشرك، وكلكم من آدم، يطلبه تفوق الجنس واللون، والقرآن يطلبه أهل الدساتير المستعبدة للناس، والنبى ﷺ المعصوم يطلبه المتنبئون بالحديد والنار. والقبلة الواحدة، تطلبها مراكز القوى العالمية في القارات الخمس، عواصم عالمية كثيرة هي قبلة ولها زوارها،...وعيس العرب حولها بوارح بين طائف ومعتكف. وسر نجاحات المسلمين الأوائل، التزموا بالخمسة، وحققوها.
وسر نجاحات شياطين الإنس والجن، العبث بأي واحدة من الخمسة، فكلما خلخلوا واحدة، أو زحزحوها، أو قلعوها، وأتبعوا الثانية الأولى، وهلم جرّاً...فعندها تهاوت الحضارة الإسلامية ما كان لها أن تتهاوى، إلا بعد أن فرغت من الداخل.

ولم يرحل الإسلام من الأندلس إلا بعد أن تعددت الآلهة، وعلى كل منبر أمير متأله، وتحولت القبيلة إلى قبليّة، وبدل أن يتبع الناس القرآن والنبى ﷺ، صار علماء السوء يمشيان بالقرآن والنبى ﷺ خلف الطغاة، ولكل طاغية عالم يفصل له فتاواه كموديلات الأزياء، وهذا الذي ضيع الأندلس.
وهذا الذي جعل بلدان الإسلام تتهاوى كنجوم انتهى زيتها، فجعل الأمة

برسالتها ودورها، حطم الأمة، فدمرت بخارى، وتركستان، وبغداد، والشام، وفلسطين، وإندونيسية، وإفريقية، ومنذ أربعة قرون بلاد كثيرة من العالم الإسلامي ومنها: الفلبين والشيستان تحت النار وفوق النار، ولا بواقي لهم... والأندلس والقدس هما الجرح التاريخي.

تخلينا عن ممالك الأرض في الأندلس، وعن ممالك العلم، وعن ممالك الطب والصيدلة، وممالك الفلاحة، حتى وصل بنا الحال، أن تخلينا عن القراءة والكتابة، واحتفظنا بالجهل ودافعنا عنه، ومنتنا من أجله، وبعد أربعة قرون من التراجع، جاء المدرسون إلى مهابط الوحي، يعلمون الأطفال القراءة والكتابة وقراءة القرآن.

وهذا المجتمع المسلم والعرب خاصة منذ أربعة قرون عندما ذلوا أنفسهم، وأهّوا سفهاءهم، خرجوا من الأندلس، وخرجوا من التاريخ، وخرجوا من العلم، وخرجت سوءاتهم، ولم يجدوا ورقةً يخلصونها على عوراتهم، وبقيت على العرب خطوة هامة أن يتخلصوا من تأليه الدرهم والدينار، عندها، يُخلصون لأنفسهم، ولأمتهم، ولتاريخهم.

واسم السورة: الإخلاص، هذا اسم ومنهج، جاء وحي من الوحي، وليس من ذات النص، وكأنه سورة في سورة، وموازين الآخرة لا تتعامل إلا بالإخلاص، وتطرح الغناء والزبد، وأما ما ينفع الناس، فيمكث في الموازين، ولا يمكث بها إلا الإخلاص!!

ومشكلة بعض المسلمين المعاصرين، يد مع الرحمن، ويد مع الشيطان. وينسون أن هذا الدين لا يقبل القسمة، ولا يقبل الشراكة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾
وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾

ما الحكمة في سنة الصبح القبلية وغيرها من قراءة النبي مع الفاتحة ” سورة الكافرون و سورة الإخلاص؟

سورة الكافرون رمزية تصفية دينه من كل الأديان، ولا توجد شائبة ولا خلطة بين دين المسلم وبين الأديان الأخرى، و سورة الإخلاص رمزية الصفاء والنقاء فلا توجد شائبة بين العبد وربه، خلص دينه من نفسه وهواها والرياء والشراكة... وهذا التوحيد المطلق.

وهذه كوكبة من الآيات والأحاديث الشريفة بتوحيد من له التوحيد، وبتوحيد من له الأمر من قبل ومن بعد، وبتوحيد من يحيي ويميت، وكل ما في الكون مفتقر إليه، وهو الغني عن العالمين، فاختر لنفس اسم (الله) قُلْ هُوَ (الله) أَحَدٌ » ولم يتسم بهذا الاسم أحد من الطواغيت أو الحكماء أو المساكين أو المجانين^(١) فهو المتفرد باسمه وذاته وصفاته وليس كمثلته شيء وهو السميع العليم، فخاب وخسر من نسب له ولداً أو نداً أو شريكاً، فتعالى الله عما يصفون.

وقال تعالى: ﴿يَدْبِعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ يَكُونَ لَهُ، وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأنعام : ١٠١، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ

(١) وفي نهايات القرن العشرين نقلت الصحافة الخليجية نبأ ملياردير هندي تسمى باسم (الله) فمات بيومه!

هَذَا ٩٠ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ٩١ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ٩٣ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ٩٤ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ٩٥ ﴿٩٥﴾ مريم، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ الْأَنْبِيَاءُ، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا وَقَدَّ عَلِمَتِ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ الصفات، وهذه كوكبة من الأحاديث الشريف ترشدنا للإخلاص لله !! وبالبخاري -: ” لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدا، وهو يرزقهم ويعافيهم“ (١) .

وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ”قال الله، عز وجل: كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقله: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته. وأما شتمه إياي فقله: اتخذ الله ولدا. وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد“ (٢).

وعن سبب النزول سورة الإخلاص عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد، انسب لنا ربك، فأنزل الله: ”قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد“ (٣) .

وقيل من أسباب النزول: هناك من سأل النبي عن نسب ربه، ومن سأله عن صفته. من سأله عن ذاته: ما هو؟.

فبعلم الله الأزلي: أن هذا السؤال سيتكرر، فعلمنا الإجابة الحق، قل هو

(١) صحيح البخاري برقم (٦٠٩٩) من حديث أبي موسى، رضي الله عنه.

(٢) صحيح البخاري برقم (٤٩٧٤) ويرقم (٤٩٧٥).

(٣) المسند (١٣٣/٥).

الله أحد..، فكأن الله هو المجيب على هذا السؤال إلى يوم القيامة. لكل مسلم إذا سئل: يتلقى أمراً بالإجابة من الملائ الأعل:

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١)

والتركيز بالإسلام على التوحيد المطلق، لأن في الأرض ثنائيات في الأديان و ثنائيات بالآلهة وثلاثيات باسم الأب والرب والابن... ولعل أصل الثنائيات، والتعدديات من الهند الصينية ومن بقايا أديانهم البراهمة نسبة لإبراهيم، وانتشرت الثنائيات في بلاد فارس: إله النور وإله الظلام، ومنهم إلى أهل الكتاب...

وزاد ابن جرير والترمذي-قال: ”الصمد” الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جل جلاله لا يموت ولا يورث، ” ولم يكن له كفوا أحد ” ولم يكن له شبه ولا عدل، وليس كمثل شيء (١).

وعن عائشة: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ« قل هو الله أحد» فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «سلوه: لأي شيء يصنع ذلك؟». فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أخبروه أن الله تعالى يحبه» (٢).

وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: ”أعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟”. فشق ذلك عليهم وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: ”الله الواحد الصمد ثلث القرآن“ (٣).

(١) سنن الترمذي برقم (٣٣٦٤) وتفسير الطبري (٣٠/٢٢٣، ٢٢١).

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٣٧٥).

(٣) صحيح البخاري برقم (٥٠١٥).

وللمعوذات خصوصية الاستشفاء: وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما: ” قل هو الله أحد ” و ” قل أعوذ برب الفلق ” و ” قل أعوذ برب الناس ” ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات^(١).

والمسلم يأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وإذا عزم بالأمر أخذ التوكل على الله، وكأنه كل شيء، فينحي الأسباب الظاهرة ويصل الأمور بمشيئة الله، قوله تعالى: « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » قوله تعالى: « وما النصر إلا من عند الله » قوله تعالى: « وما تشاءون إلا أن يشاء الله »

وكم من إنسان نام معافى، فاستيقظ بشلل، أو جلطة، أو فشل كلوي أو سرطان أو عمى أو جنون أو هجوم لص على السرير والمسدس بيده، أو تهمة ظالمة أخذته للسجن؟؟

فجعل الله في المعوذات سبباً لدفع الشر والأذى المنظور وغير المنظور كالعين والحسد...كسبب الأدوية لرفع المرض.

وسميت سورة « الإخلاص » لأنها خلصت لله، ولم يذكر بها شيء من أمور الدنيا أو الآخرة، والإخلاص أن يستخلص هذا الدين مما يتناوشه من الهوى والنفس والرغبة والرهبة والشيطان والسلطان والجنة والنار.

وهي السورة التي انفردت للعقيدة بشكل مباشر، وجاءت العقيدة في القرآن كله بأسلوب غير مباشر، نحو: ﴿ أَنْظِرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾

(١) صحيح البخاري برقم (٥٠١٧) وسنن أبي داود برقم (٥٠٥٦) وسنن الترمذي برقم (٣٤٠٢) وسنن النسائي الكبرى برقم (١٠٦٢٤) وسنن ابن ماجه برقم (٣٨٧٥).

الأنعام: ٩٩، وقوله " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ وإلى السماء كيف رفعت؟... "

جاء الأسلوب سهلاً وبسيطاً يستوعبه الأمير والراعي، لأنه يخاطب الفطرة بأمة أمية، يخاطب النقاط الثابتة في الإنسان، يخاطب العقل والقلب، والعاطفة والروح، يخاطب القرآن وقت تنزيله أناساً لم تلعب بهم ريح الفلسفات، فاستجابوا له بالفطرة، وبعدها طراً على معظم العلوم كالعقيدة، والنحو والبلاغة... من تعقيدات المنطق وعلم الكلام، وفي بعض الأحيان تتقدم القاعدة على النص، وتصنع أمثلة صناعية لتدعم القاعدة، وكأنها قاعدة سماوية، وصار الطلبة يتهيئون النحو والعقيدة...، وكتب العقيدة مليئة بدقائق التفرجات... وربما لو أمتحن المهاجرون والأنصار في مثل هذه الكتب، قد لا يحالفهم الحظ الذي حالفهم في فتح بلاد فارس والروم.

الإخلاص: أن تنتهي الأنا من الفرد والمجتمع.

وجاءت سورة الإخلاص لتصفي عقائد الناس من آلهة الباطل، وفي زمن التنزيل الساحة مليئة بآلهة الحجر والبشر، وتتطور الآلهة تبعاً لسنن التطور ومما استجد في زماننا، كتأليه الطغاة، والحزب الواحد، والتعصب للسلطة، والفرق الرياضية، وأهل الفن، والشركات العابرة للقارات، واستماتة مندوبي المبيعات بأن كل واحد قد يؤله شركته، وكلما يتحول إلى شركة يؤهلها، ويتنقص السابقة، والخلاصة كل ما يخرج الإنسان عن الحق، بسبب هوى نفسه، فهذا إله هواه، « أرايت من اتخذ إلهه هواه ». وقد مرّ زمن ما، يسمى عصر الآلهة، نحو: إله الخير، والشر، والمطر، والشجر...

ولو أدرك آلهة زماننا عصر الإلهيات، لسموهم: آلهة النكد.

ونأمل من العاملين بحقل الدعوة أن يتابعوا بأنفسهم مستجدات التأليه المعاصر، وتنبه الناس إليها. ولا يتوقفوا عند اللات والعزى والآلهة القديمة. ولا ينسوا موديلات المتألهين الجدد.

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١

الله يأمر نبيه أمراً، ويقرره أولاً: قل: هو الله أحد... وثانياً: يبلغ الناس بما يأمره، لأهمية المسألة. والسؤال:

الضمير (هو) في أول الجملة، يعود على من؟ يعود على الإيمان المعلوم في الفطرة. ومن الأصول اللغوية أن يعود الضمير على اسم قد سبق ذكره، نحو: جاءنا زيد، هو رجل صالح... (هو) عاد على زيد، وأما في (قل: هو الله أحد) هو الله المعلوم في فطرة الإنسان، وهذا معنى دقيق عميق، يجب التوقف عنده، والتأمل فيه.

والفرق بين (أحد) و (واحد) في الحساب لا شيء، ولكن في التكوين (أحد) لم يؤخذ من شيء، ولا يؤخذ منه شيء، على عكس الواحد (كالكرسي) تجمع وتكون من عدة أشياء (من خشب ومسامير وغراء ولباد...) وعندما نحتاج منه شيئاً نستطع أخذ مسمار... طالما هو أخذ من أشياء، فتؤخذ منه أشياء، بينما (أحد) لم يؤخذ من شيء، ولا يؤخذ منه شيء.

اللَّهُ الصَّمَدُ ٢

الصمد: صَمَدٌ ثبت ثباتاً، ومن قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: صَمَدٌ صَمَدٌ حتى يتجلى لكم عمودُ الحق (المعجم الوسيط) والصمد: من بيده الأمر كله (وإليه يرجع الأمر كله) هود: ١٢٣. والصمد: السيد المقصود لحوائج

الناس، وهو العالم بجميع دقائق المعلومات ولا تغيب عنه دقيقة مهما تناهت في دقتها وسرها، والكل يحتاجه ولا يحتاج إلى أحد. هو أحد، وهو صمد.

وكلمة الصمد: مفردة حية في أريافنا، يقال للعريس وهو على كرسية: فلان مصمود، وتوضع الأشياء النادرة والنفيسة في صدر المجلس، ويقال: مصمودة، كون العيون تتعلق بالمصمود، كتعلق فلزات المعادن بالمغناطيس. وكل القلوب بسر خفي معلقة بخالقها الصمد.

لَمْ يَكِلِدْ

نفي للشبه والمجانسة، لأن الولد صنو أبيه، والعصا من العُصية، ورد على الزاعمين أن الله ولدًا” وقالت اليهود عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله“ ولم يلد في الماضي، ولن يلد في الحاضر والمستقبل.

وَلَمْ يُولَدْ

ما زعم سفيه أن الله والداً، أو أباً، ولكن زعموا بأن له ولداً، كونه القديم من الأزل: أولاً بلا بداية، وآخر بلا نهاية.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

ولم يكن، ولن يكون له مكافئاً أو مماثلاً أو شبيهاً، وليس كمثلته شيء، وكل ما يخطر ببالك، فهو ليس كذلك.

ونخلص بالمثل التالي: قد تحصل للمواطن العادي حاجة ضرورية، ثم يعلم هي حصرأ بيد الوزير...، فلا يضيع الوقت هنا وهناك، يذهب إلى من بيده الأمر، وكأن السورة تقول: اطلب أمرك ممن بيده الأمور، واطلب حاجتك بعز،

فلا يكون إلا المقدر.

وهذه قصة تبين كيف كان مفهوم الصحابة للإخلاص؟ وكيف يتحول الإخلاص إلى مصنع يصنع رجالاً، هم بشر، وليسوا كالبشر، بل هم ياقوتة والناس كالحجر.

كتب السير تنقل موقفاً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه، نزل مبارز من المشركين، على عليّ كرم الله وجهه فطال الزمن، وأجهد الاثنان، ففي مواجهة تقاربت بها الرؤوس، فبصق المشرك باتجاه الإمام علي، فخرج أبو الحسن من الحلبة، وقال لأصحابه أنزلوا إليه، فنزل عليه أحدهم وقتله، فبعد أن نصر الله الإسلام، جاء الصحابة يسألون علياً، لم خرجت؟

قال: كنت أقاتل من أجل الله، وبعدهما استفزني، سأقاتل من أجل علي، فإن قُتلت، أخاف ألا أكون شهيداً.

سورة الفلق مكية، وآياتها خمس،

وترتيبها بالقرآن (١١٣)

وبالتنزيل المكي (٢٠)

لم يعد مفهوم الفلق مقتصرًا على فلق الصبح، أو الشق الذي بين الليل والنهار، كما كان شائعاً، وما من شيء في هذا الكون، إلا وهو في كل لحظة فيه انفلاق وانشقاق، ليزداد كماً وكيفاً كالطفل، أو ليتنقص منه كالعجوز، وكل فلكة أو خلية تموت، تأتي مكانها خلية بحجم أختها، ولو زادت بالعدد أو بالحجم ضاق المحل، وتورم الموضع، وسموه سرطاناً.

والشروع تأتي بلا استئذان كالمصائب... والإنسان ليس مسؤولاً عن مجيئها ولكنه مسؤول عن عدم أخذ الاحتياطات اللازمة، وتنفيذ أمر النبي «اعقل، وتوكل» وعند ابن القيم «سورة الفلق من شر المصائب، وسورة الناس من شر المعايب»^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤﴾

ما العوذ؟^(٢) الحب والحماية والرعاية يتكرم بها الله على عبده كلما عاذ به، والعائذة من الأنعام كالنساء من النساء، والعائذة من الإبل والبقر والغزلان، يمشي وليدها في الساعات الأولى بكل اتجاه، وهي التي تجري وراءه وتحرسه، وتفديه أحياناً بروحها لمدة زمنية ما، وبعدها يصبح تبعاً، يتبعها أينما سارت.

(١) التفسير القيم، ٥٩٩-٦٠٠: بتصرف.

(٢) فصلنا الكلام في بداية التفسير عند الاستعاذة والبسملة حول العوذ...

والعوذ: هو حب، وحماية، وحراسة الرحمن الرحيم، لمن يطلبه.

ما فائدة الاستعاذة في كل حال من الأحوال؟

مادمننا نؤمن بأن كل شيء لا يتحرك إلا بإذن الله وعلمه، ولا يتوقف إلا بإذنه وعلمه، نفوضه أمرنا ونتوكل عليه قوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ !! الحج: ٧٨.

يتحصن الإنسان -هنا- باسم من أسماء الله "رب" ضد أربعة شرور، أولاً: من شر كل ما خلق: وثانياً: ومن شر غاسق إذا وقب، وثالثاً: ومن شر النفاثات في العقد، ورابعاً: ومن شر حاسد إذا حسد.

بينما في سورة الناس يتحصن الإنسان بثلاثة أسماء من أسماء الله، ضد شر واحد "رب.. وملك.. وإله الناس" من شر الوسواس.

الله يقرر نبيه، ويأمره، قل: إني عاجز، وعائد برب الفلق... أسلوب تربوي غير مباشر للناس، مادام هذا الحال مع النبي الكامل، فكيف الحال مع غيره من عامة الناس؟

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ

والله يعلم نبيه كيف يواجه الأخطار المنظورة وغير المنظورة؟

يأمر نبيه، ويعلمه، أن يستعيد برب الفلق، ويشهد الإنسان على نفسه بأنه ضعيف، حتى يخرج من غروره.

كان مفهوم الفلق متوقفاً على فلق الصبح، والآن في كل لحظة يحدث مليار، مليار، فلق وفي كل ثانية تنفلق أشياء لا حصر لها من حبات البقول ذات الفلقتين،

مثل الفول والعدس... ومن الإعجاز يكون وزن الفلقتين متساوياً^(١)، ومن الفلق المتجدد كالحلايا في جسم الكائنات الحية... فالقادر على ضبط فلق الكون وفلق الحبوب والخلايا مع العدد المتجدد والوزن المتساوي، قادر على ضبط الشر مهما كان دقيقاً، حتى الذي لا يرى بالعين المجردة كالمكروبات والفيروسات، ممن ينفلق وتنضبط حركته بقدرة القادر. وأي خلل بالوزن أو العدد أو الحجم في هذه المخلوقات غير المرئية، تكون نهاية الإنسان الموت.

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ٢

ومن شر كل موجودات الكون التي نعرفها ونحيط بها، والتي لا نعرفها ولا نحيط بها، و"ما" تستخدم لغير العاقل، ولعل الإنسان والجان ممن يؤذون ويفسدون في الأرض خرطهم الله في سلك "ما" مع غير العاقلين، وفي هذا إهانة لأهل الشر.

وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣

فيها ملحظان:

تعيين وقت معين بعد الغروب، له شر خاص به، ولا تحيط به قدراتنا. وصرفه المفسرون نحو العقارب والزواحف، التي تبدأ تدب على الأرض في هذا الوقت، وهذا من المعقول... وجاءت غاسق نكرة، لصعوبة تحديده وغموضه، أو لعمومه وشموليته.

والقرآن له عطاءات حاضرة وقربية، وله عطاءات بعيدة العمق، وتنتظر الزمن الذي سيولد به كشف السر، لأن له مستوى من الناس ينتظره، كما جاءت

(١) قمنا بتجربة أخذنا عدة حبات من الفول والعدس والحمص، ووزنا كل فلقتين من حبة واحدة، بميزان الذهب، فكان وزنها واحداً، دليل على القدرة المطلقة في تساوي الفلق.

في عصرنا إعجازات تطور الجنين في عالم الأرحام، وكان لها من ينتظرها من مسلم وغير مسلم، وأحدثت هزة في الملاحظة. وتثبيتاً لتأرجحي الإيمان. مشكلة النفاثات لغوية: مثل عالم، وعلامة، وعلامات، ومثلها: نافث، ونفّاثه، ونفّاثات. لا وجود للسحر والساحرات؟

وَمِنْ شَكْرِ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ٤

لقد مال كثير من المفسرين نحو: النساء الساحرات النفاثات اللواتي ينفثن في عقد خيط السحر، والذي قوى عندهم هذا التوجه (الألف والتاء: علامة جمع المؤنث السالم) في النفاثات. وقد أبعدها كثيراً لأمرين: النساء هن ضحايا السحرة والدجالين من الرجال، وقليل من النساء يدخلن سوق الدجل.

المسألة من المتشابه اللغوي فلبست على الكثيرين، وتحريرها: نافث، اسم فاعل، ونفّاثه، للمبالغة والتعظيم، وجمع نفّاثه: نفّاثات، تصلح للمذكر والمؤنث، مثل: عالم، وعلامة، وعلامات. والدة، ولّادة، ولّادات.^(١)

وقيل في سبب نزولها، ما جاء في الصحيحين، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: سحر النبي صلى الله عليه وسلم، حتى أنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي، دعا الله، ودعاه، ثم قال: أشعرت يا عائشة أن الله افتاني فيما استفتيته فيه؟ قلت وما ذاك يا رسول الله؟

فقال جاءني رجلان، فجلس أحدهما على رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب (هنا بمعنى مسحور) قال ومن طبه؟

(١) تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، محمد رشيد رضا، ص: ١٠٦، بعض المعنى مستفاد منه، بتصرف.

قال لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق، قال فيم ذا؟ في مشط ومشاطة (الشعر العالق) وجُفّ (قحف الطلع) طلعة ذكر، قال: وأين هو؟ قال في (بير ذي أروان، ومنهم قال: بئر (ذروان) بئر في بني زريق، فذهب النبي صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: والله لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين“ قلت يارسول الله، أفأخرجته؟ قال“ لا أما أنا فقد عافاني الله، وشفاني، وخشيت أن أثور على الناس منه شراً» وأمر بها فدفت.

وفي رواية للشيخين: كان صلى الله عليه وسلم سحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، بنحوه، والمراد من هذا السحر بأنه خاص بمسألة مباشرة النساء ولعدة أيام...

ولكن هناك من بالغ وقال أثر السحر في عقله وجسده، ومنهم من أوصل المدة لشهرين، وهذا ما هيج الدنيا ولم يقعدا إلى اليوم، وبرزت ثلاثة اتجاهات، وكل منهم عنده شيء من الصواب.

فريق من علماء المعقول أنكروه وعدوه مطعناً بالنبوة ومنافياً للعصمة ومخالفاً للنص القطعي، وحشدوا لذلك أدلتهم من القرآن والسنة والعقل.

وفريق من علماء المنقول، قالوا: إن السحر غاية ما أثر به في جسده دون عقله وروحه، والأنبياء لم يعصموا من الأمراض، فيمرضون كما تمرض الناس.

وفريق ثالث يرى الحديث الذي ورد عند الشيخين عن هشام عن عائشة فيه علة، أعلوه بهشام، وكتب فيه أهل الجرح والتعديل كتباً، فلهذا السبب نزل من القطعي للظني، والحديث آحادي، وهو يفيد الظن ويرد بالقطعي، وأحاديث الآحاد لا يحتج بها في أصول العقائد، وكونه يفيد الظن، خاص بمن صح عندهم

من يتأولون النصوص المعارضة للنقل.^(١)

السورتان مكيتان، ووقع الحدث في المدينة كما في الرواية..

والمتصيدون من المستشرقين وربائبهم الذين في جحورنا، ظنوا أنهم وجدوا ضالتهم، وضخموا المسألة، وشككوا في عصمة النبي... وخطورة المسألة أي اختراق للقرآن أو النبي مهما كان صغيراً، نتائجه كارثية، لم يبق صحابة، ولا تاريخ ولا مذاهب أربعة، ولا...

وهناك من أهل النقل يتعصب تعصباً يفقده توازنه، ويريد تصحيح الواقعة مهما كان الثمن، وقد كنت أفسر سورة الفلق في شهر رمضان بمدينة الباب المحروسة، وعرضت هذه الآراء، وهناك من اقتطعها من السياق، نحو "ويل للمصلين" فقلت لمن اتهمني وأشاع عليّ أني ممن ينكر البخاري أو مسلماً - سامحه الله - فقلت له: في صحيح مسلم حوالي خمسة آلاف حديث صحيح غير مكرر، لوراح حديث واحد بقي (٤٩٩٩) كلها صحيحة، ولكن لوراح رسول الله، أو اهترت عصمته، لم يبق شيء من الصحابة والمذاهب الفقهية ودولة بني أمية والعباسيين.... تدمر كل شيء.^(٢)

(١) تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، محمد رشيد رضا، ص: ١١٠، ملخص كلام طويل.

(٢) متى تنتهي من المزايدة في الدين والوطنية؟ هذه غيبة وعي ثقافي وأخلاقي، وهي مشكلة الأنصاف حسدية، فمن يزايد على دين الناس، لا يستطيع أن يثبت أنه الوصي الشرعي على هذا الدين بعد محمد، ويقدم لنا الوصية، ولا يستطيع أن يثبت أن أباه أبو بكر، وأن الآخرين أبوهم أبو جهل، والأقرع لو قصّ كل جداول الناس، لن يطلع شعر رأسه، وقصير القامة لو قطع كل السيقان الطويلة، لن تطول ساقاه!!

والوطنجي لا يستطيع أن يثبت أنه ابن الأرض وغيره جاء مهاجراً من روسية مع يهود الدونمة. جاءني ضيف مدرس بجدة من خاصتي ١٤٠٧ هـ (وطنجي) قلت له مداعباً: حاج سوري بصحن الطواف يسأل عن القبلة حتى يصلي؟ فاستنفر الرفيق... الصمود والتصدي..

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥

الحسد طاقة خلاقة وضعها الله في الإنسان من أجل التحفيز والقيام بعمارة الأرض، ومثال ذلك: عندما يتخرج طبيب من الحي الفقير أو العائلة المستورة... يتحرك الحسد بالأسر المجاورة، فتتحرك أبناءها، وتبدأ المنافسة المحمودة، ولكن عندما يخرج الحسد عن مجراه الطبيعي، تبدأ الأزمة، كالدم مادام في الأوردة يقوم بمهمته، وعندما يخرج ويسيل على الجلد، صار نجساً، وقد يهدد حياة صاحبه باستمرار النزيف، وعندما تتحرك الأسر مع أبنائها نحو الطب نعمة، ولكن لو تصيدوا سقطات الطبيب، وأشاعوا حوله الإشاعات، حتى يؤذوه، هنا الحاسد حسد حقاً، وكل الخلافات مع الأهل والجيران بفعل الحسد لأنهم في منطقة الاحتكاك، فلا يمكن أن يحسد أهل الهند، واحداً في الشام، وتبدأ المشاكلات عندما يخرج الحسد عن مجراه.

والحسد درجات تبعاً للنتائج وخطورتها، فمثلاً حسد الضرائر مسيطر عليه من المجتمع، وحسد العلماء شر مستطير كل منهم يملك سلاح الكلمة المشحونة بالعاطفة الدينية، وعنده من يسمع له، فقد مات علماء، وعذب آخرون، وهاجر بعضهم ومات في المنفى، بسبب حسد ضعيفهم لقويهم، ويُسعدى عليهم بالسلطان، ويأتي حسد الملوك والساسة فهو الطامة الكبرى، فيصنعون الحروب والمكائد، ويموت من يموت وهم في غرفاتهم آمنون، ومع جوارهم نائمون، وهم يشعلون النيران ويكون الجنود حطبها، وربما لأسباب تافهة، وربما لنزوة شخصية جسدية.

ومن شر حاسد، إذا حسد، أصل الحسد حميد، وإذا فَعَلَ صار خبيثاً.
ومن شر غاسق، إذا وقب، أصل الوقوب حميد، وإذا فَعَلَ صار خبيثاً. لكن ما هو الوقوب؟ لم أفق على تفسير يشفي ما بنفسي، لكل أجل كتاب!! سورة الفلق سورة المصائب، و سورة الناس سورة المعايب.

سورة الناس مكية، وآياتها ست،

وترتيبها بالقرآن (١١٤)

وبالتنزيل المكي (٢١)

وسورة الفاتحة و سورة الناس مكيتان ، وهما كجفني العين، ودفتي الكتاب، وبينهما القرآن.

فهما كالعينين والأذنين والكليتين الرسالة واحدة، وهما قرآن كريم، وإن فضل الله آية على آية أو سورة على سورة، فهذا شأن الله، وهذا أمره، وله الأمر كله، ولا يتعدى لغيره.

وهذه السورة تصف داءً دويماً، وتحدد علاجه، وتخبّر كل فرد بأنه ضعيف وحده، ولا طاقة له بالوسواس وجنوده، وتندره من شر معركة، تبدأ من الطفولة حتى الوفاة، وهي أطول وأخطر معركة يخوضها الإنسان، مع عدو خطير جداً، ساحتها مستورة حيناً ومكشوفة حيناً آخر ولا يمكن للإنسان أن يغلب الموسوس منفرداً، إلا إذا استعان بربه، ومجرد أن يغفل، نزل الموسوس على الإنسان، كما ينزل المطر على رؤوس الناس، ولا يفرق بين صغير وكبير وأمير ووزير، والكل مقهور تحته، إلا من بيده مظلة ربانية تقيه الوسوسة كما تقيه المطر، ومجرد أن أغلقها أصابه المطر لا محالة. ويصيب الناس جميعاً مهما كثر العدد، وكأنه يصيب فرداً واحداً.

إن كانت سورة الفلق سورة المصائب، فإن سورة الناس سورة المعايب، سورة ظلّم الإنسان لنفسه، وهذا آدم وسوس له، فعصى، فخرجت سواته ومعايبه. وكان يكفيه أن يقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ
وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

ماذا يفهم الأعرابي الذي عاصر التنزيل، من " قُلْ ... " وتأتي في أول الكلام؟ أي: قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ؟ أي قل يا محمد: إني عائد، وعاجز، ولائذ بك ياربي. يفهم منها الأعرابي، أن الله يقرر نبيه، بأنه ضعيف وبحاجة إليه، فالاعتراف بالعجز والضعف لله عزَّ العبودية. ويفهم بأن سيد الأنبياء بحاجة إلى الله، فكيف حال العباد؟ وهذا درس لمن له قلب ورب.

والله غني عن العالمين.

ما العوذ؟: ^(١) الحب والحماية والرعاية يتكرم بها الله على عبده كلما عاذ به، والعائذة من الأنعام كالنفساء من النساء، والعائذة من الإبل والبقر والغزلان، يمشي وليدها في الساعات الأولى بكل اتجاه، وهي التي تجري وراءه وتحرسه، وتفديه أحياناً بروحها لمدة زمنية ما، وبعدها يصبح تبيعاً، يتبعها أينما سارت.

والعوذ: هو حب، وحماية، وحراسة الرحمن الرحيم، لمن يطلبه.

ما فائدة الاستعاذة في كل حال من الأحوال؟

وكم من فتنة أطفأها الله ببركة الاستعاذة قبل، وأثناء، وبعد الحدث، فلا يترك لها ذيولاً؟

(١) فصلنا الكلام في بداية التفسير عند الاستعاذة وبسملة حول العوذ...

وكم من حالة طلاق صرفها الله ببركة الاستعاذة؟ وكم من مفسدة دُعي الإنسان إليها ولبي، وفي الطريق استعاذ بالله من هذه الدعوة المشؤومة، فغير الله اتجاهه عند الباب أو بعد الدخول إلى ملعب الشيطان؟

وقد بدأت أول معركة للوسواس الخناس مع أبينا آدم عليه الصلاة والسلام في الجنة، فلم يستعد هو وزوجته، فخرجا منها، وهما يَخْصِفَانِ عَلَيْهَا من ورق الجنة، جمع الله عليهما أمرين: الإهباط، وكشف ما كان مستوراً، وفي هذا رسالة دقيقة لذرية آدم، رسالة تستبطن التهديد بكشف معايبهم على الملائكة، فأدم وحواء عليهما السلام ما كان عندهما من ذنب سوى لم يلتزما « نهياً واحداً » عدم الاقتراب من الشجرة، فالتزما ولم يقرباها، فأفتى لهم إبليس بأن يأتي لهم بالفاكهة، بدون أن يقربا الشجرة، فأكلا، فوقع الواقعة، والعبرة من قصة آدم وزوجه عليهما السلام، مخالفة واحدة كُشِفَتْ سَوَاتِمَهُمَا، وتوحي بأن الأوامر صارمة! مادام الذين داخل الجنة خرجوا منها بمخالفة واحدة، فكيف بالذين خارج الجنة، وعندهم مخالفات يومية وتحذوهم الأمانى والوهم المريح؟

... رَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ

شرف المضاف على المضاف إليه، أضاف اسمه ثلاث مرات للناس ليكرمهم، ويعظمهم، ويرفعهم على خلقه، ومن قبل أسجد لأبيهم آدم عليه السلام الملائكة، وهذا الشرف لا يثمنه إلا عاقل، ويرتقي بنفسه إلى هذا التكريم إلا ذو حظ عظيم.

بالفلق اسم لله واحد يدفع أربعة شرور، وبالناس ثلاثة أسماء لله لتدفع شرّاً واحداً

رَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ

والسؤال: لماذا استعاذ في سورة الفلق من أربعة شرور: من شر ما خلق، ومن شر الغاسق، وشر النفاثات، وشر الحسد باسم ”رب الفلق“ وفي سورة الناس استعاذ بثلاثة من أسماء الله: رب الناس، وملك الناس، وإله الناس من شر الوسواس، من شر واحد، فكل المصائب الدنيوية مدفوعة ”برب الفلق“ وقد تعوض، ولكن مصائب الوسوسة والفضائح لخطورتها تحتاج إلى رب، وملك، وإله الناس... ومنهم من يعلل هذا التدرج بقوله: فبدأ باسم المربي وأسلوب الحوار لدفع المكروه، ولما لم يندفع تحوّل للسلطان والملك، ولما لم يندفع، تحوّل إلى الله^(١) ومنهم من قال تدرج مع مراحل العمر، فالطفولة لها رب الناس، والرجولة لها السلطان والملك، والشيخوخة تنقطع لعبادة إله الناس، وهناك دندنة عذبة كثيرة، لأهل العلم للمها د. السامري رَّبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ وجاءت الأسماء الثلاثة ليس بينها حرف عطف، حتى لا يظن أن الآلهة متعددة، بل هي ذات واحدة. وهنا لفظة قيمة لابن القيم^(٢) ومن دقائق النظم شرف المضاف على المضاف إليه، أضاف اسمه ثلاث مرات للناس ليكرمهم، ويعظمهم، ويرفعهم على خلقه، ومن قبل أسجد لأبيهم آدم عليه السلام الملائكة، وهذا الشرف لا يثمنه إلا عاقل، ويرتقي بنفسه إلى هذا التكريم إلا ذو حظ عظيم.

رَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ

وهب الله العائد ثلاثة دروع وقاية وحماية، بثلاثة أسماء من أسمائه، ولكل اسم قدرات وطاقات خاصة به، فقدم ربَّ الناس، لو عاذ الناس به جميعاً وبلحظة واحدة، وسعهم حبه ولطفه، وثنى بملك الناس، الذي يملكهم سواءً

(١) بعض المعنى مقتبس من تفسير البحر المحيط، لأبي حيان، ج ١٠: ص ٥٧٨.

(٢) التفسير البياني، د السامرائي، بتصرف.

كانوا ساجدين خاشعين راضين، أو خاضعين مقهورين كالكافرين، وثلث بإله الناس، الذي لا يعبد ولا يطاع سواه.

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾

ما الوسواس؟ وشره؟ وقدراته؟

دارت رحي الأفكار حول ثلاثة مصادر، قيل: الشيطان، وقيل النفس وهوها مجازاً، وقيل قرين السوء مجازاً. على مبدأ: تعددت الأسباب والموت واحد.

ومن قدرات الوسواس، معرفة نقاط الضعف عند الناس، فكانت نقطة الضعف عند آدم حب التملك الزائد عن الحاجة، ففوضه ربه بالجنة كلها، إلا شجرة أو شجيرة، فأخذ إبليس آدم وحده منفرداً - أولاً - فروضه، ثم أخذه وزوجه - كخطوة ثانية - عليهما السلام نحو الشجرة المحظورة، قوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ؟﴾ طه: ١٢٠. فجاءه من باب الطمع وحب التملك، ثم جاءهما في الجولة الثانية، قوله تعالى: فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ماووري عنهما «٧: ٢٠». فانكشف ما كان مستوراً منها.

ومن حيل إبليس إنه شجع آدم على الأكل من الشجرة، فجاء له بثمرة الشجرة وهو بعيد عنها، ولو حرضه على القرب من الشجرة عندها ينتبه آدم عليه السلام، ونسي آدم لو أكل من الشجرة، اقترب كل الاقتراب!!

فلو كانت حواء قوية شخصية، لأنقذت الموقف، ولكن على الأعم الأغلب الزوج هو الذي يجر زوجته معه. وكم من زوجة نبتت في بيت فضيلة، وكانت نهايتها في السجن لأن الزوج أطعمها من شجرة آدم أو أشركها معه في بيع الممنوعات؟

ما الخنَّاس؟

خنس الشيطان لا يكون إلا بالذكر، فيرجع إلى الوراثة وينكمش، وخنس النفس، يكون بالإيمان والقرآن.

الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ

وسوس الشيطان له، وإليه، وأصل الوسوسة هي الكلام الخفي الذي يغري به الموسوس ضحيته، ويزين له الشر، وأطلق مجازاً ومبالغةً على الشيطان. وكان يكفي آدم عليه السلام هو وزوجه، أن يستعيذا بالله من الشيطان، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ..﴾ الحجر: ٤٢.

والسؤال: كيف يبقى المسلم مع ربه، وهو في بيعه وشرائه، يدافع الوسواس؟ وكيف يحارب المسلم العدو، ويؤدي صلاة المسايقة، ويدافع الوسواس؟ عليه أن يسدد، ويقارب!

وخلاصة كلام ابن عربي رحمه الله: (١)

يكون المسلم حاله مع الوسواس حال صلاة الخائف أثناء المسايقة، يستمد العون من الله، لأنه أقرب إليه من جبل الوريد في تلك اللحظة، ويصلي بالإشارة والإيماء، وبما يتاح له ولو أقل القليل، ويقرأ، بما يقرأ، المهم إنجاز الصلاة، وإنجاز الجهاد، فالوسواس إن لم يستطع إخراجه، عما افترض عليه، سيأتيه من كل الجوانب، مثلاً: أنت تقاتل لماذا؟ هذا ليس بجهاد...؟ أو حتى يقال عنك: بطل... المهم أن يفيل العزم.

ولأهمية الأمر وخطورة القضية، بدأت السورة بالأمر (قل أعوذ...)

(١) تفسير ابن عربي، ج ٥٦٠: ٤. بتصرف.

ومادام النبي صلى الله عليه وسلم مع كماله خوطب بلغة الأمر والتحفيز، وما دونه من البشر بحاجة إلى عدة أوامر، مع نهرٍ وزجرٍ تبعاً لخطورة المسألة.

ومن خطورة الوسوسة قد ينتحر الإنسان، وقد يقتل شخصاً لمجرد شبهة بسيطة. ومعظم الفتن الكبرى الجماعية التي قد تشتعل نارها بالوسوسة، ومعظم القرارات المصيرية الخاطئة للأفراد والأمم من وسوسة توهمهم بشر قادم، وبعدها: ولات حين مندم!

الموسوس يسكن الصدر، ويتحدى أجهزة التصوير، تكتشفه.

وهذه السورة تكشف لنا سراً خطيراً، عندما يحدد الله مكان وجود الوسواس، ويتحدى جميع أجهزة التصوير أن تلتقطه، ويعلمنا الله كيف نضبط صمّام الأمان في دواخلنا، ونأمن على أنفسنا من أنفسنا، ونأمن على الآخرين من أنفسنا؟. لأنه لا يمكن الجمع بين أمرين متباعدين، الإيمان بالله وأذى الناس.

الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾

قال: يوسوس في صدور الناس، ولم يقل: في صدور المسلمين، أو المؤمنين، لأنها عامرة بالله، محروسة من الله، وإن تسلل الموسوس إلى صدر أحد من المسلمين، هذا دليل على خلل في الأبواب والنوافذ...خلل في لقمة الطعام، وشربة الماء...فهناك من يهتم بمظهره الشكلي الإسلامي، ويشكر على ذلك، ولا يهتم بما يأكل ويشرب، ويشكو من نكد زوجه وأولاده...لقد أطعمهم حراماً، وأدّمهم بحرام، ويريدهم أولياء!! تلك لعمرى!! قاصمة الظهر..

نقول له: اطعمهم حلالاً بحلالٍ، قد ينجح المشروع، وقد لا ينجح، وقصة ابني آدم، أطعمهم حلالاً، أحدهما صالحاً ربانياً، والآخر مجرماً، ومثله نوح مع ولده الذي أبى أن يركب مع أبيه، وأولاد يعقوب نكبوه بيوسف، وابن آدم قاتل

أخيه بلا سبب، وكل البشرية من ذريته تتوارث الإجرام إلا ما رحم ربي.
وساحة المعركة المفتوحة أمام الوسواس في (مليارات) الصدور البشرية،
وعنده قدرة أن يوسوس بها جميعاً في لحظة واحدة كالأكسجين يعمل بها جميعاً،
وينوع بين فتن نفسية، وفردية، وجماعية...

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

هناك بعض الجنة وهناك بعض الناس، يعشقون هذا الدور، العدواني على
الإنسان ولا سيما الصالح.

والخطورة في الموسوس البشري، تكمن أنه من البطانة الخاصة، بل هو من
الأهل والجيران وقرناء السوء وممن نثق بهم، فنركن لهم، لأننا نؤمنهم. «ويؤتى
الحذر من مأمنه». والبطانة الفاسدة أفسدت علينا تجاراً، وعباقرة، وساسة...

والموسوس البشري لا يرتدع بالسرعة التي يرتدع بها الشيطان، وتاريخ
سفهاء الإنس مع الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- والعلماء والصالحين،
تاريخ دام من قتل وسجن وتشريد، بينما قد لا يستطيع خبثاء الجن أن يخالطوا
الأنبياء، وقدم سفهاء الإنس على سفهاء الجن في مسألة الأذى بسبب المخالطة،
كما في التنزيل " وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن " وعصم
الله الأنبياء من تسلط شياطين الجن، كما في التنزيل " إن عبادي ليس لك عليهم
سلطان، إلا من اتبعك من الغاوين " ولم يعصم الله الأنبياء من أذى الناس، لذلك
قُتل بعض الأنبياء، وضربوا، وجرحوا.... في سبيل الله.

المعركة غير متكافئة بكل المقاييس مع الموسوسين، إلا باللجوء والاستعاذة.

والسؤال: هل ساحة المعركة عند الوسواس هي صدور الجميع؟ نعم!
ولكنه يخص المؤمنين المستقيمين بالتحدي والتصدي.

ولماذا يخص المستقيمين؟

عندما سجد الملائكة لآدم إلا إبليس أبى، فيقوم بوسوسته حتى ينحرف المستقيم الصالح عندها يبرر عدم سجوده لآدم، ليس رفضاً لأمر الله، ولكن آدم لا يستحق السجود، والدليل العملي يومياً يتصيد آفاً مؤلفة من الحجاج والمشايخ وأصحاب العمام من الذين يبررون لأنفسهم ما يشتهون، والويل لمن يذكر انحرافاتهم السياسية أو المالية، أو أزواجهم أو أولادهم بخلل، حتى دجاجهم معه حصانة، دجاج مولانا سماحة الشيخ !! ويظنون أنهم يحسنون صنعاً.

ونسوا: إن الإسلام موقف، والموقف دين!! كلمة الحق موقف“ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى، قال: يا قوم اتبعوا المرسلين...” فكان شهيد موقف.

والوسواس لا يوفر أحداً في الشر والأذى، ولكن له مع المؤمنين هدف خاص، كونهم الذين يمشون على الصراط المستقيم، لأن الشيطان قال لربه: لأقعدن لهم صراطك المستقيم“ لا يوجد إلا صراط واحد ومستقيم واحد، وبقية الطرق كلها معوجة وملتوية، وتؤدي إلى جهنم.

فالله أقرب إليهم من نفوسهم ومن حبل الوريد، و الموسوس يسكن في صدورهم، وهذا سر يتحدى أجهزة التصوير أن تكتشفه، والمحل لا يجتمع به نور ونار، فإن وجد النور، خنس الخناس، وإذا ناس النور، طلّ الخناس برأسه.

والإنسان بمفرده لا يستطيع دفع الوسواس، وهذا الذي أسجد الله له الملائكة، وخلق بيده، ونفخ فيه من روحه، أخرجه الوسواس من الجنة، وكُشف سواته، وأهبط إلى الأرض، وشقي. فكان يكفيه أن يستعيد بالله مرة واحدة، ويبقى في النعيم مقيماً.

الفصل الثالث

الخاتمة :

القرآن فاعل لا منفعل، مؤثر لا متأثر، صانع لا مصنوع، أمر لا مأمور.
حي ومحبي، كريم كرم نفاسة، وكرم ندرة، وكرم عطاء...
إن عدتم إلى القرآن عدنا لنصركم وشد أزركم، ورفعناكم، وإذللنا عدوكم.
وهذه أهم ملامح خريطة المستقبل لهذه الأمة، والنهوض بها، بعدما تحققت
شكوى الرسول: « وقال الرسول: يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ».
ونأخذ أهم نقطتين:

لماذا هجر معظم الأمة القرآن، وأقبل عليه علماء الغرب وعظماؤهم؟
هجر الأمة للقرآن بسبب جهلها ، كراع يحمل كمبيوتر!! بينما عظماء
الغرب، بعد أن عرفوه، ارتفعوا إلى مستوى الأسلمة، فأسلموا، وسنذكر بعض
الشواهد.

تحديد انطلاق الدعوة من القرآن أقوى وأنجح لها، من الانطلاق من القرن
الثالث أو السابع.. ، أو الانطلاق من كتاب عالم جليل لا يستوي مع الإنطلاق
من القرآن، والعالم غير معصوم، فهو يخطئ ويصيب، ولا يوجد دليل من يخالفه
يذهب للنار، ومن يتعصبون له يلزمون أنفسهم وغيرهم بآرائه. وآراؤه انطباع
عن القرآن، وليست قرآناً.

”خذ القرآن من القرآن“

١- معذرة إلى القرآن العظيم، الحكيم، المجيد، الكريم، المبين...!! ممن
هجروه، وتحولوا إلى الهوى، وبهم هوى.

تعددت صفات القرآن والموصوف واحد، الذي زكاه الله وأثنى عليه بها،

وكل واحدة من هذه الصفات أمة وحدها، تهدي للتي هي أقوم.
كما أن لله تسعة وتسعين اسماً، ولرسول الله أربعين اسماً، وأسماء وصفات القرآن في القرآن كثيرة منها، كتاب ونور وذكر...

وهذه شهادة رمز تاريخي من رموز الغرب، أعرضها على بعض أحفاد الصحابة العقوقيين، الذين يولون وجوههم هنا وهناك إلا نحو القرآن الكريم!
وهذا رمز عسكري تاريخي "نابليون بونابرت" ١٧٦٩م-ت: ١٨٢١م، بعد أن أفرج عن مذكراته وبخط يده، صار إسلامه محل أخذ ورد عند قومه الآن، وأفصح بإعجابه الشديد بعبقرية النبي ﷺ، وبأنه أعظم قائد عرفه التاريخ، وأشاد بالتشريع الإسلامي، وعندما رجع من حملته على مصر، أخذ معه فقه الإمام مالك، وصاغ منه القانون المدني، ولكن خضعه لحضارتهم، وخدم بلاده وميزها على أوروبا بهذه النقلة القانونية، كونه المذهب السائد بمصر آنذاك، يقول في الباب الرابع من مذكراته نقلاً عن مجلة الوعي^(١):

« أرجو ألا يكون قد فات الوقت عليّ بأن أوحّد جميع العاقلين والمثقفين في الدولة، وأنشئ حكماً متناسقاً ومؤسساً على نظام القرآن الكريم ومعطياته، ومعطيات القرآن كونها الوحيدة الصادقة، والتي بإمكانها قيادة العالم نحو السعادة، بينما المسيحية تبشر بالعبودية والتبعية. » ويقول: إن الرسول محمداً أول من أحدث تغييراً ثورياً في العقيدة العسكرية، فجعل أتباعه يقاتلون تحت راية الدين، وأول من أوجد مفهوم الأمة لتحل محل الولاءات القبلية....»

ويقول: جاء الدين الإسلامي بنظام متكامل، وحل محل الأنظمة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السائدة « ويقول عن محمد ﷺ: أول من أوجد الحرب

(١) مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، العدد ٥٥٩ ربيع أول ١٤٣٣هـ - يناير ٢٠١٢م بتصرف شديد.

النفسية بالعلوم العسكرية، ويقول: أقنع أتباعه بأن ما يقومون به هو تنفيذ لأوامر الله، ومن هنا تولد مفهوم الحرب المقدسة، وجعل الدين المصدر الوحيد لتوحيد القلوب والصفوف، والمساواة بين الأمير والمقاتل والراعي. وأقنع جنوده بأن ثمن قتالهم الجنة، لذلك كانوا لا يهابون الموت، ولولا نجاحه العسكري الهائل ما كان له بفترة قصيرة يغزو إمبراطوريتين عمرهما بضعة قرون، ويتغلب عليهما غالباً من الجولة الأولى....“ بتصرف.

٢- نجاح المسلمين متوقف على قدرتهم بالجمع بين المادة والروح كجناحي طائر ضمن النسب المسموح بها شرعاً:

اهتم نابليون كقائد وزعيم وعسكري عن الأشياء الحسية التي تقع ضمن ثقافته وتخصبه، ونسي أمراً هاماً، أو غفل عنه، وهو الجانب الروحي في الإسلام، أو الطاقة الروحية في الإسلام، كون الإسلام كالتائر يقوم بجناحين أحدهما حسي، والآخر روحي، والعالم الإسلامي المعاصر، إذا ما تكلم عن الجهاد والمجاهدين، ينجل أن يتكلم عن الغيب والكرامات التي يهديها الغيب لنا، حتى لا يتهم من الغرب بالخبيل والجنون والتخلف.

فالقوة الروحية التي ألفت بين القلوب، والله يقول: «ولكن الله أَلْفٌ» وألّف: فعل ماضٍ، أي بين قلوبهم من يوم قالوا: بلى؟ وهذا الذي جعل المسلمين يتسابقون إلى الموت.

ويقول د. عمارة: “فإن تجديد واقع الأمة بالقرآن، وإحياء مواتها بالقرآن، وللأمة تجربة سابقة عندما قادهم القرآن للحياة:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢٤) الأنفال.

وإخراجها من حالة الضعف والهوان، كما أخرجها من قبل، وكانت أشد ضعفاً وهواناً:

وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَعَاوَنَكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ. وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾

وتحويل المذلة إلى عزة، لأن معزة الإسلام مستمدة من عزة الله ورسوله: « وَاللَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » وهو القادر على أن ينقلكم نقلتين، الأولى: يصلحكم بجذركم الحضاري الذي انقطعتم عنه منذ عدة قرون، والنقلة الأخرى: يلحقكم بركب الحضارة المعاصرة، وتحديدًا:

- التقنية.

- الإدارة.

ولا حاجة للأمة بأخلاق الغرب. لأنهم ليسوا أسوة أو قدوة لنا.

والقرآن يدفع المسلمين من العالم الثالث إلى المقدمة وإلى العالم الرائد الشاهد: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴿١٤٠﴾ آل عمران (١)

٣- عوامل النهوض بالأمة موجودة من خلال القرآن:

وبعد القفزة العلمية الهائلة في شتى مناحي الحياة، وبدأ اللعب على المكشوف، ولم تعد هناك أسرار ومخبات، وبدأت تتحقق نبوءة القرآن الحكيم "ولا يزالون يقاتلونكم، حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا" ويقول د. مراد

(١) من كتاب: هل الإسلام هو الحل؟ لماذا؟ وكيف؟ من الصفحة ٢٠٠ وما بعد بتصرف شديد. دار

الشروق القاهرية، ط. ١٤١٨، ٢هـ-١٩٩٨م

هوفمان: بقيت أربع سنوات مديراً للحلف الأطلسي، ورأيت كيف يخططون للقضاء على الإسلام أو لتشويه صورته؟“^(١)

ومشكلتنا اليوم بالادارة والتنظيم على صعود الباص والفرن:

-تنقصنا الإرادة!

-وينقصنا التنظيم...مثال بسيط، زكاة الفطر، كل المسلمين يخرجونها تقريباً، بمقدار دولار، لو جمعوا ملياراً ونصف مليار سنوياً بأيدي متوضئة، يفعل الكثير. فأين التنظيم؟

ومبشرات الصحوة الإسلامية تتنامى ساعة بعد ساعة، تحقيقاً لقوله تعالى: هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون“ وآية أخرى“ ولو كره المشركون“ إن الله ضامن لكل عهوده، وضامن لتحقيق وعوده.

ولعل أحمأ مشفقاً عليّ، يقول: أنت متفائل أكثر من اللازم، نعم، متفائل، ولكنني أتكلم، وأرى، وأحس بالمخاض الذي علمنا إياه رسول الله، عندما كان شريداً طريداً، وهما اثنان لا ثالث لهما إلا الله، ولحقه سراقه، فمناه، وبشره، وتنبأ له بسواري كسرى، وقد تحقق ذلك، وألبسه عمر سواري كسرى، والقلوب مبهجة والعيون دامعة، وكأن النبي وأبا بكر يشهدان موقفاً لم ولن يتكرر، بربع قرن وبمجموعة من البدو تنهار حضارة الفرس بعد بضعة قرون.

٤- إذا لم نثق بوعود وعهود الله، فنثق بماذا؟

(١)مجلة الوعي الإسلامي، الكويتية، العدد ٥٣٤ صفر ١٤٣١هـ- فبراير ٢٠١٠م مفكر ألماني مسلم، عمل في السلك الدبلوماسي ٣٣ سنة، اعتنق الإسلام ١٩٨٠م، تزوج تركية، وسكن اسطنبول، لقد تفرغ للدعوة وحصل على عدة جوائز عالمية إسلامية، وألف عدة كتب آخرها ” الإسلام في الألفية الثالثة“

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعلمنا سنن تداول الأيام، وتداول القوة والضعف، وتداول العدل والجور، فأخذنا حظنا من الضعف والجور، لقد جار بعضنا على بعض، وجار علينا الآخرون، لقد شبعنا من الذل، وشبع الذل منا، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ يقول: ” لا يلبث الجور بعدي إلا قليلاً حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء، ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره، ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء، ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره“^(١)

وهذه القوة الروحية تحضر في كل المواطن والمواقف وليس في الحروب فقط يمدنا الله بملائكة منزلين ومردفين ومسمومين، ففي زمن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، لم تمطر السماء فضة ولا ذهباً، وفترة حكمه ستان وشهران، صاروا ينادون بين الناس من يأخذ من مال الزكاة كل الناس استغنت بهذه الفترة، ومن كان حاكماً قبله منع أهل الذمة من دخول الإسلام من أجل مال الجزية كمورد مستمر للدولة، فأصدر أمره: من أراد أن يدخل الإسلام فليدخل، فقالوا له ستفرغ الخزينة، قال رضي الله عنه: املؤها بعراً، إن الله بعث محمداً ﷺ هادياً، ولم يبعثه جابياً.

لكل عبادة من العبادات بركة تظهر بها، وإفاضة الأرزاق بزمن عمر بن عبد العزيز ببركة العدل.

أهمية الدعوة من خلال القرآن المبين والكريم، والعظيم، وذو الذكر، والمجيد، وقرآناً عجباً، وقرآناً عربياً، والكتاب، والفرقان، والكتاب والحكمة... وكل اسم من هذه الأسماء يخزن طاقات هائلة، بمجموع هذه الطاقات فتح القرآن قلوب وعقول البشرية، وأهم محاورها:

(١) رواه الإمام أحمد.

١- خذ القرآن من القرآن، والله أمرنا بهذا أمراً، فما نأخذه من هذا أو ذاك - رحمهم الله - نأخذ انطباعهما، ولا نأخذ القرآن الذي جاء به الوحي كاملاً، ولعل هذا ما كان يريده رسول الله ﷺ من عدم تفسيره للقرآن، لأن القرآن ثابت وما يفهمه أو يتأوله الناس منه متغير.

« التفسير القرآني الحركي التطبيقي »

ومن يريد أن يعرف تفسيراً للقرآن يجمع الناس عليه، يقرأ التفسير الذي مشى على الأرض في « حياة النبي والصحابة »^(١) وشهد الله بهم، ولهم « أولئك المؤمنون حقاً » تفسير طبّقه على الواقع مائة ألف، أو يزيدون على مدى قرن من الزمان. في عسرهم ويسرهم، وحرهم وسلمهم، وصحتهم ومرضهم، ورضاهم وغضبهم، وغناهم وفقيرهم...

وكل أتباع الأنبياء وضعوا أيديهم بأيدي أنبيائهم إلا أصحاب محمد وضعوا قلوبهم ومهجهم وأولادهم وأموالهم في يد محمد ﷺ، وتشهد على ذلك قبورهم المنشورة، وصار تحت كل كوكب في السماء كوكبٌ من أصحاب النبي في الأرض!!

٣- انتكاسة الدعوة:

حياة النبي ﷺ ووحياة أصحابه هي مصادر الطاقة الإيمانية والعاطفية، وهي التي تشحن الدعوة وجيوش الجهاد إلى اليوم، وبعد القرن السابع الهجري

(١) كتاب حياة الصحابة ٣/١ للكاتب هلوي (ت: ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م)، تناول صبرهم، وجوعهم، وجهادهم، وإخلاصهم.... وأقنى المؤلف فيه عمره، وهو أفضل كتاب في بابه، طبعته دار القلم بدمشق: ١:٣. مجلدات كبار - ٢٤٠٠ صفحة. ولقد سألت أبا الحسن الندوي بمكة المكرمة، عن الفرق بين مؤلفات العرب ومؤلفاتهم، فطرب لهذا السؤال، وأفاض بالإجابة: وما قاله: أنتم تستعجلون النشر، ومؤلفنا يمضي العمر على كتاب أو كتابين، ولكن يعمران طويلاً.

مال الناس ميلاً عظيماً نحو أخبار الزهاد والصالحين وكراماتهم ومناماتهم... في مجالسهم ومساجدهم وتأليفهم، وعلى عظمتها وجلالها وقدرها، لكنها لا تكون بديلاً عن حياة الصحابة، ولا تملأ، ولا تشحن ماتشحنه حياة الصحابة... فإن مصابيح الكهرباء على أهميتها، لا يمكن أن تكون بديلاً عن الشمس، أو تدانيها. والانتكاسة الكبرى بعد أن سيطر الغرب علينا، أراد لنا أن تكون رموزنا محصورة بأهل العفن الفني، وعالم الرياضة، هي التي تشحن أمة لعبت بها الريح، ففقدت قوتها وهبتها وميزتها وتأثيرها...

٤- إعادة مصطلحات الدعوة إلى أنصبتها:

أ- قاعدة الدعوة في القرآن: الدعوة حياة، والحياة دعوة... والدعوة محبة، والمحبة دعوة... ففي كل القرآن الكريم:

- إن الله يحب، أو يحب حبه، ولا يوجد إن الله يبغض أو يكره.

- الدعوة رسالة المحبين، ولا ينجح بها إلا محب للعالمين أجمعين.

ب- الدعوة عطاء بلا مقابل: الشمس تعطي بلا مقابل، والريح تعطي بلا مقابل، والقلب يعطي بلا مقابل، ومهمة الداعية هي مهمة الرحمة، هي مهمة النبوة، هي مهمة الأكسجين، الذي يدخل كل رئة، وكل خلية خضراء، يحييها، ويغنيها بلا مقابل، دوره مع الكفرة والمشركين والفاسقين... كدور الطبيب مع المرضى وليس الأصحاء، مهمته العطاء لأنه عاشق لمهمته، طالما هو على هذا الكوكب، يؤثر، ولا يتأثر، يغير، ولا يتغير، يعطي، ولا يأخذ.

ومهمة الدعاة متابعة الأنبياء عليهم السلام، تحويل الناس من منهج إلى آخر، ومن كينونة إلى أخرى، كتحويل التراب إلى بشر سوي، والبذرة الصغيرة

إلى شجرةٍ باسقةٍ تشق عنان السماء، ومهمة الشجرة تحول زباله الأرض إلى فاكهة يانعة، ويصبح الفرد فاعلاً لا منفعلاً، مؤثراً لا متأثراً، قائداً لا منقاداً، وهذا الذي هيج البلاء على الأنبياء، لأن أصحاب النفوذ هم المتضررون من التحولات الجديدة، ولو كانت مهمة الأنبياء الصلاة أو الصوم أو الحج، تركهم أعداؤهم يصلون، ويصومون، ويقفون على عرفات أبد الدهر.^(١)

ونجاح الداعية متوقف على قوة عشقه للدور، وحبه وشفقته على الآخرين. كيف ينقذهم؟ وكيف يسعدهم؟

ج- الانطلاق من القرآن الكريم حصراً: فهو الأقوى، والأصفي، والأنجح، وهو منطلق النبي ﷺ وأصحابه، بينما الإنطلاق من تراث القرون المتأخرة، كثرت به الشوائب، مثل ماء النبع تكون قوية وشهية وصافية عند المنبع، وكلما ابتعدت عن النبع بدأت تتأثر بالعوامل المحيطة من الطين والتبن.

ففي مطلع القرن الثالث الهجري اختلقت قداسة النص بالتفسير، واختلقت عظمة التفسير بالإسرائيليات التي زحفت إلى التفاسير وأخذت شيئاً من قداسة النص القرآني، وكأن كل ما في التفاسير مقدساً عند عوام الأمة، فلما

(١) والذي نبهني لهذا التوجه، كنت في تسعينيات القرن الماضي معتمراً وبالمسعى عند المروة، كان هناك أمريكيان معتمران، أحدهما أسلم منذ رُبع قرن، وبقي ثلاث سنوات يفكر من أين يبدأ؟ وي طرح على نفسه السؤال التالي: لو سألني الله ماذا قدمت للإسلام؟ ما الجواب؟ وما أولى الأولويات في الإسلام؟ فاهتدى إلى الدعوة، فكلما يسلم على يده واحد، يكتب اسمه وعمره وتخصه ضمن جدول عنده، فلما وصل الرقم إلى «٥٠٠» قد أسلموا على يده، أوصى أن توضع هذه الورقة في كفته، حتى إذا سأله الله، ماذا قدمت للإسلام؟ يقدم لائحتته، وقالوا له: سيسلم أناس بعدهم، وأنت أغلقت الجدول، قال: إذا نفع هذا العدد، ينفع ما يأتي بعده، وإن لم ينفع ففي هذا كفاية. أعرض قصته كواقعة، وليس كمنهج.

والسؤال لأبناء الصحابة والتابعين المعاصرين: لو سألكم الله ماذا قدمتم للإسلام، ما ردكم؟!

تلوثت مصادر المعرفة، تلوثت الأفكار، وتبعها تلوث السلوك، وبدأت وحدة الأمة تتصدع بدءاً من الأفكار إلى السلوك إلى المجتمع إلى التحزبات، وصارت الأمة شيعاً، وكل حزب بما لديهم فرحون.^(١)

قراءة لتاريخ الدعوة:

والتاريخ يثبت لنا أهمية الدعوة، فكلما انهزمتنا دعواً انهزمتنا عسكرياً، واقتصادياً، وسياسياً... ويشهد على ذلك سقوط بغداد وغرناطة، بعدما ضُيق على الدعوة والدعاة من قبل الظلمة، وصار دُعاة عليّة القوم الجوّاري الحسان، فراح الجمل بما حمل، وفي عام ١٩٦٧م بثلاث ساعات انحسرت المعركة لصالح إسرائيل على قادة أساؤا للعرب الأحياء والأموات، وأساءوا إلى مائة مليون، كانوا ينامون ويقعدون على صوت أم كلثوم والعندليب الأسمر... وصاروا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار يترنحون، ويتأوهون، فعجل الله لهم العقوبة والهوان الذي أدخل الأمة تيهها أطول من تيه بني إسرائيل.

وأما الدعاة الربانيون فموزعون في القبور، والسجون، والغربة، أو

(١) كنا في موسم حج عام ١٤٢٤ هـ، بمنى وألقى علينا عالم معاصر كبير محاضرة، وكان له برنامج تلفزيوني مشهور حول قصص بني إسرائيل، وبعد أن فرغ انفردت به، وقلت له برنامجك يراه الناس بالملايين، وهذه أخبار قوم طواهم الله عنا، إلا ما تستدعيه ضرورة الدعوة يوم نزول القرآن، ولا يعرفها إلا الخاصة من الأمة، وأنت اليوم تنشرها على الملايين، تنشر أخلاق قوم حججها الله عنا، فالخير الذي بالقرآن خير منها، وإن كانت فاسدة فلا حاجة للأمة بذلك!! فانفعل..... ولكن بعدها توقف البرنامج لليوم. جزاه الله خيراً.

حصلت د: أمال عبد الرحمن ربيع على درجة الدكتوراه في بحثها: «الإسرائيليات في تفسير الطبري دراسة في اللغة والمصادر العبرية»: والخلاصة أخذ الطبري المتوفى: ٣١٠هـ: ٣٤٤ أثراً من المصادر العبرية، وزرعها في تفسيره، وكلها موثقة، ولأهميته البحث طبعته وزارة الأوقاف المصرية، عام: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م لقد رشرش الطبري الاسرائيليات كما يرشرش الخل على العسل، ٣٤٤ أثراً- سيئة الصيت والسمعة والمحتوى-، على التفسير العظيم للغوي الكبير، ومعظم المفسرين من بعده عيال عليه من جهة اللغة.. ولعل في زمن الطبري كان أمراً ما، يستدعي مثل هذا التوجه. إن شاء الله لا يفوته أجر المجتهد، ولكنها خبطة لوثت الفكر الإسلامي.

كالسّمك خلقوا بلا ألسن...

ويقول مؤرخ غربي منصف:

عجيب أمر القرآن العظيم، كلما انهزمت الأمة عسكرياً واقتصادياً... انتصر القرآن بمفرده دعوياً، ويستشهد بالتر الذين دخلوا بغداد عسكرياً، وخرجوا منها مسلمين إلى اليوم، وبالعصر الحالي استباح العالم الغربي العالم الإسلامي من الوريد إلى الوريد، وهاهو القرآن الكريم يمشي في كل الاتجاهات وحده، ولاسيما في أوروبا وأمريكا، والغربيون يدخلون في دين الله أفواجاً.

وما من تفسير من التفسير يخلو من الدعوة عرضاً، ولكنها ليست الهدف الرئيس عندهم، ولعل هذه المطبوعة تكون من البدايات لهذا النهج، والبديات ينقصها الكثير دائماً.

ومشكلة الدعاة متخلفون، وتحلفهم محروس من أعداء الأمة.

كونهم قادوا الجهاد ضد غزو الفرنجة، والتر، والاستعمار الحديث، والصهيونية، وعلمنة الأمة، وحراسة الأمة الآن من مزالق التعليم، والإعلام المسمومين... ومن أجل ذلك استهدفهم العدو استهدافاً مباشراً، وتشهد على ذلك أعواد المشانق، وكان كل عشاقها من رواد الأمة، وبأيدي جهلة الأمة، ولم يعلق طائفي، أو قس، أو حاخام... أو سكير ولا نتمنا لهم ذلك، من نصف قرن ذهب موسى الصدر والإعلام يحيه كل يوم، بينما يذهب في كل يوم أعداد من علماء السنة العرب، فلا آهة واحدة، ولا دمعة حزن!!

ولقد أنتجت الأمة العربية في الخمسين سنة الفائتة ألف، ألف، فنانٍ ورياضي... ورفعهم الإعلام مكاناً علياً، بينما العلماء لا تحس منهم من أحد، أو تسمع لهم ركزاً، ما عدا بعض الاستثناءات، ولا سيما المدن ذات المنابر العالية

فإنها محاصرة، المدن ذات الحساسية كالقدس، عندما خرج من أطرافها ثلث رجل ومعه منهج كامل غير المعادلة، الشهيد أحمد الياسين، ومثلها دمشق وبغداد كرموز تاريخية، فسموهما بالعلمانية البعثية، هذه المدن لها تاريخ جهادي عالمي، وفتوحات مختلفة بالإدارة والعلم...

وفي العصر الحديث برز أبو الحسن الندوي من الهند، وكان متألقاً ومتأنقاً عالمياً، ولو كان من القدس، لزادت قوته، ولو كان من المدينة لعظمت كلمته، ولو كان من مكة المكرمة، لأذن في الناس كإبراهيم عليه السلام. وإبراهيم لم يؤذن في العراق، وإنما أذن بمكة المكرمة لعلو منبرها.

ولما غاب الداعية المتخصص، وكثرت البدائل الجاهلة والضعيفة، قدموا نماذجة محزنة ومخجلة ومخزية شكلاً ومضموناً، وإن أنس، لا أنس في أحد مؤتمرات تقارب الأديان، قال مستشرق منصف: علماء المسلمين كانت عصائبهم على رؤوسهم، واليوم صارت على أدمغتهم!!

ورؤية الدعوة نتشوفها، ونتحسسها، ونستشعرها في ذات السطور، وما بينها، وما بعدها. واعتمدنا على الوعاء اللغوي والقواعد المعتمدة عند أهل العربية، وابتعدنا عن الشطط، فإن كان هناك من إضاعات، فهذا من فضل الله ومنه، ولا ندعي بأن هذه النفحات من المسلمات، وللقارئ الحق أن يقبلها أو يرددها، وحسبنا اجتهدنا.....

ويتوقف نجاح الدعوة على انطلاقها حصراً من القرآن الكريم، ثم ترفدها السنة الصحيحة، ثم حياة الصحابة، ثم من السير...^(١)

(١) حفل كريم.... لتكريم داعية وافد، فقام أحد الدعاة يقدم الضيف للحضور، بعد أن حمد الله وصلى على نبيه، فبدأ:

قال: حكيم صيني... إلخ، قدم الثوم والبصل، على السمن والعسل، وعنده خلل دعوي آخر، أثنى =

ويبقى القرآن العظيم هو الطاقة التي أمدت النبي ﷺ، والصحابة، والدعاة،... فلولا الطاقة ما أقلعت طائرة، ولا اندفع قطار يجر مائة عربية، وقبل نزول القرآن ما كان غار حراء ولا مهاجرين ولا أنصار ولا دمشق ولا بغداد ولا غرناطة....

نبوءة تحققت، وتحقق «ولا يزالون يقاتلونكم...» والواقع يشهد على ذلك:

لو رفع اليهود شعاراً: اليهودية هي الحل!

ولو رفع النصارى شعاراً: النصرانية هي الحل!

ولو رفع المجوس شعاراً: المجوسية هي الحل!

ولو رفع الشيوعيون شعاراً: الشيوعية هي الحل!

ولو رفع الامبرياليون شعاراً: الامبريالية هي الحل!

العالم يقول: هذا حق من حقوقهم!!

ولو رفع المسلمون شعاراً: الإسلام هو الحل!

تقوم الدنيا ولا تقعد... «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن

استطاعوا...».

=على الله بكلمتين، وعلى نبيه بكلمة ونص، وعلى صاحب الحفل، وعلى الضيف، وهما يستحقان كل التكريم، ولكن أين الأدب الشرعي؟ وأين الفكر الدعوي؟ والذين يسمعون يزيدون على المائة من النخب، وجلهم من أهل العائم. فالثناء لو جاء الله بأربع مفردات، عليه أن يأتي للنبي بثلاث، ثم للضيف بكلمتين: هذا الأدب الشرعي، نعيش أزمة دعوة، وأدبيات الدعوة.

الفهرس العام التفصلي

- الإهداء ١١
- المقدمة ١٥
- تمهيد بين يدي البحث وخطته ١٩
- بني البحث على: التوحيد، والرحمة، والشباب، ووحدة الصف
والتفسير الدعوي اللغوي.
- تحديد المنطلق ٢١
- القرآن يخاطب جارحتين: القلب، والعقل.
خطوات البحث: تسع نقاط.
- ١_ القرآن لم ينهزم قط. وهزائمنا في مناهجنا التربوية.
- ٢- دراسة لجزء عم من أربعة وعشرين وجهاً.
- ٣- دور جزء عم في تعليم وتعريب مليار مسلم ونصف.
- ٤- اللغة العربية تجري مجرى الدم بالمسلم، وليست مجرد لغة.
- ٥- نقدم لكل سورة بمقدمة تمهيدية تؤطر الفكرة للقارئ.
- ٦- ما نأخذه من المصادر والمراجع، نذكره.
- ٧- الإسقاط على الواقع، وكأن جزء عم نزل لتوه.
- ٨- لم نأخذ من أسباب النزول إلا ما صح عن رسول الله ﷺ.
- ٩- تصفحنا أكثر من أربعة وعشرين تفسيراً بالموسوعة الشاملة. وانتفعنا منهم

جميعاً. ولن نتعلم على الموتى!

- موجه للشباب! لذلك حرصنا على البشاشة واقتلاع اليأس والإحباط وأسباب التفرقة، والتركيز على وحدة الصف، والشهود الحضاري.

الفصل الأول ٢٧

يحتوي على المقدمة، وقسم الدراسة، والبحث.

أهم الوجوه في «جزء عم» وهي أربعة وعشرون وجهاً ٢٩

١- موضوعات القرآن: ٦٧ ٤ موضوعاً، ونصيب جزء عم ١٢٠ موضوعاً:

- ما الطاقات المخزنة بهذا الجزء؟ ٣٢

- جزء عم: مصمم لتوحيد الأفتدة، وتعريب الألسن،

وإعادة إنتاج الأمة ٣٣

- سور وآيات وأحاديث ظاهرها شفائي، وقائي،

ولتعليم العربية بهدوء ٣٥

- سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، لمن لا يملك غيرها ٣٨

- العالم الغيبي من «مُنزَلين» و «مُرَدِّفين» و «مَسومين»

وغيرهم مع الطالب والمجاهد ٤٠

- مقارنة بين طلاب جزء عم، وطلاب الجامعات المعاصرة ٤١

- جزء عم كمضارب «بني سعد» للناشئة بالبلاغة والفصاحة ٤٢

الإعلام والإعلام المضاد بجزء عم ٤٢

- ٤٣ جزء عم يؤرخ للنبي ﷺ منذ طفولته
- ٤٥ جزء عم كله نزل بمكة ما عدا ثلاث سور
- ٤٧ امتاز بتكثيف الزجر والردع بتكرار كلاً
- ٤٨ كثر القسَم المتعدد والمتوالي... واليمين على من أنكر
- ٥١ استهلالات معظم سورهِ فيها تبدلات الكون الكبرى
أربع سور بدأت بـ "قل" ومنها: سورة الفلق:
- ٥٢ للمصايب، والناس: للمعائب
- ٥٤ التركيز على نزع فكرة الخلود من الإنسان بالدنيا
- ٥٥ لا باقي إلا الباقي
- ٥٥ جزء عم فيه أهم الوقائع التاريخية العربية
- حول الأحداث التاريخية من مقابر مندثرة إلى وسيلة إيضاح
لنهاية التقاة، ونهاية الطغاة!؟
- ٥٦ -مغزى القصة الأخدودية: طفل زرع راية التوحيد بمفرده
- ٥٧ -مهمة مقابر التاريخ: شهادة الله من الواقع على الواقع
- ٥٨ -جزء عم به: نواة الأحكام الفقهية
- ٥٨ -بدأ بضبط موازين العدل والمساواة: ويل للمطففين
- ٥٩ -التحول نحو التربية الجماعية الأُممية، بدل الفردية والقبلية
- ٦٠ -جزء عم أعاد أنسنة البشرية

- ٦٢ - مميزات العرب الذين نزل عليهم جزء عم
- ٦٤ - مقارنة ما بين عرب التنزيل، والمفسرين
- ٦٥ - وإن تعجب، فعجب تحمّل عرب التنزيل الذين خاطبهم جزء عم ...
- ٦٦ - من وراء تمويت الأمة علمياً؟
- ٦٧ - بعض العلمانيين ما عندهم إلا نحاتة الأفكار وزبالة الأذهان
- فلاهم علمونا كالغرب، ولاهم علمونا كالمسلمين ...
- ٧٠ - نعيش أزمة بركة في القارئ والمقروء والأخلاق

٧١ الفصل الثاني

الجزء الثلاثون: يبدأ من سورة «النبأ» رقم (٧٨) إلى سورة «الناس» رقم (١١٤)

- ٧٣ - منهجنا في التفسير الدعوي اللغوي
 - ٧٥ - سورة النبأ مكية، وعدد آياتها أربعون، وترتيبها (٧٨)
- تمهيد:

- نبأ عظيم كالأكسجين يدخل خلايا الأقوياء والضعفاء.
- ٧٦ - تقسم السورة إلى ستة مفاصل
- أهو نبأ واحد؟ أم أنباء عديدة داخل النبأ العظيم
- مهمة النبأ العظيم في الدنيا، يشعر الفرد بالمسؤولية
- والإيمان بالنبأ العظيم يعني الالتزام، وهذا ما صعبه على الناس ٧٨
- وعدهم سيعلمون على مرحلتين، الأولى: لعلها يوم الإسراء

- ٧٩ والمعراج ، والأخرى: بدءاً من الغرغرة.
- ومشكلتهم مع اليوم الآخر ليست عقدية صرفة، بل
- ٨٠ اجتماعية واقتصادية ومكتسبات نفوذ.
- أول - كلاً - في جزء عم.
- ٨١ موجودات الكون وسائل إيضاح تعليمية.
- لماذا نسبة الذكور مع الإناث بالبشر والحمام متقاربة، بينما في
- ٨٢ الدجاج والنخيل الأنوثة تسعة أضعاف؟ إعجاز؟
- ولماذا السموات سبع، وما هي بست، أو تسع؟
- ٨٣ الصُّور مفتاح القبور.
- جهنم ترصد زبائنها.
- ٨٤ جَزَاءٍ وَفَاقًا: أي ضربة سواكٍ بسواكٍ، وعصا بعصا.
- ٨٥ الفائز في الدنيا، فائز في الآخرة.
- ٨٦ عين مائة مكأسة.
- ٨٨ نظافة البيئة السمعية بالجنة أخلاقياً.
- جزاء فضل، وجزاء عدل.
- ٨٨ قُدرةُ الله تخلق، وحيأةُ تستهلك.
- ٨٩ ومن ثوابت الكون أرحام تدفع، وأرض تبلع.
- أمنية الجبابرة والمتكبرين: يا ليتني كنت تراباً.
- ٩٢

سورة النازعات مكية، وآياتها ست وأربعون، وترتيبها (٧٩)..... ٩٣
- تمهيد:

- تقسم السورة إلى ستة مفاصل ٩٤

- علم الساعة لله وحده، مخفي حتى على الأنبياء ٩٥

- أقسم الله بالنازعات... لتبعثن ولتحاسبن. ومن الذي ألجأ ربنا للقسم؟

- كل شيء يكشف سره، يهون أمره. ٩٦

- عصا موسى نابت عن ملايين المهندسين والمعدات. ٩٩

- بعد الحفرة ما في نفرة، والعظام المنخورة غير مجبورة على

سبيل الاستهزاء والتهاون..... ١٠١

- النوم ليس من خصوصيات الآخرة. ١٠٢

- نداء الله لآدم وإبراهيم وموسى -عليهم السلام- خصوصية:

- الأذن مخصصة للصوت البشري، وكل عضو فينا أذن تسمع لله ١٠٣

- المطلوب من فرعون: التزكية، والخشية. ١٠٤

- هستيرية فرعونية قامت بثمانية أدوار..... ١٠٦

- عند فرعون ربان: عالٍ، وأعلى، واختار الأعلى..... ١٠٧

- إذا خنعت الشعوب، تبدأ تنغوا كالقطيع عند الجوع والعطش.

- فرعون أخذه الله، لأن المجتمع أضعف من فرعون. ١٠٨

- بناء السماء أعظم من خلق الإنسان ١٠٩

- ١١١ الطامة الكبرى عندما تبرز آثام المجرم مجدولة أمامه.
- ١١٤ المنهج الإسلامي جنة الدنيا لكل من يعتصم به.
- ١١٤ متى ترسو باخرة الحياة الدنيا؟
- ١١٥ الإجابة عن وقت الساعة، من اختصاص الله،
وليس من اختصاص الأنبياء!!
- ١٢٦ ضغط الهول الرعب سعادتهم الدنيوية إلى عشية أو ضحاها!!
- ١١٧ سورة عبس مكية، وآياتها اثنتان وأربعون، وترتيبها (٨٠).
- ١١٨ هي سورة «الارتقاء بضعفاء المجتمع وتكريمهم»
- ١٢٠ هي عبسة نفسية، وليست جسدية.
- ١٢٠ هل عبسة النبي كعبسة البشر؟
- وتدور سورة عبس حول محورين رئيسين: الأتقياء
والأشقياء- والتقاة والبغاة.
- ١٢١ فالمسألة ليست بين خطأ وصواب، وغلط وعتاب،
ولكنها -بين صواب وأصوب!! وجميل وأجمل، وعظيم وأعظم!!
- ١٢٣ كون الأعمى يتقدم إلى الله، وآلاف المبصرين يتأخرون!!
- ١٢٥ وأما الأعمى فله حقان: حق العمى، وحق تعليمه وتزكيتته.
- «قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ» في سياق العجب،
وليس في سياق الغضب.
- ١٢٦

- ١٢٩ هل يعقل أن الشجرة أكبر مطبخ في الأرض؟
- ١٣٠ ما قال الله: «انظر» أو «انظروا» إلا وهو ضامن لأمرين
- الأعمى ومعه الإسلام، خير من ألف، ألف رجل معهم كل شيء إلا الإسلام.
- ١٣٢ كالسمك في الماء الساخن، يفر من الموت إلى الموت!
- ١٣٤ سورة التكوير، مكية، وآياتها تسع وعشرون، وترتيبها (٨١)
- سورة التكوير مكية، تُنبئونا بثلاثة عشر تبديلاً كونياً رهيباً رعبياً، وتبديل المهمة كونية جديدة.
- إن النجوم لها عمر زمني، ثم تنكمش، حتى تصبح بحجم كرة الأطفال أو بيضة الدجاجة، ولكن تبقى محتفظة بوزنها وحرارتها . ١٣٧
- وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ نبوءة قرآنية، عندما كثرت وسائل النقل الحديثة. ١٣٨
- وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ، بلا ناب ولا مخلب ولا أظفار كأنها سرب من البقر الوحشي.
- ١٤٠ سجر البحار أولاً، ثم تأتي مرحلة التسعير
- والإعجاز يكمن في دقة التصنيف الرباني لجميع خلقه، ودول بحجم فندق كبير، قد تخطى وتصنف الصالح طالحاً. ١٤١
- والوَاد يكون للفرد وللجماعة. والذين حصروه بالأنثى،

- ١٤٢ فقد ضيقوا واسعاً عندما دخلوا في التاء المربوطة، ولم يخرجوا منها.....
- ١٤٣ - شبهة شعوبية: - العرب هم الوائدون للبنات.....
- وهذه نبوءة قرآنية تتحقق، في مسألة وأد الإناث اليوم في
- ١٤٧ الصين بالملايين.....
- وإذا النفس المؤودة، أو الأمم المؤودة، وكان وأدها بسبب
- ١٤٨ ذلها وخنوعها، فهو ذنب في عنقها، لأنها خلقت عزيزة.....
- ١٤٩ - بدايات التدرج بالتشريع الجنائي الإسلامي في مسألة القتل.....
- ١٥٠ - ولا تسأل عن أصحاب الجحيم» لأنهم انتهوا، فلا تسأل عن منته... ..
- ١٥١ - وما الذي ألبأ ربنا إلى القسم؟ هو العناد واللجاجة عند المشركين ...
- القرآن الكريم، كريم كرم عطاء، وكريم كرم نفاسة،
- ١٥٢ وكريم كرم ندره.....
- ١٥٣ - منهج الشيطان نار على نار، ومنهج القرآن نور على نور.....
- ظاهرها استفهام، وباطنها التقريفة الخالدة، التقريفة المتجددة
- ١٥٥ والمتولدة، أين تذهبون في كل اتجاه، إلا اتجاه الحق تتركون؟.....
- ١٥٦ - إن الله يريد قلوباً، وليس قوالب، يجمعها الطبل، وتفرقها العصا!! ..
- ١٥٧ - سورة الانفطار مكية، وآياتها تسع عشرة آية، ورقمها (٨٢).....
- مراحل ترحيل الكون: الكشط، والانفطار، والانفراج،
والانشقاق، وطي الكتب.

- جاءت السورة بخمسة مفاصل.
- الانفطار، والانتثار، والانفجار، والبعثرة، كلها
 معروفة، والكيف مجهول!! ١٥٨
- انفطرت هي بنفسها، مثل: انتحرت، هي جندي تنفذ
 ما أسند إليها ولو على نفسها ١٥٩
- ففي هذه السورة سبع عشرة آيةً للترهيب، وتسع عشرة
 آيةً للترغيب، ليت الدعاة يلتزمون بهذا؟
- زوال نظام بنيان السموات يمر بعدة مراحل ١٥٩
- مجموع النجوم: واحد: وأمامه أربعة وعشرون صفراً ١٦١
- وفي كل ذرة من التراب، إنسان كامل، لأن أصله ذرة!! ١٦٢
- الدنيا متاع المغرورين، والآخرة متاع الأذكيا ١٦٤
- «فما غرك بربك الكريم» قال النبي: «غره جهله»
 وعمر: غره حُقه، وقتادة: غره عدوه. ١٦٥
- الشيطان كشف لآدم نقاط الضعف ولم يستثمرها آدم ولا بنوه ١٦٧
- أعلمنا بمعية الملائكة حتى نستحي منهم، ونستقيم ١٦٧
- فلا ترهيب يبئس الناس، ولا ترغيب يميع المنهج ١٦٨
- الفجار: الذين فجروا حصون الفطرة الإيانية،
 وأرغموا أنفسهم على الكفر.

- سورة المطفين مكية، وآياتها أربع وثلاثون، ورقمها (٨٣) ١٧٠
- ففي السورة سبع عشرة آية للترهيب، وتسع عشرة آية للترغيب،
ليت الدعاة يلتزمون بهذا؟
- إن الذي يغضب جبار السموات، استعلاء حفنة من
الحنطة والشعير على منهج الله.
- ما العلاقة بين أهل التطفيف، وأهل الهمز واللمز؟ ١٧١
- مقارنة بين الويل، واللعن، والشتم ١٧٣
- بالتطفيف غدر اقتصادي، وخلل أخلاقي، وتمييز اجتماعي!! ١٧٤
- التطفيف في العبادات، الأعمال، والأحوال، والأموال، والأخلاق:
- ويل للمطففين، يراد منها ضبط السوق والحقوق، وهذه
من نواة الأحكام ١٧٦
- لماذا جاءت (على) بدل (من) في قوله: إِذَا اكْتَالُوا (على)
- النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، بدل (من) فعلى: للاستعلاء المعنوي والحسي ١٧٨
- الذي ينقر صلاته، ويطلب تمام الأجر والثواب مطفف.
- اثنان مذنبان بذنب واحد، أحدهما: عامله الله بفضله فنجا،
والآخر: عامله بعدله، فحاسبه وعذبه. ١٨٠
- إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ، سجن داخل سجن أضيق منه وهكذا...
- المكذب بيوم الدين معتد على الفطرة التي تؤمن بخالقها،

- ١٨١ ومعتد على العقل الذي يحاكم الأمور.
- ١٨٢ - الفرق بين: الرين، والغيم، والغين.
- جاءت (كلاً) في سياق الترغيب، وهي للزجر،
- ١٨٣ أي غيركم يختلف عنكم.
- اللجنة معارض للمفروشات، والأزهار، والأطيوار، والأنهار،
- ١٨٤ والأشجار والخور العين.
- ١٨٥ - ولا يوجد في اللجنة شيء ميت أو صامت، وكل ما فيها حي ومحبي ..
- ولا يكون التنافس إلا على الأمور النفيسة، والمتنافس يكون من العظماء كالأنبياء.
- عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا- أو منها- المقربون: عين مكأسة،
- ١٨٦ أو كأس معينة متحركة.
- ضِحْكُ المجرمين، وغمزهم، وتفكهم، خالٍ من اللذة والسرور، ولكنه للتنفيس، بسبب أمرين ..
- على الأرائك ينظرون... ماذا؟؟ حذف المفعول به، وتركه خيالاً مفتوحاً.
- ١٨٨ -سورة الانشقاق مكية، وآياتها خمس وعشرون، وترتيبها (٨٤)
- ١٨٩ - والذي تنشق السماء لهيبته، وتسيخ الأرض لعظمته، ستلاقي ربك أيها الإنسان.

- السموات والأرض تستجيبان لخالقهما طوعاً، أو كرهاً،
والإنسان على ضعفه بين، بين ١٩٠
- وأين كان دعاة الديمقراطية يوم نزلت: فمن شاء
فليؤمن، ومن شاء فليكفر! ١٩١
- لقد كتبنا الكدح على الغني والفقير، والمليء والفارغ ١٩٣
- فَمَلَأَ قِيهِ... فيها بشارة كبرى للجميع، لأنهم سيلتقون بأرحم الراحمين.
- ما قال من أخذ كتابه، أو تناوله... إنما قال: من أوتي كتابه... من
باب التكرم والتفضل ١٩٤
- يتبدل الإنسان من كونه نطفة إلى أن يهرم على نيف
وثلاثين مرحلة ١٩٦
- قدم الترغيب، والخطاب فردي، ثم قدم الترهيب،
والخطاب جماعي ١٩٧
- القرآن كُلم به موتى الزنانات الميؤوس منهم بأمريكا، فأحياهم. ... ١٩٨
- انظر الحاشية: يا مالكوم!! كيف رفعك الإسلام،
من مجرم إلى محاضر، وشخصية عالمية!!!؟
- ليت الدعاة والمشيخة... يَزِنُون هذه العبارة...
سورة البروج مكية، وآياتها اثنتان وعشرون آية، وترتيبها (٨٥) ٢٠٠
- جريمة الأخدود، وذبح المواليد بمصر، استفظعها القرآن،

- لأنها من ولاية الأمر، بدل أن يجموهم يذبحوهم...
- من بروج السماء رصدت محارق كثيرة أولها: محرقة إبراهيم عليه السلام، وهو إمام المحرّقين ٢٠٢
- هذا استهلال أم استنفار، أم إعلان حرب على أولي الأمر الجبابة ... ٢٠٣
- آيات الأمر للطاعة، وآيات النهي للترك، وآيات الكون تقتضي التفكير.
- كلما يولد ظالم يولد مؤمن، سبحان من يُذَلِّ، لِيُعْز، ويضر، لينفع! ... ٢٠٥
- نعى الله للبشرية حادثة الأخدود، فاستدعاها من الغيب ٢٠٦
- مجموع بطانة الطاغية شركاء مع الطاغية ٢٠٩
- منهج الله مع الظلمة: الإمهال، ثم الانتقام ٢١٣
- قصة الأخدود مات أصحابها من أجلها، فدبت فيها الحياة ٢١١
- الفوز الكبير: فمن فاز بجنة الدنيا، فاز بجنة الآخرة ٢١٥
- عدانا ليس وراء الحدود، ولكن عدانا وراء الجلود.
- سيجعل لهم الرحمن وداً « ألزم الودود نفسه بغير ملزم ٢١٩
- قصة الأخدود تنتصر العين بها على المخرز، والعقيدة على الموت ٢٢٠
- ومن وسط تنور الغرب فار ماء الصحوة الإسلامية ٢٢٢
- دستور مفصل على كرسي، ودستور يتولد منه المجد ٢٢٣
- قرآن مجيد: ماجد بذاته، ومجد لمن يحمله،
شريف بذاته ومشرف لمن يرفعه.

- ٢٢٤ - فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ: اللوح معلوم، والكيف مجهول
- ٢٢٥ - يطبع القرآن في أوربا ويبقى سليماً، بينما يزورون كتابهم!!
- - فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ: اللوح معلوم والكيف مجهول.
- ٢٢٦ سورة الطارق مكية، وآياتها سبع عشرة آية، وترتيبها (٨٦)
- - عندما انتبه الغرب للسماء والطارق، فبدأ يبيعنا سماءنا،
وهواءنا، بالبث الفضائي
- ٢٢٦ - لماذا طارق السماء يطرق أدمغة الأعراب الأميين،
دون غيرها من الأدمغة كاليابانيين والألمان؟
- ٢٢٧ - النجم الثاقب يصبح بحجم البيضة ويبقى بوزنه وحرارته، لو
سقط على الأرض لخرج منها، كما تخرج الجمرة من كومة الصوف
- ٢٣٠ أو القطن
- - ولو انقرضت من الأرض كل الحيوانات المذكورة بالقرآن،
يكون انفصل القرآن عن الواقع
- ٢٣٠ - والله لم يقل: كل الأنفس لها حافظ واحد.. بل قال:
كل نفس ولها حافظها
- ٢٣٢ - الإنسان خليفة، سيد في نفسه، وسيد في هذا الكون
- ٢٣٥ - الدنيا دار تكليف، والشرع يراعي أحوال الناس، ولا يأخذهم
إلا بالظاهر، وفي الآخرة لا يحاسبهم إلا بما في السرائر
- ٢٣٧

- وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ: الماء تنزل، وترجع، ومثلها الأكسجين، والكهرطيسية والدعاء ...

٢٣٨ زمن الدعاء زمن رجوعه، زمن الإجابة، ينعدم الزمن

٢٣٩ فاصدعُ بما تؤمرُ» أي بالتوحيد شق جماعتهم وأفكاره

- ويداوى الكيد بأمرين: بالصبر، والتقوى، قوله تعالى:

«وإن تصبروا وتتقوا، لا يضركم كيدهم شيئاً» ٢٤١

- فمهل الكافرين، أمهلهم رويداً» إن الله غالب على أمره،

ولكن ينتظر الأجل المتبقي لهم ٢٤٢

سورة الأعلى مكية، وآياتها تسع عشرة آية، وترتيبها (٨٧) ٢٤٤

- الوحيد من سبح، وسبح في جوف مسبح وسابح، هو يونس عليه السلام.

- لا معادل، ولا مفاضل، لله، ولكن الأعلى، الذي

ما بعد علوه، علو ٢٤٤

- بين الحوت ويونس، صلة الرحم الإيماني، وهل يأكل

مسبحٌ مسبحاً؟! ٢٤٧

- تسعة آلاف أمة من الطير، ولكل منهم رسالة تخصه ٢٤٨

- لقد ذكر المرعى لأن للأعرابي مصلحة فيه ٢٤٩

- مادام خلق الله تجلي في النحلة، وهُديت إلى رسالتها، فكيف

لا يكمل رسله وأنبياءه؟! ٢٥٢

- والتذكير يكون لأمر يعرفه الإنسان من قبل، والتعليم
لأمر لا يعرفه من قبل.
- سيذكر من يخشى، لأن الخشية ثمرة المعرفة، والعلم، والخوف ٢٥٣
- لماذا الذكر تأسيساً، والصلاة تتويجاً؟ ٢٥٥
- تؤثرن الحاضر المزري على الغائب المغربي، واللذة
العاجلة على السعادة الباقية.
- سورة الغاشية مكية، وآياتها ست وعشرون، وترتيبها (٨٨) ٢٥٧
إنما أنت مذكر» وليس مسيطر، أو مغير أو مبدل.
- وكم درجة حرارة جهنم؟: واحد وأمامه خمسة وعشرون
صفرأ، على سبيل التخيل ٢٥٨
- في الغاشية: ستة مشاهد للترهيب. وتسع للترغيب
مغريات لأهل الجنة ٢٥٩
- ما قال: يشربون من عين... بل قال: يُسقون... مرغمون ٢٦١
- مطعم للوجبات السريعة في جهنم: من زقوم، وغسلين،
وذا غصّة، ومقطع الأمعاء ٢٦٢
- فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ: علواً حسيّاً ومعنوياً، لأن الإنسان فطر
على الاستشراق ٢٦٤ ٢٦٤
- لعل عين الجنة تنبع، ثم تجري، وتتبعها مثلها، وهكذا دواليك،

- ٢٦٤ وتتكون صورة من العيون الجارية
- تصوير الأثاث، والمفروشات، والسرر، والأواني في الجنة...
- ٢٦٥ فيه تشويق وإغراء خاص بالنساء
- بمثابة إعلان تجاري لمعرض من معارض المفروشات النادرة:
فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقٌ...
- ٢٦٧ ومن التجارب المعاصرة قطع البعير أربعمائة/ كم بدون ماء
- السماء كَيْفَ رُفِعَتْ؟ وكيف ثبتت؟ واستدامت، وما وقعت؟! ٢٦٩
- مهمة الجبل كمهمة المسار الذي يربط بين خشبتين
بعضهما فوق بعض.
- ومهمة رسول الله أن يشعل المصابيح السليمة،
- ٢٧٠ ولا يجهد نفسه في المعطوبة
- ٢٧٢ سورة الفجر مكية، وآياتها ثلاثون آيةً، وترتيبها (٨٩)
- عاد وثمود وفرعون بنوا للسياح حجراً، وقتلوا بشراً،
- ٢٧٢ بينما رسول الله زرع قيماً تحفظ الأرواح
- والفجر... لينتقم الله من البغاة الطغاة، كما انتقم من عاد
وئود وفرعون.
- ٢٧٤ وَاَلشَّفَعِ وَالْوَتْرِ: وكأن الله يقول: كل ما في هذا الكون شفع،
- ٢٧٥ وتام إيجاده بشفعيته، إلا أنا وتر

- ومفردة الليل تدور في القرآن لأن العرب تكثر حركتهم بالليل
 هروباً من هيب الصحراء، وندرة الماء لهم ولأنعامهم ٢٧٦
- نبوءة قرآنية: اليوم ظهرت إرم ذات العماد بعد خمسة عشر
 قرناً من النبوءة ٢٧٨
- ومفسد السلطة لا يترك ذهباً إلا أذهبه، ولا فضة إلا فضها،
 ولا شريفاً إلا أهانه، ولا وضعياً إلا أعزه ٢٨٠
- وقال: سوط عذاب، نكر السوط ليستوعب كل أنواع الشياطين،
 التي كانوا يسوطون الناس بها ٢٨٢
- إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ تقرأ من وجهين: أحدهما: تأنيس لرسول الله ﷺ،
 ولورثته تشد أزهرهم، والآخر: تهديد للظلمة وأعاونهم الذين يقفون
 في وجه الإسلام ٢٨٤
- كرامة الدواب بكثرة العلف، وإهانتها بقلته، وابتلاء الإنسان
 وإكرامه بالحاجة ليرى هل يسرق؟ أو ينافق؟ ٢٨٤
- «وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ: ما الفرق بين التراث والميراث؟ ٢٨٧
- الزجر والتخويف بالقرآن، للرحمة والشفقة، وليس للإذلال ٢٨٩
- جهنم جندي من جنود الله، تعشق دورها، وتنتظر اليوم الموعود ٢٩١
- حجم العذاب بقدر عظمة المعذب ٢٩٢
- العلاقة بين الجسد والنفس والروح، كالعلاقة بين

- ٢٩٣ السيارة والسائق والبترول
- ٢٩٤ لماذا قدم الدخول على جنة الأنبياء، قبل جنة الأزهار والثمار؟
- ٢٩٦ سورة البلد مكية، وآياتها عشرون آيةً وترتيبها (٩٠)
- كانوا يظنون أن الكعبة أعلى المقدسات، ولكن محمداً أقدس منها،
فلن يقسم بها، مع وجود محمد حالاً بها.
- استهلت السورة بقسم مسبوق بنفي، وبسبب هذه الصياغة
- ٢٩٧ الجديدة، عرق الجبين وكثر الأنين لدى العلماء
- ٢٩٩ البلد الحرام مقدس، والإنسان أقدس، ومحمد أقدس المقدسين
- ثبت علمياً، الكعبة مركز العالمين القديم والحديث،
وهي مركز الدائرة الأرضية
- ٢٩٩ تلازم آية المواليد وآية الشوق والتوق للبيت الحرام،
حتى من غير الملتزمين
- ٣٠١ ولماذا خلقه في ضعف وكبد؟
- ٣٠٢ ليبقى في حاجة مستمرة لمن خلقه، ويطلب العون والمدد منه
- لماذا له عينان؟ عين للبصر، وعين للبصيرة... عين للكم،
وعين للكيف
- ٣٠٤ وشهادة الجلد شهادة إحاطة بكل الأعضاء، شاهد على كل الشهود.
- ٣٠٥ الضعفاء في الأرض عيال الإسلام، من أي دين أو لون؟

- المجتمع الإسلامي كالنحل لا يوجد به متفرج للتصفيق،
 كل منهم على ثغرة..... ٣٠٧
- أبو بكر حامل لواء أصحاب الميمنة بإنفاقه ٣٠٩
- سورة الشمس مكية، وآياتها خمس عشرة آية، وترتيبها (٩١) ٣١١
 استهلت السورة بتسعة أقسام، وهو أكبر قسم بالقرآن.
- النفس بين أميرين مطاعين: العقل والهوى، وكلاهما يناديها،
 وهي قادرة على التزكية أو التدسية.
- الشمس الساعة الكونية، لم تتعطل، أو تحتاج قطعة غيار، أو تزييت،
 ولو غابت يوماً، كم ستكون خسارة الكون؟ ٣١٣
- لماذا يرشد الله الرعاة إلى عوالم السماوات، وبدون تدرج،
 كما تدرج بالأحكام؟ ٣١٣
- الإنسان ما يرى نفسه إلا كاملة... ولو عرف أن كمالها في عدم كمالها،
 وقدرتها بعجزها... زكاها ٣١٥
- لا يكون الطغيان قوة زائدة... إلا بجوار ضعف شديد. ٣١٦
- كذب صالح تسعة رهط، وعقرها أشقاها، ثم نسب الجرم للمجتمع.
 «فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها» ؟ ٣١٨
- سورة الليل مكية، وآياتها إحدى وعشرون، وترتيبها (٩٢) ٣١٩
 العبث عندما يقلب الليل للعمل والنهار للنوم، أو الذكر

لليبيض والأثنى للتلقيح

- الليل والنهار، والذكر والأنثى، والصالح والطالح، والزهر والشوك ثوابت كونية ٣٢٠
- لماذا تقدم الليل على النهار في خمسين آية، والنهار على الليل في خمس آيات؟ ٣٢٠
- بيض الدجاج وفسائل النخيل، من كل مائة تخرج حوالي عشرة ذكور، ما السر في ديمومة الأمر؟ ٣٢١
- الخطاب الفردي أمكن في التبليغ. ٣٢٣
- التعهد بالتيسير، نتيجة لمقدمات صحيحة ٣٢٤
- اليسر ما يسره الشرع، والعسر ما عسره الشرع ٣٢٥
- القرار لصاحب الدار، والله ما في السموات وما في الأرض ٣٢٦
- الأنبياء والدعاة معهم زوارق النجاة، وينقذون الناس مجاناً، فمن يركب معهم نجاة، ومن أبى، ذهب برجله إلى النار الكبرى ٣٢٧
- بشارة وتعهد لأبي بكر ٣٢٨
- سورة الضحى مكية وآياتها إحدى عشرة، وترتيبها (٩٣) ٣٢٩
- في سورة الضحى يؤرخ الله لنبيه محمد، كما أرخ لموسى .. وعيسى من لحظة الحمل والولادة...
- وما الذي دعا الحليم العظيم يقسم؟ إنه الإعلام

- والإعلام المضاد ٣٣٢
- وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى، الآية: فهمت فهماً
- ولد المسلم اللين الهلامي ٣٣٥
- أذاقه الله طعم اليتيم والعيلة، حتى لا ينسى ضعفاء المجتمع،
- كما سجن. يوسف، حتى لا ينسى المظلومين ٣٣٧
- وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ليتشي أحبابك، ويغتاظ حسادك!! ٣٣٩
- وحدثهم أن هذا الدين يسير مع الأوكسجين ويدخل كل رئة،
- ويدخل كل بيت من شعر ومدر ٣٤٠
- القرآن نعمة، والنبوة نعمة، والمهاجرون والأنصار نعمة، والعلماء
- الربانيون نعمة مستمرة... وفي كل لحظة تولد مئذنة فهي نعمة ٣٤١
- سورة الشرح مكية، وآياتها ثمان، وترتيبها (٩٤) ٣٤٢
- موسى يطلب طلباً « رب اشرح لي صدري » ويقال لمحمد
- تكرماً وتلطفاً « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، ... »
- حروف الخطاب المحمدي (ك...ت...ن... أنت) هذه الضمائر
- المنفصلة والمتصلة والمستترة، لكل مسلم حظ من ميراثها ٣٤٤
- الأمة لن تخلو من علماء، و (على ماء) ٣٤٥
- البشرية امتداد لآدم من حيث اللحم والدم، وامتداد لمحمد
- من حيث الأخلاق والقيم ٣٤٥

- والعسر واليسر هما ممزوجان مزج الروح والنفس بالجسد،
 ٣٤٧ وليس بينهما حدّ كالليل والنهار
- الله رغب بك منذ طفولتك، فارغب إليه في رجولتك،
 ٣٥٠ يريد قلباً لا اقوال
- ٣٥٢ سورة التين مكية، وآياتها ثمانى، وترتيبها (٩٥)
- العلاقة بين شجرة التين وطور سينين، نفعها محدود
 كاليهودية، والزيتون والبلد الأمين، نفعها عام كالإسلام.
- أحسن تقويم: هم الأنبياء والعالم والمتعلم، وأسفل السافلين:
 ٣٥٥ كالفراغنة ممن يطفئ نور الله
- لا يقاس الفرد بالقامة ولكن بالقيمة.
- الإيمان الكامل الذي له جناحان: الأخلاق الإيمانية،
 والسلوك الشرعي ٣٥٦
- ٣٥٩ سورة العلق مكية وآياتها تسع عشرة آية، وترتيبها (٩٦)
- سورة التقاء العظماء الثلاثة: القرآن، وجبريل، ومحمد، حدث لن يتكرر.
- نحن أمة (اقرأ) حملت راية العلم والتزكية والكتابة والحكمة ٣٦٠
- والسؤال: لماذا غط جبريل رسول الله ثلاث مرات ؟ ٣٦٣
- عليك أن تقرأ... والله يتدرج بك من - أ، ب، ت... -
 ٣٦٧ إلى علم الذرة والمجرة

- ٣٦٨ العلم بلا مراقبة الله، وسيلة طغيانية
- من المسلمات أن الله يرانا، ومن المكرمات أنا نرى الله في
صنعتة وخلقه ولطفه وعطفه..... ٣٦٩
- يحدرننا الله من طاعة المستبد، خنوع في الدنيا، وحساب في الآخرة.... ٣٧١
- تلازم بين سورة العلق ذات الرقم ٩٦ أي (اقرأ...)،
وسورة (القدر) ذات الرقم (٩٧)..... ٣٧٣
- وهما متوالياتان. اقرأ، يا محمد القرآن.... الذي أنزل في ليلة القدر.
- قبل نزول القرآن، ما كانت ليلة القدر، ولا غار حراء،
ولا رمضان، ولا مهاجرين وأنصار.
- ليلة القدر من أبرك الليالي في تاريخ الشمس والقمر،
ومن أرحم الليالي في تاريخ البشر ٣٧٦
- ستحتفل الإنسانية بليلة القدر عندما تبلغ سن الرشد ٣٧٧
- يؤرخ الله للقرآن بأنه أنزله في شهر رمضان بليلة مقدره مباركة..... ٣٨٠
- سورة البينة مكية، وآياتها سبع، وترتيبها (٩٨) ٣٨٢
- بينات القرن العشرين البيانات المتجددة، الحية والمحياة للتوحيد،
ظهور الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- عندما تخلى المسلمون عن نشر البينة، فجاء التتر والفرنجة إلى البينة . ٣٨٤
- حديث: الأنبياء أبناء علاّت، وليس بيني وبين عيسى نبي،

- ٣٨٦ دينهم واحد وشرائعهم مختلفة
- عندما تحلى المسلمون عن نشر البينة، أرسل القدر لهم التتر
والمغول والفرنجة، يفتشون عن البينة بين الشعوب ٣٨٨
- وعلى رأس القرن العشرين جاءت بينة الإعجاز لتجدد هذا الدين .. ٣٨٩
- رسولنا يقدم صحفاً مطهرة، فيها غمز لصحف دينية غير مطهرة ... ٣٩١
- بعد أن أسلم بعض اليهود والنصارى، تفرقت أقوامهم
عقدياً وسياسياً ٣٩٢
- الحنيف: المستقيم، تطيروا من الاعوجاج إلى الاستقامة،
كما يقال للديغ سليم.
- الذين حملوا أنفسهم إلى النار، هم شر البرية ٣٩٥
- سورة الزلزلة مكية، وآياتها ثمانى، وترتيبها (٩٩) ٣٩٩
- سمك القشرة الأرضية ٩٠ كم، تتصدع من شدة غليان الحمم.
- الزلزلات أربع: عند الابتلاء، والجهاد، وعند النزع، والقيامة ٤٠٠
- مراحل الزلزلة بالقرآن تبدأ: بالرجفان، ثم الرج،
ثم الدك، ثم الزلزلة ٤٠٢
- الزلزلة درس تطبيقي على جبارية الله، وكلهم يرى ويسمع ويعقل . ٤٠٧
- زلزلة واحدة تعظ ملايين الغافلين، أكثر من ملايين الخطب.
- المعالجة العالمية الإعلامية للكوارث علمانية، والعبرة المستفادة،

- ٤٠٨ أقل بكثير مما يجب أن تكون
- ٤١٠ سورة العاديات مكية، وآياتها إحدى عشرة، وترتيبها (١٠٠)
 - محتوى السورة: المسؤولية تجعل الإنسان يفكر طويلاً قبل أن يعمل.
- ٤١١ فطر الإنسان على الأخذ، وليس على العطاء.....
- ٤١٢ الخيل بمنخرها صفارة إنذار، وبحافرها قدح نار
- ٤١٤ لقد اجتمع بالخيال: الضبح، والقدح، والنقع، والصبح، والربح
 - ولم تعرف البشرية لذة الأولاد والأموال والعيش الهنيء،
- ٤١٥ إلا في ظل الإسلام
- ولو أعطاه الله تسعاً وتسعين نعمةً، وأبقى له واحدة توتد أمامها،
 ونسي كل شيء.....
- ٤١٧
 - وبعملية الحتّ تندثر المقابر، وصارت فوق بعضها، مقبرة دور
 أول، وأخرى دور ثاني، وثالث. والكل لا يدري ما تحته
- ٤١٩ والمزاوجة بين المحتوى والجرس والايقاع
- ٤٢٠ سورة القارعة مكية، وآياتها إحدى عشرة، وترتيبها (١٠١)
 - القارعة ليست للمؤمنين، ما دام أسلموا، لماذا يقرعون؟
 وما فائدة إيمانهم؟
- القارعة: مفردة طورها القرآن، من قرَعَ إلى قارعة،
 لك «الحاقة» و «الواقعة»

- ويصبح جسمهم لا وزن له خفيفاً كالفراش يحملهم
الريح وإذا وقعوا لا يتحطمون، لأن الجبل كالعهن المنفوش ٤٢٣
- يعيش المؤمن في الجنة وحواله أشياء كثيرة، فيها حياة
محسوسة وكلها تحبه ٤٢٥
- سورة التكاثر مكية، وآياتها ثمان، وترتيبها (١٠٢) ٤٢٨
- الدنيا محبوبة مرغوبة فالغني ملته بجمعها، والفقير ملته بتحصيلها.
- ألهاكم التكاثر عن ماذا؟ غيب المراد حتى يشدهم للتفكير
بحتى زرتم : الميت زائر كضيف عابر ٤٣٠
- وهل الآية تصف مرحلة الدنيا، وكأننا فيها زوار؟
أو أنها تصف مرحلة القبور مؤقتة ونحن كالزائرين .
- لتسألن: إما للتذكير والمباشطة والملاطفة، وإما للمحاسبة
والمناقشة، وهذا من العذاب ٤٣٣
- التهديد بالقرآن الكريم يحث على النضوج الإيماني،
قبل أن يرتفع الوحي ٤٣٤
- سورة العصر مكية أو آياتها ثلاث، وترتيبها (١٠٣) ٤٣٧
- سورة العصر ليس فيها قسم، وكلمة العصر لغوياً هنا:
العصر: أي الملجأ والمناجاة.
- ورب العصر لن ينجو من مهالك كل عصر،

إلا الملتزمون بالمنهج ويحرسونه.

- ٤٣٧ ما قال: والعصر إن المسلم لفي خسر، بل الإنسان
 - لقد أقسم خمس مرات بالزمن في جزء عم: والفجر، والبلد،
 والشمس، والليل، والضحى ٤٣٨
 - نجاح الأمة الإسلامية الأولى، بأنها عزلت قيادات السوء
 عن قيادة العالم، ولم تكن القيادة عندهم مغنماً، بل مغرماً ٤٤١
 - النصيحة حتى للحيوان الضال الذي لا يعرف مكان الماء،
 فإن ساقه باتجاه الماء، يكون قد نصحه ٤٤٢
 سورة الهُمة مكية، وآياتها تسع، وترتيبها (١٠٤) ٤٤٥
 - إنها نبوءة قرآنية: تقوم استراتيجية المتصهينين في عصرنا
 على الإعلام الهامز، اللامز، الغامز ٤٤٦
 - ما العلاقة بين الجمع بين مفردتين متباعدتين، النبذ والحطمة؟ ٤٤٨
 - أوصدوا أبواب الدعوة والخير، فأوصد عليهم أبواب جهنم ٤٤٩
 - الهامز اللامز مريض بأخلاقه الهابطة، وباختلال
 توازنه من كثرة ماله.
 - الهمز واللمز أول درجات الابتلاء، أتصبرون؟ ٤٥٠
 سورة الفيل مكية، وآياتها خمس، وترتيبها (١٠٥) ٤٥١
 - ومن منن الله على العرب أن ارتضاهم يسكونون بجوار

بيوته في مكة والقدس، والمدينة...

- الفيل رفض أمر الملك، لأن فيه هدم حجر، فكيف
لا يرفض الرجل أمراً فيه قتل شعب ظلماً؟ ٤٥٢
- غزوة الفيل أول غزوة صليبية تريد بيت الله، إنذار مبكر، لمن يفكر.
- شعائرتنا محروسة، وكل من يريدها، سيكون كالعصف المأكول ٤٥٣
- من أين جيء بإبرهة، والفيل، والطير، والحجر؟ وأين ذهبوا؟
جاءوا من الغيب، وذهبوا إلى الغيب. معركة تدار من السماء ٤٥٥
- أرأيت! كيف دبروا، ودبرنا؟ ومكروا ومكرنا؟ وكادوا، وكدنا؟ ٤٥٥
- أبو رغال رمز العمالة للأجنبي، أول عربي عميل للأجنبي؟ ٤٦٠
- سورة قريش مكية، وآياتها أربع، وترتيبها (١٠٦) ٤٦٢
- وهي القبيلة العربية الوحيدة ذكرت في القرآن للتكريم وللجوار ٤٦٢
- قريش تخدم وتطعم وتسقي مجاناً، واليوم الحاج بقرة حلوب ٤٦٥
- فلو فكر حاسد أو حاقد أن يمحوهم من الأرض،
سيتذكر أنهم موجودون في القرآن ٤٦٥
- ليس من الأعجوبة أن ترى زهرة وسط الحديقة،
ولكن تراها وسط الجحيم ٤٦٦
- سورة الماعون مكية، وآياتها سبع، وترتيبها (١٠٧) ٤٦٩
- سورة للحبل، والدلو، والماء، والملح، والقدر، والغطاء، والوظء...!

- تحويل الطاقة السلبية في دع الضعفاء، إلى حَضهم
 للقادرين على إطعام المساكين ٤٧١
- إن هذا الدين قليله لا يغني عن كثيره، وشكله لا يغني عن مضمونه،
 وعقائده لا تغني عن عباداته ٤٧٢
- لم قال: عن صلاتهم ساهون... ولم يقل: في صلاتهم...؟ ٤٧٣
- سورة الكوثر مكية، وآياتها ثلاث، وترتيبها (١٠٨) ٤٧٥
- سورة العطاءات الإلهية (لرسول الله) التي لا تحد ولا توصف
 في مجالات الدنيا والآخرة ٤٧٦
- وهل هو كوثر واحد، أم كوثر؟! الصحابة كوثر، وجيوش
 المجاهدين كوثر، والعلماء كوثر ٤٧٨
- ما كان لله فهو المتصل، وما كان لغير الله فهو المنبت ٤٨١
- الشيوعية صبت جام غضبها على المسلمين، فبترهم الله بترأ،
 والغرب الاستعماري ما ترك ذهباً إلا أذهبه، ففي حربين عالميتين
 فيما بينهم، انتقم الله للمسلمين.
- ربط الله أرحام نساء النبي بعد خديجة فعوضهن بـ (أمهات المؤمنين) .. ٤٨٢
- سورة الكافرون مكية، وآياتها ست، وترتيبها (١٠٩) ٤٨٣
- سورة المؤمنون... سورة الكافرون، لم تخضعاً لقانون المضاف
 والمضاف إليه، لم؟

- المفاصلة: في العقائد والعبادات والأخلاق،
 والتعاون في شؤون الحياة ٤٨٣
- قل: يا أيها الكافرون، أجزأ كلمة، وأخطر كلمة،
 كالصدمة الكهربائية.
- الإسلام كالسيل لا يمكن إيقافه، ولكن يمكن تحويله
 عن مساره وهدفه ٤٨٣
- المميعون الذين يرون للمرأة أن تخطب الجمعة وتؤم الناس ٤٨٦
- مقارنة بين (لكم) بالجمع لعدم التجانس و (لي) بالمفرد،
 للإسلام وجه واحد، ونبي واحد، وكتاب واحد، ورب واحد.
- سورة النصر مكية، وآياتها ثلاث، وترتيبها (١١٠) ٤٨٨
- جاء النصر ليDOM، وجاء الفتح ليقي، وفيها بشارة.
- ما جاء النصر إلا ليقم عندنا، وما جاء الفتح إلا ليستم بالفتح.
- لكل صحابي فتح وعطاء خاص، ابن عباس طفل فتح عليه،
 ما لم يفتح على المهاجرين والأنصار ٤٨٩
- وما دام الناس تدخل أفواجا: تفرغ لي بالتسيح والاستغفار ٤٩٠
- الاحتباك جملتين بجملة كجملتي المغفرة والتوبة:
- حذف ذيل جملة المغفرة، ورأس جملة التوبة، فصرتا جملة ٤٩١
- سورة المسد مكية، وآياتها خمس، وترتيبها (١١١) ٤٩٢

- بداية للمفاصلة بين نسب الدين ونسب الطين.
- جاءه الذهب من ماليته، وامرأته دفعته للهب.
- تبت يداه، وتب من ضيع نفسه وأهله ٤٩٥
- لماذا ذكر اسم أبي هب في القرآن دون رؤوس الكفر؟
- لعله يستحق الذكر ٤٩٦
- امرأة أبي هب، حملت النبي حملاً ثقيلاً بتطبيق بنتيه، فحملت حملاً ... ٤٩٧
- الخزام للبعير، والرسن للفرس، والحبل للحمارة!!
- بنتا النبي، أبدل الله فلسيهما بدينار عثماني ٤٩٩
- حكم عليه بالتب، فلن يسلم، ولو أسلم لأُخرج القرآن.
- القلل الثلاث أقدم شركات للتأمين الصحي اليومي ٥٠٠
- ابن القيم: إن حاجة العبد للمعوذتين أعظم من حاجته
- إلى النفس والطعام والشراب واللباس ٥٠١
- سورة الإخلاص مكية، وآياتها أربع، وترتيبها (١١٢) ٥٠٤
- بني الإسلام على خمس، ووحدنا بخمس:
- ومشكلة بعض المسلمين المعاصرين، يد مع الرحمن،
- ويد مع الشيطان ٥٠٥
- سميت بالإخلاص لأنها خلصت لله، ولم يذكر بها جنة ولا نار..... ٥٠٩
- الإخلاص: منه بدأ نجاح الأمة... وبغيابه بدأت هزائم الأمة...

- ولو أدرك آلهة زماننا عصر الإلهيات، لسموهم:
- آلهة نكد العباد والبلاد ٥١٠
- الصمد من بيده الأمر كله، ويرجع إليه الأمر كله ٥١١
- ما زعم سفيه أن لله والداً، ولكن زعموا بأن له ولداً ٥١٢
- سورة الفلق مكية، وآياتها خمس، وترتيبها (١١٣) ٥١٤
- سورة الفلق من شر المصائب، وسورة الناس من شر المعائب.
- الله يقرر نبيه، ويأمره، قل: إني عاجز، وعائد برب الفلق ٥١٥
- تنفلق أشياء لا حصر لها مثل الفول والعدس ...
- ومن الإعجاز وزن الفلقتين متساويين ٥١٦
- النفاثات لغوياً، مثل: عالم، وعلامة، وعلامات، نافث،
ونفاثة، ونفاثات.؟ ٥١٧
- من المتشابه اللغوي، فلبست على الكثيرين.
- الحسد سلاح ذو وجهين، طاقة خلاقة وضعها الله في الإنسان
من أجل التحفيز، أو الاعتداء ٥٢٠
- سورة الناس مكية، وآياتها ست، وترتيبها (١١٤) ٥٢١
- سورة الفلق سورة المصائب، وسورة الناس سورة المعائب.
- وهذا آدم وُسوس له، فعصى، فخرجت سوأته. وكان يكفيه
أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. ٥٢١

- وكم من فتنة أطفأها الله ببركة الاستعاذة؟.... بِرَبِّ النَّاسِ *
 مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ، أضاف اسمه ثلاث مرات للناس ليكرمهم .. ٥٢٣
- بالفلق اسم لله واحد: يحصن المسلم من أربعة شرور،
 وبسورة الناس ثلاث أسماء لله: على شر واحد هو الوسواس؟ ٥٢٣
- الموسوس يسكن الصدر، ويتحدى أجهزة التصوير، تكتشفه ٥٢٧
- سفهاء الإنس أخطر على الإنسان من سفهاء الجن،
 لأنهم قتلوا الأنبياء..... ٥٢٨
- إبليس يبرر عدم سجوده: إن الإنسان الذي أسجد الله له الملائكة،
 لا يستحق وهذه أفعاله، ولذلك لم أسجد له ٥٢٩
- ٥٣١ الفصل الثالث**
- الخاتمة ٥٣٣
- القرآن فاعل لا منفعل، مؤثر لا متأثر، صانع لا مصنوع،
 أمر لا مأمور
- خذ القرآن من القرآن ٥٣٣
- بمذكرات نابليون بونابرت بأنه مسلم، ومعجب بمحمد وبالقرآن ... ٥٣٤
- د/ عمارة: القرآن قادر على إعادة بناء الأمة..... ٥٣٥
- الأمة بحاجة للتقنية والإدارة من الغرب، ولا حاجة لها بأخلاقهم .. ٥٣٦
- يقول د/ مراد هوفمان: بقيت أربع سنوات مديراً للحلف الأطلسي،

- ورأيت كيف يخططون للقضاء على الإسلام أو لتشويه صورته؟ ٥٣٧
- أهمية الدعوة من خلال القرآن الكريم ٥٣٨
- حياة النبي والصحابة، هي التفسير الحركي ٥٣٩
- اختلاط قداسة النص القرآني، بأراء المفسرين ٥٤١
- الدعاة العرب السنة، أول هدف استعماري،
لأنهم قادوا الجهاد في وجهه ٥٤٣
- لو رفع واحد شعار: اليهودية أو النصرانية أو البوذية هي الحل،
صفقوا له، ولو رفع الإسلام هو الحل، اشتعلت نار الارهاب ٥٤٥

والحمد لله في بدءٍ وختم، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا...

انتهت الفهرسة.